القيم الإسلامية في الكتاب والسنة

تأليف
الدكتور علي عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

محمود، على عبد الحليم

القيم الإسلامية فى الكتاب والسنة/ تأليف على عبد الحليم محمود. -ط١.- القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ٢٠٠٦.

٤٣٩ ص؛ ٢٤سم

تدمك ٥ ٧٦٣ ٢٦٥ ٩٧٧

١- الأخلاق الإسلامية

أ- العنوان

٢١٢

رقم الإيداع: ١٨٠١٩ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى: I.S.B.N

977 - 265 - 763 - 5



مصر - القاهرة - السيدة زينب ص. ب: ١٦٣٦

٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥

مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١

www.eldaawa.com

email:info@eldaawa.com

إهداء الكتاب

أهدى هذا الكتاب..

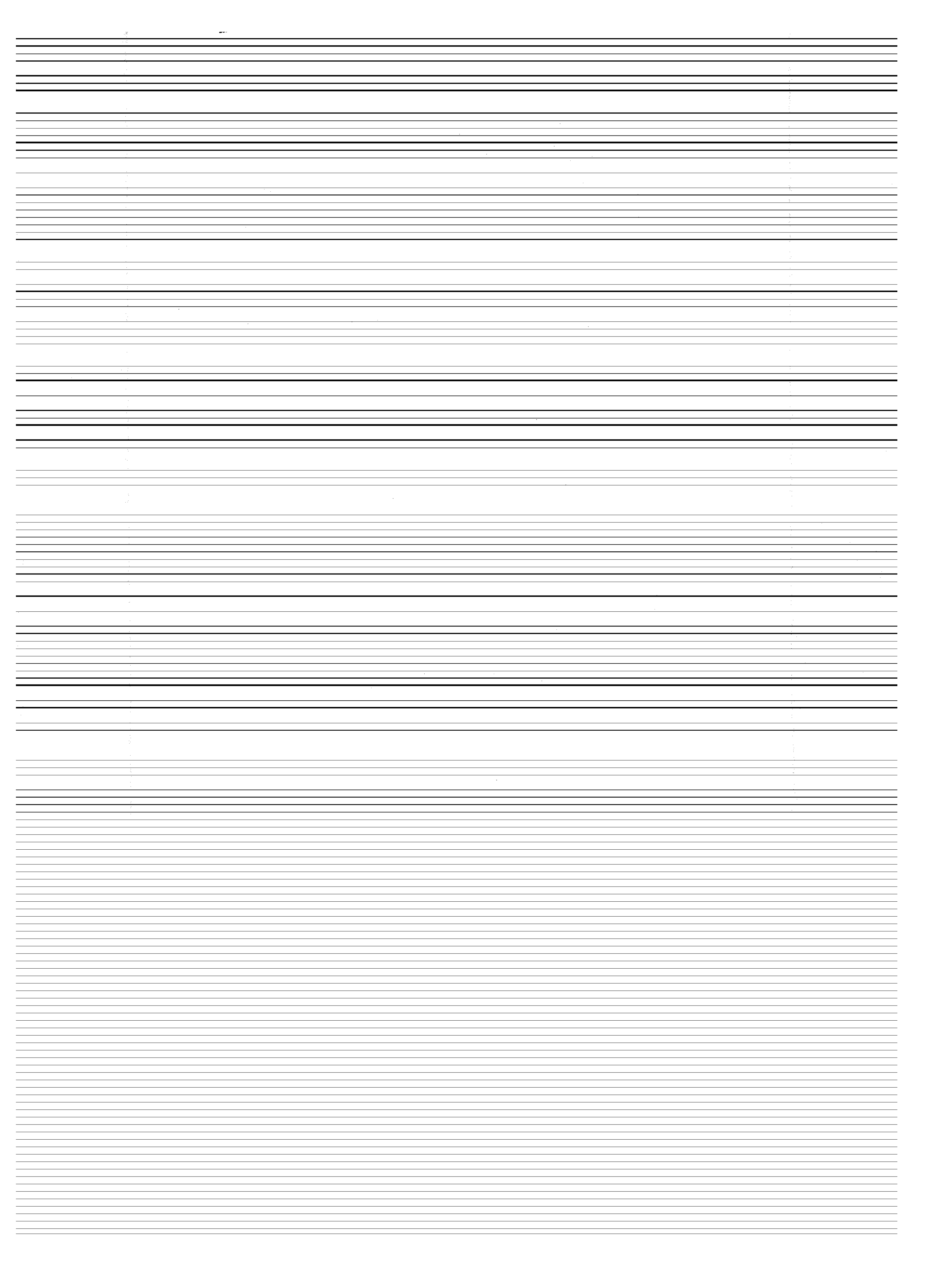
إلى الذين يؤمنون بـأن الإسلام هو رأس الأمْـر وعـمـوده، ويؤمنون بأن الإيمان قيد الفتْك، وأن الحق أحق أن يُتّبع.

وإلى الراغبين فى حياة إنسانية كـريمة؛ تحقق للناس جميعًا سعادة الدنيا والآخرة.

وإلى غير المسلمين الذين يريدون أن يعـرفوا جوهر الإسلام وقيمه الإنسانية النبيلة.

إليهم جـميعًا أهدى: القـيم الإسلاميـة فى الكتاب الكريم، والسُّـنة النبوية المطهرة.

على عبد الحليم محمود



مقدمة

بين يدي هذا الكتاب

الحمد لله تعالى والشكر له والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه،

وبعد: فإن القيم الإسلامية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة موضوع تَطَلَّعْتُ إلى الكتابة فيه منذ بضع سنين، وها قد شاء الله وأعان وتفضَّل علىّ؛ فحقَّقْتُ ما كنت أصبو إليه، فالحمد لله رب العالمين.

إن هذا الكتاب: «القيم الإسلامية فى الكتاب والسنة» أرجو أن أرصد فيه القيم الإسلامية، وأوضح أهميتها بل ضرورة التمسك بها فى الحياة الإنسانية؛ فى عصرنا هذا... العصر الذى اختلت فيه القيم، واختلط لدى الناس فاضلها براذلها.

ولقد أصاب القيم فى عصرنا هذا ما أصابها من انحسار؛ يشهد به كل من يرقب سلوك الناس وأخلاقهم، ولا ينكره إلا مكابر، أو غافل، لأنه قد قامت عليه الأدلة والبراهين والمشاهدون.

وإذا كانت القيم الفاضلة فى حقيقتها أخلاقًا فاضلة؛ فإن كثيرًا من الناس يرون فى هذه الأخلاق قيودًا على حرية الإنسان فى فكره وفى سلوكه، بل يصرح كثير منهم بأنهم يستبعدون الأخلاق من دوائر ما يهتمون به، رافضين الالتزام بها، بل إن بعضهم يسخرون من القيم الخلقية، ويرون فى التمسك بها رجعيةً وجمودًا، وأَثَرِيَّاتٍ باقيةً من عصور سَلَفَت، وأديان تراجع أهلها وضعفوا وهانوا، وهؤلاء الرافضون للتمسك بالقيم الفاضلة أو القيم الإسلامية تيار جارف يمثله الذين رضوا من عيشهم بالحياة الدنيا وتجاهلوا الآخرة.

* ومن أجل ذلك كان الحديث عن القيم الإسلامية صَدًّا لهذا التيار، وتبصيرًا لمعتنقيه لعلهم يتذكرون فيهتدون، كما أن الحديث عن هذه القيم تعريف وتثقيف للمسلمين بقيم دينهم النابعة من الكتاب والسنة النبوية المطهرة، تلك القيم الثابتة التى لا تتغير مهما تغير الزمان والمكان ومهما تطور العلم وتعاظمت التقنية.

* والقيم مجموعة أحكام خلقية تتعلق بالأعمال التى توصف بالحُسْن أو القبح، وكل ما يتصف بالحسن منها فهو قيم إسلامية حَسَّنها الإسلام وحسَّنها العقل السليم والفطرة الإنسانية القويمة.

* وإذا كانت القيم الفاضلة هى ما اصطلح أصحاب العقول السليمة على أهميتها وضرورة التمسك بها للإنسان لكى يعيش آمنًا سعيدًا، قادرًا على ممارسة حقوقه، وعلى أداء واجباته.

إذا كانت القيم الفاضلة كذلك؛ فإن القيم الإسلامية بوصفها نابعة من خاتم الكتب السماوية، ومتمثلة فى أخلاق خاتم المرسلين هى المنقذة من الضلال، والهادية إلى الصراط المستقيم، صراط الله تعالى الذى أمر باتباعه ونهى عن اتباع غيره من سبُل كثيرة على رأس كل منها شيطان.

والتمسك بالقيم الإسلامية هو الذى يقى الفرد سوء الخلق، ويباعد بينه وبين ما يغضب الله تعالى من قول أو عمل، وهو الذى يقرب من الله تعالى ويُدْنِى من ثوابه وجنته سبحانه وتعالى.

وعلى مستوى المجتمع نجد التمسك بالقيم الإسلامية هو الذى يزرع المودة بين الناس ويحرك المشاعر النبيلة فى الإنسان، فإذا المحبة بين الناس طاردة للعداوة، وإذا الأخوة والتناصر والتكافل قادرة على إقصاء التباعد والتنافر والعداوة.

إن التمسك بالقيم الإسلامية يحمل الجار على أداء ما يجب عليه نحو جاره وصديقه وكل ضعيف وكل ذى حاجة فى المجتمع، بل يذيب ما بين الأغنياء والفقراء من تجاهل أو جحود، ومن تعالٍ وغرور أو حسد وحقد وتربُّص.

* إن المجتمع الذى يسوده التمسك بالقيم الإسلامية مجتمع آمن مطمئن يؤدى واجباته كاملة، ويعرف لكل ذى حق حقه، ويصبح أفراده فيما بينهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

* وإن الحكومة التى تتمسك بالقيم الإسلامية تحسن التعامل مع من تحكمهم من الناس فتعدل بينهم وتستشيرهم وتستنصحهم، فلا تظلم أحدًا ولا تجور على جماعة ولا تستعسف مع جمعية ولا مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدنى، ولا تصادر أموالها ولا تضطهد أعضاءها فى ظل قانون ونظام استثنائى يشترعه الحاكم المستبد.

فإن كانت الدولة متمسكة بالقيم الإسلامية حاكمًا وحكومة فإنها ستجد من المحكومين طاعة وتجاوبًا، واحترامًا وتقديرًا مع أداء للواجب ورغبة فى الصلاح والإصلاح.

* والدولة التى تتمسك بالقيم الإسلامية جديرة بأن تنال احترام الدول الأخرى حتى لو كانت غير إسلامية لما فى القيم الإسلامية من نبل وحسن تعامل وحسن تقدير للإنسانية كلها مسلمها وغير مسلمها.

* وإنما كانت القيم الإسلامية على هذا القدر من النبل والعدل لأنها أرقى القيم التى عرفتها البشرية من يوم أنزل الله أول كتاب من كتبه السماوية، وإلى أن اختار إكمال هذه القيم وإتمامها فى خاتم كتبه وعلى لسان خاتم رسله محمد ﷺ ليكون من مجموع هذه القيم أكمل دين وأَتَمَّه وأصلحه للبشرية كلها فى كل زمان ومكان.

وليس من المبالغة فى شىء القول بأن مجموع هذه القيم الاسلامية هى الإسلام كله والإيمان بجميع مفرداته والإحسان بكل وجوهه.

* ولقد حرصتُ على أن أقدم تعريفات عديدة للقيم الإسلامية لأزيد معناها إيضاحًا فى ذهن القارئ، فرصدتُ لها عشرين تعريفًا كل واحد منها يُعرِّف بها حتى لا يبقى لبس أو تساؤل حول مفهومها.

- فالقيم الإسلامية: هى ما أوجب الله تعالى التَّحَلِّىَ به من فضائل، وما أوجب الله تعالى التخلى عنه من رذائل، والفضيلة كل ما أمر الله به، والرذيلة كل ما نهى الله تعالى عنه.

- أو هى: فعل ما أمر الله تعالى به، وترك ما نهى الله تعالى عنه، فى كتابه وسنة نبيه الخاتم ﷺ.

- أو هى: أن تؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأن تترجم هذا الإيمان بالعمل الصالح وأن تتواصى مع غيرك من المؤمنين بالحق وبالصبر.

- أو هى: أن تؤمن بالله تعالى، وتستقيم على ما أمرك به سبحانه وتعالى.

- أو هى: العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، والكف عن الفحشاء والمنكر والبغى.

- أو هى: حب الخير، ونشره فى الناس، وتقديمه لهم، مع كراهية الشر وكَفِّه عن الناس على كل حال.

- أو هى: أن تعفو عن ظلمك، وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك.

- أو هى: أن تأمر بكل معروف كل أحد، وأن تنهى عن كل منكر كل أحد، وأن تحتسب أجر ذلك عند الله تعالى.

– أو هى: أن تُقبل على الطاعات، وتنفر من المعاصى، وتسعد بفعل الطاعة، وتندم على فعل المعصية.

– أو هى: أن تتحلى بالصفات التى أمر الله بها أو حبب فيها، حتى تصبح مألفا أى تحب الناسَ ويحبك الناسُ، مع مخالطتك للناس وصبرك على أذاهم.

– أو هى: أن تحرص على ما ينفعك، وأن تستعين بالله تعالى، ولا تعجز، وأن تصبر على المصيبة ولا تجزع، ولا تقل: لو أنى فعلتُ كذا كان كذا، لأن «لو» تفتح عمل الشيطان.

– أو هى: أن يكون المؤمن أخا المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه، ولا يسلمه ولا يخذله، ولا يخونه ولا يكذبه، ولا يحقره، ويكون فى حاجته، ويَسْلمُ المسلمون من لسانه ويده.

– أو هى: الصفات التى يتحلى بها المسلم، ليأمنه المسلمون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

–أو هى: البُعْد عن الاتصاف بصفات السوء كالطعن واللعن والفحش والبذاءة والسخرية من الناس والتعالى عليهم.

– أو هى: البُعْد عن الكبر والتعالى والغرور، والذلة للناس والانكسار لضعف أو نحوه.

– أو هى: التحلى بالصفات التى تجعل منه هيِّنًا ليِّنًا يشبه الجمل الأنف إن قِيد انقاد، وإذا أُنيخ على صخرة استناخ.

– أو هى: الصفات التى إن تحلى بها المسلم أحبه الله تعالى وأثابه وأدخله جنته، وإن تخلَّى عنها أبغضه الله تعالى وعاقبه بما يلائم؛ جزاء ما تخلى عنه من صفات.

– أو هى: الإيمان بالله والاستعانة به، وبالصبر والصلاة بحيث يجد فى ذلك مخرجًا من كل ضيق، ومنجى من كل كرب.

– أو هى: التمسك بسنة الرسول ﷺ، مهما بَعُد عنها الناس، وأن يعتز بهذا التمسك بها، ولو كان فى ذلك كالقابض على قطعة من الجمر.

– أو هى: اتخاذ الرسول ﷺ قُدوة وأسوة فى كل أمره، قولاً وصمتًا وعملاً وتركًا.

هذه تعريفات للقيم الإسلامية كل منها تؤيده بل تشهد له آية أو آيات من القرآن الكريم، أو حديث نبوى أو أكثر من سنة الرسول ﷺ، وما أكثر ما فى القرآن والسنة

النبوية المطهرة من قِـيم، حتى إن من تَلاَ القرآن الكريم وجَدَ عـددًا من القِيم فى كل سورة من سوره، وكذلك أحاديث النبى الخاتم ﷺ؛ فإنها جميـعًا حافلة بالقيم الإسلامية، حتى ما جاء من هذه الأحاديث الشريفة على صورة قصص وضرب أمثال.

وليس من المبالغـة فى شيء القول بأن القصـص القرآنى كله، والقصص النبـوى كله ما خلا من التصريح أو الإشارة إلى قيمة إسلامية.

وقد جعلت هذا الكتاب مقدمة ومَـدخلاً وثلاثة أبواب، اشتمل كل باب منها على عدد من الفصول، ثم خاتمة.

- فالباب الأول:

فى القيم التى تتصل بالدين والإيمان والخلق، وفيه: ثلاثة فصول.

- والباب الثانى:

فى القيم التى تتـصل بالعقل، والتَّعَلُّم والعلم والتـعليم والتربية والثـقافة، وفيـه: أربعة فصول.

- والباب الثالث:

فى القيم التى تتصل بالحياة الاجتماعية، وفيه ثلاثة فصول.

ثم خاتمة الكتاب.

وأسأل الله تعالى العون والتوفيق والسداد.

مدخل الكتاب

أردتُ بهذا المدخل أن أُيسر على القارئ رؤية مجملة لمفردات القيم الإسلامية بسرد عدد منها بقدر ما يتسع له هذا المدخل.

وقد ذكرت -دون تعمد الحصر- أكثر من ستمائة قيمة إسلامية، سوف يتكفل الكتاب بتبويبها، وتأييدها بما يوضح أصولها ومنابعها فى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وهدفى من هذا الكتاب ومدخله أن أؤكد أن القيم الإسلامية عديدة بحيث تغطى كل شئون الحياة الإنسانية، وأن التمسك بهذه القيم يضمن للإنسانية كلها فى كل زمان ومكان أن تحيا حياة كريمة لا يضيع فيها أدنى حق من حقوق الإنسان.

* وسأسرد فى هذا المدخل القيم الإسلامية فى مجالات عشر، من مجالات التعامل بهذه القيم، وهى:

أولاً: مجال تعامل الإنسان مع نفسه،

ثانيًا: ومجال تعامله مع الله تعالى ورسوله ﷺ،

ثالثًا: ومجال التعامل مع الصحابة رضوان الله عليهم،

رابعًا: ومجال التعامل مع المصلحين والمجددين لأمر الدين خلال العصور،

خامسًا: ومجال التعامل مع الأسرة؛ زوجة وأبناء وإخوة، ووالدين ومن حكمهما،

سادسًا: ومجال التعامل مع المجتمع المسلم،

سابعًا: ومجال التعامل مع الخارجين على نظم المجتمع المسلم،

ثامنًا: ومجال التعامل مع أهل الكتاب،

تاسعًا: ومجال التعامل مع غير أهل الكتاب،

عاشرًا: ومجال التعامل مع الأعداء المحاربين.

أولاً: فى مجال تعامل الإنسان مع نفسه بالقيم الإسلامية:

وسردت أسماء أكثر من مائة قيمة إسلامية هى:

- قيمة توحيد الله تعالى إلهًا وربا وخالقًا ورازقًا،

- وقيمة الإخلاص لله تعالى فى عبادته وطاعته،
- وقيمة الالتزام بشرع الله تعالى فى كل ما يتصل بحياته،
- وقيمة الانضباط فى كل الأمور بأمر الله تعالى ونهيه،
- وقيمة استثمار الوقت والطاقة فى العمل الصالح،
- وقيمة أداء الواجبات بكل أنواعها،
- وقيمة إجادة العمل وإتقانه،
- وقيمة الإبداع فى أداء العمل،
- وقيمة النشاط والفعالية،
- وقيمة الإخلاص فى القول والعمل،
- وقيمة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله،
- وقيمة الحذر وتوقى الأخطار والأضرار،
- وقيمة اتقاء الشبهات،
- وقيمة التحلى بمكارم الأخلاق،
- وقيمة التخلى عن مساوئ الأخلاق،
- وقيمة الاستكثار من فعل الخير،
- وقيمة الرغبة فى الإصلاح بين الناس،
- وقيمة النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين،
- وقيمة التوازن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة،
- وقيمة العفو والتسامح،
- وقيمة البذل والعطاء،
- وقيمة إكرام الضيف،
- وقيمة إكرام الجار،
- وقيمة العطف على الفقراء والمساكين،

- وقيمة الإحسان إلى اليتيم ورعايته،
- وقيمة رعاية الأرامل ومن فقد عائله،
- وقيمة عون كبار السن والعجزة وتوقيرهم،
- وقيمة التعاون على البر والتقوى،
- وقيمة حسن اختيار الأصدقاء،
- وقيمة حسن اختيار الكلمات،
- وقيمة العفة عن كل حرام،
- وقيمة غوث اللهيف ونجدة المستنجد،
- وقيمة حسن الظن بالناس،
- وقيمة الزهد فيما فى أيدى الناس،
- وقيمة الصدق،
- وقيمة الأمانة،
- وقيمة الوفاء،
- وقيمة المحافظة على العهد والميثاق،
- وقيمة الصبر على الناس،
- وقيمة الصبر على الامتناع عن الشهوات،
- وقيمة الصبر على أداء الطاعات،
- وقيمة احتساب الأجر عند الله تعالى،
- وقيمة مراقبة الله تعالى،
- وقيمة الخوف من عذاب الله تعالى،
- وقيمة رجاء ثواب الله تعالى،
- وقيمة البكاء من خشية الله تعالى،
- وقيمة التواضع،

- وقيمة المحافظة على سمت المسلم ووقاره،
- وقيمة الهدوء وترك الصخب،
- وقيمة الابتسام وترك العبوس،
- وقيمة طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ،
- وقيمة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين،
- وقيمة تقوى الله تعالى على كل حال،
- وقيمة الإخبات (الخشوع) لله تعالى،
- وقيمة الإنابة لله تعالى،
- وقيمة التوكل على الله تعالى،
- وقيمة الاستعانة به سبحانه وسؤاله،
- وقيمة اليقين بأنه سبحانه وتعالى يجيب الدعاء،
- وقيمة التوبة،
- وقيمة الاستغفار،
- وقيمة الندم على الوقوع فى أى معصية،
- وقيمة العزم على عدم العودة لمعصية،
- وقيمة تجنب الكبائر،
- وقيمة التعفف عن الصغائر،
- وقيمة الابتعاد عن مجالس اللهو واللعب،
- وقيمة الامتناع عن كل مجالس الخوض فى الحرام،
- وقيمة المحافظة على أداء الفرائض،
- وقيمة التقرب إلى الله بأداء النوافل،
- وقيمة إعمار المساجد وتعلق القلب بها،
- وقيمة حب الله تعالى ورسوله ﷺ،

- وقيمة حب آل بيت النبى ﷺ،
- وقيمة الاقتداء بالرسول ﷺ،
- وقيمة إحياء الليل بقيامه والذكر فيه،
- وقيمة حب صحابة النبى ﷺ،
- وقيمة حب أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون،
- وقيمة حب الصالحين والمجددين وتوقيرهم،
- وقيمة القُرب من الصالحين ومجالستهم،
- وقيمة زيارة العلماء والاستفادة من علمهم،
- وقيمة التثبت والتحرى قبل الحكم على الناس والمواقف،
- وقيمة الثبات على الحق وعدم قبول المساومة فيه،
- وقيمة الرغبة فى نشر السلام بين الناس،
- وقيمة الرغبة فى تحسين الأمور بحيث توافق الحق،
- وقيمة السير فى الأرض والنظر والتأمل،
- وقيمة السعى على الرزق،
- وقيمة أخذ العبرة من سير الطائعين والعصاة،
- وقيمة الستر على المسلم، ونُصحه،
- وقيمة القراءة فى الكون وسننه،
- وقيمة القراءة فيما يكتب أو يقال،
- وقيمة التعلّم، وطلب العلم،
- وقيمة الرغبة فى التزود من العلم،
- وقيمة التعليم للغير، ونشر العلم والمعرفة،
- وقيمة الثقافة والتثقف،
- وقيمة التعمق فى العلم،

- وقيمة الحرص على الاكتشافات العلمية،
- وقيمة التقدم العلمى والتقنى،
- وقيمة التفقه فى الدين،
- وقيمة تفقيه الناس فى الدين،
- وقيمة ممارسة الدعوة إلى الله إلى دين الحق،
- وقيمة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،
- وقيمة جدال الناس بالتى هى أحسن،
- وقيمة حب هداية الناس إلى الحق، وحب الخير لهم،
- وقيمة الحركة بالدين الخاتم فى الناس وفى الآفاق،
- وقيمة الاختلاط بالناس وتحمل أذاهم،
- وقيمة تحبيب الناس فى الصلاح وفى فعل الخير،
- وقيمة تجميع الناس على الحق والخير،
- وقيمة تجميع الناس على أن يمارسوا الدعوة إلى الله تعالى،
- وقيمة تصنيف الناس فى مجال الدعوة إلى الله تعالى،
- وقيمة تصنيف الناس فى مجال الحركة بالدين الخاتم،
- وقيمة الاستعداد لِمَدِّ هؤلاء المصنفين بما يحتاجون إليه من علم وعمل وخبرة،
- وقيمة القدرة على تنظيم هؤلاء المصنَّفين تنظيمًا يُمَكِّن كلاً منهم من أداء ما وظف له من عمل فى الدعوة أو الحركة.

ثانيًا: مجال تعامل المسلم مع خالقه سبحانه ورسوله ﷺ:

القيم الإسلامية التى يتعامل بها الإنسان فى هذا المجال هى:

- قيمة الإيمان بالله تعالى وبرسوله الخاتم ﷺ،
- وقيمة الإيمان بالله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا ورازقًا ،
- وقيمة الإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته وأفعاله،
- وقيمة الإيمان بمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً وخاتمًا للمرسلين،

- وقيمة الإيمان بالكتاب الخاتم الذى أنزله الله تعالى على خاتم رسله ﷺ،
- وقيمة الإسلام لله تعالى ورسوله أمرًا ونهيًا،
- وقيمة الإيمان بالغيب كله مما أخبر به رسول الله ﷺ من ملائكة الله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء وجنة ونار،
- وقيمة الإيمان بأن الجنة لمن أطاع الله ورسوله، والنار لمن عصاهما.
- وقيمة الإيمان بصدق النبى ﷺ وأمانته وتبليغه عن ربه،
- وقيمة الإيمان باتخاذ الرسول ﷺ قدوة وأسوة ،
- وقيمة الإيمان بأن الله تعالى قد وعد المؤمنين بخاتم أديانه وخاتم رسله بالنصر، وبأن النصر مع الصبر،
- وقيمة الإيمان بأن طائفة من المسلمين ستظل قائمة على الحق متمسكة به إلى يوم القيامة،
- وقيمة الإيمان بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛
- وقيمة الإيمان بأن المسلمين لو أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر مع إيمانهم بالله ورسوله استحقوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس،
- وقيمة الإيمان بأن مَنْ يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، ويوفقه للعمل الصالح،
- وقيمة الإيمان بأن المستقبل لهذا الدين مهما تكالب عليه الأعداء وتكاثروا لإخبار الرسول ﷺ بأنه: «**لن تذهب الأيام والليالى حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم**»[(١)].
- وقيمة الإيمان بشعب الإيمان البضع والستين أو البضع والسبعين.
- وقيمة اجتناب الكبائر السبع أو الثمانى أو السبعين أو السبعة والسبعين،
- وقيمة التنزه عن الصغائر ما أمكن هذا التنزه،
- وقيمة الإيمان بأن المسلمين أمة وجماعة،
- وقيمة الإيمان بأن يد الله مع الجماعة والبركة مع الجماعة وأن بحبوحة الجنة مع الجماعة،
- وقيمة عدم ظلم أهل الذمة حتى لا تدول الدولة،
- وقيمة الإيمان بالعدل والإحسان،
- وقيمة الإيمان بالشورى.

(١) جزء من حديث نبوى رواه الطبرانى -فى الأوسط- بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه.

ثالثًا: مجال تعامل المسلم مع الصحابة رضى الله عنهم:

الصحابة رضى الله عنهم هم الذين صاحبوا الرسول الخاتم ﷺ أو رأوه، وآمنوا وهاجروا وجاهدوا وآووا ونصروا، وبلغوا عن رسول الله ﷺ ما جاء به من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهم الذين قال الرسول ﷺ فيهم:

«احفظونى فى أصحابى...»[١] وقال فيهم: **«اللهَ اللهَ فى أصحابى لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»**[٢].

* هؤلاء الصحابة رضى الله عنهم كيف يتعامل معهم المسلمون؟ وبأى قيم يتعاملون؟

- قيمة احترامهم وحبهم وتقديرهم والاعتراف بفضلهم على سائر المسلمين،
- وقيمة الإيمان بأن منهم العشرة المبشرين بالجنة، وبأن منهم كتبة القرآن الكريم، وبأن منهم أهل معركة بدر الذين غفر الله لهم.
- وقيمة الإيمان بعدالتهم وصدقهم فيما بلغوا به عن رسول الله ﷺ،
- وقيمة توقيرهم والتماس العذر لهم فيما بدر منهم من هفوات، أو خلافات فى الرأى،
- وقيمة التسليم لهم بالفضل والسبق فى نقل هذا الدين إلى من بعدهم بكل أمانة وصدق، حتى يومنا هذا وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين،
- وقيمة الاعتراف بفضلهم فى نشر الدين والحركة به فى الناس والآفاق،
- وقيمة التقدير لجهودهم وما تحملوه من أذى من أجل هذا الدين،
- وقيمة التعظيم لجهودهم وبلائهم فى الحروب التى خاضوها من أجل دين الله الخاتم،
- وقيمة التعظيم لتضحياتهم من أجل هذا الدين تضحيات شملت:

التضحية بالوطن حيث هاجروا،

والتضحية بالمال حيث بذلوا فى سبيل الله،

والتضحية بالزوجات والأولاد إذ فارقوهم لبقائهم على الكفر،

(١) رواه ابن ماجة بسنده عن عمر رضى الله عنه.

(٢) رواه الترمذى بسنده عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه.

والتضحية بالجهود البدنية والنفسية والاجتماعية يوم اختاروا هذا الدين وتحملوا فى سبيله ما تحملوا،

- وقيمة تبجيل ولائهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، وللدين الذى آمنوا به، وإخوانهم فى الدين،

- وقيمة إكبار ولائهم بعضهم لبعض فى المؤاخاة وما ترتب عليها من تضحيات،

- وقيمة تقدير صبرهم على أذى المشركين فى بدء الدعوة،

- وقيمة احترام تاريخهم وسِيَرهم، والاهتمام بدراسته وأخذ العبرة والعظة منه، وجعل تاريخهم حيًا دائمًا فى عقول أبنائنا،

- وقيمة الاهتمام بقصصهم وحكاياتهم ومواقفهم وكلماتهم، وعظاتهم ونصائحهم وتوجيهاتهم، وقيادة بعضهم للجيوش، وإمارة بعضهم للبلدان الإسلامية وحسن قيادتهم ورياستهم،

- وقيمة جمع الآيات القرآنية التى تحدثتْ عنهم وهى عديدة [(١)].

- وقيمة جمع الأحاديث النبوية الواردة فيهم من كتب السنة النبوية المطهرة وهى عديدة أيضًا.

- وقيمة جعل هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أمام أنظار المسلمين صغارًا وكبارًا، وموضع دراستهم وتأملهم وتدبرهم، ليفيدوا من ذلك لدينهم ودنياهم، حاضرهم ومستقبلهم بإذن الله تعالى.

رابعًا: مجال التعامل مع المصلحين والمجددين لأمر الدين خلال العصور:

المسلمون أمة متواصلة الأجيال والأحقاب، ولاحقها مطالب بحب سابقها فى الزمن، وسابقها فى العمل الصالح.

---

(١) هذه الآيات الكريمة هى:
- الآية : ١٥٧ من سورة الأعراف- والآيتان: ١١٧- ١١٨ من سورة التوبة،
- والآية: ١٠٠ من سورة التوبة- والآيتان: ١٨، ١٩ من سورة الفتح،
- والآيتان: ٨، ٩ من سورة الحشر- والآية: ٣٣ من سورة الزمر،
- والآيات: من ١٥- ١٧ من سورة السجدة، .
- والآيات: من ٢٦- ٢٩ من سورة الشورى،
- والآيتان: ٢٣، ٢٤ من سورة الأحزاب- والآية ٩ من سورة الزمر.

* وهؤلاء المصلحون المجددون للدين نعمة من الله تعالى، أنعم بها على المسلمين فى مختلف العصور، إذ أوحى الله تعالى إلى نبيه الخاتم ﷺ أن يقول: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدِّدُ لها دينها»[1].

إن الله تعالى رصد لهذا الدين وسخَّر له -على رأس كل مائة سنة- مَنْ يجدد لهذه الأمة أمر دينها، فما خلا قرن من القرون من مصلح مجدد لأمر الدين، بل إن بعض القرون جاء فيها أكثر من مصلح مجدّد، وقد اختار الله تعالى هؤلاء المصلحين المجددين ليقوموا بهذه المهام الجليلة، وهيأهم لها إكرامًا منه سبحانه لهم وللدين الخاتم العظيم وللأمة الإسلامية الخاتمة.

* وهؤلاء المصلحون المجددون- وهم بهذه المكانة- يجب أن يكونوا أمام المسلمين فى كل عصر، موضع حبهم ورضاهم وتقديرهم.

* وكأنى بهؤلاء المصلحين المجددين على رأس كل مائة سنة وقد شمروا عن سواعد الجد وعقدوا العزم واستعدوا للبذل والعطاء ليقوموا بهذا التجديد، غير مبالين بعدد من المثبطين الذين دأبوا على تخويف المصلحين المجددين قائلين لهم -كما قال السابقون من المثبطين - كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

* هؤلاء المصلحون المجددون لم يبالوا بهؤلاء الشياطين المخذلين المثبطين، وإنما انطلقوا فى الإصلاح والتجديد.

فما القيم التى يعاملهم بها المسلمون فى كل عصر؟

- قيمة الحب لهم والتقدير لأعمالهم،
- وقيمة الشكر لأعمالهم والدعاء لهم،
- وقيمة الإشادة بما بذلوا من جهد وما تحملوا من عناء، وما صبروا عليه من متاعب من أجل الإصلاح والتجديد، وإيثار مصلحة الأمة الإسلامية على مصالحهم،
- وقيمة اعتبارهم نماذج فى الإيمان والإسلام والإحسان والجهاد والصبر ، والولاء لهذا الدين والاعتزاز بالانتماء إليه،

(١) رواه أبو داود فى سننه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، فى كتاب «الملاحم» من سنن أبى داود رحمه الله.

- وقيمة الاهتمام بدراسة تاريخهم وتجاربهم للاستفادة منها وتفطين أجيال المسلمين بها،
- وقيمة دراسة شخصياتهم والزمان الذى عاشوا فيه لأخذ العبرة من هذا وذاك،
- وقيمة دراسة أسباب نجاحهم فى هذا الإصلاح والتجديد لأمر الدين، وكيف نجحوا فى جمع الناس وإقناعهم بالإصلاح والتجديد،
- وقيمة دراسة تضحياتهم وجهادهم ، وقدرتهم على إزالة أسباب التخذيل والتثبيط،
- وقيمة دراسة ما فعلوه بعد أن نجحوا فى الإصلاح والتجديد لأمر الدين،
- وقيمة مواصلة السير على خطاهم وطريقهم وطريقتهم لأن المسلمين فى كل عصر محتاجون للإصلاح والتجديد.

خامسًا: فى مجال الأسرة زوجة وأبناء وإخوة ووالدين:

١ - القيم التى يتعامل بها الزوج مع الزوجة:

- قيمة المودة والحب،
- وقيمة التذكر للميثاق الغليظ بين الزوجين،
- وقيمة حمد الله على نعمة الزواج،
- وقيمة حسن اختيارها وفق المعايير الإسلامية،
- وقيمة الاحترام والتقدير،
- وقيمة المعاشرة بالمعروف،
- وقيمة بِرّ أقاربها وبخاصة أبواها،
- وقيمة الابتسام فى وجهها،
- وقيمة التفاهم معها على كل حال،
- وقيمة معاونتها فى أعمال البيت،
- وقيمة تأمين المعيشة لها حسب يساره وقدرته،
- وقيمة احترام ذمتها المالية وأملاكها،
- وقيمة حسن استقبال أقاربها،
- وقيمة مداعبتها قبل الجماع،

- وقيمة التسمية والدعاء عند الجماع،
- وقيمة انتظارها لتبلغ ذروة شهوتها،
- وقيمة التوسط والاعتدال فى مرات الجماع،
- وقيمة التعامل فى الجماع فيما أحل الله فقط،
- وقيمة مراعاة ظروفها الشهرية،
- وقيمة تقدير مرضها، وظروف حملها،
- وقيمة مراعاة صحتها عند الولادة والإرضاع والحضانة،

٢- القيم التى تتعامل بها الزوجة مع زوجها:

- قيمة حسن اختيار الزوج وفق معايير الدين،
- وقيمة المودة والحب للزوج،
- وقيمة طاعتها له فى غير ما حرّم الله تعالى،
- وقيمة تجملها له، ونظافتها ورقتها،
- وقيمة الاستجابة له إذا دعاها لحاجته،
- وقيمة مشاركتها له فى رعاية الأسرة،
- وقيمة حسن تدبيرها لشئون البيت،
- وقيمة تنظيم البيت وتجميله،
- وقيمة ألا تدخل فى بيته أحداً بغير إذنه،
- وقيمة توسطها فى الإنفاق دون إسراف أو تقتير،
- وقيمة أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه،
- وقيمة أن يسود البيت الهدوء والنظافة والجمال،
- وقيمة حسن استقبال أقارب الزوج،
- وقيمة الترحيب بالضيوف وإكرامهم،
- وقيمة احترام خصوصيات بيتها وأسراره،
- وقيمة التوسط والاعتدال فى استقبال قريباتها وصديقاتها بما يحفظ للبيت احترامه وتقدير من يعيشون فيه،

- وقيمة حسن التَّبعُّل.
- وقيمة الامتناع عن الشكوى بعامة،
- وقيمة الامتناع عن شكوى الزوج أمام أحد،
- وقيمة الاهتمام بتربية الأبناء على حب أبيهم وطاعته.

٣- والقيم التى يتعامل بها مع الأبناء والإخوة:

* ففى مجال الأبناء:

- قيمة حسن اختيار أمهم وأبيهم وفق معايير الإسلام،
- وقيمة حسن رعاية الأبناء وأمهم أثناء الحمل بهم،
- وقيمة حسن اختيار أسمائهم،
- وقيمة حبهم وحسن حضانتهم وكفالتهم،
- وقيمة رعايتهم وحسن تربيتهم ،
- وقيمة ملاعبتهم سبع سنوات من ميلادهم،
- وقيمة تأديبهم فى السبع السنوات التالية،
- وقيمة مصاحبتهم بعد ذلك،
- وقيمة الرفق فى تأديبهم وعدم ضربهم،
- وقيمة أمرهم بالصلاة لسبع، وضربهم علـى تركها لعشر، لكنه ضرب يتقى الوجه، ولا يهين أو يؤذى،
- وقيمة إعطائهم القدوة من الأبوين فى السلوك اليومى،
- وقيمة التفريق بينهم فى المضاجع إذا بلغوا عشرًا،
- وقيمة تعويدهم الذهاب إلى المسجد،
- وقيمة تحبيبهم فى المسجد وفى المدرسة،
- وقيمة تعليمهم وتثقيفهم،
- وقيمة تحفيظهم قدرًا من القرآن الكريم،
- وقيمة تحفيظهم عددًا من الأحاديث النبوية،
- وقيمة تعريفهم بسيرة النبى ﷺ،

- وقيمة تحبيبهم فى معرفة سير الصحابة رضى الله عنهم والسلف الصالحين،
- وقيمة التفريج عنهم باللعب والمرح بحيث لا يطغى ذلك على كثير من أوقاتهم،
- وقيمة تعويدهم على تحمل المسئولية فى البيت،
- وقيمة توضيح واجباتهم المنزلية والمدرسية،
- وقيمة تعليمهم تنظيم أوقاتهم،
- وقيمة غرس النظام فى نفوسهم، ليصبح كل ما يحيط بهم منظمًا ومرتبًا ونظيفًا،
- وقيمة تعويدهم على الإسهام فى أعمال البيت،
- وقيمة تحبيبهم فى الكتاب وفى تكوين مكتبة صغيرة فى البيت،
- وقيمة اهتمام الأم بيناتها فى فترة المراهقة،
- وقيمة اهتمام الأب بأبنائه الذكور فى فترة المراهقة،
- وقيمة المساواة بين الأبناء جميعًا أمام حب الأبوين لهم، والاهتمام بهم ومحاسبتهم،
- وقيمة متابعتهم فيما يقومون به من عمل منزلى أو مدرسى أو غيره،
- وقيمة زيارة الوالدين لمدرستهم، والتعاون معها على توجيههم،
- وقيمة تيسير التعليم لهم ماديًا ومعنويًا،
- وقيمة تشجيع الأبناء على شراء الكتب تحت إشراف الأبوين فى اختيارها.
- وقيمة تعويدهم على القراءة الحرة خارج المدرسة،
- وقيمة تعويدهم الاقتصاد فى الإنفاق،
- وقيمة تشجيعهم على التفوق فى الدراسة،
- وقيمة عتابهم أو ردعهم عند الإهمال أو التقصير.
- وقيمة تشجيعهم على المشاركة فى الأنشطة المدرسية،
- قيمة تدبير المعيشة من أجلهم والاقتصاد فيها لتركهم أغنياء ولا يتكففون الناس،
- وقيمة تحلية البنات بالذهب والفضة ليرغب فيهن.
- وقيمة تزويج البنات بتيسير أسباب الزواج،
- وقيمة البحث عن الزوج الصالح للبنت ، والزوجة الصالحة للابن،

– وقيمة حب زوج البنت وزوجة الابن،

– وقيمة معاونة المتزوجين من الأبناء على أمورهم،

– وقيمة عدم التدخل فى تفاصيل حياتهم الجديدة،

*** وفى مجال الإخوة:**

– قيمة احترام الأخ لأخيه وأخته وحبه لهما،

– وقيمة توقير الكبير وطاعته،

– وقيمة العطف على الأخ الصغير والأخت الصغرى،

– وقيمة التعاون بين جميع الإخوة فى كل ما يعود عليهم بالخير والمنفعة لصالح الأسرة،

– وقيمة إسهام الكبير من الإخوة والأخوات فى توجيه الصغير منهم ومعاونته،

– وقيمة استئذان الأبوين فى عتاب الإخوة،

– وقيمة الرفق بالصغار عند خطئهم،

– وقيمة طاعة الصغير للكبير،

– وقيمة نشر الحب بين جميع الإخوة،

– وقيمة احترام الأقارب،

– وقيمة كسب الأصدقاء،

– وقيمة كسب الجيران ومودتهم،

– وقيمة التنفير من اتخاذ الأعداء،

٤ – والقيم التى يتعامل بها مع الوالدين ومن فى حكمهما:

– قيمة برّ الوالدين.

– وقيمة الإحسان بهما وإليهما،

– وقيمة توجيه القول الكريم إليهما،

– وقيمة عدم التأفف من شىء أو عمل أمامهما،

- وقيمة طاعتهما،
- وقيمة خدمتهما،
- وقيمة الدعاء لهما،
- وقيمة الذل لهما،
- وقيمة بِرّ أصدقائهما وأقاربهما،
- وقيمة إيثار الأم بالبِر، وتقديمها فى ذلك على الأب،
- وقيمة أن العم والد،
- وقيمة أن الخال والد،
- وقيمة أن العمة والدة،
- وقيمة أن الخالة والدة،
- وقيمة أبوة الجدود وإن علوا،
- وقيمة أمومة الجدات وإن علون،
- وقيمة هؤلاء جميعًا وبرهم،
- وقيمة كفالتهم ورعايتهم المستمرة عند حاجتهم إلى ذلك ،
- وقيمة سرعة الاستجابة لما يطلب الوالدان ومن فى حكمهما،
- وقيمة الترفيه على الوالدين بما يحبان،
- وقيمة إدخال السرورعليهما،
- وقيمة ترك الشكوى أمامهما،
- وقيمة إظهار الرضا أمامهما،
- وقيمة الثناء على من أحسن من الإخوة والأقارب،
- وقيمة الولاء للأسرة أصولها وفروعها،

- وقيمة التمسك بالقيم الإسلامية،
- وقيمة تكريم الوالدين ومن فى حكمهما،
- وقيمة أداء ما على الوالدين من ديون عند عجزهما أو عند وفاتهما.

سادسًا: فى مجال تعامل الإنسان مع المجتمع المسلم:

- قيمة التعارف بين الناس،
- وقيمة التفاهم والتآلف معهم،
- وقيمة التآخى فى الله وفى الدين،
- وقيمة التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان،
- وقيمة التناصر معهم ظالمين أو مظلومين،
- وقيمة التعايش معهم فى أمن وسلام وحب ووئام،
- وقيمة التحاكم إلى الكتاب والسنة،
- وقيمة التواصى بالحق والصبر،
- وقيمة التناهى عن المنكرات،
- وقيمة التسامح والتراحم،
- وقيمة التكافل،
- وقيمة التمسك بالحق والثبات عليه،
- وقيمة التواصى بالإيمان شعبه ومفرداته، بكل أنواعه،
- وقيمة التواصى بالإسلام وأركانه، وأسهمه العشرة،
- وقيمة التواصى بالإحسان بكل أنواعه،
- وقيمة الالتزام بالعدل والقسطاس،
- وقيمة الصدق بكل أنواعه،
- وقيمة الوفاء،

- وقيمة الأمانة،
- وقيمة العمل وممارسته وفق شروط الإسلام ونظامه،
- وقيمة الإخلاص فى القول والعمل،
- وقيمة الصبر،
- وقيمة الشكر والامتنان،
- وقيمة الولاء للمجتمع المسلم،
- وقيمة الدعوة إلى التعلم، والتزود بالعلم،
- وقيمة تعليم الآخرين،
- وقيمة التعمق فى العلم والبحث والكشف،
- وقيمة امتلاك زمام التقنية،
- وقيمة القراءة والاطلاع على سنن الكون،
- وقيمة الاهتمام بتاريخ الانسان على هذه الأرض،
- وقيمة العظة بتاريخ السابقين،
- وقيمة الثقافة والمعرفة،
- وقيمة الإسهام فى الحضارة الإنسانية،
- وقيمة التدبر فى القرآن الكريم،
- وقيمة معرفة السنة النبوية والالتزام بها،
- وقيمة التأسى برسول الله ﷺ ،
- وقيمة الاستفادة من سير الصحابة رضى الله عنهم،
- وقيمة الإنفاق فى سبيل الله،
- وقيمة أداء الزكاة،
- وقيمة الصدقة،

- وقيمة رحمة الضعيف والعاجز والصغير،
- وقيمة عون الفقير،
- وقيمة بر المساكين،
- وقيمة عون الغارمين، وأبناء السبيل،
- وقيمة رعاية اليتامى والأرامل،
- وقيمة عون الباحثين عن عمل،
- وقيمة عون العاجزين عن العمل،
- وقيمة إقراض المقترض دون ربا،
- وقيمة عدم التكالب على الدنيا،
- وقيمة الاقتصاد فى المعيشة دون سرف أو مخيلة.
- وقيمة الادخار،
- وقيمة التوسط والاعتدال،
- وقيمة الكرم والعطاء دون تظاهر،
- وقيمة تحرى الحلال فى الكسب،
- وقيمة الإنفاق مما يحب،
- وقيمة البذل فى سبيل الله تعالى عمومًا،
- وقيمة البذل فى الجهاد فى سبيل الله تعالى،
- وقيمة الإسهام فى تجهيز المجاهدين،
- وقيمة رعاية أسر المجاهدين،
- وقيمة التضحية فى سبيل الله بالمال والجهد والنفس،
- وقيمة التعبد لله تعالى بكل عمل يقوم به المسلم،
- وقيمة أخذ الحذر فى الجهاد والحرب والقتال،
- وقيمة الثبات فى المعارك لنيل إحدى الحسنيين،

- وقيمة الدعاء فى المعركة وطلب النصر من الله تعالى،
- وقيمة الإعداد والاستعداد لكل معركة،
- وقيمة الفرح بالاستشهاد فى سبيل الله تعالى،
- وقيمة الثقة فى نصر الله تعالى،
- وقيمة احتساب أجر الجهاد عند الله تعالى،
- وقيمة استعمال الحيلة والخدعة فى الحرب،
- وقيمة تخذيل العدو،
- وقيمة إرهاب العدو حتى ينصرف عن قتال المسلمين،
- وقيمة الثبات على الحق والتضحية فى سبيله،
- وقيمة توقع العداوة والأعداء، والاستعداد لهم،
- وقيمة الاستمرار فى حراسة ثغور المسلمين وحدودهم،
- وقيمة الأخذ بكل أسباب الجهاد مع التوكل على الله تعالى،
- وقيمة حب الله ورسوله وحب من يحبهما،
- وقيمة طاعة الله ورسوله،
- وقيمة حب آل بيت النبى ﷺ وأصحابه،
- وقيمة حب المجاهدين فى سبيل الله تعالى،
- وقيمة حب التابعين رحمهم الله تعالى،
- وقيمة حب أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون،
- وقيمة حب المصلحين المجددين فى الإسلام،
- وقيمة حب الصالحين والقرب منهم،
- وقيمة حب العلماء والقرب منهم،
- وقيمة حب الناس عمومًا وحب الخير لهم،

- وقيمة الاعتزاز بالانتماء للإسلام والمسلمين،
- وقيمة الاعتزاز بالانتماء إلى العمل الصالح،
- وقيمة الولاء للإسلام والمسلمين،
- وقيمة الاهتمام بقضايا المسلمين ومشكلاتهم،
- وقيمة الاهتمام بأقليات المسلمين فى العالم،
- وقيمة العمل على إحياء سنة النبى ﷺ،
- وقيمة الدعوة إلى جمع المسلمين وتوحدهم،
- وقيمة إحياء روح الجماعة فى المجتمع الإسلامى،
- وقيمة الوعى بما يكيد به أعداء الإسلام للإسلام والمسلمين،
- وقيمة رفض الأجر على هداية الناس إلى الله،
- وقيمة تحبيب الناس فى فعل الخير،
- وقيمة الدعوة إلى نشر الدين الحق،
- وقيمة الحركة بالدين الحق فى الناس والآفاق.
- وقيمة الاختلاط بالناس وحبهم والصبر عليهم وعلى أذاهم،
- وقيمة الالتزام بقيم الإسلام،
- وقيمة الاستمرار على هذا الالتزام،
- وقيمة النصيحة لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم،
- وقيمة الجهر بكلمة الحق عند كل سلطان جائر،
- وقيمة الجهر بالحق عمومًا،
- وقيمة الشهادة بالحق،
- وقيمة عدم السكوت على الباطل،
- وقيمة العمل على إيصال الحق لصاحبه،

- وقيمة تبليغ كلام الله تعالى لعباده،
- وقيمة التبليغ عن رسول الله ﷺ،
- وقيمة الانضباط مع الكتاب والسنة،
- وقيمة الدعوة إلى التمسك بهما،
- وقيمة الدعوة إلى الدين الخاتم،
- وقيمة الاهتمام بالدعوة الفردية لهداية المدعو،
- وقيمة الاهتمام بممارسة الدعوة إلى الله تعالى فى جماعة،
- وقيمة الرغبة فى تحويل المدعوين إلى الدين الحق إلى دعاة لغيرهم؛ من أجل اتساع دائرة المهديين الملتزمين،
- وقيمة تزويد الدعاة بالخبرات الميدانية،
- وقيمة توريثهم أساليب الدعوة ووسائلها،
- وقيمة اتخاذ إمام الدعاة ﷺ قدوة،
- وقيمة الوصول إلى الفقه العميق للدعوة إلى الله. مراحلها، وأعباء كل مرحلة، وصفات المدعوين فى كل مرحلة،
- وقيمة فقه الحركة بالإسلام فى الناس والآفاق،
- وقيمة فقه العمل من أجل الإسلام،
- قيمة فقه الموازنات بين أنواع هذا العمل،
- وقيمة فقه أولويات العمل من أجل الإسلام،
- وقيمة التودد إلى الناس واجتذابهم،
- وقيمة احترام الوقت وإنفاقه فيما يفيد،
- وقيمة الموازنة الصحيحة بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة،
- وقيمة الجدية فى ممارسة القول والعمل،
- وقيمة تنزيل الناس منازلهم،

- وقيمة عدم السخرية من أحد ولا التقليل من شأنه،
- وقيمة الإعراض عن الجاهلين،
- وقيمة التزاور مع الصالحين،
- وقيمة غشيان مجالس العلماء،
- وقيمة هجر مجالس اللهو واللعب،
- وقيمة غشيان مجالس ذكر الله تعالى،
- وقيمة الاحتفاظ بوقار المسلم وسمعته،
- وقيمة ملاطفة الصغير،
- وقيمة توقير الكبير،
- وقيمة نداء الإنسان بما يحب أن ينادى به من الأسماء،
- وقيمة إجابة الدعوة إلى العرس،
- وقيمة أداء واجبات العزاء والمواساة،
- وقيمة التخفيف من وقع المصائب على من وقعت بهم.
- وقيمة إماطة الأذى عن كل مسلم،
- وقيمة التفكر فى سنن الكون وأخذ العظة،
- وقيمة التدبر فى حكمة الله تعالى فى تنظيم العلاقات الاجتماعية بين الناس،
- وقيمة التفكر فى الموت والبعث والحساب والجزاء،
- وقيمة مصاحبة الفقراء والمساكين،
- وقيمة السعى فى إسداء الخدمات للناس عموما،
- وقيمة الشفاعة لمن هو أهل للشفاعة،
- وقيمة الإسهام فى حل مشكلات الناس،
- وقيمة تفقد من غاب من المسجد أو مجالس العلماء أو مجالس ذكر الله،

- وقيمة عيادة المريض،
- وقيمة التواضع،
- وقيمة الالتزام بنفقة من يعول،
- وقيمة الإقبال على الله تعالى بالطاعات،
- وقيمة الالتجاء إلى دعاء الله فى كل موقف،
- وقيمة اليقين بأن الله تعالى يجيب من دعاه،
- وقيمة الإيمان بأن الله يجعل مع كل عُسْر يسرًا،
- وقيمة التفاؤل،
- وقيمة الخشوع لله تعالى،
- وقيمة أداء الفرائض والإقبال على أداء النوافل،
- وقيمة إطعام الطعام،
- وقيمة إفشاء السلام،
- وقيمة ستر المسلم،
- وقيمة التماس الأعذار للناس،
- وقيمة تليين القول،
- وقيمة حسن توظيف الكلام،
- وقيمة رفض الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم،
- وقيمة الانضباط مع الحق فى القول والعمل،
- وقيمة خفض الصوت عند الكلام،
- وقيمة حسن الاستماع إلى الرأى الآخر،
- وقيمة احترام الرأى الآخر،
- وقيمة اتخاذ الحوار وسيلة لإظهار الحق،

- وقيمة الرغبة فى الإقناع بالحق،
- وقيمة رفض الرغبة فى التغلب على الخصم مهما كان الموقف،
- وقيمة ترك الجدال،
- وقيمة التدرج فى الإقناع،
- وقيمة الهدوء وترك الغضب،
- وقيمة الشجاعة الأدبية والاعتراف بالخطأ،
- وقيمة إعلان الحق والجهر به،
- وقيمة الإقبال على الثقافة والمعرفة والتزود منهما،
- وقيمة الإقبال على التعمق فى العلم،
- وقيمة البحث عن الحكمة فى كل مظانها،
- وقيمة احترام الرموز العلمية فى المجتمع المسلم،
- وقيمة التخصص فى فرع من فروع العلم،
- وقيمة الإجابة عن الأسئلة حسبة لوجه الله تعالى،
- وقيمة التعلق بالمساجد،
- وقيمة رعاية المساجد،
- وقيمة أداء الصلوات فى المساجد،
- وقيمة العمل على تكوين مكتبة فى المسجد،
- وقيمة التجمل واتخاذ الزينة عند الذهاب إلى المسجد،
- وقيمة انخفاض الأصوات فى المسجد،
- وقيمة قَمّ المسجد وتنظيفه،
- وقيمة التبرع للمسجد بكل ما هو مفيد ومعين على أداء وظائفه،
- وقيمة الاعتكاف فى المسجد،

- وقيمة التردد على المسجد فى غير أوقات الصلاة،
- وقيمة عقد الندوات فى المسجد،
- وقيمة تعليم تجويد القرآن فى المسجد،
- وقيمة اصطحاب الأصدقاء والجيران إلى المسجد،
- وقيمة الدعاء عند دخول المسجد وعند الخروج منه،
- وقيمة الالتزام بأدب الجلوس فى المسجد،
- وقيمة إعمار المسجد بالتعبد فيه،
- وقيمة إعمار المسجد بتجديد ما رَمّ منه،
- وقيمة الاهتمام بمرافق المسجد،
- وقيمة التعلم والتعليم فى المسجد،
- وقيمة السعى على الرزق،
- وقيمة الالتزام بالكسب الطيب،
- وقيمة رقة القلب،
- وقيمة تحرّى ما أحل الله،
- وقيمة المبادرة إلى الوصية المكتوبة،
- وقيمة إحياء سنة الوقف على أعمال البر والخير،
- وقيمة الإنفاق على طلاب العلم،
- وقيمة الهجرة عند الخوف من الفتنة فى الدين أو العرض أو الولد،
- وقيمة الاستمرار فى الأمر بالمعروف،
- وقيمة الاستمرار فى النهى عن المنكر،
- وقيمة عدم تمنى لقاء العدو فى الداخل أو فى الخارج،
- وقيمة الصبر عند لقاء العدو،

- وقيمة عدم خوف العدو، وإنما الاستعداد له،
- وقيمة الاستعانة على كل عدو بالله تعالى،
- وقيمة عدم الاستعانة بالفساق والفجار فى أى معركة،
- وقيمة جمع الصف للقاء العدو،
- وقيمة تثمير المال استعدادًا للمعركة،
- وقيمة تطوير السلاح والعتاد،
- وقيمة التدريب على أعمال القتال،
- وقيمة تقوية الأبدان والعقول قبل القتال،
- وقيمة تقوية روح الإيمان فى المقاتلين،
- وقيمة الرغبة فى الشهادة فى سبيل الله تعالى،
- وقيمة تطوير الصناعة وتنويعها،
- وقيمة الاكتفاء الذاتى من المصنوعات،
- وقيمة عدم الاعتماد على استيراد المصنوعات،
- وقيمة البحث عن المواد الأولية للصناعات،

وقيمة تصدير الفائض من المصنوعات للبلدان الإسلامية،

- وقيمة زرع الأرض وغرسها،
- وقيمة تنويع المزروعات بحيث تغطى الاحتياجات،
- وقيمة رعاية المزروعات رعاية علمية وفنية على أعلى مستوى،
- وقيمة تطوير المزروعات نوعًا وكمًا،
- وقيمة منع استيراد المزروعات من الأعداء،
- وقيمة رفض ترك الأرض دون زراعة،
- وقيمة إعطاء الحقوق لأصحاب الحقوق فى الزرع والغرس - الزكاة، زكاة الزروع والثمار،

- وقيمة إعطاء من حضروا حصاد الزرع والثمر، وهذا غير الزكاة المفروضة،
- وقيمة الإهداء من الثمر،
- وقيمة الادخار من الثمر حتى عام كامل،
- وقيمة حمد الله على نعمة الزرع والإنبات والإثمار،
- وقيمة الإنفاق على تحسين الأرض والزرع،
- وقيمة الاهتمام بالأشجار والشجيرات والزروع التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وهى كثيرة، ولو لم تكن عظيمة النفع ما ذكرها؛ كالنخيل والأعناب والزيتون والتين والطلح ونحوها،
- وقيمة الاهتمام بالثروة الحيوانية، لتأمين حاجات المجتمع المسلم من الغذاء والكساء وغيرهما،
- وقيمة التنوع فى تربية الحيوانات اللاحمة،
- وقيمة تربية النحل،
- وقيمة تربية الأسماك، وكل حيوانات البحر،
- وقيمة تربية المراكب من جمال وخيول وحمير ونحوها،
- وقيمة الرفق بالحيوان عمومًا، حتى غير المستأنس منه،
- وقيمة احترام حياة الحيوان ومده بما يحتاج إليه من غذاء وشراب ودواء،
- وقيمة عدم تعذيب الحيوان أو قتله،
- وقيمة إعدام الحيوان لظروف تقتضى ذلك،
- وقيمة عدم اتخاذ الحيوان غرضًا.
- وقيمة رفض التسلية برؤية صراع حيوان مع آخر،
- وقيمة اعتبار الحيوان من نعم الله تعالى،
- وقيمة التدبر فى تسخير الحيوان للإنسان، مع أن كثيرًا من الحيوانات أقوى من الإنسان،

- وقيمة الحذر من الحيوانات المفترسة،
- وقيمة عدم اتخاذ جلود النمور ملابس للإنسان،
- وقيمة الاهتمام بالثروة المائية فى البحار والأنهار،
- وقيمة الحرص على العناية بالمياه العذبة، بشق الترع وإقامة القناطر، وتربية الأسماك فيها،
- وقيمة حفر الآبار المائية لدعم مياه الشرب،
- وقيمة وضع نظام للتعامل مع مياه الشرب دون إسراف،
- وقيمة التعامل مع ثروات البحار من أسماك ولآلئ وأحجار كريمة ونحوها،
- وقيمة استعمال البحار والأنهار طرقًا،
- وقيمة استعمال السفن لركوب البحر، ونقل الناس والمتاع،
- وقيمة الاستفادة العلمية من مياه البحر المالحة،
- وقيمة تنقية مياه البحر وإزالة ملوحتها لتصلح للشرب،
- وقيمة التمتع بجمال المياه، والسبح فيها،
- وقيمة أن الله تعالى جعل من الماء كل شىء حى،
- وقيمة الإحساس بنعمة الله تعالى على الناس بالماء،
- وقيمة التدبر فى حركة الماء ودورته، من تبخره إلى جعله سحابًا إلى سَوْق الرياح إليه إلى إنزاله مطرًا وماء عذبًا، وهذا التدبر يقوى الإيمان ويزيده،
- وقيمة الإحساس بنعمة الله تعالى أن منح الإنسان الهواء،
- وقيمة التدبر فى نعم الله على الناس بالرياح لتسوق السحاب، ليسقط المطر فيشرب الإنسان ويتنفس ويعيش،
- وقيمة التفكر فى السماء وما فيها من نعم، كالشمس والقمر والنجوم والأفلاك،
- وقيمة ترقيق القلب، وتقوية الإيمان عند وقوع كسوف الشمس وخسوف القمر، وسقوط الشهب ونحوها،

- وقيمة التنقيب عما فى باطن الأرض والاستفادة منه، كالمعادن والنفط والغاز، والذهب والفضة والنحاس،
- وقيمة الإحساس بنعم الله على الإنسان أن سخر له ما فى السموات والأرض جميعًا،
- وقيمة اتخاذ الأرض مساكن وبيوتًا وحصونًا، لحماية الإنسان،
- وقيمة ما أودع الله فى الأرض من عناصر تساعد على إنبات النبات ونموه، وإثماره،
- وقيمة ما أودع الله فى النبات من قوة على التلقيح والتكاثر، ومد الناس بما يحتاجون إليه،
- وقيمة التمتع بما فى الأرض والسماء من مناظر جميلة تبهج القلب وتمتع العين،
- وقيمة ما أودع الله فى النجوم من دلالات على الاهتداء بها ليلا، وعلى اتخاذها وسيلة للحساب،
- وقيمة ما فى السماء والأرض من دلائل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، فيما أبدع وسوّى،

سابعًا: فى مجال التعامل مع الخارجين على نظم المجتمع المسلم:

النظم الإسلامية للمجتمع المسلم تتناول كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية، وهذه النظم يجب على المسلم أن يلتزم بها ويحافظ عليها، كما أن على كل دولة مسلمة أن تحافظ على هذه النظم، وأن تلزم بها الناس جميعًا لما فى الالتزام بها من خير للناس فى دينهم ودنياهم،

* ومن كمال النظم الإسلامية وجمالها أن تكفل للناس سعادة الدنيا والآخرة إن هم تمسكوا بها، ولأهميتها فى حياة الإنسان وضع نظام عقوبات لمن يخرج على هذه النظم، عقوبات بدنية أو مادية أو مالية أو أدبية أو اجتماعية،

* ومع الخارجين على هذه النظم الإسلامية تُتَّبع قيم هى:

- قيمة التعريف والتوضيح لحدود الله تعالى،
- وقيمة بيان أثر تطبيق هذه الحدود فى المجتمع،

- وقيمة حماية الحدود وحراستها والمحافظة عليها من عبث العابثين أو غفلة الغافلين،
- وقيمة الإصرار على التمسك بتطبيقها لأنها جزء من النظام، بل من الدين نفسه،
- وقيمة الإعلان عن تطبيقهـا فى الناس، لردع من تحدثه نفسه بارتكاب ما يوجب إقامة الحد،
- وقيمـة توقيع العقاب على من أخل بهـذه النظم، تطبيقًا لا تهـاون فيه ولا تراخى أو محاباة، أمام قضاء إسلامى،
- وقيمـة التقرب إلى الله تعالى بتطبيق حـدوده على العصاة المخالفين من عبـاده، إحياء لفرائضه ونظمه سبحانه وتعالى،
- وقيمة تنقية المجتمع وتطهيره من المعاصى والآثام،
- وقيمة التضييق على مرتكبى الذنوب بتطبيق الحدود عليهم، لتيسير عودتهم إلى الطاعة والنظام بعد تطهيرهم،
- وقيمة إحياء سنن الإسلام وأخلاقه وأحكامه، لغرس الخير والبر فى المجتمع،

ثامنًا: مجال التعامل بالقيم الإسلامية مع أهل الكتاب:

- قيمة معرفة أهل الكتاب على حقـيقتهم من خلال ما وصفهم به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة،
- وقيـمة كشف الله تعالى لنوايـا أهل الكتاب ورغبتـهم فى تضليل الناس، مع إيمانهم بالجبت والطاغوت،
- وقيمة اليقين بأن ما وصفهم الله تعالى ورسوله ﷺ به، هو الحق الذى لا يقبل الشك أو التردد، وأن معاملتهم وفق هذه الصفات لا تتضمن أدنى ظلم لهم،
- وقيمة الحذر من صفاتهم وتوقى آثارها فى المسلمين لأنها تحمل من الإضرار بالمسلمين شيئًا كثيرًا،
- وقيمة تصنيفهم أمام المسلمين وفق ما وصفوا به،
- وقيمة اليقين بأنهم وإن كانوا أهل كـتاب، لكنْ منهم المشركون والكافرون والمؤمنون، ولكل من هؤلاء معاملة تليق به،

- وقيمة التعايش معهم بما أمر به الإسلام من عدل،
- وقيمة الإحسان إلى محسنهم والبر به،
- وقيمة معاملة المسيء منهم بما يلائم إساءته وبضرر هذه الإساءة بالمسلمين،
- وقيمة عدم إيقاع الظلم بهم، والمحافظة على حقوقهم،
- وقيمة محاربة من يقاتلون المسلمين منهم، وعدم اتخاذهم أولياء أو أصدقاء،
- وقيمة نبذ الأعداء منهم، والحذر منهم،
- وقيمة العفو عنهم عند المقدرة عليهم،
- وقيمة دعوتهم إلى الإسلام،

تاسعًا: فى مجال التعامل مع غير أهل الكتاب:

غير أهل الكتاب طوائف عديدة تشترك فى أنها لم يخصها الله تعالى بكتاب منزل، كما خص اليهود بالتوراة وخص النصارى بالإنجيل،

ومن هذه الطوائف:

- المشركون الذين يتخذون مع الله إلهًا آخر، أو آلهة أخرى، يعبدونها،
- والملحدون الذين يطعنون فى الدين عمومًا، وفى الدين الخاتم على وجه الخصوص،
- والكافرون وهم طوائف أربعة:

الأولى: لا تؤمن بوحدانية الله تعالى،

والثانية: لا تؤمن بالنبوة والأنبياء،

والثالثة: لا تؤمن بالشـريعة التى جاءت من عند الله تعالى عمومًـا، ولا تؤمن بالشريعة الخاتمة خصوصًا،

والرابعة: لا تؤمن بهذه الثلاثة جميعًا،

- وجاحدو الألوهية، وجاحدو النبوة،
- وعَبَدة الأوثان والأصنام والشجر والحجر،

- وعبدة الشمس والقمر والكواكب،
- وعبدة الشياطين،
- وعبدة بعض الناس،
- وجاحدو الأديان كلها،
- والصابئون الذين يتركون دينهم مَيْلاً عنه وجحدًا له،
- والدهريون الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، ويقولون ببقاء الدهر،
- والمكذبون لأنبيائهم المتعنتون الضالون،

* وهؤلاء جميعا يعاملهم المسلمون وفق القيم التالية:

- قيمة معرفتهم من خلال ما جاء عنهم فى القرآن الكريم والسنة النبوية،
- وقيمة دعوتهم إلى الحق وإلى الدين الخاتم بالحكمة والموعظة الحسنة،
- وقيمة التعامل الإنسانى معهم، فلا يظلمون ولا تنتهك حقوقهم ولا تنتقص ماداموا غير محاربين،
- وقيمة تبصيرهم بحقوقهم فى المجتمع المسلم وواجباتهم نحوه نظمًا وأفرادًا،
- وقيمة تحذيرهم من ارتكاب أخطاء فى حق المجتمع المسلم الذى يعيشون فيه،
- وقيمة تبصيرهم بعواقب إساءتهم وأخطائهم ضد أى قيمة أو نظام أو فرد أو مرفق فى المجتمع المسلم،
- وقيمة إعطائهم فرصة للكف عن أخطائهم وإساءاتهم ضد المجتمع المسلم،
- وقيمة إنذارهم بالحرب إن هم أصروا على أخطائهم أو بادروا المسلمين بعمل عدائى،
- وقيمة رفض اضطهادهم أو الإساءة إلى إنسانيتهم،
- وقيمة تأمينهم حتى يغادروا الدولة المسلمة، إذا رغبوا فى المغادرة، فى أمان ودون غدر منهم بأحد من المسلمين،

عاشراً: مجال التعامل مع الأعداء المحاربين:

العدو المحارب للمسلمين معروف لهم قديمًا ووسيطًا وحديثًا، وقد يكون هذا العدو من أهل الكتاب وقد يكون من غيرهم، ولكل منهم دلائل على عداوته للإسلام والمسلمين،

وهؤلاء الأعداء يتعامل معهم المسلمون وفق القيم التالية:

- قيمة معرفة أسباب عداوتهم ليكون التعامل معهم بعلم ومعرفة ووضوح،
- وقيمة الاستعداد لحربهم وقتالهم وإعداد الآلة العسكرية الملائمة لهم،
- وقيمة إرهابهم وتخويفهم حتى يكفوا عن حرب المسلمين فلا تكون معارك ولا قتال،
- وقيمة خوض الحرب معهم بقوة وتنوع وحرص من المسلمين على تحقيق إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة فى سبيل الله تعالى،
- وقيمة تحريض المسلمين على قتالهم، وحثهم على بذل كل ما وسعهم من جهد ومال ووقت حتى تحقيق النصر،
- وقيمة الالتزام بأدب الحرب وأخلاقياته فى الإسلام فلا تشويه لجثث القتلى ولا تعذيب للأسرى ولا حجز لجثث موتاهم عن ذويهم،
- وقيمة اتخاذ أسباب النصر جميعًا من:
  * تصنيف الأعداء حسب عداوتهم،
  * والمعرفة المسبَّقة لنوع أسلحتهم،
  * والمعرفة الدقيقة لقوتهم البشرية،
  * ومعرفة من يعينونهم،
- وقيمة احترام مواثيقهم وعهودهم مع المسلمين، ما داموا لم ينبذوها ولم يغدروا ولم يخونوا، فإن فعلوا شيئًا من ذلك عوقبوا بشدة تخيف من وراءهم ممن تحدثهم أنفسهم بالضرر أو الخيانة،
- وقيمة الاستجابة للسلام إذا مالوا إليه لأن السلام هدف نبيل يحرص الإسلام عليه دائمًا، بل يقيم دعوته وحركته عليه،

– وقيمة أن الحرب والقتال فى الإسلام ليسا غاية أو هدفًا، وإنما هما عمل قد يجب فى بعض الظروف والملابسات،

– وقيمة التعامل مع الأسرى بأخلاق الإسلام التى تحتم احترام إنسانية الإنسان، فلا تجويع للأسير ولا تخويف له، ولا تعذيب، ولا انتهاك لعرضه وشرفه، ولا إجبار له على السخرية من دينه ونبيه وكتابه، كما فعلت القوات المتحالفة مع الولايات المتحدة الأمريكية فى: باجرام وأبى غريب وجوانتانامو، وكثير من السجون السرية،

– وقيمة عدم قتل النساء والأطفال والشيوخ والمدنيين كما تفعل إسرائيل بعونٍ وتأييدٍ من أمريكا ضد المدنيين فى فلسطين ولبنان وفى كل حرب عدوانية شنتها إسرائيل ومعها أمريكا وإنجلترا وفرنسا وكندا على الدوام، ومعظم دول الغرب المؤيدة لإسرائيل كراهية فى المسلمين وخوفًا من الولايات المتحدة الأمريكية،

وبعد: فأرجو أن أكون بهذا المدخل، قد استعرضت بعض القيم الإسلامية التى تسعد البشرية كلها إن هى تمسكت بها، كما أنها تشقى وتتعادى ويأكل قويها ضعيفها إن هى تخلت عن هذه القيم،

وحسب هذه القيم الإسلامية شرفًا ومكانة أن أيدتها ودعت إليها آيات من القرآن الكريم أو أحاديث النبى الخاتم ﷺ،

وإلى الحديث بعد هذا المدخل عن أبواب الكتاب التى تتحدث عن القيم الإسلامية مصحوبة بشواهدها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة،



الباب الأول

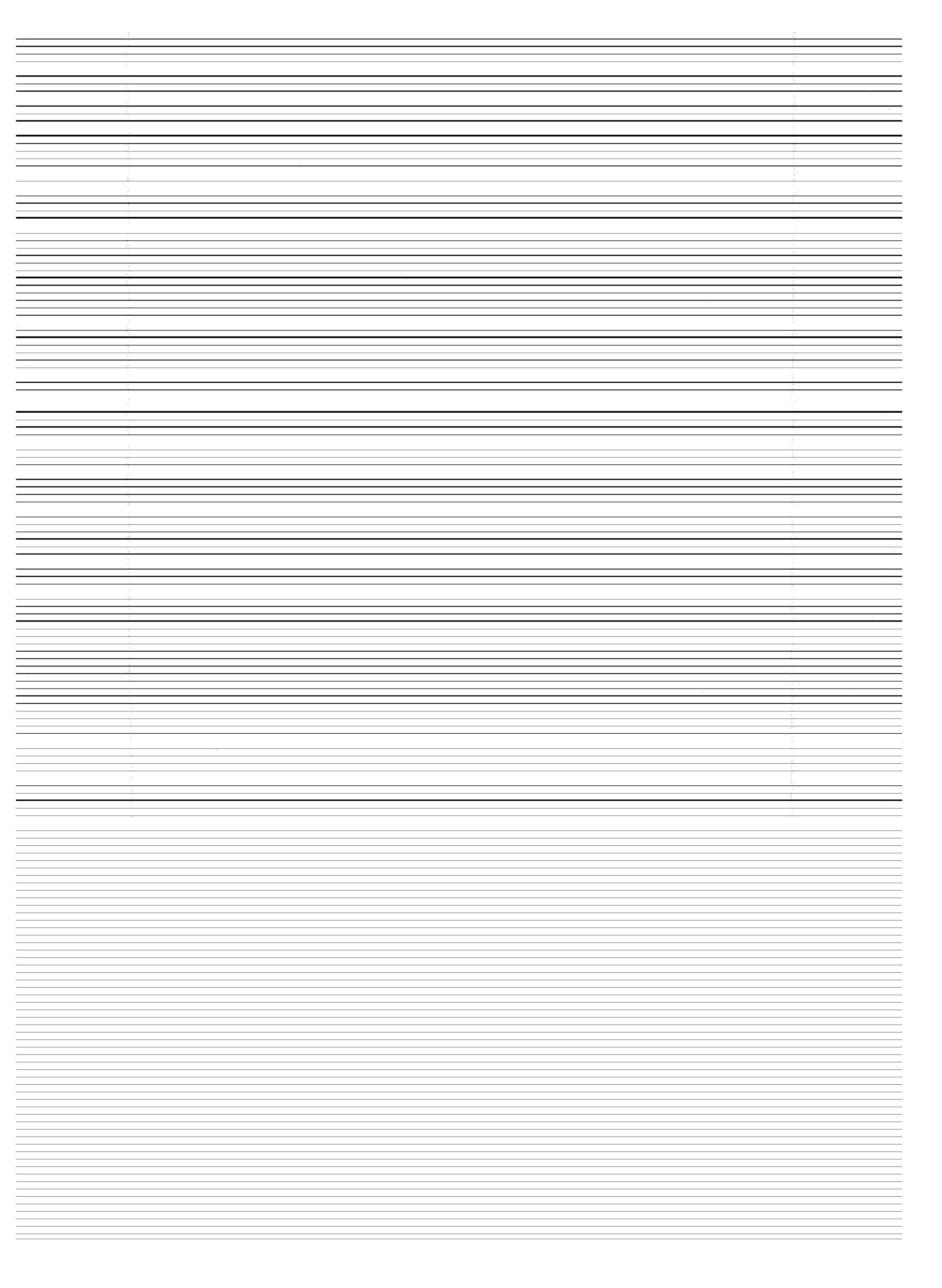
القيم التي تتصل بالدين والإيمان والخلق

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في القيم الدينية

والفصل الثاني: في القيم الإيمانية

والفصل الثالث: في القيم الخلقية





الفصل الأول

القيم الدينية

يتناول هذا الفصل النقاط التالية:

أ- تعريف القيم الدينية وبيان خصائص الأديان.

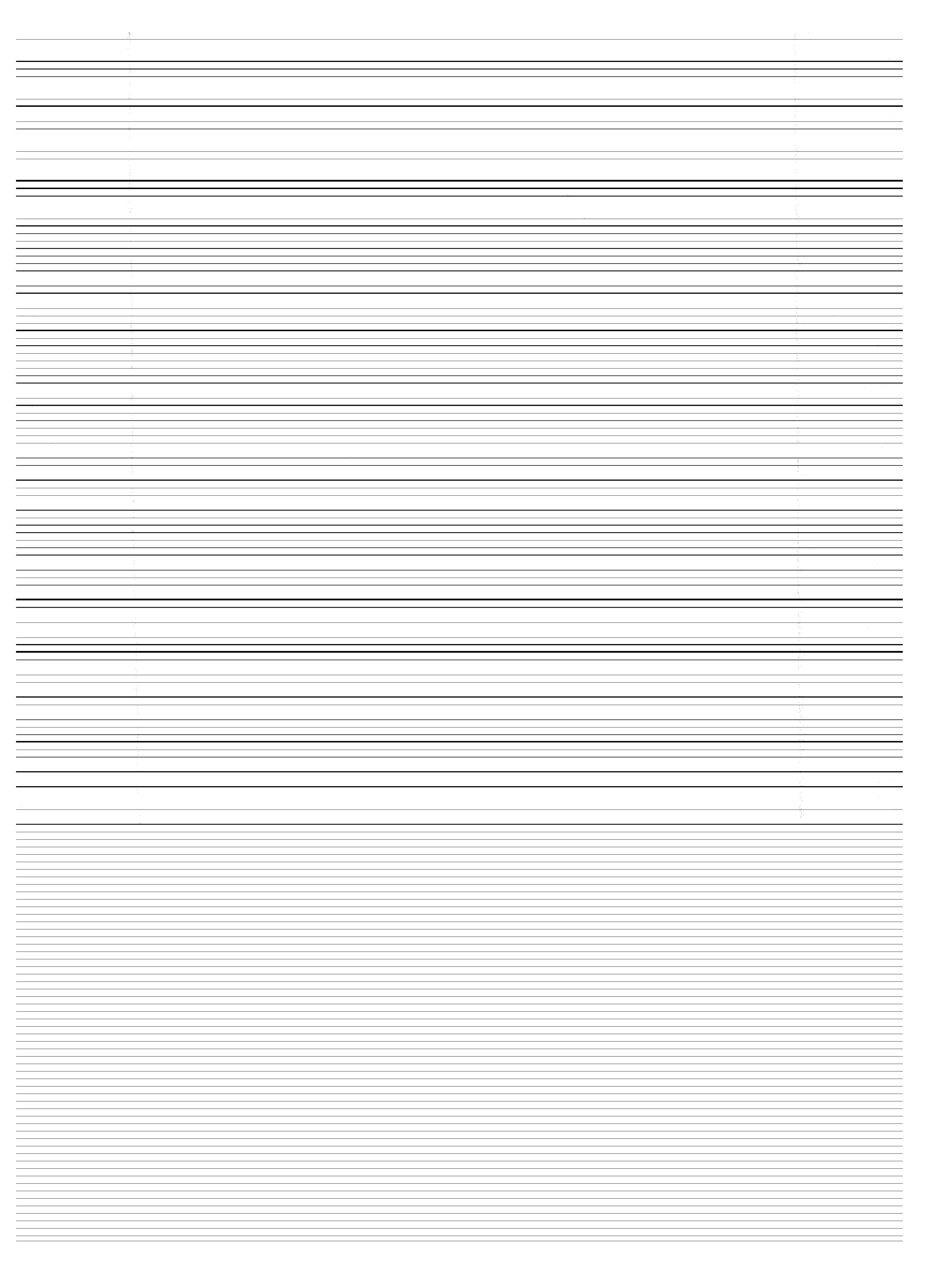
ب- مكانة القيم الدينية ومصادرها.

جـ- سنة الله تعالى فى الأديان وقيمها.

د- أعداء القيم الدينية.

هـ- لماذا ختم الله تعالى الأديان بدين الإسلام.

و- خصائص الدين الذى ختم الله تعالى به الأديان.



أ- تعريف القيم الدينية وبيان خصائص الأديان

- القيم الدينية:

هى القيم المنسوبة إلى الدين.

وقد قلنا -فى مقدمة هذا الكتاب- إن القيم هى: مجموعة الأحكام الخُلُقية التى تتعلق بالأعمال حسنها وقبيحها.

والدِّين الذى تنسب إليه القيم هو الدِّين الذى جاء من عند الله تعالى، وليس ما يصطلح بعض الناس على أن يدينوا به، لأن الدِّين الذى جاء من عند الله هو الحق وحده دون سواه.

والدين بهذا المعنى يجب أن يكون صحيح النسبة إلى الله تعالى، وهو يطلق على الشريعة من جانب أنها نظام يطاع، والدين يطلق على المِلَّة.

والدين ينسب إلى الله تعالى والمِلَّة تنسب إلى الرسول عليه السلام، والمذهب ينسب إلى المجتهد.

* والأديان السماوية كلها -فى جوهرها- دين واحد يقوم على توحيد الله تعالى وعبادته وإقامة شريعته ونظامه وتطبيق مجموعة أحكامه الخلقية الحَسَنة، وتجنب القبيح من الأخلاق، والحضارة الإنسانية الراشدة هى التى تقوم على هذه الأسس فى أى زمان ومكان.

- والدين قد واكب الإنسان منذ أقدم عصوره على هذه الأرض(١).

- والأديان السماوية كلها تشير بل تؤكد أن الدين مواكب لظهور الإنسان وعيشه على الأرض أى منذ هبوط أبينا آدم عليه السلام إلى الأرض.

- ولقد كلَّف الله أبانا آدم عليه السلام ببعض التكاليف فكانت تلك بداية الدِّين، وكان التزام أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام وما رزقهما الله من أبناء بأداء هذه التكاليف هو بداية التَّدين.

- والتديّن فطرة فى الإنسان فطرة الله عليها، إذ لا تستقر نفسه، ولا يستقيم عقله، ولا يسلم مجتمعه من العيوب والآفات حتى يتديَّن، والمجتمع نفسه مفطور على التدين لا يهدأ ولا يتعافى من أمراضه حتى يتديّن.

---

(١) النقوش الأثرية القديمة التى عثر عليها ترمز إلى أمور دينية، وتعود بعضها إلى زمن سحيق من تاريخ الإنسان على الأرض وعمره فيها، كما يؤكد ذلك كثير من علماء الآثار.

* والدين منبع الإيمان، ومنبت الخلق الحميد، ومستودع جميع القيم الفاضلة، وكل ما يأمر به الدين فيُمتثَل، وكل ما ينهى عنه الدين فيجتنب هو القيم الدينية.

- والقيم الدينية يمكن حصرها فى عملين:

أحدهما: فعل كل ما هو خير وحسن مما أمر به الدين واستحسنه العقل.

والآخر: اجتناب كل ما هو شر وقبيح، مما نهى عنه الدين، ورفضه العقل السليم.

* ولسنا بحاجة إلى الحديث عن الدين والقيم الدينية فى العصور البدائية للإنسان -كما افترضها بعض الباحثين فى تاريخ الإنسان- لأن ذلك لا طائل وراءه، ولكننا نربط بين الدين والتدين وأنبياء الله تعالى ورسله، وما أوحى إليهم من دين وقيم دينية.

- والبداية فى معرفة الدين والتدين تبدأ عندنا -معشر المسلمين- بنوح عليه السلام الذى أوصاه الله تعالى باتباع دين وشريعة، كما وصَّى بذلك إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وكما أوحى بذلك الدين إلى محمد ﷺ، كما يدل على ذلك قوله تعالى مخاطبا المسلمين: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ... ﴾ [الشورى: ١٣].

- والدين المعروف لنا -من خلال كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ- هو دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وهذه المعرفة بهذه الأديان وصلت إلينا على وجه الإجمال وعلينا أن نؤمن ونصدق كل ما جاء عنها فى الكتاب والسنة.

- أما الدين الخاتم الذى جاء به الرسول الخاتم فد جاءنا مفصلا أحسن تفصيل فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

- وأشهر أديان الكتب السماوية ثلاثة:

* اليهودية وكتابها: التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام.

* المسيحية وكتابها: الإنجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام.

* والإسلام وكتابه: القرآن الكريم الذى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام وبه ختمت الكتب السماوية[١].

---

(١) قامت دراسات عديدة بعضها اجتماعى وبعضها نفسى وبعضها فكرى حول الدين، بل قام علم قائم بذاته هو علم مقارنة الأديان، وهى دراسات هامة فى الكشف عن تاريخ الأديان.

- **خصائص الأديان السماوية:**

للأديان السماوية خصائص تشترك فيها جميعًا، منها:

- أنها جميعًا من عند الله تعالى، وأنها جميعًا تدعو إلى توحيد الله تعالى وطاعته، وعبادته وحده لا شريك له، وفق ما شرع لهم من مفردات العبادة كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والذكر والتلاوة ونحو ذلك من مفردات عديدة، وقد جعل الله تعالى عبادته سبحانه هدفًا وغاية للإنس والجن، فقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]

- وأنها جميعا تدعو إلى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾ [النساء: ١٣٦].

فالإيمان من الدين بل هو مطلب من مطالب الدين وعمل من أعمال الدين، ومجال من مجالات التعبير عن الدين.

- والأديان جميعا قد أنعم الله تعالى بها على البشرية كلها، وجعل في كل منها هدى، ونور، فالهدى ما نادى به الرسل عليهم السلام وأمروا به، والنور هو ما أنعم الله تعالى به على الناس من نعم العقل والرسل عليهم السلام والكتب السماوية التي ضمنها الهدى والنور:

فقال سبحانه وتعالى عن التوراة: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...**﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال عن الإنجيل: ﴿**... وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ...**﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال عن القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية: ﴿**... وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا..**﴾ [الشورى: ٥٢].

- ومن خصائصها أنها جميعًا طالبت الناس بالتحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، أي أنها أوجبت التمسك بالقيم الفاضلة الحسنة، ونهت عن القيم الرازلة التي تحمل إلى الناس الشر والأذى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي**

الْقُرْبَىٰ..﴾ [النحل: ٩٠]، وهذه أمهات الفضائل، ومن قوله تعالى: ﴿... وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ..﴾ [النحل: ٩٠] وهذه أمهات الرذائل كلها.

- ومن خصائص الأديان السماوية أنها أحلَّتْ للناس الطيبات من كل شيء مما تستلذه النفس الإنسانية، وهذه الطيبات من الطعام والشراب والملبس والمسكن والزوجة والذرية، والمال والجاه والعلم والقوة؛ ينبغى أن يتناولها الإنسان من حيث ما يجوز وبالقدر الذى يجوز ومن المكان الذى يجوز، فإن تلك الشروط إذا تحققت فهى من الطيبات عاجلا فى الدنيا وآجلا فى الآخرة، وإن لم يستوف هذه الشروط فقد تكون من طيبات الدنيا لكنها ليست من طيبات الآخرة.

- ومن خصائص الأديان السماوية كلها أنها حرَّمت على الناس كل الخبائث -والخبيث هو كل ما يكره رداءة وخساسة، محسوسًا كان أو معقولاً -ويدخل فى الخبائث كل ضارّ، وكل باطل فى الاعتقاد، والعمل، ويدخل فيه الكذب فى المقال والقبيح فى الفعال، وكل ما يغضب الله تعالى.

وفى تحليل الطيبات وتحريم الخبائث جاء قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

- ومن خصائص الأديان السماوية أنها لا تكلف الناس ما يشق عليهم، أو يدخلهم فى حرج أو شدة أو ضيق، أو ما يصادم فطرتهم؛ لأن الدين من الله تعالى إلى عباده الذين أحبهم وكرَّمهم وسخر لهم ما فى السموات والأرض جميعًا.

قال الله تعالى: ﴿..هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ..﴾ [الحج: ٧٨].

وقال جل شأنه: ﴿...مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

* والأديان هى التى جاءت بالقيم الدينية لتصلح بها الناس فى دنياهم وآخرتهم، فما مكانة هذه القيم وما مصادرها؟

ب- مكانة القيم الدينية، ومصادرها

- مكانة القيم الدينية:

لأن هذه القيم دينية -أى من عند الله تبارك وتعالى- فلابد أن تتميز على أى قيم يتعارف الناس عليها ويرتضونها، ولابد أن تكون أعلى مكانة وأكبر أهمية فى الحياة الإنسانية، وسر ذلك أن هذه القيم من الدين، وأن الدين قد اصطفاه الله للناس ليصلح به شأنهم فى الدنيا والآخرة، حتى يعيشوا مسلمين ويموتوا مسلمين.

- والدين السماوى مرشد لحياة الإنسان وموجه لسلوكه من خلال ما يجيئه به من قيم يصلحه التمسك بها، وقد أجمعت كلمات علمائنا المسلمين قديمًا ووسيطًا وحديثًا، من الصحابة رضوان الله عليهم إلى أهل القرون الثلاثة الأولى خير القرون إلى المصلحين المجددين على رأس كل قرن، أجمعوا على أن الدين حاجة أساسية للإنسان لا يستطيع أن يمارس حياته بدونه.

- وعند التأمل والنظر فى حياة الإنسان نجده فى حاجة إلى أساسات يقيم عليها حياته وقواعد يبنى عليها تعاملاته مع الناس، وقيم وأخلاق يسلك على هديها ما يرضى عنه ربه سبحانه وتعالى، وليس ذلك إلا فى الدين.

كما أن الإنسان لا يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة إلا بإيمان يهدى قلبه وإسلام يهذب سلوكه وإحسان يرقى بممارسته فى الدرجات عند الله تعالى، وليس ذلك إلا فى الدين الذى يجئ من عند الله تعالى مستهدفًا سعادة الناس فى الدنيا والآخرة.

- وعند التحرى والتدقيق نجد الدين الخاتم الذى خص الله به الرسول الخاتم والكتاب الخاتم هو دين المصير للبشرية كلها، الدين الذى لا يُقبل من أحد أن يتدين بسواه، كما أخبر سبحانه وتعالى بذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

- ولمكانة الدين وأهميته فى حياة الإنسان، ولما يشتمل عليه من قيم، فقد وردت له فى القرآن الكريم معانٍ عديدة، كل معنى منها نبيل ومطلوب من المسلم أن يحققه ويتعامل به، ومن تلك المعانى:

* الطاعة والخضوع لله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ...﴾ [الأنفال: ٣٨، ٣٩].

* والإسلام، كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

* والدين بمعنى الجزاء، ويستعار للشريعة، كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

فكل معنى من هذه المعانى نبيل ومطلوب ويعد قيمة خلقية يتحلى بها من اتصف بها.

ومن أجل احتواء الدين على كل معنى نبيل، قال الأسلاف من العلماء: إن الدين هو منهج إلهى يقود الناس باختيارهم إلى الخير والبر باطنًا وظاهرًا، فيحببهم فى الخير ويردعهم عن الشر.

- وحسب الدين مكانة وأهمية أن جميع القيم الفاضلة نابعة منه ومرتبطة به، ومعبرة عنه، فكل مكانة لهذه القيم- كما أوضحنا فى المقدمة- دعم لمكانة الدين فى حياة الناس وبيان لأهميته.

- وإذا كان دين الإسلام هو خاتم الأديان وأتمها وأكملها وأرضاها لله تعالى، وإذا كان المبلِّغ بهذا الدين هو الرسول الخاتم ﷺ، وإذا كان كلما أمر الدين باتباعه، وكل ما أمر الدين باجتنابه يحقق للناس سعادتهم فى الدارين، وليس فيه شىء تأباه العقول السليمة، وليس فيه ما يشق على الإنسان فعله، وإذا كانت القيم التى جاء بها الدين تُخرج إلى الحياة نظامًا خلقيًا سليمًا يتمتع فيه كل ذى حق بحقه، ولا يخاف معها أحد سطوة حاكم ظالم، أو غنى جائر، أو مجرم فاجر.. إذا كان ذلك كذلك، ومع قيم الدين الإسلامى فإنها كذلك، فإن أهمية الدين وقيمه فى الحياة الإنسانية ومكانته مرتبطة بالتقدم والرقى

والسعادة والرفاهية، وذلك هو الـدين العظيم الذى أنعم الله به على الإنسانية إذ ختم به الأديان.

- إن هذه القـيم الدينيـة عندمـا تمسك بهـا المسلـمون فكـانوا أقويـاء فى دينهم وإيمـانهم وإسلامهم وإحسانهم؛ كانوا أكثر الأمم قوة وازدهاراً وتقدمًا فى ميادين العلم والعقل.

وما تخلف المسلمـون ووصلوا إلى هذه الدرجة التى ضعـفوا فيهـا عن الدفاع عن دينهم وقيمهم، إلا وقد ضعفوا فى ميادين العلم والعقل والتدين الصحيح.

ولا يزال علاج المسلمين ممكنًا وتجاوز الضعف والتـخلف مستطاعًا إذا تمسكوا بقيم دينهم فأخذوا من العلم بحظ وافر، وأخذوا من التقدم بنصيب كبير.

وحسب المسلمين مـهما ضعفوا أنّ فى أيديهم دين الله الـذى أكمله وأتمه وتكفل بحفظه إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ لأن مصادر هذا الدين وقـيمه لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها كتاب الله الحكيم وسنة رسوله الكريم ﷺ.

فما هى مصـادر هذا الدين الخاتم؟ ولماذا تكفل الله تعالى بحفظه بينما اسـتحفظ الرهبان والأحبار على كتبه السابقة فضيعوا وعاثوا فيها فسادًا؟ ذلك ما نوضحه الآن.

- مصادر القيم الدينية:

كلمـا كـان المصدر أوثق وأقـوى فى دلالتـه، وكـان صادراً من ثقـة، كـان أدعى إلى الاطمئنان إليه، وأولى بالاحترام والثقة والتقدير.

* ومصادر القيم الدينية عندنا- معشر المسلمين - ثلاثة:

* القرآن الكريم،

* وأحاديث النبى ﷺ،

* وسيرته صلوات الله عليه وسلامه.

وهذه المصادر الثلاثة خُـصَّت بميزات لا توجد فى أى مصادر أخـرى بالغةً ما بلغتْ من المكانة.

وتلك الميزات هى:

أولاً: أن مصـدر هذه الثلاثة واحد هو الوحى الإلهى الذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد.

ثانيًا: هذه المصادر قد تكفل الله بحفظهـا بنفسه سبحانه وتعالى، بينما استحفظ الأحبار والرهبان على وحيه إلى رسله عليهم السلام الذين جاءوا قبل محمد ﷺ.

ثالثًا: أن هذه المصادر كاملة تامة كافية لعلاج كل أدواء البشر وقادرة على تمكين الناس من أن يُشقُّوا بها طريقًا لاحبًا يوصلهم إلى العمل الذى يحقق لهم سعادة الدنيا والآخرة؛ لأن الله تعالى هو الذى أخبر بذلك وأكَّده.

* أما أن هذه المصـادر من عند الله تعالى فقـد توافرت على صحـة ذلك أدلة العقل والنقل، وتأيدت هذه الصحـة بمواقف عديدة تؤكـد صدق النبى ﷺ فى إخبـاره الناس بأنه يوحى إليه، وباستماع الناس للقرآن الكريم وعجزهم عن مـحاكاته -وهم أهل الفصاحة والبيان- وتدبرهم فيما اشتمل عليه القرآن من معجـزات، كما تأكد صدقه ﷺ فيما يخبر به الناس من أحاديثه البـالغة الحكمة التى لا يستطيع مـحاكاتها أحد، كـما تأكد صدقـه بسيرته فى الناس وتعامله معهم، حتى إنهم أحبوه بعد أن عادَوْه، وأطاعوه بعد أن بالغوا فى عصيانه.

- ولقد أخبر الله تعالى بل أقسم سبحانه وتعالى على صدق محمد ﷺ، وتوعده إن هو أخبر عن الله تعالى بما لم يوح إليه به، فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٤٧]

* وأما أن الله تعالى قد تكفل بحفظ هذه المصادر التى رأسها وقمتها القرآن الكريم، فلقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

* قال علماء تفسير القـرآن الكريم: قال الله تعالى عن التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فحفظه الله تعالى علينا فلم يضع.

- ولو كان القرآن الكريم من قول البشر لتطرقت إليه الزيادة والنقصان، ولكان قد اشتمل على الاختلاف، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

- وأنواع الحفظ التى حفظها الله تعالى للقرآن كثيرة منها:

* حفظه من التلاشى والضياع.

* وحفظه من الزيادة أو النقصان.

* وحفظه بأن يَسَّر تواتره.

* وحفظه بأن سلَّمه من التبديل والتغيير.

* وحفظه بأن جعل كثيرًا من الناس يحفظونه عن ظهور قلوبهم فى حياة النبى ﷺ وإلى يومنا هذا، بل إلى يوم الدين.

- وحفظ الله تعالى للقرآن الكريم تَضَمَّن حفظه لسُنَّة رسوله التى بيَّنت القرآن الكريم وفصَّلته، ولسيرته التى عبَّرتْ عن أحكام القرآن الكريم وآدابه فى صورة سلوكية تطبيقية نبوية تعطى القدوة وتعين عليها، والمؤمن له فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، مادام يرجو الله واليوم الآخر.

* وأما أنّ هذه المصادر كاملة تامة كافية، قادرة على علاج كل أدواء البشر، وكفيلة إن اتبعها الناس أن تحقق لهم سعادة الدارين، فإن لنا على صحة ذلك أكثر من دليل.

* فمن الأدلة على صحة ذلك:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

- وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفَقْر ونتخوفه فقال: «آلفقر تخافون؟ والذى نفسى بيده لتُصَبَّن عليكم الدنيا صبًا حتى لا يزيغ قلب أحد منكم إزاغة إلاَّ هِيَه، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».

– وروى أحمد بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: نزل القرآن وسنَّ رسول الله ﷺ السُّنَن، ثم قال: «اتبعونا فوالله إن لم تفعلوا تضلوا».

– وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم؛ كمثل غيث أصاب أرضًا؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا،

وأصاب طائفة منها أخرى: إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً.

فذلك مَثَلُ من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعَلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلتُ به».

– وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «دعونى ما تركتكم، إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

وإن عددًا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الأخرى ليؤيد قدرة القرآن الكريم والسنة والنبوية على حل كل مشكلة تواجه المجتمع أيًا كان نوع هذه المشكلة وأيًا كان حجمها.

* ومن الأدلة على صحة ما نقول:

– أن التطبيق العملى لما جاء به الإسلام من نظم وأحكام ولما دعا إليه وحببً فيه من قول وعمل، أكد لكل المشاهدين من مسلمين وغير مسلمين قدرة المنهج الإسلامى والنظم الإسلامية على حل جميع المشكلات التى قد تتولد عن الحياة الاجتماعية واختلاط الناس بعضهم ببعض، شهد بذلك القاصى والدانى.

– وأن مجموعة القيم الإسلامية التى جاء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتطبيق العملى لهذه القيم فى السيرة النبوية، أكدت لكل مَنْ رأى ومَن سمع أن هذه القيم هى أمثل القيم وأنبلها وأشدها دعمًا لكل المعانى الإنسانية الرفيعة التى تحفظ على الإنسان كرامته الإنسانية، وترفع عنه كل أنواع الظلم وتوفر له كل أنواع الحريات الطبيعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

– وأن ما جاء به الإسلام فى الكتاب والسنة لا يستطيع العقل السليم أن ينكرها، أو أن يقدم دليلاً على بطلانها أو على تكذيبها.

بل إن العقل الإنسانى كلما بلغ مرحلة من مراحل الارتقاء العقلى والعلمى، كلما أيقن أن ما جاء به الإسلام من منهج ونظام وأحكام وآداب وقيم هو الصحيح الصائب الذى يكفل للإنسان الحياة الإنسانية الكريمة.

- وأن الذين يدينون بدين إلهى ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه يؤكدون أن منهج الإسلام ونظامه وأحكامه وآدابه وقيمه، يكفل تطبيقها والتمسك بها للإنسان سعادة الحياة الآخرة التى هى الحياة الحقيقية لأبديتها وخلود الإنسان فيها.

- وأن المنظومة التى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منظومة متكاملة فى كل مجال قررته مع تعدد المجالات التى جاءت فيها، وعلى سبيل المثال:

* فإن منظومة الإيمان: وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر والقضاء منظومة متكاملة إن أنكر الإنسان واحدًا من أركانها بطل الإيمان وانهار بل وتحول إلى كفر مع التأكيد على أن هذه الأركان للإيمان لا يشق على أحد أن يحققها ويطبقها فى حياته.

* وإن منظومة الإسلام وهى النطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، منظومة متكاملة، يعد إنكار ركن منها كفرًا، ويعد ترك أحدها فسقا وفجورًا يعاقب عليه الله تعالى.

* ومنظومة الإحسان وهى: عبادة الله تعالى كأننا نراه، وبالقطع هو يرانا، والإتقان والإجادة وإيصال الخير لكل الناس وكف الشر عنهم.

من أخل بشىء من هذه المنظومة فقد أخل بما دعاه الله تعالى إلى القيام به، وهو تقصير يصل إلى حد الفسق أحيانًا.

* ومنظومة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر...

* ومنظومة الدعوة إلى الله تعالى والحركة بدينه فى الناس والآفاق...

* ومنظومة الجهاد فى سبيل الله لكى تكون كلمة الله هى العليا، ولكى يمكَّن لدين الله فى الأرض....

هذه المنظومات فى تلك المجالات وغيرها مما لم نذكر متكاملة وقادرة عند التمسك بها على تحقيق سعادة الإنسان فى دنياه وآخرته.

جـ- سنة الله تعالى فى الأديان وقيمها

- سنته سبحانه وتعالى فى الأديان:

يعلم الله تعالى -وهو بكل شىء عليم- أن البشرية كلها من لدن آدم عليه السلام وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين؛ لا تستطيع أن تشق طريقها فى الحياة الدنيا إلا فى هدى منهج إلهى ونظام وعمل يحمى هذا المنهج ويكفل له التطبيق.

فشاء الله تعالى أن تكون الأديان هى هذا الهدى أو ذلك النور الذى تسعى البشرية فى طريقها على هداه، وكل دين كان ملائمًا للناس الذين أنزل عليهم وللمجتمع الذى يعيشون فيه وللبيئة التى ينتمى إليها ذلك المجتمع، تلك سنة الله تعالى فى الأديان فى تاريخ البشرية كلها، إلى أن كان الدين الخاتم فجعله الله ملائمًا للناس جميعًا فى كل زمان يعيشون فيه وفى كل مكان يجمعهم إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

ولقد كان دين إبراهيم عليه السلام ملائمًا لقوم إبراهيم وللزمان والمكان اللذين يعيش فيهما قوم إبراهيم عليه السلام.

وكذلك كان الشأن فى الدين الذى أنزل على موسى عليه السلام ملائمًا لقومه ولزمانهم ومكانهم.

ولم يختلف دين عيسى عليه السلام عن ذلك، لأن تلك سنة الله تعالى مع الأديان.

فلما كان الإسلام الخاتم والدين الخاتم والنبى الخاتم ﷺ كانت سنة الله تعالى فى هذا الدين أن يجعله ملائمًا لكل الناس فى كل زمان ومكان.

* ولقد كانت مع هذه الأديان السماوية أديان أو شرائع من عند الناس اشتهرت منها شرائع عديدة منها.

- شريعة الفراعنة وديانتهم، ق. م.
- وشريعة «حمورابى» ملك بابل، ق.م.
- وشريعة «البراهمة» وهم كهنة الهندوس. ق.م.
- وشريعة يهوذا أو دينه، ويزعم بعض الباحثين أن له كتابًا تضمن دينه يسمونه الإنجيل، وعاش بوذا قبل الميلاد بخمسة قرون تقريبًا.

- ونظام «كنفوشيوس» الأخلاقى الذى استمد كثيراً من العناصر الدينية التى سبقته، وكان هذا النظام أيضًا قبل الميلاد بما يقرب من خمسة قرون.

* غير أن هذه الشرائع أو الأديان أو المذاهب لم تستطع أن تجلب للناس سعادة الدنيا وأمنها، مع تجاهلها للحياة الأخرى، وما فيها.

* من سنة الله تعالى أن يجعل هذه الأديان وما فيها من مناهج ونظم، ومن مبادئ وقيم مُعينة للإنسان على معرفة غايته وهدفه فى الحياة الدنيا، وهى قيم تيسر للإنسان طريق الوصول إلى تحقيق هدفه وغايته.

وللإنسان وسائل عديدة يستعين بها على تحقيق هدفه وغايته من الحياة، ومن ذلك:

- بذل ما يستطيع من جهد وطاقة عقلية وروحية وخلقية واجتماعية، يرى فيها عونًا على تحقيق هدفه، ولا شيء يعين على الوصول إلى الهدف مثل التمسك بالقيم الدينية التى أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

- والمزج بين هدف الفرد وهدف المجتمع، لأن هدف الفرد هو هدف المجتمع فى المجتمع المسلم على الخصوص، بل فى المجتمعات عمومًا، وذلك أنه لو حدث انفصال بين هدف الفرد وهدف المجتمع لحدث تصدع فى المجتمع وتضارب فى المصالح الذاتية والعامة مما ينذر بإصابة الحضارة فى مقتل، ومعنى ذلك أن ركب الحضارة يُعَوَّق ويُحاد به عن الطريق القويم.

- ومن المؤكد أن هدف الإنسان وهدف المجتمع الإنسانى عند التدبر والتأمل والنظر هو من صميم ما فطر الله عليه الإنسان والمجتمع؛ وذلك أن كل إنسان خلقه الله أودع فى فطرته، أن يعيش هذه الحياة الدنيا ويكد ويسعى ما وسعه لكى يحقق لنفسه الأمن والسعادة، والحصول على العيش الرغيد من سبله غير المشقية، وكل الناس فى ذلك سواء، لأن ذلك هدف قد فطر الله عليه الناس جميعًا.

- والدين منهجه ونظامه وقيمه قد جعله الله تعالى كفيلاً بتحقيق هذا الهدف أو تلك الغاية ما دام قد صحب ذلك عمل وجد وإخلاص والتزام بالمنهج ومسارعة فى أداء الواجبات التى يعرضها المنهج، وممارسة الحقوق التى يقرها المنهج وترضاها مبادئه وقيمه.

- ومن سنن الله تعالى فى كل دين سماوى أن جعله مشتملاً على إقدار الناس والمجتمعات على تحقيق أهدافهم دون عنت أو مشقة، ووضع فى كل دين أحكامًا وقيمًا تجعل التنافس بين الناس فى تحقيق أهدافهم لا يجرهم إلى عداء أو تناحر لأنه محكوم بقيم الإسلام التى تقيم أكبر وزن للتآخى والتعاون بين الناس.

- وهذه الأحكام وتلك القيم يلتزم بها كل مسلم ؛ إرضاء لله تعالى، ولا يخرج عنها خوفًا من غضبه، وتجنبًا للتسبب فى عجز بعض الناس عن تحقيق أهدافهم فى الحياة، أو فتح بعض أبواب الشر فى وجوههم، وفى الإسلام ما أشقى الذى يكون سببًا فى فتح باب الشر أو سببًا فى إغلاق باب الخير وما أسعد من كان سببًا فى فتح باب الخير.

روى ابن ماجة بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إنّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل مفاتيح الشر على يديه»**، وما تفتح أبواب الخير ولا تغلق أبواب الشر إلا من خلال التمسك بالقيم الإسلامية.

* أما هدف المجتمع السَّوِى الذى لا يريد قادته علوًا فى الأرض ولا فسادًا، ولا تحكمهم الأنانية والغطرسة، هدف المجتمع المبرأ من تلك العيوب هو: النجاة من المخاوف والمتاعب.

- وقد حاول بعض أهل الأديان أن يصلوا إلى هذه النجاة بأن اعتزلوا الناس، ودخلوا فى الرهبانية فضلوا بذلك عن الطريق وخرجوا عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فتحدوا بذلك سنة الله فى دينه وتحدوا قيم هذا الدين.

- وحاول آخرون من أهل الأديان أيضًا أن يقصروا النجاة على أهل سلالة بعينها من البشر، أو قصروها على سكان بقعة بعينها من الأرض، فكانوا بذلك خارجين عن سنة الله تعالى فى الدين، وسننه فى القيم التى جاء بها الدين.

* وهناك غاية تجمع بين الفرد والمجتمع فى هذه الحياة الدنيا وهى مرضاة الله تبارك وتعالى، وهذه الغاية أنبل الغايات ولا يتيسر الوصول إليها إلا من خلال خطوات يلتزم بها الإنسان فى حياته الدنيا.

تلك الخطوات هي:

- توحيد الله تعالى إلهًا وخالقًا وربًا ورازقًا؛ وقيوم السماوات والأرض.
- عبادة الله وحده لا شريك له، عبادة شرعها الله تعالى وأوحى بها وبكيفيتها إلى رسله عليهم السلام، وفصَّلها فى شريعة خاتم رسله محمد ﷺ.
- والالتزام بمنهجه وشريعته سبحانه وتعالى وتطبيق أحكام هذه الشريعة فى حياة الناس وفى كل ما يحيط بهم من تعامل بعضهم مع بعض وتعاملهم مع مفردات الكون كلها.

إن تطبيق هذه الشريعة هو التنظيم الدقيق لحياة الإنسان الدنيوية السعيدة الناجحة، والضمان الوحيد لحياته الأخروية السعيدة.

- إن الالتزام بمنهج الإسلام وتطبيق شريعته هو الذى يحرر الإنسان من القيود التى يفرضها الظالمون على حقوقه وحرياته. بل إن هذا الالتزام بالمنهج هو الذى يعطيه القدرة على التغيير لكل قيد على حريته، ويعطيه الحق فى هذا التغيير بل يحدد له وسائل التغيير ويرسم أبعاده وأهدافه.
- والإيمان بأن منهج الله الذى جاء به الدين الخاتم هو أكمل المناهج وأقدرها على علاج كل مشكلات الحياة، وأنه أعدل المناهج لأنه لا يعرف المحاباة، إنه منهج الرب الواحد لعباده الذين خلقهم من أب واحد، ويجمعهم فى يوم واحد يحاسبهم فيه على ما قدموا فى حياتهم الدنيا من عمل صالح أو غير صالح، بعدما أمرهم فى الدنيا بالعمل الصالح.
- واليقين بأن الالتزام بمنهج الله وشريعته متوافق تمامًا مع ما أودع الله تعالى فى الكون من قُوًى قد تبدو فى بعض الأحيان متحدية لأمن الإنسان وطمأنينته وإن كانت الحقيقة أن الله تعالى سخرها لصالح الإنسان إن تعامل معها وفق منهج الله تعالى وشريعته؛ لأن من سنن الله تعالى أن جعل فى الأديان لمن تمسك بمناهجها من الناس أن ينعموا بالوئام مع مفردات الكون كلها، لأن هذه المفردات ما خلقها الله تعالى إلا لصالح الإنسان.

- والإيمان العميق بأن سنة الله فى الأديان السماوية التى أوحى بها إلى رسله عليهم السلام هى التى تُعلم الإنسان كيف يعيش حياته الدنيا فى أمن واطمئنان وكيف تحقق له النجاة فى الآخرة بوصفها طوق نجاة فى بحر الحياة المتلاطم الموج، الحافل بعديد من المخاطر، وقد أكرم الله الإنسان بالدين وعلمه من خلاله كيف يعيش وكيف ينجو من المهالك ويصل إلى غايته وهدفه فى أمن وسلام.

* واتباع هذه الخطوات هو الذى يؤدى بالفرد وبالمجتمع إلى تحقيق أنبل الغايات وهى رضا الله تبارك وتعالى، وتلك هى سنة الله تعالى فى الأديان وفى دينه الخاتم على وجه الخصوص.

* وإذا كانت تلك سنة الله فى الأديان فما سنته فى قيم هذه الأديان؟

ذلك نوضحه فيما يلى:

- سنته سبحانه وتعالى فى القيم الدينية:

* القيم الدينية كلها من عند الله تعالى، فمصدرها إذن واحد، وهذه القيم - عند التحقيق والتدقيق- هى الملاذ الآمن وهى الصراط المستقيم الذى وضعه الله تعالى فى الأديان لكى يصل الناس بها إلى سعادة معاشهم ومعادهم، وبالتمسك بهذه القيم يُنجِى الناسُ أنفسهم من العقاب والعذاب، فى الدنيا والآخرة.

* وهذه القيم الدينية هى الهدى كل الهدى للبشرية كلها فى كل زمان ومكان، من لدن أبينا آدم عليه السلام الذى أخبره الله تعالى أنه سوف يهبطه الأرض ويؤتيه هدًى؛ من اتبعه فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن هذا الهدى فقد خسر دنياه وآخرته. وما هذا الهدى إلا الدين وما فيه من قيم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٧].

* وهذا الهدى أو القيم الدينية كلها قد جاءت من عند الله وعلى ألسنة رسله عليهم السلام، وقد زخر بها الكتاب الخاتم القرآن الكريم، وفصلتها، وعددتها واحدة واحدة سنة النبى الخاتم ﷺ.

* وإذا كانت القيم هى الهُدَى فى معناها العام، وهى الطريق إلى الله تعالى وإلى مرضاته، فهى التى تمكن الإنسان من السعى على الصراط المستقيم، صراط الله تعالى ومنهجه ونظامه.

والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة الدالة على أن الهدى - أى القيم التى يهتدى الناس بالتمسك بها- هى من عند الله تعالى عديدة، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ [الليل: ١٢، ١٣].

- وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

- وقوله تعالى عن أنبيائه ورسله الذى هداهم إلى صراط مستقيم: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام ٨٣- ٩٠].

- وقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠].

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣]

-وقوله جل شانه: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥].

- وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩].

* ومن الأحاديث النبوية التى تشير إلى أن الهدى فى هذا الدين وفى اتباع النبى الخاتم ﷺ:

- ما رواه أبو داود بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السَّبع، ولا لُقطة المعاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها....»**.

- وروى ابن حبان بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس عليكم بالقصد، عليكم بالقصد، فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا»**.

- وروى الحاكم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تركتُ فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتى»**.

- وروى البخارى بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعالوا بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»**.

هذه نماذج من القيم الإسلامية فى هذا الحديث الشريف عليها وعلى مثلها يقوم بناء المجتمع المسلم الراشد الأمين المهتدى بهدى الله تعالى.

- وروى الطبرانى عن عبد الله بن سرجس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«التُّؤَدة والاقتصاد، والسَّمْت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة»**.

- وروى البيهقى -فى الشعب- بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله، والجماعة بركة والفرقة عذاب»**.

– وروى الطبراني –في الأوسط– بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«ثلاث منجيات: خشية الله تعالى فى السر والعلانية، والعدل فى الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات: هَوًى مُتَّبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه»**.

– وروى أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا؛ صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعِفَّة مطعم»**.

– وروى الطبراني –في الكبير– بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سُلِّط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِس عنهم القطر»**.

– وروى النسائي بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينه»**.

* والأحاديث النبوية الشريفة التى تشيد بالقيم التى جاء بها الإسلام، وتدعو للتمسك بها، أكثر من أن تجمع فى هذه الصفات من الكتاب، وذلك أن الكتاب كله يحاول جمع هذه القيم، وأسأل الله التوفيق.

وبعد: فما هى سنة الله تعالى فى القيم الدينية عمومًا وفى القيم الإسلامية خصوصًا؟

* إن سنة الله تعالى فى القيم الإسلامية أن يؤدى التمسك بها إلى خير الإنسان فى معاشه ومعاده، وأن يرفع عنه الإصر والحرج فى أعماله، وأن يجنبه الوقوع فى الخطايا والأخطاء كبائرها وصغائرها، وعلى سبيل المثال:

– التمسك بالقيم الإسلامية يتيح للإنسان أن يعبد الله ويستجيب لأمره ونهيه دون وساطة من أحد بينه وبين الله تعالى، ويجعله يوقن بأن هؤلاء المتوسطين بين الله تعالى وعباده دجالون كذابون مهما كان موقعهم من الدين ومهما كانت مكانتهم من الناس.

ومن استجاب لهؤلاء الكذابين وقع فى الشرك إذ يتخذ منهم وساطة بينه وبين ربه، مع أن الله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، لأنهم فى الحقيقة يتخذون هؤلاء الوسطاء أربابًا من دون الله.

- ومن سنة الله تعالى فى هذه القيم الإسلامية أن التمسك بها يحقق الأمن للفرد والجماعة والمجتمع كله، ومصدر الأمن والإحساس به هو الثقة التى يولد التمسك بالقيم الإسلامية فى نفوس الناس ثقة فى الله تعالى الذى شرع هذه القيم وأمر بالالتزام بها، وثقة فى الناس الذين يلتزمون بهذه القيم.

إن التمسك بالقيم الإسلامية يحول بين المتمسك بها والوقوع فى ظلم أحد من الناس، وإذا ارتفع الظلم من المجتمع شعر الناس بالأمن على كل مستوى من مستوياتهم.

- ومن سنة الله تعالى فى القيم الإسلامية أن جعل التمسك بها يحقق للفرد وللجماعة التوادّ والتراحم، والتعاون على البر والتقوى فى الدنيا، لأن ذلك هو صميم القيم الإسلامية.

كما جعل الله تعالى التمسك بهذه القيم ينجى الناس من التقصير الذي يؤدى إلى حساب الله تعالى وعقابه فى الآخرة.

- ومن سنته سبحانه وتعالى فى التمسك بالقيم الإسلامية عندما يلتزم الحاكم والحكومة وإدارتها والمسئولون عن مواقع العمل فيها، أن تحقق للدولة السيادة وللأمة التقدم والرقى، وتحقق للدولة وللأمة القدرة على مواجهة التحدى ورد العدوان، والتمكين لدين الله تعالى وللحق فى الأرض.

* وإذا كانت هذه هى القيم وتلك سنة الله تعالى فيها، فإن لهذه القيم أعداء هم فى الحقيقة أعداء الله تعالى وأعداء دينه، فمن هم هؤلاء الأعداء؟

ذلك مانحاول أن نوضحه فى الصفحات التالية والله تعالى هو الموفق المعين.

د- أعداء القيم الدينية

لابد أن يكون للقيم الدينية أعداء كثيرون كما أن للدين نفسه أعداء كثيرين، ولله ذاته أعداء أيضا.

ولأن القيم الدينية تعقل الناس عن الوقوع فى الشر، وتحول بينهم وبين الرذائل، وتضبط لهم التعامل مع الشهوات، فلابد أن يعاديها الأشرار والراذلون والمسرفون فى التعامل مع شهواتهم.

وهؤلاء الأعداء للقيم الدينية أعداء قدامى؛ أساءوا الظن بالله تعالى وجحدوه فأشركوا به، أو أساءوا الظن بالرسل عليهم السلام فكذبوهم فكفروا بما جاءوهم به، أو ضاقوا بما فرضه الله على الناس وما ألزمهم به من أحكام وآداب، ففسقوا وخرجوا من شرع الله تعالى.

وربما كان أعداء الله تعالى من الذين ملأهم الغرور، فخُيِّل إليهم أنهم يضعون لأنفسهم نظما وتشريعات يستغنون بها عما شرع الله تعالى من دين، وهؤلاء هم العلمانيون الذين يعزلون دين الله ومنهج وقيم هذا الدين عن حياتهم الدنيا عزلا كاملا، ظانين أنهم يحسنون صنعا!!

وقد يكون أعداء القيم الإسلامية من الطامعين الراغبين فى السيطرة على البلاد والعباد الذين يحركهم الجشع والطمع وهؤلاء حكام الولايات المتحدة الأمريكية الذين يشنون الحروب على من هم أضعف منهم ناصرًا وأقل عددًا، فيخترعون لأنفسهم ما سموه نظاما عالميا جديدا نادى به «جورج بوش» الأب وإدارته، وهدفهم هو السيطرة على دول العالم وإخضاعها سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا.

ولا أقول هذا كراهية للإدارة الأمريكية -وإن كانت جديرة بأن تُكره- وإنما يقول ذلك بعض قادتهم ومفكريهم. وغالبًا ما يكون من هؤلاء الأعداء للقيم الدينية الصهيونيون الذين يضمرون الحقد ويوجهونه إلى كل من هو غير صهيونى حتى لو كان من اليهود.

وكثيرا ما يكون أعداء القيم الإسلامية هم الحكام والقادة المستبدين الذين يشعرون أن القيم الدينية تهدد مصالحهم ومناصبهم، وهؤلاء ربما كانوا أضرى أعداء القيم الدينية.

* ولنلق ضوءًا على هؤلاء الأعداء يتلاءم مع طبيعة هذا الكتاب.

أولهم: أعداء فى العقيدة:

وهم أربعة أنواع:

أول هؤلاء الأعداء هم الملحدون المشركون:

والملحد هو المائل عن الحق.

والمشرك الذى يعتقد تعدد الآلهة وذلك ميل عن الحق، فكل مشرك ملحد، والإلحاد أنواع:

- الإلحاد إلى الشرك بالله ينفى الإيمان ويبطله.
- وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، وذلك يضعف الإيمان ويوهنه وينقصه.
- والإلحاد فى أسماء الله تعالى وصفاته هو: وصفه سبحانه وتعالى بمالا يصح وصفه به أو تأويل أوصافه بما لا يليق، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

هذا عن الإلحاد.

*** أما الشرك فهو نوعان:**

- الشرك العظيم: وهو إثبات شريك لله تعالى، وجزاء هذا المشرك هو النار يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة: ٧٢].
- والشرك الصغير: وهو مراعاة غير الله تعالى معه سبحانه فى بعض الأمور، وهذا الشرك هو الرياء والنفاق المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩٠].

* وبعض العلماء يرون أن المشركين هم منْ عدا أهل الكتاب، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [الحج: ١٧].

فقد أفرد المشركين عن اليهود والنصارى - الذين هم من أهل الكتاب أى التوراة والإنجيل.

* والكفار لفظ أعم من لفظ المشركين، إذ يدخل فى كلمة الكفار كل من قال: عزيرٌ ابن الله، وكل من قال: المسيح ابن الله، وقال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، فقد أوعد الله كل الذين قالوا ذلك بالعذاب وسفَّه أقوالهم.

وثانى هؤلاء الأعداء هم الكافرون:

والكافر هو من جحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو جحد ثلاثتها.

* وكلمة الكفر تستعمل أكثر ما تستعمل فى الكفر بالدين.

* وتطلق كلمة الكفر على مَنْ جحد نعمة من نعم الله تعالى.

* ولما جُعل كل فعل محمود من الإيمان، جعل كل فعل مذموم من الكفر.

* وهؤلاء الكفار جميعًا أعداء الله تعالى، وأعداء الدين وأعداء القيم الدينية، بسبب أن القيم الدينية تتعارض مع ما يعتمل فى نفوسهم من أسباب الكفر ودواعيه، ولا ترضى فيهم غرور الكفار بتصورهم أنهم على الحق فى جحدهم للتوحيد وللنبوة والشريعة، وجحدهم لنعم من أنعم عليهم.

إن الكافر فى حقيقته مغرور وجاهل وبعيد عن الصواب؛ لأنه بعيد عن العقل والحكمة، إذ يخيل إليه بسبب ضعف عقله أنه يستطيع أن يستر الحقائق التى لا تخفى على أحد من العقلاء.

إن الكافر لا يستطيع أن يتلاءم مع القيم الدينية ولا أن يتعامل مع الناس على أساسها، لأنها لا تقره على كفره وجحده، ولا ترضى عن أقواله وأعماله ولا عن معاملاته مع من يحيطون به من الناس، بل لا يمكن أن يكون منه اعتراف أو استجابة للقيم الدينية وهو على هذا القدر من الكفر والجحود والباطل.

إن جحد الكافر للألوهية يعنى معاندة الفطرة التى فطر الله عليها الناس، وجحد النبوة تكذيب لله تعالى ولأنبيائه ورسله، وجحد الشريعة يعنى تعطيل العقل.

* ولقد وصف الله تعالى الكفار بعدة صفات منها:

أنهم صُمُّ الآذان عن الحق.

وأنهم عمى البصائر.

وأنهم خُرس الألسنة.

وأنهم لا ينطقون بخير.

وأنهم لا يصدرون عن عقل.

وذلك واضح فى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

* وتوعد الله تعالى الكافرين بأنهم وقود النار وأن أموالهم وأولادهم لن يغنوا عنهم من عذاب الله من شيء، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

* وتوعدهم الله تعالى وأنذرهم وحذرهم مخبرًا إياهم بأن ما يرون فيه أنفسهم من إمهال الله تعالى لهم فى العمر أو تهيئته لهم أسباب النعيم فى حياتهم الدنيا هو خير لهم، لأن إطالة العمر وسعة الرزق قد أفضيا بهم إلى الاستمرار فى ارتكاب الآثام واستحقاق ما أعد الله لهم من عذاب مهين؛ قال الله تعالى فى ذلك: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وفى نفس المعنى وتهديد الكافرين بسوء المأوى، قوله تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وثالث هؤلاء الأعداء هم الفُسَّاق:

الفاسق هو من شهد بالدين واعتقده ولكنه لم يعمل به، بل خرج عنه وعما رسم الشرع.

والفسق يقع بالقليل من الذنوب والكثير منها.

والفسق يضفى على النفوس ظلمة فتسقط فى الضلال مرةً بعد أخرى، حتى يصير ذلك طريقا لهم، فما من ضلال إلا ومعه فسق فهما متلازمان.

وكل كافر فاسق، وكل ظالم فاسق، فالفسق أعم من الكفر والظلم.

– وللفُسَّاق صفات معروفة عرفنا بها القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

فهذه الصفات الكبرى للفساق تتفرع عنهـا معظم صفاتهم الأخرى وهى كثيرة تعود كلها إلى خروجهـم عن شرع الله تعالى ووقوعهـم فى ارتكاب ما حرَّم الله، كمـا عبَّرت عن ذلك آية قرآنية كـريمة هى قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ...﴾ [المائدة: ٣].

فكل هذه المحرمات وغيرها مما ذكر فى آيات قرآنية أخرى لا يخرج عنها إلا الفسَّاق.

- هؤلاء الفسّاق أعداء الله وأعداء الدين، وأعداء القيم الدينية لأنها تكبح جماح فسقهم وخروجهم عن شرع الله ونظامه.

ورابع هؤلاء الأعداء؛ هم العلمانيون:

وهم الذين يعزلون الدين وقيمه عن أنظمة الحياة الدنيا ويعارضون سيطرة الدين (الكنيسة عندهم) على الدولة وإدارتها والمجتمع ومؤسساته، سيطرة تعزى إلى الدين والانتماءات الدينية والطائفية.

- والعلمانية بهذا المعنى واكبت عصر النهضة العلمية فى أوربا، وقد نادت العلمانية بعدد من المبادئ من أبرزها:

* حصر الدين ووظائفه فى العلاقة بين الإنسان وربه.

* وفصل الدين عن الدولة.

* وتنظيم العلاقات الاجتماعية بعيدًا عن الدين وقيمه.

* وإخضاع المؤسسات جميعها لإرادة الناس يمارسون أعمالهم كيفما يرون، دون اعتبار لما يراه الدين، ولا لما تمليه القيم الدينية.

فهم بهذه المبادئ أعداء للقيم الدينية، بل هم فى عداء مستحكم مع هذه القيم.

- والعلمانية - فى جانبها الفلسفى - تقوم على النظرية التى تنادى بأن الإنسان هو محور الكون، وسيد نفسه، وحر الإرادة، وتزعم العلمانية أن الإنسان بعقلانيته قادر على أن ينظم حياته والمجتمع الذى يعيش فيه، بل يسخر كل إمكاناته لتحقيق سعادته.

- كما تقول العلمانية بأن «الديمقراطية» هى الأساس لضبط العلاقة بين الفرد والآخر، والمجتمع، والدولة.
- والعلمانيون بهذه المبادئ يعزلون الدين وقيمه عن الحياة الإنسانية، بل يعتبرون الدين وقيمه قيودًا على حرية الإنسان، ويحصرون الدين وقيمه فى العلاقة بين الإنسان وربه.
- ويقولون: ليس للدين ولا للقيم الدينية الحق فى التدخل فى الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، فضلا عن الحياة الخلقية السلوكية.

* من أجل هذا، ومن أجل غيره مما لم نذكر من مبادئهم، كان عداؤهم للدين وللقيم الدينية صارخًا، ضاريًا، مستفزًا، يحمل كثيرًا من الإساءة للدين وقيمه والزراية بمن يتمسك بها.

وثانيهم: أعداء فى السياسة:

أعداء القيم الإسلامية السياسيون، نذكر منهم هنا ثلاثة أنواع؛ العولميون، والصهيونيون والحكام المستبدون؛ فهؤلاء يعادون القيم الدينية من أعماقهم ومن أجل منافعهم المادية وجاههم وسلطانهم.

وأول هؤلاء الأعداء هم: العولميون.

العولمة فى مفهومها السياسى -الذى ابتكرته الولايات المتحدة الأمريكية- بعد فشل النظام العالمى الجديد - الذى نادى به «جورج بوش الأب» بعد حرب عاصفة الصحراء ليسيطر به على العالم وبخاصة دول العالم الثالث التى لا تستعصى على الاستغلال والدوران فى فلك دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية وأمثالها.

- العولمة فى كلمات هى: سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم؛ سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، وإعلاميًا، بل عسكريًا إن اقتضت الظروف.
- والولايات المتحدة الأمريكية تمارس هذه السيطرة بوضوح، ودون مواربة أو خجل، بل دون اعتبار للقانون الدولى الذى تستطيع أن تغير فيه ما تريد، من خلال هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن التى تخضع للسيطرة الأمريكية خضوعًا شبه كامل، بل تمارس هذه السيطرة على أى بلد من بلدان العالم دون اعتبار لاستقلال هذ البلد، وما يستوجبه استقلاله من حرية القرار.
- ومن أبى من بلدان العالم أن يخضع لسيطرة أمريكا، فقد عرَّض نفسه للحصار السياسى والاقتصادى الأمريكى الضارى، وتعرَّض للتشويه الإعلامى المتوحش، ثم للغزو العسكرى الحاشد.

- وكُتّاب أمـريكا أنفسهم يعتـرفون بذلك ومن أولئك الكُتّاب: «تشارلس جـونسون» وكيل المخابرات الأمريكية فى كتـاب له بعنوان: «الضرب العكسى» حيث يقول: «إن واشنطن أقنعتْ نفسها بأنها إذا أغلقت قاعدة واحدة[١]، أو أنها سمحت لدولة صغيرة[٢] أن تدير شئون اقتصادها الخاص، فإن النظام العالمى كله قد ينهار».

ثم يقول: «إن المؤسسة العسكرية الأمريكية تكاد تكون خـارج السيطرة المدنيـة، وإنها تلعب الدور الأسـاسى فى تكوين قناعات الرأى العـام الأمريكى، وأنهـا تحتكر صـناعة السياسة الخارجية».

* وإن الناظر إلى ممارسات الولايات المتحدة الأمريكية مع دول العـالم، ليتأكد أنها تتبنى نظرية العـولمة لتسـيطر على العالم، وبـخاصة بـعد انهـيار ما كـان يعرف «بـالاتحاد السوفيتى» وبعد التأكد من عجز «أوربا» عن أن تتوحد فتصير قوة موازية لقوة أمريكا، وكذلك عجز الصين واليابان عن منافسة أمريكا فى قوتها الطاغية.

إن الإدارة الأمريكيـة - لظروف عديدة - مـصابة بالغرور، وتليـها فى الإصـابة بهذا الغرور إسرائيل، ولا يستفيد بنظام العولمة أحد مـثل أمريكا وإسرائيل لامتلاكهما القوة المادية فى المال والسلاح.

أما المنادون بالصليبيـة الحديثة، أو القائلون بصراع الحضارات، أو أذناب الشـيوعية أو الاشتـراكية البـائدة، أو النازيون أو الفاشيُّـون الجدد، كل أولئك الذين حَـوَّل قادتهم بلادهم إلى سجون كبيرة يمارسون فيها باسم العولمة أسوأ أنواع انتهاك حقوق الإنسان.

- وإن نظرة إلى مـا تفعله أمريكا فـى أفغانسـتان والعـراق والسودان والصومـال، وباكسـتان وأندونيسيا، وبعض بلدان الخليج ليؤكد أن هذه العولمة شر مستطير، وخطر مبير، يستهدف الاستيلاء على خيرات تلك البلاد المغزوَّة أو السيطرة على مواقعها وإمكاناتها الاقتصادية أو السيـاسية أو الجغرافـية، ليكون كل ذلك فى صالح الإدارة الأمـريكية. وتلك هى حقـيقة العولمة فـيما شـاهدناه وأحسسنا به وقـامت عليه الشواهد والبـراهين -بعيدا عن التـعريف العلمى للعولمة-.

---

(١) يقصد من قواعدها العسكرية المنتشرة فى معظم بلدان العالم.

(٢) أتصور أن الدولـة الصغيـرة هى أى دولة ليس لها حق النقض لقـرارات مجلس الأمن، وكل تعـريف للدولة الصغيرة بغير ذلك يكذبه الواقع.

* هؤلاء جميعًا الإدارة الأمريكية وإسرائيل ودعاة صراع الحضارات والنازيون والفاشيون، وأنصار الصليبية الحديثة ومن لفَّ لفَّهم من دول الغرب والشرق، لابد أن يكونوا من أعداء القيم الدينية، لأنها تحول بينهم وبين الاستبداد والظلم والعدوان باسم العولمة.

* إن العولمة فى مفهومها الصحيح أن يكون السلام عالميًا وأن يكون الأمن السياسى عالميًا، وأن يكون الإنسان فى حياة إنسانية كريمة عالميًا، لكن الإدارة الأمريكية دأبت على المغالطات والأكاذيب فى صفاقة وبغير حياء!!

وثانى هؤلاء الأعداء السياسيين للقيم الإسلامية؛ هم الصهيونيون.

- والصهيونية فى كلمات:

* هى التى حولت المسألة اليهودية إلى مشكلة سياسية.

* وجعلت للمسألة اليهودية منظمة حركية.

* وربطت بين اليهودية ومعاداة السامية فى أوربا.

* وعملت على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين بضمانٍ وعونٍ وتأييدٍ من الدول الكبرى:

- بريطانيا صاحبة النصيب الأوفر فى ذلك، بل صاحبة القرار الظالم المشئوم على العرب، وعد بلفور «وزير خارجية بريطانيا» بوطن لليهود فى فلسطين، وكانت فلسطين فى قبضتها ومحتلة بقواتها العسكرية.

- وفرنسا بمشاركتها بريطانيا فى تقسيم العالم العربى منذ اتفاقية «سايكس بيكو» مع مطامع فرنسا فى أن تكون فلسطين تحت نفوذها، ولكن تغلبت بريطانيا فكانت فلسطين تحت إدارتها، لكن فرنسا دعمت إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين.

- وروسيا التى وافقت على ما قامت به بريطانيا وفرنسا تأييدًا للصهيونية فى مقابل استيلاء روسيا على تبزيزند وأرضروم وبحيرة فان وتبليس فى آسيا الصغرى، والاستيلاء على البحر الأسود، كما وافقت روسيا على أن تكون فلسطين تحت إدارة بريطانيا.

- وأمريكا التى كانت ولا تزال تساند إسرائيل وتتعهد بأمنها وحمايتها، وجعلها فى التسلح أقوى من جميع البلدان العربية والتى صرح أحد رؤسائها بأنه شخصيًا يتمنى

أن يحارب مع إسرائيل ضد العرب، أى ينحاز إلى المعتدى المغتصب ضد المعتدى عليه المطرود من أرضه.

إن الإدارة الأمريكية تجند مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح إسرائيل، وهى التى تجعل مجلس الأمن يخرس إزاء كل تحد من إسرائيل لقرارات مجلس الأمن ابتداء من قرار التقسيم لفلسطين بين العرب وإسرائيل وإلى قرار خارطة الطريق، وتسكت عن ضرب الجيش الإسرائيلى للمدنيين الفلسطينيين، وإذا دافع الفلسطينيون عن أنفسهم سمتهم أمريكا إرهابيين!! إلى آخر ما يعرفه العالم العاجز أمام أمريكا، وما تعترف به أمريكا نفسها من تحيز ظالم لإسرائيل.

- إن الصهيونية داءٌ وبيلٌ، بدليل أن بعض اليهود يرفضونها ولا يرون فيها وسيلة لدمج اليهود بالمجتمعات العالمية.

وقد اشتهر بذلك عدد من المفكرين، وعدد من المذاهب.

* فمن المفكرين اليهود الرافضين للصهيونية:

المربرجر، وإيزاك دويتشر، وأدوين مونجيو.

* ومن المذاهب اليهودية الرافضة للصهيونية:

- المذهب الأرثوذكسى؛ الذى يربط الوطن القومى لليهود بظهور المسيح المنتظر.
- والمذهب العلمانى الاندماجى؛ الذى يرفض خلط الدين بالقومية، ويرى أن علاج المسألة اليهودية هو الاندماج بالمجتمعات غير اليهودية التى يعيشون فيها.
- والمذهب الذى يعادى الصهيونية، وحجته أن اليهود أقلية تكونت فى المنفى، وأن الحل يكون بالنضال لتثبيت الهوية القومية، والدفاع عن حقوق اليهود.

* وبعد فإن الصهيونية لابد أن تكون من ألد أعداء القيم الدينية، لأن الدين وقيمه لا يجيز لها ارتكاب هذه الجرائم ضد الإنسانية، واستمرارها فى ذلك!!

وثالث هؤلاء الأعداء السياسيين للقيم الدينية هم: الحكام المستبدون.

* وذلك أن كل حاكم أو قائد مستبد أو ظالم؛ يشعر أن القيم الدينية تهدد منافعه ومصالحه، وما يتمتع به من جاه أو سلطان وما يمارسه من مطامع واستغلال لكل ما هو غير مشروع من الأعمال، وبسبب ذلك كان هؤلاء وسوف يستمرون أعدى أعداء القيم الدينية.

– إن القيم الدينية لا تسمح لحاكم أو قائد أو مسئول عن عمل، أو عن غيره من الناس، أو أى ذى منصب، لا تسمح لهؤلاء جميعًا بأن يسيئوا استغلال مناصبهم، ليحققوا من وراء ذلك نفعًا مـاديًا أو أدبيًا، أو يستطيلوا بذلك على الناس فيظلـموا، أو يحولوا بين الناس وحقوقهم أو حرياتهم.

وكل الأديان السمـاوية وقيـمها فى ذلـك سواء، والإسلام بوصـفه الدين الخـاتم أحاطه الإنسان بمزيد من الاحترام والتقدير والتكريم ورعاية الحقوق.

– روى ابن ماجة بسنده عن عبدالله بن عـمر رضى الله عنهما، قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: **«ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذى نفس محمد بيده؛ لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه وأن تظن به إلا خيرًا»**.

– وروى الترمذى بسنده عن عـبدالله بن عمر رضى الله عنهما قـال: صعد رسول الله ﷺ المنبر؛ فنادى بصوت رفـيع فقال: **«يا معشر من أسـلم بلسانه ولم يُفْض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيـروهم ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من تتبع عورة أخيه المسـلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله»**.

تلك كلمات النبوة فى حرمة الإنسان وفى وجوب الحفاظ على حقوقه وواجباته.

هـ- لماذا ختم الله الأديان بدين الإسلام؟

اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى ورحمتـه لعباده أن يختم الأديان السماوية كلها بدين الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لسببين كبيرين يتفرع كل منهما إلى عدد من الأفرع.

- أسباب تتصل بالدين الخاتم نفسه.

- أسباب تتصل بالرسول الخاتم الذى بلَّغ هذا الدين الخاتم عن ربه سبحانه وتعالى.

*** أمَّا الأسباب التى تتصل بالدين نفسه فمنها:**

١- عمومية هذا الدين وعالميته:

وتلك صفة لا يشاركه فيها دين آخر، ومن علامات هذه العمومية ودلائلها:

- أنه دين ليس خاصًا بزمن من الأزمان، وإنما هو لكل الأزمان.

- وأنه ليس خاصًا ببقعة من الأرض وإنما يعمها جميعًا.

- وأنه ليس خاصًا بناس بأعيانهم وإنما لكل الناس.

وقد أخبر الله تعالى بذلك عن هذا الذى تضمنه القرآن الكريم وسنة خاتم المرسلين ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

وكلمة العالمين جَمْع عالَم وهو: اسم للفلك ومـا يحويه من الجواهر والأعراض، كما يطلق على كل صنف من أصـناف الخَلْق، مثل: عـالم الإنس، وعالم الجن، وعـالم الملائكة، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الطيور..

وقد أمـر الله تعالى كل هذه العـوالم بالإيمان به وعبـادته فآمنوا به وعبـدوه وسبـحوا بحمده، فـعلوا ذلك مُسَخَّرين لا يملكون عصـيانًا ولا مخالفة، أمـا عالم الجن وعالم الإنس فقد آمنوا بالله وعبدوه مخيَّرين لهم حرية الإرادة وحرية الإيمان أوالكفر.

وعمومية هذا الدين الخاتم أن وجه إلى العـالمين من يوم جاء به محمد ﷺ وإلى قيام الساعة، وليست هذه العمومية لدين آخر غير دين الإسلام.

٢- والخطاب فيه موجه لجميع الناس:

والخطاب هنا يعنى التكليف، أى أن البشرية كلها مكلفة بأن تؤمن بهذا الدين الخاتم التام الكامل، حتى من كان من الناس على دين سماوى جاء قبل الإسلام، أما الكافرون والمشركون فهم مخاطبون بهذا التكليف، كما وجه الخطاب فيه إلى المؤمنين ليستمروا على إيمانهم.

وإنما كان الخطاب لهؤلاء جميعًا لأن فى الإيمان به نجاة لهم فى الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى فى خطاب الكفار: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [التغابن: ٧، ٨].

وقال سبحانه وتعالى فى خطاب أهل الكتاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [النساء: ٤٧].

وقال جل وعلا فى خطاب المؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

والمعنى أن الإنسانية يتوجه إليها خطاب الله تبارك وتعالى أن تؤمن بهذا الدين لكماله، وملاءمته لظروفها فى كل زمان ومكان.

٣- وأنه وحده الذى يهدى إلى الصراط المستقيم:

الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان لن تنال رشدها وتهتدى إلى الصراط المستقيم، صراط الله تعالى؛ إلا إذا آمنت بهذا الدين الكامل، وليس يساويه فى كماله دين أو نظام.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولفظ «هذا» فى الآية الكريمة إشارة إلى هذا الدين الخاتم الكامل وكتابه ومنهجه ونظامه.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢] فعبادة الله تعالى من خلال هذا الدين الكامل هى النجاة وهى الصراط المستقيم صراط الله تعالى.

٤- وأن من أسباب كمال هذا الدين أمرين:

أحدهما: أن الله تعالى وصفه بأنه دين الحق.

والآخر: أنه سبحانه وتعالى سيظهره على الدين كله.

- أما أنه دين الحق؛ فقد شاء الله تعالى له ذلك؛ إذ جعله خاتم الأديان وزوَّد كتابه ورسوله بالحجج البينات وتبيان كل شىء وتفصيله، وعدم التفريط فيه فى أى شىء وجعله يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم فى التمسك به أجرًا كبيرًا.

- وأما أنه دين سوف يظهره الله تعالى على الدين كله فقد أخبر الله تعالى بذلك فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فالآية الكريمة تخبر بأن الله تبارك وتعالى قد جعل الدين الخاتم دين الإسلام، وأنه تكفل بأن يظهره على الدين كله مهما كره المشركون إظهاره.

وما كان ذلك إلا لكمال الدين، وقدرته على تحقيق سعادة الدارين للمتمسكين به الملتزمين بأحكامه وآدابه.

٥- وأن كمال الدين وختمه ترتب عليه نسخ الأديان السابقة، وأن ذلك كان بسببين:

أحدهما: أن الأديان المنسوخة -وهى جميع الأديان التى جاءت قبل الإسلام- كانت محلية أو قومية أو مقيدة بزمن بعينه، وأنها لم تحفظ كما أنزلها الله تعالى وإنما أدخل عليها الضالون تحريفًا وتبديلاً.

والآخر: كمال الدين الخاتم ووفاؤه بمطالب الناس إلى يوم القيامة، كما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فليست سعادة الإنسان فى دنياه وآخرته إلا باتباع هذا الدين الكامل المحفوظ بحفظ الله تعالى الذى تكفل الله تعالى بأن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

- **وأما الأسباب التى تتصل بالرسول ﷺ فهى:**

* أن الله تعالى ميَّز الرسول الخاتم بعدة ميزات منها:

- أنه الرسول الخاتم، ومعنى ذلك أنه آخر الذين قد تنزل عليهم الوحى، وبعد فلا وحى من الله تعالى إلى أحد، وتلك ميزة كبرى تفيد منها الإنسانية كلها على يد هذا الرسول ﷺ.

- وأنه سبحانه وتعالى تَكَفَّلَ بحفظ هذا الرسول كما جاء فى قوله تعالى: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥] كما تَكَفَّلَ سبحانه وتعالى بحفظ الكتاب والوحى الذى أوحاه إليه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩] وتلك ميزة أخرى فى الرسول الخاتم ﷺ.

- وأنه سبحانه وتعالى اختار لغة آخر كتبه العربية فاختار خاتم رسله عربيًا، قال الله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ [مريم: ٩٧]، وقال جل وعلا: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [الدخان: ٥٨].

- وأنه سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظ سنة رسول الله ﷺ وسيرته إذ تكفل بحفظ القرآن الكريم، لأن النبى ﷺ هو ترجمان القرآن الكريم الذى يفصله ويخرجه إلى حيز التطبيق العملى بسيرته وأعماله.

ولم يكن حفظ لكلام رسول سابق ولا سيرته، كما كان لمحمد ﷺ.

- وأنه سبحانه خص خاتم رسله ﷺ قد ميزه بالإضافة إلى ذلك بخصائص منها:

* أنه رسول للعالمين، بشيرًا ونذيرًا، ولم يكن ذلك لأحد من الرسل عليهم السلام قبله، إذ كان لكل أمة رسول ولكل قوم هاد، وجعله ﷺ للعالمين نذيرًا.

* وأنه ﷺ أكمل رسالات الرسل الذين سبقوه فى الزمان إذ لم يشأ الله تعالى أن ينزل على أحدهم شريعة كاملة تامة عالمية، وإنما ادخر هذا المحمد ﷺ، فمنهج الله ونظامه لعباده جميعًا لم يكتمل إلا على يد محمد ﷺ.

و- خصائص الدين الذى ختم الله به الأديان

مما جعل الله تعالى فى هذا الدين من خصائص قَطَعَتْ بأنه الدين الأصلح القادر على تصحيح العقيدة والعبادة والتعامل مع الناس والأشياء ونظام الحياة الإنسانية، وأكدت عموميته ودوامه، وقيام مبادئه وقيمه على الرفق والرحمة، واشتمال نصوصه على الأصول القاطعة التى لا تحتمل تأويلاً باطلاً، واتصال تشريعه بالسلطان والقانون، وبيان أن الدعوة فيه موجهة إلى البشرية كلها فى جميع أنحاء الأرض وفى كل زمان ومكان.

وذلك ما نوضحه فيما يلى:

الخاصية الأولى:

أنه الدين الأصلح للإنسانية؛ لقدرته على تصحيح العقيدة والعبادة والتعامل مع الناس والأشياء.

- وتصحيح العقيدة أو إصلاحها عمل عقلى، يحتاج فيه الإنسان إلى عقل صاف نقى خال من الشوائب والأوهام والخرافات، بعيد عن الأباطيل وكل ما لا يقبله العقل من معتقد فاسدٍ مثل الاعتقاد بآلهة باطلة من شجر وحجر وشمس وقمر ونحو ذلك، ليحل محل ذلك كله عقيدة صحيحة فى إله واحد متصف بصفات الكمال منزه عن كل صفات النقص.

- وإصلاح العقيدة أهم ما بدأ به هذا الدين الخاتم، لأن العقيدة هى الأساس الذى تقوم عليه كل أقوال الإنسان وأعماله، وبها يكون اطمئنان قلبه إلى إلهه؛ خالقه ورازقه، محييه ومميته، وبذلك تنقشع عن عقله الضلالات والأوهام.

- ومن أجل ذلك عنى هذا الدين الخاتم بتحرير العقيدة من كل الشوائب، وشَرَحَها وفَصَّل فيها الحديث عن صفات الله تعالى وأفعاله وأسمائه، تفصيلاً لم يكن له نظير فى دين سابق وإنما كانت أمور العقيدة فى تلك الأديان مجملة، إذا قورنت بما فُصّل عنها فى الإسلام.

- ومن آثار صحة عقيدة المسلم أن اتصف بصفات أوحتْ إليه بها العقيدة الصحيحة مثل:

* عزة النفس والاعتزاز بالحق.
* والثبات على الحق دون تردد أو خوف أو تشكك.

* وحرية التفكير والاختيار والإرادة.

* ومعرفة حقوقه وواجباته فى الحياة الإنسانية.

* وحبه للعدل وممارسته له فى كل مجالاته.

* وتمسكه بحقوقه وأدائه لواجباته.

* واحترامه وتقديره للطرف الآخر والحوار معه ومجادلته بالتى هى أحسن حتى يتبين الرشد من الغى.

والخاصية الثانية:

التى خص الله تعالى بها الدين الخاتم هى قدرته بوصفه منهجًا ونظامًا على تنظيم شُعب الحياة الإنسانية كلها، نفوس الناس، وعلاقاتهم بما يحيط بهم، ولتوضيح ذلك نقول:

* أما إصلاح نفوس الناس فإن الله تعالى جعل الطريق إليها بالنسبة للمؤمن هو: العمل الصالح، بدليل أنه سبحانه قد قرن بين الإيمان والعمل الصالح فى عشرات الآيات القرآنية التى فاقت المائتين والخمسين آية كريمة، مما يؤكد أن العمل الصالح هو ترجمة عن الإيمان.

- والعمل الصالح ترجمان الإيمان وممارسته هى التى تُزَكّى النفس وتطهرها من جنوح الهوى والشهوات، إذ يلزمها ما أمر الله تعالى به فتأتيه، وما نهى عنه فتجتنبه.

- ومفردات العمل لا تكاد تحصى من كثرتها! إذ هى فعل كل خير يرضى الله تعالى عنه وترك كل شر يغضب الله تعالى إتيانه، ولكن كبريات العمل الصالح هى الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، والذكر والدعاء والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة إلى الله بالحسنى والموعظة الحسنة، والتفكر فى خلق الله تعالى، والتدبر... ومالا أحصى من مفردات العمل الصالح.

* وأما إصلاح العلاقات بين الناس، أى إصلاح نظام الحياة الإنسانية، فإن هذا الدين الخاتم قد وضع تشريعًا محكمًا شاملاً لكل مرافق الحياة الإنسانية، بما فيها من علاقة بين الإنسان والإنسان، وعلاقة بين الإنسان والأشياء، وهو تشريع قادر -عند التحاكم إليه- أن يحل كل مشكلة تعرض للإنسان، بحيادية وموضوعية فى حاضر حياة الإنسان وفى مستقبلها، بل يحل كل مشكلة يمكن أن توجد فيما بعد، وسبب هذه القدرة على حل جميع المشكلات هو أن الدين قد وضع أنظمة لكل شعب الحياة الإنسانية، ففيه الأنظمة التالية:

- نظام دقيق للحياة الاجتماعية على جميع مستوياتها كالزواج والطلاق والتربية والميراث. . .
- ونظام محكم للحياة الاقتصادية بكل ما تشتمل عليه من شُعب من الصَّرْف والسَّلَم إلى القروض والمصارف وما أحل الله من بيع وما حرم من ربا. . .
- ونظام للحياة السياسية بكل ما يعتلج فى داخلها من تحرك وخمود، وحرب وسلام، وصلح وتعاهد، وشروط للحرب وأحكام لنتائج الحرب، وشروط للسلام ومستحقاته، ويترك الإسلام تفاصيل ذلك لاجتهادات العلماء بحيث لا يخالفون فى اجتهاداتهم شيئًا من ثوابت الدين ومبادئه وقيمه.

وتلك خاصية فى التشريع الإسلامى يضع المبادئ والأسس ويدع التفريعات والتفصيلات لاجتهادات المجتهدين فى كل عصر بما يلائم مصالح عموم الناس، وما يدفع عنهم الأضرار والشرور، بشرط ألا يخالف المجتهد مبدأ هامًا من المبادئ الإسلامية.

الخاصية الثالثة:

دوام هذا الدين وختمه للأديان

تلك خاصية لم توجد إلا فى الدين الإسلامى الخاتم، إذ قد خلت آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة من أى إشارة إلى دين آخر سوف يأتى بعد الإسلام فى مستقبل الزمان، فى الوقت الذى وردت فى الكتب السماوية السابقة وعلى ألسنة بعض المرسلين دلالات أو كلمات تشير بل تقطع بأنه سوف يأتى من بعدُ دين ورسول.

- وهذه الخاصيَّة للدين الإسلامى بأنه دين دائم لأنه خاتم تؤكدها نظم هذا الدين المتفردة المتميزة بكمالها وكفايتها لحاجات الإنسان العديدة فى دنياه وآخرته.

هذه النظم العديدة المستوعبة لكل شعب الحياة الإنسانية ولكل احتياجات البشرية كلها فى حاضرها ومستقبلها، كل نظام منها قادر على تحقيق وتأمين هذه الاحتياجات.

وسوف نكتفى هنا بالإشارة إلى أنواع من هذه الأنظمة، أما استيعاب الحديث عنها فليس من هدفنا فى هذا الكتاب لأنه يحتاج إلى كتاب موسع تحت عنوان: «النظم الإسلامية»[1] أما ما نشير إليه هنا من هذه النظم فهى:

(١) هناك أكثر من مؤلف يحمل اسم: «النظم الإسلامية» لكنها وجيزة، والأمر يحتاج إلى كتاب موسع فى النظم الإسلامية يتوافر على تأليفه عدد من العلماء كل منهم فى تخصصه.

* النظام الاعتقادى الذى يشتمل على قضايا الألوهية والتوحيد لله تعالى..

* والنظام التعبدى الذى يعنى بالعبادات أنواعها وأوقاتها وكيفيتها وشروطها وأحكامها...

* والنظام الاجتماعى الذى ينظم مفردات المجتمع ابتداء من الأسرة إلى الجماعة إلى المجتمع كله، ويضع لكل مفردة من هذه المفردات شروطها وأحكامها وآدابها...

* والنظام السياسى فى مجالات الحقوق والواجبات والحريات وفى مجالات العلاقات السياسية بدول العالم، وما يفرضه هذا النظام على الدولة المسلمة والحكومة المسلمة من واجبات وما يعطيها من حقوق...

* والنظام الاقتصادى وما يشتمل عليه من تنظيم كل مفردات الحياة الاقتصادية من العمل والعمال والأجور وإنتاج السلع والخدمات وتوزيعها وتسويقها...

* والنظام الجهادى فى مجالى الحرب والسلم، وما يشتمل عليه هذا النظام من توضيح أنواع الجهاد، وتحديد الإعداد له، وتوضيح التعامل مع المعاهِد والمعادى والمسالم والمستأمن والزائر...

* والنظام العلمى، وما يشتمل عليه من وجوب طلب العلم والتفوق فيه، وتقدير الإسلام له، وجعل الاستزادة منه أصلاً من الأصول التى يسعى المجتمع الإسلامى إلى تحقيقها.

* والنظام التربوى والتعليمى، وما يشتمل عليه هذا النظام من أحكام التعلم والعلم والتعليم، والتربية أنواعها وأهدافها ووسائلها...

* والنظام الأدبى والأخلاقى، ابتداء من التخلى عن الرذائل كبيرها وصغيرها، وانتهاء بالتحلى بالفضائل وشعب الإيمان..

* والنظام الخاص بنشر الدعوة إلى دين الحق بين الناس والاستمرار فى نشرها حتى لا يعبد غير الله فى الأرض...

* ونظام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بكل أنواعه بالكلمة وبالعمل، وبإعطاء القدوة، وأطر الناس على الحق أطرًا...

* ونظام الحركة بالدين فى الناس وفى الآفاق، حتى يصل دين الله إلى الناس جميعًا فى كل زمان وكل مكان، والعمل على تغيير ما يخالف دين الله ومنهجه...

* ونظام تأمين أهل الأديان والثقافات الأخرى فى المجتمع المسلم، مادامـوا يعيشون فى هذا المجتمع، تأمينهم على أنفسهم وذويهم وأعراضهم وأموالهم، وكل حقوقهم التى كفلها لهم الإسلام...

الخاصية الرابعة:

وهى أن الله تعالى قد خص هذا الدين بأنه دين الرفق والرحمة ورعاية إنسانية الإنسان.

وقد اتجه الدين الخاتم فى ذلك إلى وسيلتين:

إحداهما: دفع المخاطر أو سد الذرائع، فقد أوجب على كل مسلم أن يعمل ماوسعه لدفع الخطر عن نفسه وغيره من الناس.

والأخرى: جلب المنفعة أو المصلحة، وقد اعتبر ذلك واجبًا شرعيًا، من لم يقم به فقد قصَّر.

وآيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية تؤكد ذلك النظام وتعززه، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...**﴾ [البقرة: ١٨٥].

- وقوله جل وعلا: ﴿... **هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...**﴾ [الحج: ٧٨].

- وقوله عز وجل: ﴿**طه ⦗١⦘ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ**﴾ [طه: ١، ٢].

- وما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«إن الدين يُسْر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة»**.

- وما رواه البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها: **«يا عائشة أن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»**.

وفى رواية لمسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها: **«يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطى علي الرفق ما لا يعطى على العنف، ومالا يعطى على سواه»**.

- وروى أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: **«يا عائشة عليك بتقوى الله، والرفق، فإن الرفق لم يكن فى شىء قَطُّ إلا زانه، ولا نُزع من شىء قط إلا شانه»**.

- وما رواه البخارى بسنده عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: بينما النبى ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم؛ فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل؛ نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبى ﷺ: **«مُرُوه، فليتكلم، وليستظل وليقعد، وليتم صومه»**.

فمما خص الله تعالى دين الإسلام الخاتم أن جعله دين الرفق والرحمة والتسامح والعفو، وهدد المتشددين أو المتنطعين.

- فقد روى مسلم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: **«هلك المتنطعون»** قالها ثلاثًا.

الخاصية الخامسة:

أنه دين تفرد من بين الأديان بأنه اشتمل على الأصول القاطعة الدلالة التى لا تحتمل تأويلاً.

فجميع النصوص الإسلامية فى الكتاب والسنة لا تقبل أو تحتمل تكلفًا ولا تعنتًا، كما تقبل التعامل معها بالاستسهال أو التهاون.

أما الكتب السابقة فقد خضعت لتأويلات بعض أهل الكتاب وتحريفاتهم، وبزيادتهم فيها حينًا ونقصهم منها أحيانًا.

* ولقد حدد القرآن الكريم هذه الأصول وعرضها بشكل قاطع لا يحتمل تأويلاً ولا تحريفًا، وهذه الأصول المستقرة التى لا يمكن أن ينالها تغيير أو تبديل هى:

- عبودية الإنسان لله تعالى وحده: وذلك أن أهم وظائف الإنسان فى حياته الدنيا هى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦]. وبذلك يبطل الشرك بالله تعالى ويبطل الشركاء له فى صفة من صفاته سبحانه وتعالى.

وبذلك تصفو عقيدة الإنسان وتُنَقَّى من شوائب الشرك وأوهامه.

- والإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له: وذلك يقتضى الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، قال الله تعالى: **﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٨٤].

فيجب الإيمان بذلك كله، أما الاتباع للمنهج فى الحياة فهو مقصور على القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧].

- والقول والعمل الصادر من الإنسان يجب أن يكون خالصًا لله: قول الإنسان وصمته وعمله وتركه هو الترجمة الحقيقية للدين، وهذا الدين يجب أن يكون خالصًا لله تعالى وحده، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

- واتباع هدى الله هو الأصل: ومن خرج عن هدى الله تعالى والحق الذى جاء به فقد اتبع هواه، ومن اتبع هواه ضل، بل هو أضل الضالين، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]. وقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]. وقال عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

- وتحكيم شرع الله تعالى فى الناس وحياتهم أصل كبير: لا يقبل الجدل فى جدواه فى الدنيا والآخرة، وشرع الله هو منهجه ونظامه الذى أودعه فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ [الشورى: ١٣].

واستنكر الله على الذين يشرعون للناس من الدين والنظام ما يخالف هدى الله وكتابه وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ...﴾ [الشورى: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

- والإحسان مع الناس والأشياء: وذلك أن الإحسان بكل معنى من معانيه يعطى للحياة الإنسانية مذاقًا جميلاً كما يضفى على نفس المحسن إحساسًا نبيلاً؛ لذلك جعل الله تعالى الإحسان مطلبًا عباديًا حبب فيه عباده الذين أورثهم كتابه. قال الله تعالى: ﴿...وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وروى مسلم بسنده عن شداد بن أوس -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شىء...»**.

الخاصية السادسة:

إنه الدين الذى جعل الله شريعته وقانونه فى رباط وثيق بالسلطان والحكومة.

شريعة الإسلام أو قانونه أوجب الله تعالى أن يطبق على كل الناس، بل ألزم بذلك الفرد والحكومة، وجعل هذا الالتزام عبادة له سبحانه يثيب عليها فاعلها.

وأى شرع أو قانون لا توجد له حكومة تلزم به الناس، فلا تأثير له ولا فاعلية، بل لا فائدة ترجى من وراء تطبيقه، إذ يظل هذا الشرع أو القانون أشبه بالمنهج الفلسفى لا يستطيع أن يغادر النظرية إلى التطبيق، لأن الله تعالى يزع بالسلطان أحيانًا ما لا يزع بالقرآن.

وأى تشريع أو قانون ليست له قوة تحميه فإنه جدير بأن يظل فى مكانه منذ وضع وإلى آخر الزمان.

- ولقد طبق رسول الله ﷺ شريعة الله وقانونه من خلال الحكومة بعد أن وصل إلى المدينة المنورة بالهجرة النبوية المباركة.

- ولقد ارتبط تطبيق التشريع بالحكومة ارتباطًا وثيقًا حتى ليمكن القول -دون مبالغة- بأن عصور المسلمين الزاهية الأكثر عمرانًا وحضارة هى التى طبقت فيها الحكومات المسلمة شريعة الله وقانونه، وأن عصور ضعف المسلمين وتبعيتهم وانهزامهم أمام عدوهم هى العصور التى لم تطبق فيها حكومات المسلمين شرع الله وقانونه فى حياة الناس.

والخاصية السابعة:

أن جعل هذا الدين الخاتم دين الدعوة العالمية:

وذلك أن الله تعالى أمر رسوله الخاتم أن يبلغ الناس جميعًا أنه رسول من الله إليهم يبلغهم رسالته، ويستمر هو ومن اتبعوه فى تبليغ هذه الرسالة إلى البشرية كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله مخاطبًا رسوله الخاتم ﷺ: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** [الأعراف: ١٥٨].

وأوحى الله إلى رسولـه الخاتم الذى لا ينطق عن الهـوى، أن يخبر الـناس بما أمره الله تعالى أن يخبرهم به من عموم رسالته.

فقد روى البـخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه قـال: قال رسول الله ﷺ: **«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى:**

*** نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر.**

*** وجُعلتْ لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أُمتى أدركته الصلاة، فليصل.**

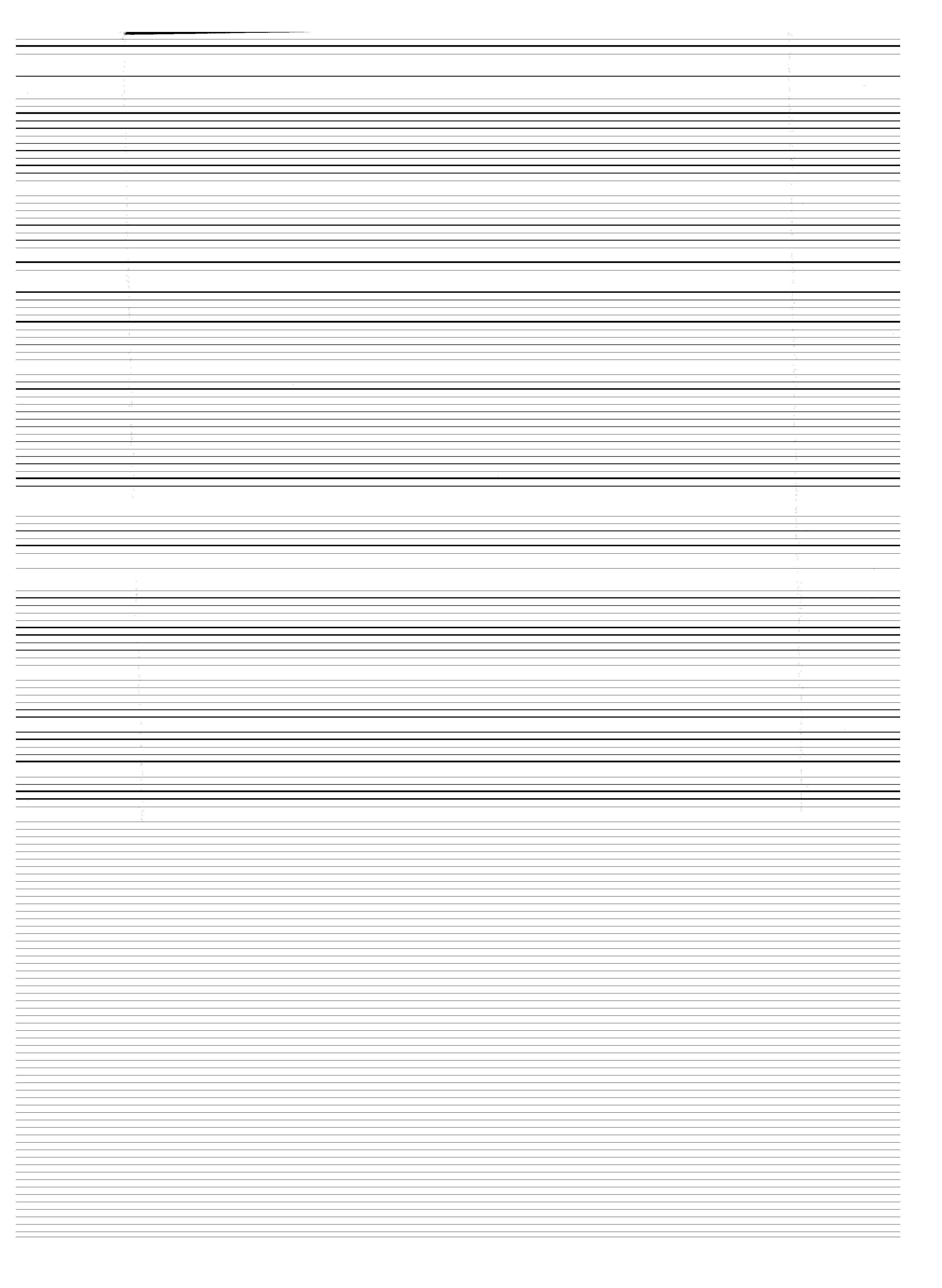
*** وأُحِلتْ لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى.**

*** وأُعطيتُ الشفاعة.**

*** وكان النبى يُبْعَثُ إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة».**

وليست هذه الدعوة العالمية لدين إلا دين الإسلام.

وبعد: فـهذه الخصائص التـى خص الله تعالى بها الدين الخـاتم الذى أنزله على رسوله الخاتم ﷺ.





الفصل الثانى

القيم الإيمانية

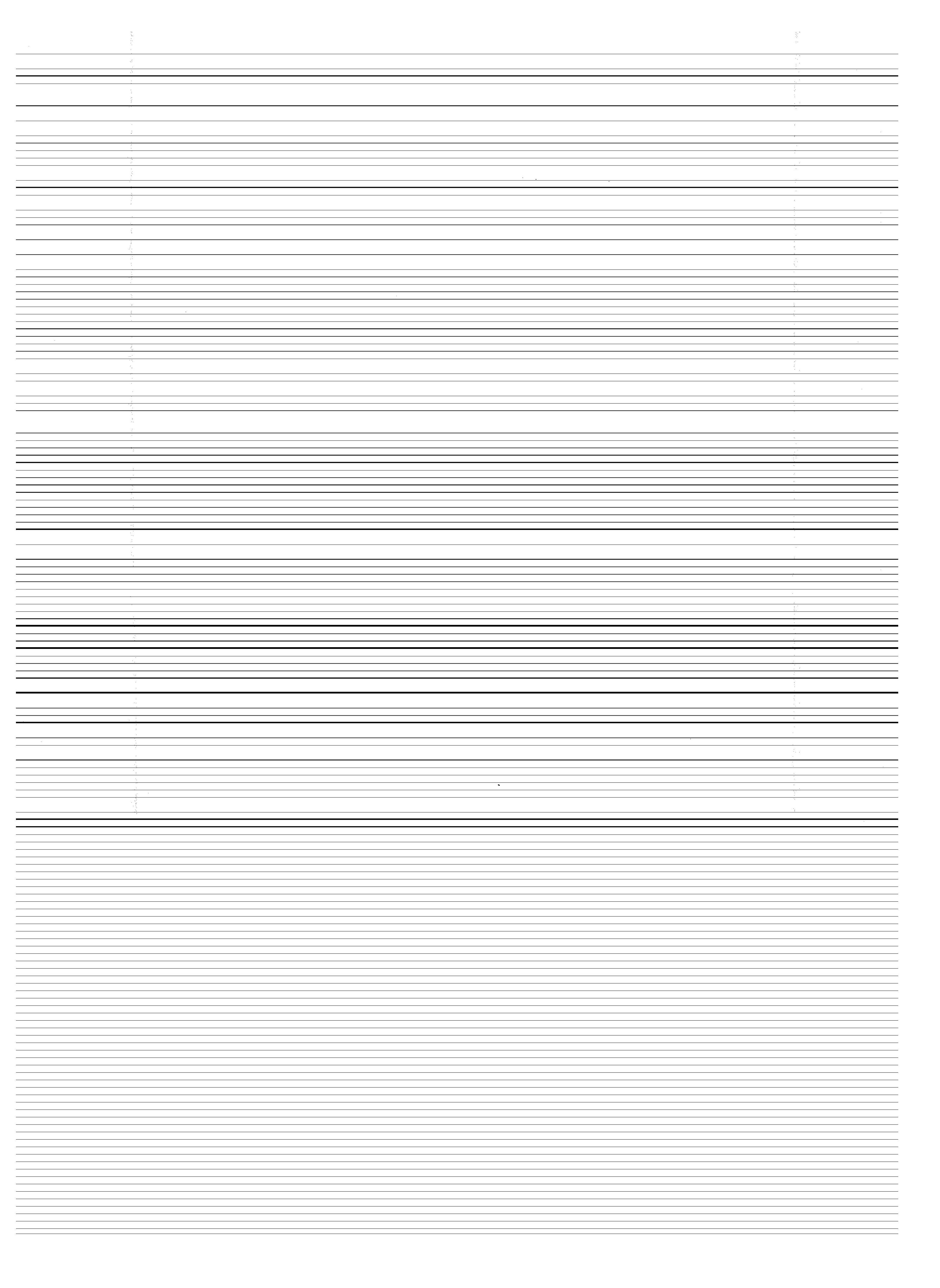
هذا الفصل يتناول أربع نقاط هى:

أ- تعريف الإيمان والقيم الإيمانية.

ب- وأهمية الإيمان فى حياة الإنسان.

جـ- ورؤية الناس للإيمان أو معرفتهم به.

د - والإيمان كما أوضحه منهج الإسلام ونظامه.



أ- تعريف الإيمان والقيم الإيمانية

* الإيمان:

الإيمان هو التصديق، وهو مشتق من الأمن الذى هو ضد الخوف، هذا معناه اللغوى.

* والإيمان فى الشرع هو: الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح.

فمن صدق بقلبه ونطق بالشهادتين[١] وعملت جوارحه بمقتضاهما فهو المؤمن.

ومن نطق بالشهادتين واعتقد ولم يعمل فهو: الفاسق، ومن نطق بالشهادتين وعمل بمقتضاهما، ولم يعتقد أو يصدق فهو: المنافق.

ومن أخل بهذه الثلاثة -التصديق والقول والعمل- فهو: الكافر.

* والمؤمن فى شريعة الإسلام هو: من آمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خير وشره.

* والقيم الإيمانية هى القيم المنسوبة إلى الإيمان بالله تعالى وبما أوحى به إلى نبيه الخاتم من شريعة، وهى قيم حددها الإيمان وأوضح أبعادها ومعالمها، وعندما يتمسك بها المؤمن فإنه يعزِّز إيمانه ويقوّيه، أى أن هناك تلازمًا وتأثيرًا وتأثرًا بين الإيمان والقيم الإيمانية.

* إن القيم الإيمانية قِيم جلبها الإيمان بالله تعالى والاقتداء برسوله ﷺ، ويظل هذا الإيمان يغذيها وينميها، حتى تصبح من معالم شخصية المسلم، ومن مظاهر فضله ونبله وإنسانيته.

وهذه القيم الإيمانية دعم دائم لإنسانية الإنسان، وعلامة بارزة من علامات فضله ونبله، لا ينبغى أن تفارقه بحال فهى بالنسبة له كالهواء والماء والغذاء لا يستطيع العيش مؤمنًا بدونها.

* إن التمسك بالقيم الإيمانية على مستوى المجتمع المسلم هى الحوافظ التى تحفظ للناس كل حقوقهم، وتحملهم على أداء واجباتهم، وهذه القيم هى التى تغرس فى نفوس الناس الإحساس بالأمن، فلا مجال -فى مجتمع تسوده القيم الإيمانية- لخائف ولا

(١) الشهادتان هما: «لا إله إلا الله» و«محمد رسول الله».

مظلوم ولا مهدد، ولا جائع ولا عريان ولا ضائع حتى لو كان فقيرًا أو يتيمًا أو ضعيفًا أو عاجزًا عن العمل؛ لأن ذلك هو ثمرات التمسك بالقيم الإيمانية فى المجتمع.

بل إن المجتمع الذى يتمسك بالقيم الإيمانية لا تجد فيه من يتطاول على الناس بجاهه وسلطانه، ولا بماله وقدراته، ولا بنزواته وانحرافاته، لأن القيم الإيمانية إذا سادت المجتمع وقفت سدًا منيعًا بين هذا الظالم وكل ما يفكر فيه من ظلم وعدوان.

إن التمسك بالقيم الإيمانية يقوى نسيج المجتمع فيجعل المسلمين فيه تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، يردّ مُشِدّهم على مضعفهم، ومسرعهم على قاعدهم، وهم يد على من سواهم.

* إن القيم الإيمانية النبيلة لا تفارق المسلم حتى وهو يتعامل مع أعدائه، فلا يستطيع مثلاً أن يظلم عدوه أو يعتدى عليه أو يهين إنسانيته، وإن أوضح ما يكون أثر القيم الإيمانية فى المسلم فى تعامله مع قتلى أعدائه وأسراهم، فليس له أن يعذب الأسرى ولا أن يمثل بجثث القتلى، حتى لو فعلوا هم ذلك بالمسلمين من الأسرى والشهداء.

هذه القيم الإيمانية لم تعرف لها البشرية نظيرًا، حتى فى عصرنا هذا الذى يزعم الغرب أنه عصر الحرية والإخاء والمساواة، عصر «الديمقراطية» وحقوق الإنسان؛ لأن ما جرى ولا يزال يجرى من الغرب وفى مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية، لا يصدقه العقل ولا تقبله الإنسانية، ابتداء من بشاعة ما جرى فى «هيروشيما ونجازاكى»، ومرورًا بالمآسى الإنسانية فى «فيتنام»، والأعمال الوحشية فى أفغانستان والعراق وسجن باجرام وسجن أبى غريب ومعتقل جوانتانامو[١].

وكل ما تمارسه الحكومة الأمريكية تفعل أكثر منه وأشد وأضرى إسرائيل ومؤسستها العسكرية مدعومة بالسلاح والمال والدعم من الغرب والشرق، إن ما جرى ولا يزال يجرى فى فلسطين أبشع وأشنع من كل ما يخطر على بال المتوحشين اللاإنسانيين من أولياء الصليبية الحديثة والصهيومسيحية المبتكرة!!!

(١) تعمدت أن أذكر فظائع أمريكا، أمّا بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من دول أوروبا الغربية ثم الاتحاد السوفيتى واتحاد روسيا وكثير من دول أوروبا الشرقية فليس من هدفى أن أذكره فى هذا المجال.

ب- أهمية الإيمان فى حياة الإنسان

تتناول هذه النقطة من هذا الفصل موضوعين:

الأول: حياة الإنسان فى نظر المفكرين وأصحاب المذاهب.

والآخر: قيمة الإيمان فى حياة الإنسان.

أولاً: حياة الإنسان فى نظر المفكرين وأصحاب المذاهب والأديان:

هناك إجماع بين المفكرين ومعظم أصحاب المذاهب وأغلب أهل الأديان على أن الإنسان أهم ما فى الأرض من مخلوقات، لأسباب عديدة ذكروا منها:

- أنه الوحيد الذى حباه الله تعالى نعمة العقل.
- وأنه وحده الذى يملك حرية الإرادة والاختيار.
- ولأنه يتحكم بعقله فى مخلوقات هى أكبر منه وأضخم وأقوى، فيسيطر عليها ويسخرها لتحقيق منافعه.
- وأنه وحده الذى يمارس الفنون الجميلة، ويبدع فيها ويبتكر.
- ولأنه قد خصه الله تعالى بإرسال الرسل لتبليغه عن الله تعالى ما أمر به وما نهى عنه، وما أحل للإنسان وما حرم عليه.

* من أجل هذا فإن المفكرين وكثيرًا من أهل الأديان التى ظهرت قبل الإسلام نظروا إلى الإنسان نظرات عديدة بعدت عن الصواب فى كثير من الأحيان، لأنها نظرات بُنِيَتْ على معرفة غير دقيقة وربما غير صحيحة للإنسان وفطرته، وما هيَّأه الله تعالى له من قدرات للتعامل مع الكون.

وسوف نستعرض من هنا عددًا من هذه التصورات عن الإنسان، ثم نختم ذلك بتصور الإسلام للحياة الدنيا وللإنسان.

بعض الطوائف فى تصورهم للإنسان:

١- طائفة منهم نظروا إلى ضعف الإنسان وعجزه بالنسبة لما يحيط به من مخلوقات أكبر منه وأضخم، وأشد قوة وضراوة.

هؤلاء بهـرتهم قوة المخلوقـات التى تفوق الإنسـان حجـمًا وتتفـوق عليه فـى الضراوة والفتك، فانطلقوا يرددون أن الإنسـان ضعيف وعاجز إزاء ما يحيط به من مـخلوقات أكبر وأضرى، وبرروا قولهم بهذا بطرح أسئلة وتوقع إجاباتها، فقالوا:

- كم من إنسان افترسه أسد أو نمر أو وحش ضارٍ؟

- وكم من أسد أو نمر أو وحش قتله الإنسان وتغلب عليه؟

- وكم من مـئات الناس أو ألوفـهم قضى عليـهم سيل جـارف أو فيضـان ثائر، أو زلزال مدمر، أو عاصفة هوجاء، أو بركان أو حريق هائل؟

- ومن من الناس استطاعوا أن يتصدوا لهذه الكوارث الجائحة؟

* ومن مثل هذه التصورات، وهذا التفكيـر تولد لدى بعض الناس فكرة عبادة العناصر الأقوى والأكبر من الإنسان كالشمس، والنار، والقـمر، والأشجار، والأنهار والحيوانات، ذات الضخامة والقوة.

٢- وطائفة أخرى نظروا إلى الحياة الدنيا كلها، بما فيها الإنسان فقالوا:

إن الدنيا ليـس فيهـا إلا الخراب والفسـاد والهدم والفناء، وهى بهـذه الصفـات تصيب الإنسان دائمًا بالألم والعذاب والأذى والمحنة والهم والغم.

وقـالوا: إن كل ما فى الكون من مـوجـودات، وما بين هذه الموجـودات من علاقـات وروابط؛ إنما هى شبـاك وحبائل نصبتهـا الطبيـعة للإنسان لتـوقعه فى شـر وعذاب وآلام ومصائب وكوارث.

وإن هذا الكون على الرغم من اتساعـه وتعدد المخلوقات فيه، قد كُـتب عليه كله الفناء والزوال، وفرض عليه الضعف والاضمحلال ثم الانقراض والزوال.

* وهذه الطائفـة ترى -فى ظل نظرتهـا المتشـائمة- أن الخـريف جـاء ليخـرِّب الربيع، ويصيب جمـاله بالقبح والعرى، ولئن أنتج الربيع شيـئًا من المباهج والزينة وأعقـبه الصيف ليأتى بالثمار، فما ذلك الثمر إلا للموت والخراب!!!

* هذه الطائفة لا ترى سـبيلاً لنجاة الإنـسان إلا باعتزال الحـياة الدنيا، وكبت المشـاعر والرغبات، من أجل كسر القانون الجائر المخرِّب المدمِّر، القانون الذى فطر عليه هذا الكون، وفطرت عليه مخلوقاته!!!

٣- وطائفة ثالثة من هؤلاء المفكرين، نظروا إلى الدنيا وما فيها على أنها مصدر لأسباب اللذائذ والشهوات، بل الرغد والتنعم والرفاهية.

وقالوا بأن الإنسان فى هذه الدنيا راحل عنها لا محالة مهما طال به العمر، ورتبوا على ذلك أن الإنسان يجب أن يقوم بعملين مهمين، بل ضروريين.

أحدهما: أن يبعد عن نفسه الشعور بالألم والحزن والهم والغَمّ والنكد والكآبة، بل يبطل ذلك إبطالاً.

والآخر: أن يعُبَّ من اللذائذ والشهوات ما استطاع حتى يجلب لنفسه المتعة والسرور والسعادة الدنيوية.

* وهذه الطائفة تؤمن بأن الإنسان ليس له إلا حياته الدنيا، وتنكر الحياة الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وجزاء وجنة ونار، لأن تلك الحياة الآخرة كلها من الأمور الغيبية التى لا يعترفون بها أبداً.

* وكفرهم بالحياة الآخرة جرهم إلى الوقوع فى أخطاء عديدة، نذكر منها:

- اعتبار الحياة الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ومجال تمتعهم بشهواتهم، بل نزواتهم.

- وثناؤهم على من يقبل على التمتع باللذائذ فى الدنيا، وزرايتهم بمن يزهد فى متعها.

- وكفرهم بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

- وضعف إقبالهم على العمل الصالح، أو عون أصحاب الحاجة، لأنهم لا ينتظرون على ذلك جزاء.

٤- وطائفة تنتمى لبعض الأديان، ترى أن الحياة الدنيا وما فيها من متع ومباهج، أو منافع، إنما هى فى الحقيقة آثام عظيمة وشرور مستطيرة.

- ويرون أن علاقة الإنسان بالحياة الدنيا ما هى إلا انغماس فى نجاستها وقذارتها، وتدنيس لروح الإنسان وإعتام لقلبه.

- ويرون أن هدف الإنسان فى حياته الدنيا هو الحصول على الشرف والطهارة، من خلال الصلاح والهدى، ولا سبيل إلى الوصول إلى ذلك إلا باعتزال مباهج الحياة الدنيا والامتناع عن ممارسة لذائذها الفانية.

* وتؤكد هذه الطائفة موقفها بقولها: إن السعادة كل السعادة هى أن يتخلص الإنسان من متع الدنيا ليدخل الملكوت السماوى، وأن الإنسان كلما مارس لذة من ملذات الحياة الدنيا باعد بين نفسه وبين ملكوت السماء.

* ومن المسلَّم به بين المفكرين أن الإنسان مفطور على أن يتناول من متع الحياة الدنيا ما من شأنه أن يجعل حياته غير متعرضة لخطر الحرمان.

- ومن أجل ذلك يقولون: إن الإنسان يعيش فى صراع دائم بين ترغيبه فى ملكوت السماء، ومطالب جسده فى حب البقاء وحب حفظ النوع وشهوة الأنثى.

- وعندما تبين لهم أن مقاومة شهوات الجسد مستحيلة طالما يحيا الإنسان، اخترعوا طريقًا وسطًا يؤدى إلى الدخول فى الملكوت، مع عدم تجاهل رغبات الجسد وشهواته، فقالوا بفكرة أن شخصًا واحدًا ضحى بنفسه من أجلهم وفداهم من كل ما ينتظرهم من عقاب، وطهرهم من ذنوبهم، وأعفاهم من المسئولية عن أعمالهم فضحّى بنفسه من أجلهم!!!

٥- وطائفة قالت: إن الفطرة التى فُطر عليها الإنسان جعلته مكبلاً مقيدًا بأغلال هذه الفطرة لا يملك إزاء مطالبها أدنى قدر من الحرية والاختيار.

هؤلاء هم القائلون بأن الإنسان مُسَيَّر، مسوق إلى مطالبِ ما فطر عليه، ورتبوا على ذلك أن يكون هذا الإنسان المسَيَّر مُعْفَى من أى حساب أو عقاب؛ إذ كيف يحاسب من أُجبر على عمل لا إرادة له فيه؟ وكيف يحاسب أو يعاقب من قام بعمل لا يستطيع أن يستغنى عنه أو يعيش بغيره؟

* وهذه الطائفة من المفكرين عززوا ما يقولون بما قَرَّره:

- علماء الأحياء.
- وعلماء وظائف الأعضاء.
- وعلماء الوراثة.
- وعلماء النفس قديمًا وحديثًا.

وعلى الرغم من ذلك كله وعلى فرض صحته ودقته؛ فإن هذه الطائفة التى تقول بأن الإنسان مُسَيَّر؛ تتجاهل عقل الإنسان الذى يستطيع أن يميز به بين الحسن والقبيح، كما تتجاهل بل تنكر أثر الأنبياء والرسل عليهم السلام الذين كان من صميم وظيفتهم عون الناس على التمييز بين الحسن والقبيح إذا عجزت عقول الناس عن هذا التمييز.

* وفى الحق بل فى الواقع أن الإنسان مخيَّر فى ممارسة أعماله لا يفارقه عقله الذى به يختار ويريد.

وأين التسيير والإكراه عندما يتدبر الإنسان العاقل موقفه إزاء ممارسته لعمل من أعماله، حتى لو كان عملاً تدفع إليه مطالب جسده؟

إن عليه أن يسأل نفسه: هل أنا مجبر على أن أتناول هذه الشهوات الجسدية بغير ضابط؟ أم يمكن أن أتناول منها ما يحقق مطالب جسدى فى إطار ما ما يقره عقلى، ويرضاه شرع الله تبارك وتعالى؟

إن كل إنسان عاقل يستطيع أن يتأكد أنه حُرّ الفكر والإرادة والاختيار فى هذا الموقف، ويستطيع أن يعزز حرية اختياره بأن يطرح على نفسه سؤالين ثم يجيب عنهما دون أن يخبر أحدًا، وهما:

- إذا احتاج جسدى إلى الطعام والشراب والملبس والمسكن؛ فهل أحقق هذه المطالب بالسرقة أو النهب، أو بسؤال الناس واستجدائهم أعطونى أو منعونى؟ أم أتخذ الأسباب للحصول على هذه المطالب، فأعمل وأثابر مهما كان العمل بسيطًا أو بدا للناس تافهًا أو حقيرًا، لأحقق مطالب جسدى؟ وهل هناك قوة تجبرنى على ترك العمل أو ممارسته.

- والسؤال الآخر هو:

إذا احتاج جسدى إلى التعبير عن رغبته الجنسية، فهل يكون ذلك بالاتجاه إلى الزنا واللواط والسحاق؟ أم يكون التعبير عن هذه الحاجة الجنسية هو الزواج بأخذ الأسباب للوصول إليه، وعند العجز الكلى أو النسبى عن الأخذ بهذه الأسباب فإن فى المجتمع ومؤسساته والصالحين من الناس عونًا ودعمًا؟ وهل هناك قوة قاهرة مجبرة تدفع إلى الوقوع فى الخطيئة؟

* لهذه الطائفة التى قالت بإكراه الإنسان وإجباره نقول لها: إنها أخطأت فيما ذهبت إليه؛ لأن الإنسان لو اتبع ما يمليه عليه عقله، وما يهديه إليه الرسول ﷺ، ما وقع فى خطيئته.

وعندما يتجاهل الإنسان عقله وشرع الله، فإنه يُسأل عن ذلك فى المجتمع إذا كانت تسوده القيم الإسلامية، ويُسأل عن ذلك أمام الله تعالى.

٦- وطائفة قالت: إن الإنسان هو سيد الكون وسيد الحياة الدنيا، بل هو صاحب الكون وسيد كل ما فيه من أشياء، ومن شأن هذا السيد أن يكون مطلق الإرادة حر الاختيار لا ينافسه فى ذلك مخلوق آخر.

وتقول هذه الطائفة: إن الإنسان يفعل ما يشاء، وإنه غير مسئول عن فعله أمام أحد، سوى نفسه وضميره أى أمام إنسانيته.

وليست الدنيا وما فيها من مباهج ومتع وشهوات إلا ملكًا خالصًا للإنسان، إن شاء أن يستمتع بها فعل، وإن شاء أن يهجرها فعل، فلا قيد عليه فى الفعل أو الترك!!!

* وإن التدبر فى شعار هذه الطائفة: «الإنسان سيد الكون وفوق الحياة» يؤكد أنه شعار يبالغ فى حقيقة الإنسان، ويخل بوظيفته فى الحياة، ويوغل إلى حد كبير فى إعطاء الإنسان أكثر مما يستحق.

إنه شعار يعفى الإنسان من أى مسئولية أمام الله أو أمام المجتمع، وفى ذلك من الخلل والفوضى ما فيه؛ وذلك أن أى مجتمع لابد أن تحكمه نظم تحفظ لكل ذى حق حقه وتحمله على أداء واجبه، والتعالى على هذه النظم وتجاهلها باسم الحرية، واعتبار الإنسان أن هذا العالم يفعل فيه ما يشاء يؤدى إلى اضطراب وفوضى وتضارب وتعادٍ، وكثير مما لا تُحمد له عُقبى.

* إن الحياة الإنسانية فردية أو اجتماعية عند هؤلاء المفكرين ذات اتجاه واحد ونمط واحد هو ما اختاره الإنسان وما ارتضاه لنفسه، دون اعتبار لغيره من الناس، وهذا يدخل الإنسان بالضرورة فى صراع مع إنسان آخر اختار ما لم يختره سواه، بل لابد من الوقوع فى صراع مع المجتمع نفسه الذى قد تتحدى حرية الإنسان نظمه وما يسوده من قيم.

وبعد: فإن هذه التصورات التى ذكرنا لحياة الإنسان تصورات قاصرة تنزل بقدر الإنسان أو تبالغ فى منزلته، وهى تصورات غير منصفة للإنسان وغير ملتزمة بالصواب، لأنها تنظر بغير شمول أو استيعاب أو إحاطة، شأنها فى ذلك شأن جميع التصورات البشرية التى لا تتكامل إلا إن أيدها الوحى الذى يجىء به الرسل عليهم السلام.

وقد ترتب على هذه التصورات خلل فى الحكم على الإنسان، بل الحكم على الحياة التى يحياها الإنسان. فكانت هذه المبالغة فى شأن الإنسان أو التهوين من شأنه.

كما ترتب على هذه التصورات تيارات فكرية وثقافية وحضارية لم يفارقها الخلل أو القصور فى معرفة الإنسان والحياة الإنسانية.

* ومن الأدلة على هذا الخلل أو القصور فى هذه المذاهب أن واحدًا منها لم يستطع أن ينظر إلى الحياة الإنسانية تلك النظرة الشاملة المتكاملة المنصفة العادلة التى تصورها خاتم الأديان للإنسان ولحياته الإنسانية.

- تصور الإسلام للحياة الدنيا وللإنسان:

* إن نظرة الإسلام إلى الإنسان وإلى الحياة الدنيا أراد الله تعالى لها أن تكون أصح التصورات وأكملها وأشملها وأتمها.

فما هو تصور الإسلام للحياة الدنيا وللإنسان؟

وما هى قيمة الإيمان فى حياة الإنسان؟

أولاً: تصور الإسلام للحياة الدنيا وللإنسان فيها:

لأن الإسلام هو الذى اختاره الله تعالى ليختم به الأديان السماوية، كان تصوره للحياة الدنيا وللإنسان هو التصور الصحيح الكامل البعيد عن المبالغة أو التهوين من شأن الحياة الدنيا أو الإنسان.

* هذا التصور نستطيع أن نوجزه فى نقطتين:

أ- تصور الإسلام للحياة الدنيا.

ب- وتصور الإسلام للإنسان.

وكل من التصورين مرتبط بالآخر أوثق الارتباط؛ فالحياة الدنيا بغير إنسان لا قيمة لها، لأن الله تعالى قد خلق كل ما فى الحياة الدنيا وسخره للإنسان.

والإنسان بغير الدنيا لا يستطيع أن يؤدى وظيفته التى خلقه الله تعالى لأجلها وهى عبادته سبحانه وتعالى وفق ما شرع.

أ- تصور الإسلام للحياة الدنيا:

هو تصور وسطى معتدل منصف لها، فهى لا ينبغى أن ينبذها الإنسان وينفر منها، أو يمقتها ويزدريها، لأنها ليست شرًا مطلقًا، وليست معادية للإنسان، كما أنها لا يصح أن يولع بها الإنسان ويجعلها أكبر همه، فينخدع بمباهجها ولذائذها؛ لأنها ليست خيرًا مطلقًا وليست موالية للإنسان على الدوام.

* إن الحياة الدنيا فى التصور الإسلامى مكان وزمـان يمكن أن يمارس فيها الإنسان الخير، ويمكن أن يمارس فيها الشر، وهى نفسها ليست سيدًا مستبدًا بالإنسان، كما أنها ليست خادمًا ذليلاً له.

إنه تصور وسطى اختاره الله تعالى للأمة الوسط التى أكرمها بأن أنزل عليها كتابه الخاتم على لسان رسوله الخاتم ﷺ.

وهذه الوسطية التى جعلها الله تعـالى للأمة الإسلامـية تتلاءم مع وسطيـة الإسلام فى تشريعاته ونظامه ومبادئه وقيمه.

وقد التمست الحديث عن الحيـاة الدنيا فى بعض آيات القرآن الكريم، وفى عدد محدود من الأحاديث النبوية الشريفة.

* فمما جاء عن الحياة الدنيا فى القرآن الكريم:

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

وقد وصفت الحياة الدنيا فى هذه الآية الكريمة بصفات منها:

* أنها تُشبه فى حقيقيتـها وجوهرها الماء النازل من السماء على الأرض لتخضر ، وتزهر، وتثمر، وتصـبح ذات رونق وزخرف ونضارة ونفع للإنسان والحيـوان، ذلك شأنها وهذا وصفها وتلك وظيفتها للإنسان.

* وأنها لا دوام لها بل لا استـمرار لبهجـتها، ولا لما فيها مـن منافع ونعم وزينة وجمال، وإنما هى دائمًا إلى زوال وتحول، فالإنسان فيها والحيوان والنبات إلى الموت والفناء.

والعاقل من يتمـتع بما فى هذه الحياة الدنيا من نعم، وأن يتناول منهـا ما أحل الله تعالى وأن يمتنع عما حرمه الله تعالى.

* وأن بعض الناس فى الدنيا قد ينخدعون بها فيقبلون على التمتع بما فيها من متع، ظانين أنهم قادرون على هذه الحياة الدنيا متحكمون فيها وفى بقائها واستمرار ما فيها من نعم، وهم فى هذا الظن واهمون، لأن هذه الدنيا بكل فيها فى تـغير دائم وزوال مستمر، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

– وقول الله تعالى: ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠ – ٢٠٢].

والآية تقسم الناس إلى فريقين:

* فريق تخدعه نعم الدنيا فتنسيه الآخرة، فيطلب فى دعائه خير الدنيا ونعمها ولا يلقى بالاً للآخرة، فلا يكون له نصيب منها.

* وفريق يتجه فى دعائه إلى أن يطلب من الله تعالى خير الدنيا والآخرة، ووقايته من عذاب النار، وهذا الذى لم تفتنه نعم الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة، فيعطيهم الله تعالى من هذه وتلك، وهؤلاء فى منزلة أعلى من أولئك الذين سألوا نعيم الدنيا فأعطوها.

– وقوله جل وعلا: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء: ٧٧].

والآية الكريمة تلفت النبى ﷺ إلى التعجب من الذين رغبوا فى القتال قبل أن يأذن الله تعالى لهم به، فطولبوا بكف أيديهم عن القتال والاتجاه إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعندما فرض الله عليهم القتال إذا طائفة منهم يخشون الناس ويخافونهم كما يخافون الله عز وجل أو أشد، ويقولون: لماذا كتبت علينا القتال؟، خوفًا من أن يموتوا، كذلك يرغبون فى أن يؤخر عنهم القتال زمنًا يستمتعون فيه بالحياة الدنيا، فقيل لهم: تقدموا للقتال ولو أدَّى ذلك إلى استشهادكم، لأن متاع الدنيا قليل مهما عُظم بجوار متاع الآخرة، والآخرة خير وأعظم وأبقى من الحياة الدنيا.

* ومما جاء عن الحياة الدنيا فى السنة النبوية:

– ما رواه الطبرانى فى –الكبير– بسنده عن عمرة بنت الحارث رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدنيا حلوة خضرة، فمن أصاب منها شيئًا من حلّه فذاك الذى يُبارك له فيه، وكم من متخوض فى مال الله ومال رسوله؛ له النار يوم القيامة»**.

- وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

- وما رواه الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالمًا أو متعلمًا».

- وما رواه النسائى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

ب- تصور الإسلام للإنسان:

ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة وسطية خالية من المبالغة فى مكانته ومن التهوين فى شأنه، فليس الإنسان سيد الدنيا ولا عبدها، وإنما يتعامل معها، يأخذ منها ويعطيها وفق منهج الله تعالى ونظامه، الذى أوحاه الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

* ويستبين لنا ذلك التصور الوسطى فى عدد من الاعتبارات نذكر منها ما يلى:

- الإنسان فى التصور الإسلامى أكرم خلق الله تعالى، وأكثر خلقه تنعمًا فى نعمه التى لا تُحصى الظاهر منها والباطن؛ فقد سخَّر الله تعالى للإنسان ما فى السماوات والأرض ليفيد من ذلك، ويسخره ما استطاع لنفعه فى دنياه وآخرته، كما يهديه إليه عقله وعلمه ومنهج الله تعالى الذى أوحاه إلى خاتم رسله محمد ﷺ.

-والإنسان فى التصور الإسلامى قد جعله الله تعالى خليفة فى الأرض يعمرها ويأكل منها حلالاً طيبًا، ويدع ما فيها من الخبائث، والفواحش، وكل ما يجلب له الضرر فى دنياه والحساب والعقاب فى أخراه.

-والإنسان فى التصور الإسلامى مخيَّر حُر الإرادة، ولكنه مسئول عما يفعل ومحاسب عليه ومجازًى به أمام الله تعالى الذى وضع له المنهج وبين له الحلال والحرام، وطالبه باتباع هذا المنهج.

- والإنسان فى الإسلام فطره الله على العزة، وجعل من فطرته أن يأنف من السجود لغير الله تعالى أو أن يتخذ من دونه إلهًا آخر، كما علمه المنهج أن يتعامل مع الدنيا بحيث لا تكون غاية، وإنما تكون وسيلة لكسب الآخرة، إذا ملأها بالعمل الصالح.

- والإنسان فى التصور الإسلامى ينبغى أن يكون طموحه فى الحياة الدنيا أن يعمل فيها عمل الزارع فى أرضه، يزرع ويرعى زرعه ويتعهده بأسباب النماء ليحصد ثمره فى

الدنيا نعـمة وفائدة، وفى الآخرة ثوابًا ونعـيمًا مـقيمًا، بشـرط أن لا ينكبَّ على متع الدنيا، وإنما يتـعامل معـها فى إطار ما أحل الله تعـالى، وبشرط ألا يحرم نفـسه مما سمح له الله تعالى به من طيباتها.

- والإنسان فى التصور الإسـلامى، مهما أحاطه الله تعالى به من أسبـاب النعم، ومهما أتاح له من قـوة وسلطان ومال؛ فليس له أن يسـتكبر على إنسـان أو يتعالـى عليه، فضلاً عن أن يظلمه أو يهضمه شيئًا من حقوق.

كما أن الإنسان مهما حُرِم من النعم أو ضُيِّق عليه فى الرزق، فليس له أن يسخط أو يتذمر، أو يذل نفسه فى سبيل الحصول على متع الدنيا، وإنما يأخذ من أسباب الرزق بما يسـتطيع دون أن يذل نفسـه أو يقبل المهـانة، أو ينسحب من حلبـة العمل مـؤثرًا الخمول والهروب من معترك الحياة.

الإنسـان المسلم يأخـذ من الدنيا مـا أحل الله تعـالى له دون بطر أو ذل، ومع عـمل وسعى، ويعطى لهذه الحياة الدنيا ما أمـره الله تعالى أن يعطيها دون حيف فى المبالغة أو التقتير، وفى حالتى الأخذ من الدنيـا وعطائها، فإن الإنسان المسلم يجب أن يتقبل ما يجرى به قضاء الله تعالى وقدره.

ثانيًا: قيمة الإيمان فى الحياة الإنسانية وأهميته

نتناول فى هذه النقطة موضوعين هما:

- رؤية الناس للإيمان ومعرفتهم به.
- وأهمية الإيمان فى حياة الناس.

جـ- رؤية الناس للإيمان ومعرفتهم به

موضوع الإيمان بالنسبة للإنسان من الموضوعات الضاربة بعرق عميق فى القِدَم، حتى إن جذور هذا العرق لابد أن تكون مواكبة للإنسان من زمن أبى البشر آدم عليه السلام.

وكان من رحمة الله تعالى بالإنسان أن عَلَّم آدم عليه السلام الإيمان ووجهه إليه، وفطره عليه، فكان إيمان آدم عليه السلام بالله تعالى إيمانًا فطريًا قويًا يتناول أسسه وأركانه، ثم انتقل هذا الإيمان بمضمونه وشكله إلى زوجه حواء عليها السلام وإلى أبنائه واحدًا بعد آخر وجيلاً بعد جيل، علمهم أبوهم آدم النبى عليه السلام كيف يكونون مؤمنين؛ نظريًا بالكلمة والموعظة، وعمليًا بممارسة مفردات الإيمان وأسسه فى حياته الدنيا.

وهذا الإيمان بالله تعالى هو الذى انتقل إلى الناس حقبة بعد حقبة، وعصرًا بعد عصر لم تختلف حقيقته ولا تغير جوهره.

وكلما ضعف الإيمان فى نفوس الناس مَنَّ الله تعالى عليهم بنبى يجدد لهم ما درس من أمور الإيمان، وكلما تتابع الأنبياء والرسل عليهم السلام زادت أمور الإيمان وضوحًا، وتعددت مفرداته لتشمل عناصر أكثر حتى جاء الخاتم محمد ﷺ فاتضح فى رسالته معالم الإيمان وتعددت مفرداته بما لا مزيد عليه حتى يقوم الناس لرب العالمين، فأصبح الإيمان إيمانًا بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، وأصبح للإيمان شعب عديدة بلغت بضعًا، وسبعين شعبة على لسان الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام.

* وعلى فترة من الرسل، وتباعد بين أحدهم وأخيه بدا لبعض الناس أن يقولون عن الإيمان، وأن يتصوروا فيه ما شاء لهم تفكيرهم ما داموا على فترة من الرسل عليهم السلام.

* ومن هؤلاء الذين كان لهم فى الإيمان رؤى وتصورات ومقالات من نشير إلى بعضهم فيما يلى:

- الفلاسفة:

ولهم فى ذلك مقالات عديدة نذكر منها:

* قولهم: إن الإيمان بمعنى التصديق بالقلب، يقف بين المعرفة والظن، فالإيمان عندهم دون المعرفة، ولكنه يعلو مرتبة الظن، وسبب ذلك عندهم أن إدراك الإيمان لموضوعه يكون أقل يقينًا من المعرفة العقلية، لأنه لا يستند فى الغالب إلى برهان عقلى، وأما أنه

فوق مرتبة الظن فسببه أن الإيمان دائمًا مصحوب بالشك والخوف من أن يكون الرأى المقابل صحيحًا، وهو مع ذلك ثابت ومتحرر من كل تردد.

وهذا الفرق بين الإيمان والمعرفة محل نقاش وجدل، يلتمس فى كتب الفلسفة.

* وقولهم إن موضوع الإيمان غير مشاهد أى «لا مَرْئى» بينما موضوع المعرفة مشاهد مرئى دائمًا ورتبوا على هذا القول أمورًا أهمها:

- أن المعرفة تستبعد الإيمان، لأن بعض حالات الإيمان، وموضوعاته لا تختص بمواضيع المعرفة العقلية.
- وأن بعض حقائق الإيمان الأساسية مثل: الوجود، والوحدة، وذات الله تعالى، وروحانيته، تقع فوق قدرة العقل البشرى، ولا يمكن الوصول إليها عن طريق التفكير الإنسانى مهما كانت قدراته.
- وأن كل موضوعات المعرفة -بغير استثناء، تقع فى نطاق قدرة العقل البشرى، ويكون التعامل معها من خلال التفكير الإنسانى دون أدنى قدر من الاستحالة.

- **علماء الأديان:**

لعلماء الأديان التى جاءت قبل الإسلام رؤية فى الإيمان وسوف نكتفى بالحديث عن رؤية بعض اليهود والنصارى من علمائهم، على اعتبار أن اليهودية والمسيحية خص الله تعالى كلا منهما بكتاب سماوى.

١- الإيمان عند بعض علماء اليهود:

يرون أن الدين كله وليس الإيمان وحده هو المصدر الوحيد للشريعة وللدولة وللحياة الاجتماعية والاقتصادية والمالية متشبثين بذلك غاية التشبث[(١)] رافضين بقوة أن يذوبوا فى القيم التى تحيط بهم، سواء أكان ما يحيط بهم قوة قاهرة لهم تسومهم الظلم أم كانت قوة يتعايشون معها ويتوجسون منها ويمكرون بها.

- اليهود يتصورون أنهم المؤمنون وحدهم، وأن غيرهم من الناس ليسوا مؤمنين، وهذا التصور جعل اليهود يعيشون صراعًا مع معظم الناس، وأن يبغضهم كل من عايشهم، مما أدى بهم وبمن يعايشونهم إلى صراع وحروب لم تهدأ إلا قليلاً من الزمن لتعود من جديد.

(١) ولقد بلغ التمسك بذلك عندهم ترك الأرض بورًا فى السنة السبتية- أى السنة التى تترك الأرض فيها للراحة.

– على أن اليهود –وقد جبلوا على الخلاف– قد دبَّت الخلافات فيما بينهم. فعانوا من الانقسامات الداخلية التى كان مبعثها والمحرك لها هو إيمان بعضهم فى الدين بما لم يؤمن بعضهم.

– وقد بلغ الخلاف بينهم حداً وصف بعضهم ليهود الجليل بأنهم مارقون من الدين، بينما يتهم أهلُ الجليل أهل يهوذا بأنهم أرِقَّاء وقعوا فى شراك الشريعة وحصار الإيمان بها.

– والسامريون فى صراع مستمر مع أهل يهوذا، لأن السامريين يدعون أن «يهوه» لم يختر «صهيون» الواقعة فى بلاد يهوذا موطنًا له، بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع عند السامريين.

– والسامريون رفضوا جميع أسفار الكتاب المقدس التى يؤمن بها اليهود عمومًا، وقصروا إيمانهم على الأسفار الخمسة[1] التى جاء بها موسى عليه السلام.

وهذه الأسفار الخمسة تقرب من ثلث ما جاء فى العهد القديم من أسفار.

– ومما يؤمن به اليهود: «العمل»: فقد كان العمل فى مجال الصناعات اليدوية حرفة لديهم يتوارثها الأبناء عن الآباء، حتى إن العلماء الدينيين منهم كانت لهم حرف يمارسونها بأيديهم.

– ومما كان يؤمن به بعض اليهود ويلتزمون بتطبيقه؛ إلغاء الديون عن المدينين مرةً كل سبع سنوات، كما جاء ذلك فى سفر التثنية: «وفى آخر سبع سنين تعمل إبراءً؛ وهذا هو حكم الإبراء: يبرئ كل صاحب دَين يده مما أقرض صاحبه، لا يطالب صاحبه ولا أخاه لأنه قد نُودى بإبراء الرب. الأجنبى تطالب، وأما ما كان عند أخيك فتبرئ يدك منه»[2].

– ومما آمن به اليهود أن يحكموا بالإعدام على اليهودى إذا ارتكب جريمة دينية، فإن كانوا أصحاب السلطة نفذوا هذا الحكم، وإن لم تكن لهم سلطة استأذنوا أصحاب السلطة ثم نفذوه إن أذن لهم.

---

(١) أهم الفرق التى انقسم إليها اليهود هى: «الفرسيون» أى الربانيون، والصدوقيون، والسامريون، والحَسَدِيّون، أى المشفقون»، والقراءون أى المتمسكون بالأسفار، ويعرفون بالعنانيين نسبة إلى مؤسس هذه الفرقة عنان ابن داود.

والأسفار الخمسة هى: سفر التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية.

(٢) سفر التثنية: الإصحاح الخامس عشر، الجمل من: ١– ٤ ط جمعيات الكتاب المقدس– القاهرة: ١٩٦٢م.

وكان المجلس الذى له حق إصدار الحكم بإعدام من ارتكب جريمة دينية هو مجلس عدد أعضائه واحد وسبعون عضواً، يدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أيا كانت مواطنهم.

وسوف أشير إلى بعض فرقهم وما يعتقدون، فى إيجاز فى الكلمات التالية:

- الفريسيون:

وتقوم عقائد هذه الطائفة على أمور جوهرية لديهم يؤمنون بها، أهمها:

* إيمانهم بوجوب الاستمساك بالدين.
* وإيمانهم بأسفار موسى عليه السلام الخمسة المكتوبة مع إضافة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفاسير والأحكام التى وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم.
* ويؤمنون بأنه لا مهرب لليهود من الانقراض، ومن أن تمتصهم الشعوب الأخرى، لا مهرب لهم من ذلك إلا بإطاعة أوامر الأسفار الخمسة وشروحها.

وقد غرسوا فى نفوس أتباعهم إيمانًا ينقذهم من الضعف والانحلال، ويقيهم النوازل والكوارث.

- والصدوقيون:

وهم طائفة من اليهود لا يؤمنون بالبعث، ولا باليوم الآخر، وهم منسوبون إلى صدوق مؤسس هذه الطائفة.

ومن عقائدهم:

* فرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على كل اليهود.
* ورفض ما عدا التوراة، كالروايات الشفوية والتفاسير المطلقة.
* والارتياب فى خلود الروح.
* والاقتناع بامتلاكهم طيبات هذا العالم.

- والأسينيون:

وهذه الطائفة الأسينية قد تأثرت كثيراً بنظريات الزهاد التى كانت سائدة فى القرن الأول قبل ميلاد المسيح، كما تأثروا كذلك بآراء البراهمة والبوذيين والمجوس.

ومن معتقدات هذه الطائفة:

* التمسك إلى حد التطرف بالشريعة مكتوبة أو غير مكتوبة.

* والإيمان بمعيشة بعيدة عن الزوجية -عُزَّابًا فى مجموعات يزرعون الأرض ويعيشون فى الصحراء ويسكنون فى منازل تملكها الجماعة التى ينتسبون إليها ويتناولون الطعام مجتمعين، وهم صامتون، ويخلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مالٍ مشترك، تحت شعار هو: «مالى ومالك مِلْك لك».

* وأن الاتصال بالله تعالى هو اتصال صوفى بحت، طريقه التأمل والصلاة والصيام والاستغراق فى التفكير.

* ويؤمنون بالسلام ويمتنعون عن صناعة شيء من أدوات الحرب، ولكنهم يدفعون الأعداء إن هوجموا، منضمين فى ذلك الدفاع إلى الشيع اليهودية.

وقد اتضح ذلك عندما هاجمت جيوش «تيتس» بيت المقدس والهيكل، إذ ظلوا يقاتلون حتى لم يكد يبقى منهم أحد.

٢- الإيمان عند بعض علماء النصارى:

سنحاول التماس معنى الإيمان عند النصارى أو المسيحيين فى مجالين:

- ما قاله المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام فيما لايزال باقيًا فى أناجيلهم حتى اليوم.

- وما نادى به بعض المفكرين المسيحيين منذ القرن الثانى لميلاد المسيح عليه السلام وإلى عصرنا هذا.

- مفهوم الإيمان من كلام المسيح عليه السلام:

* الإيمان هو التوكل على الله والتوجه إليه وحده، وقد بدا ذلك فى تلك الكلمات التى نطق بها المسيح عليه السلام «طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات، طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى؛ كاذبين، افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم»(١)، فهذه الكلمات تشير إلى أن أعمق الإيمان هو التوكل على الله، والالتجاء إليه، وعمل الخير من أجله، وعدم المبالاة بالأشرار من الناس.

---

(١) إنجيل متَّى: إصحاح: ٥ من ١٠- ١٢.

* والإيمان يعنى نورًا يضىء للناس، وخيرًا يوجه إليهم، وخلقًا حسنًا فى التعامل معهم، وقيمًا فاضلة يجب التمسك بها على الدوام.

وقد اتضح ذلك فى قول المسيح عليه السلام لتلاميذه وللدعاة الذين معه:

«أنتم ملح الأرض، ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملَّح، لا يصلح بعد لشىء إلا أن يطرح خارجًا ويداس من الناس. أنتم نور العالم.. فليضئ نوركم هكذا قدام الناس؛ لكى يروا أعمالكم الحسنة...»[١].

* والإيمان ورع وتقوى وتسامح وبرّ بالآخرين:

وقد دلّت عليه كلمات المسيح عليه السلام فيما يلى:

«... وأما أنا فأقول لكم: إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم... فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئًا عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً: اصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك...»[٢].

كما دَلَّ عليه قوله عليه السلام:

«سمعتم أنه قيل: عين بعين، وسِنٌّ بِسِنّ؛ وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشَّر، بل من لطمك على خدك الأيمن: فحَوِّل له الأيسر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك؛ فاترك له الرداء أيضًا، ومن سَخَّرك ميلاً واحدًا؛ فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده»[٣].

* والإيمان ابتعاد عن المراءاة والتظاهر والنفاق؛ لأنه فى جوهره إخلاص لله وتوجه إليه بالعمل الصالح.

وقد أوضحت ذلك الكلمات التالية للمسيح عليه السلام: «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قُدَّام الناس لكى ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر... فمتى صنعت صدقة؛ فلا تُصَوِّت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون فى المجامع وفى الأزقة لكى يُمَجَّدوا من الناس، الحق أقول لكم، إنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صنعت صدقة، فلا تُعَرِّف شمالك ما تفعل يمينك؛ لكى تكون صدقتك فى الخفاء»[٤].

---

(١) إنجيل متى: ١٦- ١٩.
(٢) السابق: ٢٢- ٢٤.
(٣) السابق: ٣٨- ٤١.
(٤) إنجيل متى: الإصحاح ٦: من ١- ٤

كما اتضح ذلك فى قوله عليه السلام:

«لا يقدر أحد أن يخدم سيدين؛ لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال...»[١].

* والإيمان لا ينافى ما تبيحه الضرورات من محظورات؛ لأن الإيمان لا يتعارض مع العقل من جانب، ولا يمكن أن يترتب على التمسك به إلحاق ضرر بالإنسان من جانب آخر.

وكلمات المسيح عليه السلام هى التى توضح ذلك، وهى: «... فى ذلك الوقت ذهب يسوع فى السبت بين الزرع فجاع تلاميذه ، وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون، فالفريسيون لما نظروا قالوا له: هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله فى السبت، فقال لهم: أمَا قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه، كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لم يحل أكله له ولا للذين معه، بل للكهنة فقط، أو ما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت فى الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء...»[٢].

* والإيمان الصحيح يجب أن يكون خاليًا من التشكك ومفعمًا باليقين والثقة، إن ذلك هو الإيمان الحق الذى تستجاب معه الدعوات، وتحدث به خوارق العادات.

اتضح ذلك فى قول المسيح عليه السلام لتلاميذه:

«... وفى الصبح إذ كان راجعًا إلى المدينة جاع، فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها إلا ورقًا فقط؛ فقال لها: لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد، فيبست التينة فى الحال.

فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين: كيف يبست التينة فى الحال؟

فأجاب يسوع وقال لهم: الحق أقول لكم: إن كان لكم إيمان ولا تشكُّون فلا تفعلون أمْر التينة فقط، بل إن قلتم أيضًا لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون، وكل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين تنالونه»[٣].

(١) إنجيل متى: الإصحاح: ٦: ٢٤.
(٢) السابق: الإصحاح ٦: ١- ٤
(٣) السابق: الإصحاح: ٢١: ١٨- ٢٢.

مفهوم الإيمان بعد المسيح عليه السلام

نقصد بما بعد المسيح عليه السلام أولئك المفكرين المسيحيين الذين كانت لهم رؤى وأفكار عن الإيمان، نرجو أن نذكر بعضها فى هذه الصفحات والله الموفق.

* «إيرانيوس»- القرن الثانى بعد ميلاد المسيح عليه السلام.

كان «إيرانيوس» أول مَنْ تحدث عن الإيمان وعلاقته بالحرية الإدراكية للعقل البشرى وعلاقته بالله تعالى، كما يتضح ذلك من قوله: «لقد حفظ الله إرادة الإنسان حُرَّة، وتحت تصرف الإنسان، ليس فقط بالنسبة للأعمال، ولكن أيضًا بالنسبة للإيمان».

* و«توماس الإكوينى» (١٢٢٥- ١٢٧٤م) فى قوله:

«عمل العقل فى محاولته تصديق الحقيقة الإلهية بمقتضى الإرادة التى يحركها الفضل الإلهى».

أى أن العقل فى مجال الإيمان يتحرك من أجل التصديق من عمل الاختيار الذى ينحاز فيه إراديًا إلى جانب بدلاً من جانب، استجابة لدلائل خارجية مستوحاة من الفضل الإلهى.

* و«مارتن لوثر» (١٤٨٧- ١٥٤٦م):

كان يعتبر الإيمان ثقة كلية فى الحب الإلهى، والنعمة الإلهية التى أوحى بها إلى المسيح (عليه السلام).

وليس الإيمان عنده اعتقادًا أساسيًا من معتقدات الكنيسة.

وليس الإيمان عنده هو الاعتقاد بأن الله تعالى موجود أو أنه ثلاثة فى واحد، ولكن الإيمان موقف يتعلق بالثقة وإسلام الذات لله (تعالى).

* و«كالفن» (١٥٠٩- ١٥٦٤م):

عَرَّف الإيمان بأنه: معرفة ثابتة ويقينية بكرم الله نحونا، وتقوم هذه المعرفة على حقيقة العهد المُعْطَى للمسيح (عليه السلام) الذى أوحى به لعقولنا من خلال الروح القدس.

فالإيمان -عنده- يستجيب للكتاب المقدس على أنه الكلمة الموحاة، حتى إنه يقول: «هناك علاقة ثابتة بين الإيمان والكلمة».

* و«باسكال»: (١٦٢٣- ١٦٦٢م):

يفترض «باسكال» أن العـقل لا يستطيع أن يَحُدَّ للإيمان حَدًا يمكن مـعه إثبات أن هناك إلهًا . . .

ثم توخَّى «باسكال» الحذر فقال: يجب على الإنسان أن يقرر إذا كان يعتقد أو لا يعتقد، فإذا قرَّر الإنسان أنه يعتقد وكان الله مـوجودًا، فإن الإنسان يكسب الحياة السرمدية، ولن يخسر شيئًا إذا كان الله غير موجود.

أما الذى لا يعتقد أصـلاً، فإنه لن يكسب شيئًا إذا كان الله غير موجـود، ويخسر الحياة الأبدية إذا كان موجودًا.

* و«تنانت»: (١٨٦٦- ١٩٥٨م):

يرى «تنانت» أن الإيمان هو العنصر الإرادى فى اكتساب المعرفة، فالإيمان عنصر فى أى تقدم من معطيات الحِسّ إلى الإدراك، وهو ضرورى فى إسقـاط فرض علمى لتحقيق ما لُوحِظ، بل الإيمان حيوى فى كل إرادة تحمل العمل، وتمضى به نحو إتمامه.

- والإيمان أو الادراك الدينى يشارك فى بناء مـشترك مع المعرفة بالنسبـة للعلوم وللحياة الشخصية.

- والافتراضات العلمية -عنده- تشبع النزعـة نحو تفسير نظام الكون عن طريق القوانين الكمية.

- والافتراضـات «اللاهوتية» الدينية والإيمانية تـشبع النزعة نحو الغـائيَّة، أى أن الإيمان ليس معنيـا بالعالم المادى فى حد ذاته الذى هو مـوضوع المعرفـة، ولكنه معنى بمعناه الغائى.

د- الإيمان كما أوضحه منهج الله ونظامه:

الإيمان إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وهو مشتق من الأمن الذى هو ضد الخوف، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

* والإيمان بالله تعالى هو: إثباته والاعتراف بوجوده سبحانه وتعالى.

والإيمان لله تعالى هو: القبول بما جاء الرسول الخاتم من وحى الله تعالى إليه، والطاعة لله ولرسوله.

* والإيمان بالنبى ﷺ هو: إثباته والاعتراف بنبوته وبما أوحى الله إليه.

والإيمان للنبى ﷺ هو: اتباعه بعد تصديقه، وطاعته فى كل ما أمر به أو نهى عنه.

* والإيمان بهذا المعنى الذى ذكرنا يقابله الكفر والشرك فى أصله، ويقابله الفسق أو الكذب فى أعماله.

- فالإيمان يقابل الكفر، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴾ [النساء: ١٣٧].

- ويقابله الشرك؛ كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

- ويقابله الفسق؛ كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨].

- ويقابله الكذب والتكذيب؛ كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧].

* والإيمان أصل، والعمل الصالح فرع عنه وترجمة له، وهو الذى ينقل من الكفر أو الشرك إلى الإيمان، والإيمان لله ولرسوله فرع، وهو الذى يكمل الإيمان أو يزيده بوصفه عملاً صالحًا، فإن كف المؤمن عن العمل الصالح أو عمل بعضه وترك بعضه

نقص إيمانه، وهذا هو معنى أن الإيمان يزيد وينقص أى يزيد بالطاعات والعمل الصالح وينقص بالمعاصى وترك العمل الصالح، ومَنْ حَقَّق أصل الإيمان ولم يحقق فروعه فهو الفاسق أو العاصى.

* وأصل الإيمان وأركانه أو مفرداته -على وجه الإجمال- حددها رسول الله ﷺ فى ستة مفردات، فيما رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد... فأخبرنى عن الإيمان، قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره...»** ثم انطلق فلبثت مليًا، ثم قال لى: **«يا عمر أتدرى من السائل»؟** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**.

* أما مفردات الإيمان على وجه التفصيل فهى شعبه التى ذكر رسول الله ﷺ أنها بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة.

وقد اعتمد الإمام أبو عبد الله بن الحسن الحليمى المتوفى سنة ٤٠٣هـ على الرواية التى ذكر فيها أنه سبع وسبعون شعبة[1]. كما اعتمد الإمام البيهقى على هذه الرواية فى كتابه: «شعب الإيمان»، وذكرها شعبة شعبة مع شرحها.

ونص هذا الحديث الشريف فيما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة؛ فأرفعها لا إله إلا الله وإدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**.

وهذه المفردات للإيمان أو شعبه هى:

١- الإيمان بالله عز وجل،

٢- والإيمان برسل الله أجمعين،

---

(١) ألَّف الحليمى رحمه الله فى هذه الشعب السبع والسبعين كتابًا: سماه: المنهاج أو شعب الإيمان، وقد طبع كتاب الحليمى فى مجلدات ثلاثة.
وكتاب البيهقى: شعب الإيمان طبع كثيرًا، وتعددت أسماؤه فسمى: الجامع لشعب الإيمان، أو الجامع المصنف فى شعب الإيمان، ثم استقرت تسميته: «شعب الإيمان»، وبيْن يدىّ طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠هـ فى تسعة مجلدات.

٣- والإيمان بالملائكة،

٤- والإيمان بالقرآن الكريم وبجميع الكتب المنزّلة قبله،

٥- والإيمان بأن القدر خيره وشره من الله تعالى.

٦- والإيمان باليوم الآخر،

٧- والإيمان بالبعث بعد الموت،

٨- والإيمان بحشر الناس بعد بعثهم من قبورهم،

٩- والإيمان بأن دار المؤمنين ومأواهم الجنة،

١٠- والإيمان بوجوب محبة الله تعالى،

١١- والإيمان بوجوب الخوف من الله تعالى،

١٢- والإيمان بوجوب الرجاء من الله تعالى،

١٣- والإيمان بوجوب التوكل على الله تعالى،

١٤- والإيمان بوجوب محبة النبى ﷺ،

١٥- والإيمان بوجوب تعظيم النبى ﷺ،

١٦- وشُح المرء بدينه،

١٧- وطلب العلم وهو معرفة البارى سبحانه وتعالى،

١٨- ونشر العلم،

١٩- وتعظيم القرآن المجيد،

٢٠- والطهارات،

٢١- والصلوات الخمس،

٢٢- والزكاة،

٢٣- والصيام،

٢٤- والاعتكاف،

٢٥- والحج،

٢٦- والجهاد فى سبيل الله تعالى،

٢٧- والمرابطة فى سبيل الله تعالى،

٢٨- والثبات للعدو وترك الفرار،

٢٩- وأداء الخمس من المغنم،

٣٠- والعِتْق، بوجه التقرب إلى الله تعالى،

٣١- وأداء الكفارات الواجبات بالجنايات وهي:

كفارة القتلى،

وكفارة الظِّهار،

وكفارة اليمين،

وكفارة المسيس فى رمضان،

٣٢- والإيفاء بالعقود،

٣٣- ووجوب شكر نعم الله تعالى،

٣٤- وحفظ اللسان عما لا يحتاج إليه،

٣٥- وأداء الأمانة،

٣٦- وتحريم قتل النَّفس، وسائر الجنايات،

٣٧- وتحريم الفروج- التعفف،

٣٨- وتحريم السرقة، ووجوب قبض اليد عن الأموال الحرام،

٣٩- والتورع فى المطاعم والمشارب، واجتناب ما لا يحل،

٤٠- وتحريم ما لا يحل من الملابس والزّى والأوانى،

٤١- وتحريم الملاعب والملاهى المخالفة للشريعة،

٤٢- والاقتصاد فى النفقة، وتحريم أكل المال بالباطل،

٤٣- وترك الغِلّ والحسد،

٤٤- وتحريم أعراض الناس، وترك الوقيعة بينهم،

٤٥- وإخلاص العمل لله تعالى،

٤٦- والسرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة،

٤٧- ومعالجة الذنب بالتوبة،

٤٨- وتقديم القرابين، وهى ثلاثة:

- الهَدْى، والأضحية، والعقيقة،

٤٩- وطاعة أولى الأمر،

٥٠- والتمسك بما عليه الجماعة،

٥١- والحكم بين الناس بالعدل،

٥٢- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

٥٣- والتعاون على البر والتقوى،

٥٤- والحياء،

٥٥- وبر الوالدين،

٥٦- وصلة الأرحام،

٥٧- وحسن الخُلُق،

٥٨- والإحسان إلى المماليك،

٥٩- وحق السادة على المماليك،

٦٠- وحقوق الأولاد والأهلين،

٦١- ومقاربة أهل الدين ومودتهم،

٦٢- وردّ السلام،

٦٣- وعيادة المريض،

٦٤- والصلاة على من مات من أهل القِبْلة،

٦٥- وتشميت العاطس،

٦٦- ومباعدة الكفار والمفسدين، والغلظة عليهم،

٦٧- وإكرام الجار،

٦٨- وإكرام الضيف،

٦٩- والسَّتْر على أصحاب القروف- الذنوب،

٧٠- والصبر على المصائب،

٧١- والزهد، وقِصَر الأمل،

٧٢- والغيرة، وترك المراء،

٧٣- والإعراض عن اللغو،

٧٤- والجود، والسخاء،

٧٥- ورُحْم الصغير، وتوقير الكبير،

٧٦- وإصلاح ذات البين،

٧٧- وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه[١].

* وهذه الشعب السبعة والسبعون التى ذكرها الإمـام البيهقى فى كتابه: «شعب الإيمان» قد أيد كل واحدة منها بآية من القرآن الكريم، أو أكثر، وبحديث من أحاديث النبى ﷺ أو أكثر.

وقد تعمد البيهقى أن يُعَنْون لسبع وسبعين شعبة من شعب الإيمان ولكنه ذكر فى أثنائها من مفردات الإيمان أو شُعَـبه سبع عشرة مفردة، أيَّد معظمهـا بآية قرآنية أو حديث نبوى، فجاء فى كتابه من مفردات الإيمان أربع وتسعون مفردة.

ولو تتبعنا آيـات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ فى الحديث عن مـفردات الإيمان أو القيم الإيمانيــة لوجدنا أكثر وأكثر، وهذا ما نـتـعمد أن نبحث عنه ونحصيــه فى كتابنا هذا «القيم الإسلامية فى الكتاب والسنة» ونسأل الله التوفيق والعون.

* وهذا الإيمان بشعبه ومفرداته الكثيرة -كما سنعددها- ينظر إليه الإسلام نظرة موضوعية، تتمثل فى عدد من الاعتبارات الهامة التى توضح وظيفة الإيمان فى حياة الناس؛ بوصفه قيمة كبرى من القيم الإسلامية وهذه الاعتبارات فى جوهرها حقائق راسخة ثابتة فى كل زمان ومكان، ومن تلك الحقائق:

(١) ذكرت هذه الشعب بالتفصيل فى أكثر من كتاب لى، ولكنى ذكرتها هنا أيضًا حتى يعرفها من لم يطلع عليها.

- أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة إنسانية كريمة بغير الإيمان إذ هو ضرورة لهذه الحياة، لأن من فقد الإيمان اضطرب وأصابه القلق فالمرض.

* وكيف يعيش الإنسان بغير إيمان بالله تعالى وقد جعله الله تعالى خليفة فى هذه الأرض؟

* وكيف يتلقى الخليفة عمن استخلفه ماذا يفعل وماذا يترك فى هذه الحياة؟ من الضرورى إذن الإيمان بالرسل والكتب والملائكة التى نزلت بهذه الكتب السماوية.

* وكيف يعمل الإنسان العمل الصالح وفق منهج من استخلفه ونظامه، ووفق نظام الثواب والعقاب فى اليوم الآخر؟ فلابد من الإيمان باليوم الآخر وما يجرى فيه.

- وأن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله... هو وحده الذى يحدد للإنسان هدفه فى الحياة ويرسم له معالم الطريق فى الوصول إلى هدفه، بل يحدد له خطوات هذا الطريق، ويخيره بين أن يسلك هذا الطريق ويلتزم بخطواته أو يحيد عن ذلك، ويعينه على حسن الاختيار بالعقل وبالرسول.

- وأن الإنسان الذى لا يؤمن بالله ورسله وكتبه.. لا يعرف هدفه فى الحياة ولا يعرف كيف يصل إلى هذا الهدف.

وهذا ما يفسر الحيرة والضلال، أو الكفر والضياع أو الفسق والفجور التى يعيشها من فقد الإيمان فدخل فى هذه المتاهات، وعاش معاديًا لمنهج الله ونظامه، بل معاديًا لعقله.

وقد علمنا الله تعالى الفَرْقَ بين المؤمن الذى يعمل صالحًا، وغير المؤمن فى آيات قرآنية كريمة منها:

* قول الله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٢٩- ٣١].

- والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله... سبب من أسباب القوة والعزة والتمكين فى الأرض، والأمن والاطمئنان، كما يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ

لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

– وأن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله... هو عمل العقلاء المهتدين المطيعين لأمر الله تعالى ونهيه واتباع سبيله والابتعاد عن سبل الشيطان؛ لأن الله تعالى مالك الملك وله الخلق والأمر وهو على كل شيء وكيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

– وأن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله... لا يحول بين الإنسان، وبين التمتع بطيبات الحياة الدنيا دون إسراف أو مَخيلة، بل عَلَّم الله الإنسان أنه أحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ووضع عنهم الحرج والتضييق، وآيات القرآن الكريم الدالة على ذلك عديدة نذكر منها:

* قوله تعالى: ﴿... وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦– ١٥٨].

– وأن الإيمان بالله ورسوله يعطى الإنسان قدرة على أن يتعامل مع مفردات الكون التى فى إمكانه أن يتعامل معها دون أن يعتبرها قوًى مضادة له تفسد عليه حياته فيصارعها فيصرعه الأقوى منها فيضعف أمامه ويستخذى، وقد يُخدع فى قوتها فيعبدها من دون الله لعلها ترحمه، أو يستعلى على بعض هذه المفردات فيهزمها ويعيث فى الأرض فسادًا فيظلم ويعتسف ويقول كما قال سالفه المتجبر المغرور للناس: أنا ربكم الأعلى.

الإيمان بالله تعالى ورسوله يجعل الإنسان متوازنًا فى الحكم على نفسه وعلى الناس، فهو ليس مخلوقًا منسحقًا أمام قوى الكون العاتية المدمرة، وليس هو ذا قدرات خارقة لنظام الكون ونواميسه.

الإيمان بالله ورسوله يجعله متوازنًا فى ذاتـه وفى حكمه على الناس والأشياء ومفردات الكون كله، وهذا التوازن يبعث فى نفس الإنسان رضا وسعـادة وقدرة فائقة على التجاوب مع الحياة بإيجابية، وإرضاء لله تعالى.

– والإيمـان بالله ورسوله. . . يمكّن الإنسـان من الخـروج من دائرة الإحسـاس بالحقـارة والضعف -كمـا أوهمه بذلك بعض الناس- فيعيش وقـد نضى عنه هذا الثوب، ولبس بدلاً منه ثوب العزة، التى كتبهـا الله تعالى للمؤمن وثوب التكريم الذى كرم الله تعالى به كل بنى آدم.

والإيمان -كمـا أسلفنا- هو الذى يجعل الإنسان ناجـحًا فى التعامل مع الحـياة الدنيا مستمتـعًا فيها بتحقيق مطالب فطرته التى فطره الله عليـها، وقد فطر الله تعالى الناس على أنواع ثلاثة من الفطرة:

* فطره على التَّدَيُّن، وأنعم عليه بـالعقل يهديه إلى الإيمان، فإن عجـز عقله عن هدايته، أرسل الله تعالى إليه رسولاً وأنزل معه كتابًا ليعينه على أن يهتدى للإيمان.

* وفطره على حب البقاء فى الدنيا فأنعم عليه بنعمة الإحساس بالجوع والعطش والإحساس بالبرودة والحرارة والحاجة إلى المأوى، فتناول الطعام والشراب وارتدى من الملابس ما يقيه البرد والحر، واتخذ سكنًا يأوى إليه.

* وفطره على اتخاذ الأسباب لحفظ نوعه وامتداده فى الزمن، فأنعم عليه بنعمة احتياجه إلى زوجة وركب فيـه اشتهاءها ليتصل بهـا فتلد له من يحفظ له امتداده بعـد موته، فيكون أسرة ويرعاها ليكون كل أفرادها أسرة. . . وهكذا.

– الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبـه ورسله يهيئ للإنسان أن يتمكن من تحقيق ما فطره الله عليه، وهو مـنشرح الصدر، بل مَنَّ عليـه بشريعـة ومنهج تعتبـر تحقـيق الإنسان لرغبـاته فى إطار ما أَحَلَّ الله تعالى عـبادة وتقربًا إلى الله تعـالى، وسببًا من أسـباب حصوله على السَّعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.

* وبغير هذا الإيمـان بالله تعالى ورسوله ومنهجه ونظامه، لن يسـتطيع الإنسان أن يمارس متطلبات فطرته، وإنما يتخبط عند فقده الإيمان وفـقده الالتزام بمفردات الإيمان وشعبه، فيكون نتيجة تخبطه أحد عملين لا يحمدان فى الدنيا ولا فى الآخرة:

أولهما: أن ينكب على ملذاته وشهواته يعب منها كيف شاء فيقع فى الإسراف والمخيلة، فيظلم نفسه ومجتمعه.

والآخر: أن يحرم نفسه من طيبات ما أحلّ الله تعالى له، فيظلمها ويظلم مجتمعه أيضًا.

* إن الإسراف فى تناول الشهوات بُعْدٌ عن السَّمْت الإنسانى، وقرب من سلوك الحيوانات، كما أنه أنانية وإفراط فى إرضاء الذات، وإخلال بالتوازن فى الاستجابة للحاجات، وأضرار كبيرة تعود على الفرد الذى أسرف فى ممارسة شهواته، وإضرار بالمجتمع وما أقامه عليه الله تعالى من نظم وآداب، وإشعال لنار الحقد بين الواجدين والمعدمين، وخروج عن صراط الله المستقيم واتباع للسبل الأخرى التى على رأس كل سبيل منها شيطان، كما عبر عن ذلك الرسول الخاتم ﷺ.

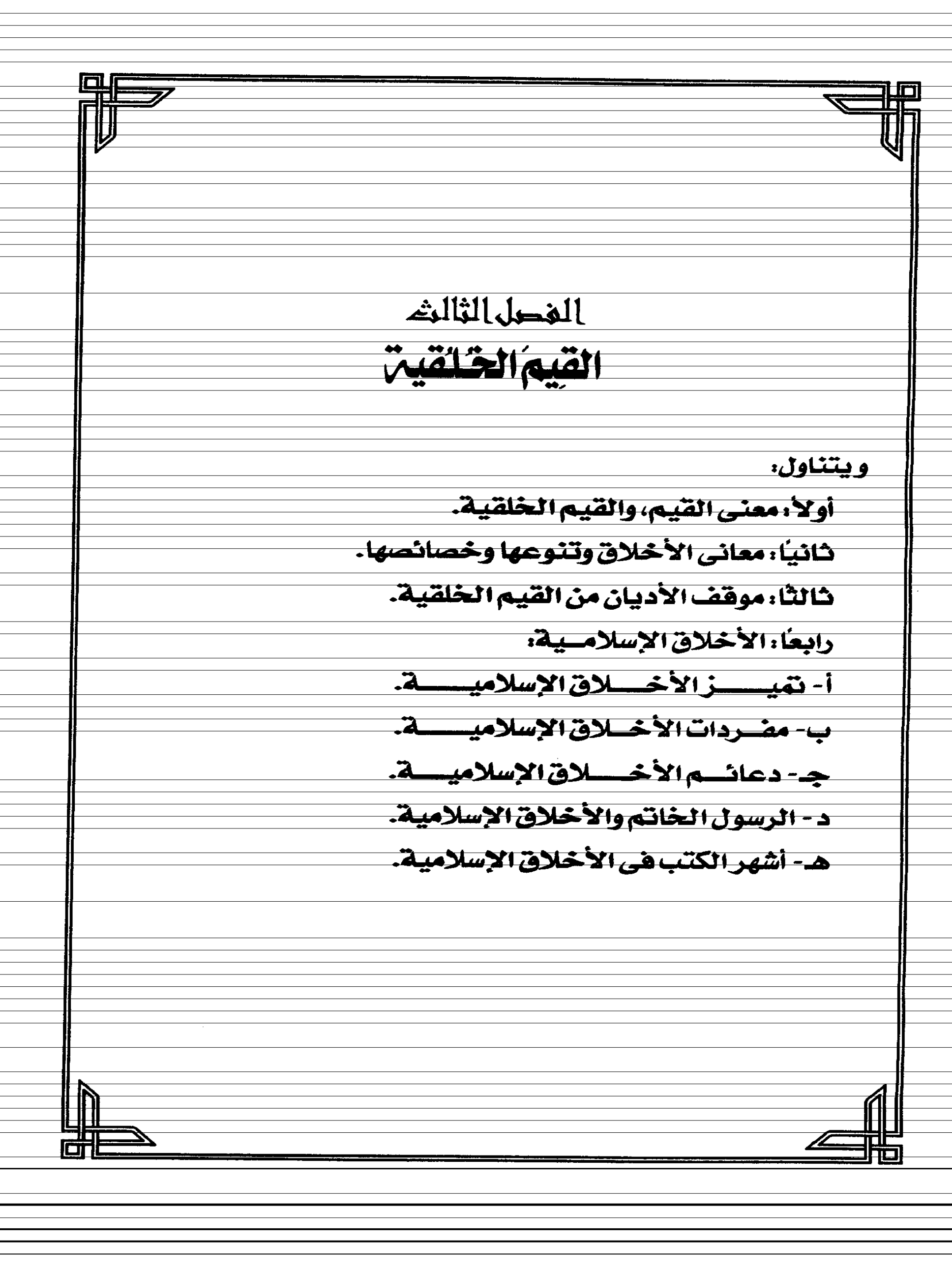
* وإن حرمان النفس من حقها فى التمتع بطيبات ما أحل الله تعالى، خروج على منهج الله ونظامه، ودخول فى مجال الأوهام والضلالات بالاستجابة لبعض الغافلين الدجالين الذين يحرمون ما أحل الله تعالى، ومن استجاب لهم فقد أغضب الله تعالى بل أشرك به لأنه اتخذ مشرّعًا غيره سبحانه وتعالى.

بهذا أكون قد ذكرت بعض الحقائق التى جاء بها الإسلام فى تصوره للإيمان؛ وظيفته وأهميته فى حياة الإنسان الدنيا وحياته الآخرة، وهى حقائق لا تقبل النقض ولا تستطيع العقول السليمة أن تعترض عليها فضلاً عن أن تكذبها.

ذاك هو تصور الإسلام للإيمان وهو أكمل تصور وأشمله وأتمه، وأدخله فى الحق، وحسبه أنه تصور مؤيد بالوحى من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وبعد: فقد اشتمل هذا الفصل الثانى على تعريف الإيمان والقيم الإيمانية، وبيَّن أهمية الإيمان فى حياة الإنسان وقيمة الإيمان فى الحياة الإنسانية وأهميته مستعرضًا آراء الفلاسفة وعلماء الأديان، ثم ختمته بتصور الإسلام للإيمان.

وإلى الحديث عن القيم التى تتصل بالخلق فى الفصل الثالث من هذا الباب سائلاً الله تعالى العون والتوفيق.



الفصل الثالث

القيم الخلقية

ويتناول:

أولاً: معنى القيم، والقيم الخلقية.

ثانيًا: معانى الأخلاق وتنوعها وخصائصها.

ثالثًا: موقف الأديان من القيم الخلقية.

رابعًا: الأخلاق الإسلامية:

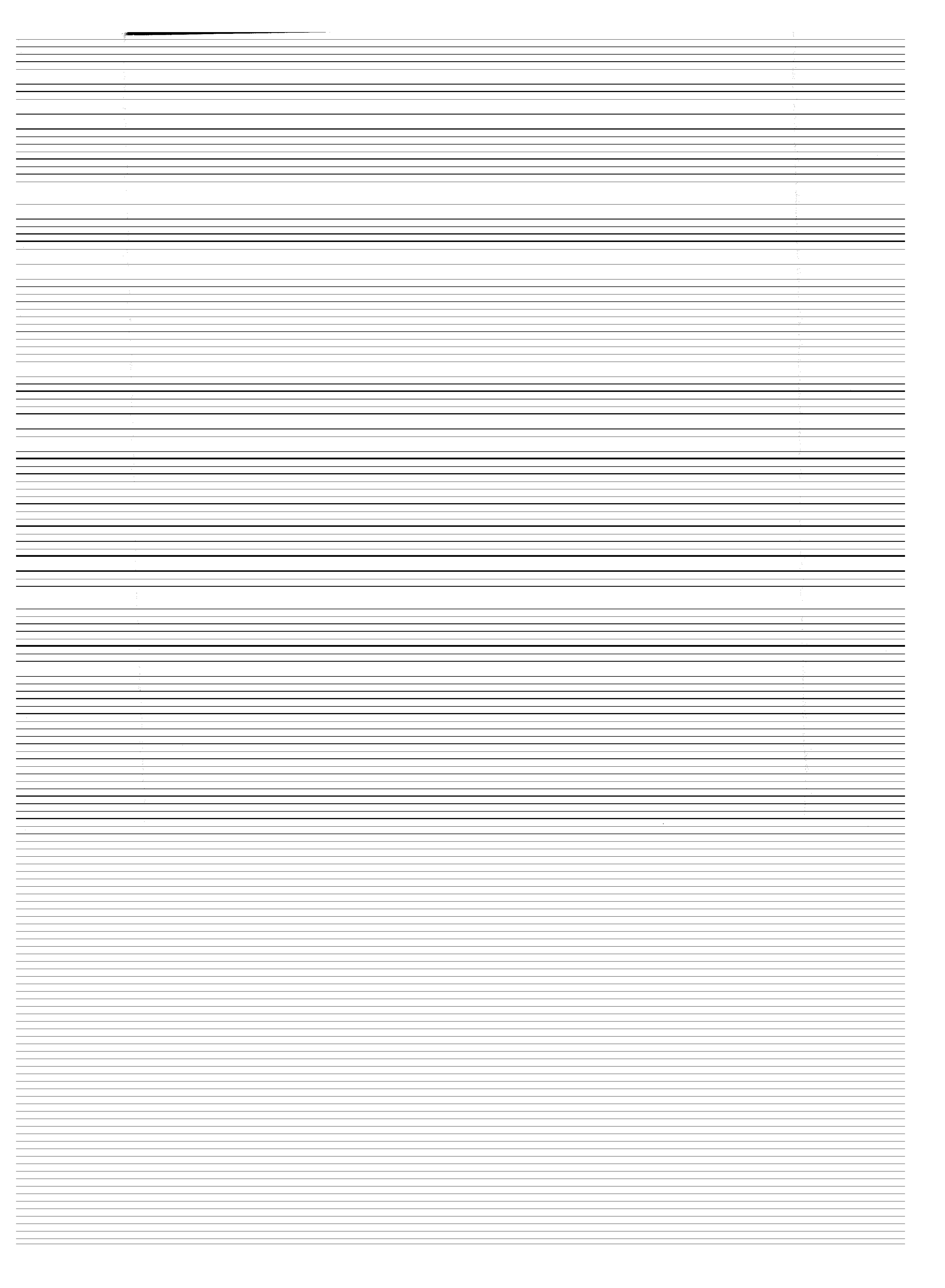
أ- تميز الأخلاق الإسلامية.

ب- مفردات الأخلاق الإسلامية.

جـ- دعائم الأخلاق الإسلامية.

د- الرسول الخاتم والأخلاق الإسلامية.

هـ- أشهر الكتب فى الأخلاق الإسلامية.



أولاً: معنى القيم، ومعنى القيم الخلقية

بعون من الله تعالى نحاول فى هذا الفصل أن نلقى ضوءًا كاشفًا على موضوعات أربعة هى:

معنى القيم وفاعليتها وأثرها فى الناس والمجتمع، وفى العلوم، والفنون، ومجالاتها اليومية والعلمية والفلسفية ومدى تأثيرها فى ذلك كله.

ومعنى القيم الخلقية عمومًا والقيم الخلقية الإسلامية على وجه الخصوص، وكيف توصل الإنسان إلى الهداية بكل معانيها، وبيان تنوع القيم الخلقية الإسلامية إلى نوعين: فضائل ورذائل.

ومعنى الأخلاق العام، ومعناها الفلسفى، وتنوعها، ومنابعها ومباعثها، وخصائصها.

وتوضيح موقف الأديان من القيم الخلقية، وبخاصة الأديان الكتابية كاليهودية والمسيحية، والإسلام.

ثم تحدثت عن القيم الأخلاقية الإسلامية بتوسع نسبى فوضحت منبعها وهو القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة وسيرة الرسول ﷺ.

وتحدثت عن دعائم الأخلاق الإسلامية وحددتها فى سبع دعائم.

ثم تحدثت عن مفردات الأخلاق الإسلامية أو فروعها وعددت من هذه الفروع كبرياتها.

ثم ختمت هذا الفصل بالحديث عن ارتباط الأخلاق الإسلامية بالرسول الخاتم ﷺ، ومدى تنبه العلماء المسلمين إلى ذلك، وتآليفهم عن أخلاق الرسول ﷺ روائع الكتب، مستعرضًا محتويات بعض هذه الكتب.

وأسأل الله تعالى التوفيق والعون والتسديد.

أ- معنى القيم:

من المسلَّم به بين الباحثين والعلماء أن كلمة: «القيمة» اصطلاح حديث نسبيًا اتخذ طريقه إلينا وإلى فكرنا المعاصر من خلال الفلسفة، ضمن ما وفد إلينا منها من تعبير «فلسفة القيم».

وكلمة القيمة فى الفلسفة تعنى عملاً معياريًا قويمًا، أى خاليًا من الاعوجاج، وداخلاً فى الاستقامة.

والاستقامة فى ثرات الفكر الإسلامى تعنى ثلاث صفات فى العمل الإنسانى هى:

أن يكون العمل صحيحًا،

وأن يكون فاعلاً أو فعالاً،

وأن يكون مؤثرًا فى الناس والأشياء.

* وموضوعات هذه القيم متعددة، لكن ما من موضوع منها إلا تدخله القيم وتحكم له أو عليه، لأن القيم معيارية كما ذكرنا آنفًا.

* والقيم ما دامت معايير، فلابد أن تكون لها دلالات وأن هذه الدلالات لا تفارقها أبدًا، مهما اختلف الموضوع الذى يكون للقيمة فيه فعالية وتأثير.

* والقيمة تفرض نفسها -مادامت معيارًا- على كل موضوع مهما تعددت ميادين هذه الموضوعات.

وعلى سبيل المثال:

نجد للقيم وجودًا فى كل العلوم الإنسانية، ونجدها قيمًا حاكمة توجه كل علم وترسم خطاه ومعالم طريقه، كما تخضع سائر العلوم للمعايير الصحيحة الفاعلة المؤثرة.

وأوضح ما تكون القيم فى الفنون والآداب، ومع ذلك فلا يوجد علم من العلوم يستغنى عن القيم، حتى تلك العلوم البحتة التى يظن الناس أنها بغير حاجة إلى القيم كعلوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء، بل العلوم والأعمال التقنية...

والقيم تقتحم علومًا بعينها اقتحامًا وتفرض نفسها عليها، وعلى وجه الخصوص علوم الاقتصاد وعلوم الاجتماع وعلوم النفس بكل فروعها.

والقيم ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالصفات الشخصية للإنسان، حيث ترفعه إلى درجة النبوغ والعبقرية والتفرد، أو تهبط به إلى ما دون المتوسط الذى يتصوره لنفسه؛ لأن القيم -كما قلنا- معايير، فهى بذلك قادرة على أن تصل بالإنسان فى صفاته الشخصية إلى القمة أو تهبط به إلى السفح.

* تنوع القيم:

تتنوع القيم إلى ثلاثة أنواع كبرى يندرج تحت كل نوع منها فروع كثيرة، ولها بذلك ميادين عديدة، وتترتب على ذلك أنماط من السلوك لا حصر لها.

وهذه الأنواع الكبرى هى:

- القيم اليومية.
- والقيم العلمية.
- والقيم الفلسفية.

* فالقيم اليومية؛ يقاس بها الوعى العام للإنسان فى احتكاكاته بالناس وتعامله معهم، كما يقاس بها حراكه اليومى مع الأحداث والأشياء، وهنا تتدخل القيم لتعلى من شأن الإنسان أو تهبط به.

* والقيم العلمية؛ تسيطر على التفكير العلمى الموضوعى، وتقيس منهجيته، ومدى تقدمه أو توقفه أو هبوطه عن الحد الذى ترسم القيم أبعاده وتفرض مقدماته وخطوات العمل به ونتائجه.

* والقيم الفلسفية؛ تهدى العقل وتسانده؛ فى رسم طرق تفكيره، وتعصمه عن الزيغ والضلال، وتقيس خطوات وصوله إلى الهدف أو قصوره دونه أو عجزه عن الوصول إليه، كما تقيس القيم كل الوسائل لتحقيق هذه الأهداف، ومدى كفاءتها وقدرتها.

* صفات القيم:

توصف القيم بصفات عديدة، وبناء على هذه الصفات تتنوع القيم ويتحيز بعضها عن بعض وعلى سبيل المثال:

- هناك قيم توصف بأنها دينية،
- وقيم إيمانية،
- وقيم خُلُقية،
- وقيم اجتماعية،
- وقيم عقلية،
- وقيم علمية،
- وقيم ثقافية،
- وقيم تربوية تعليمية،

- وقيم سياسية،

- وقيم اقتصادية،

- وقيم فنية أو جمالية،

- وقيم جهادية،

- وقيم تَحكُم العمل فى الدعوة إلى الله تعالى،

- وقيم تحكُم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

ومئات الصفات التى توصف بها مئات القيم، وفى كل ذلك تُعَدّ القيمُ معيارية تصحح المسار وتهدى إلى الطريق وتحدد الوسائل وتقومها.

ب- معنى القيم الخلقية:

هى قيم منسوبة إلى الخُلُق.

«والخُلُق هيئة راسخة فى النفس، يصدر عنها الفعل بسهولة ويسر -أى دون تكلّف-، فإن كان الفعل جميلاً محمودًا لدى العقل والشرع سُمى هذا الخلق: خُلقًا حسنًا، وإن كان الفعل قبيحًا مذمومًا لدى العقل والشرع سمى هذا الخُلُق: خلقًا سيئًا».

* وإذا كانت الأخلاق -كما يرى بعض المفكرين- هى صفات الإنسان الأدبية أو المعنوية -أى غير المادية أو غير الجسدية- فإن لنا أن نقول:

إن الأخلاق هى الصفات النفسية أو العقلية للإنسان التى يعرف بها فى الناس لطول ما ألزم بها نفسه فاعتادها.

والقيم الخلقية هى بهذا الوصف تعنى الأخلاق الرفيعة العالية أو الفاضلة.

* وفى لغتنا العربية نجد ترادفًا أو شبه ترادف أى نجد تقاربًا بين الخُلق والأدب، كما نجد كلمة الأخلاق فى تراثنا الفكرى قد تقيد بصفات أخرى مثل:

مكارم الأخلاق أى الأخلاق الكريمة،

ومحاسن الأخلاق أى الأخلاق الحسنة،

ومساوئ الأخلاق أى الأخلاق السيئة.

وإضافة هذه الصفات إلى الأخلاق، تؤكد خيرية هذه الأخلاق أو سوءها، وتوحى للإنسان بأن يتحلى بحسنها وأن يتخلى عن سيئها.

* وكلمة الأخلاق لها دلالتها وإيحاؤها فى الحضارات والثقافات القديمة، مثل: حضارة الفرس وثقافتهم، وحضارة الرومان وثقافتهم، فقد كان للأخلاق فيهما مكان بارز، وأثر فى فكر الناس وسلوكهم وعاداتهم، والتماس ذلك فى تاريخ الحضارتين ليس أمرًا صعبًا أو محتاجًا إلى عناء كبير، لأن هاتين الحضارتين الباذختين قد عبرتا -من خلال زخمهما السياسى والثقافى- إلى معظم بلدان العالم فى الزمان والمكان المحيطين بهما والآتيين بعدهما.

ولا يستطيع أحد أن ينكر التأثير والتأثر الحضارى والثقافى والسياسى والاقتصادى والأخلاقى بين الدول والحضارات والثقافات، لا ينكر ذلك أحد يُعْتَدّ برأيه.

وربما كان اليونان أشهر من سواهم فى الحضارة الرومانية بما هيئ لهم من مكونات فكرية وثقافية، وبمن اشتهر منهم من فلاسفة كبار، تأثر العالم بهم ونقل عنهم، وربما تبنى أفكارهم وفلسفتهم وأخلاقهم، بل بالغ بعض الناس فى التأثر بهم حتى ذاعت شهرة كثير من فلاسفتهم على مستوى العالم كله من أمثال: سقراط وأفلاطون وأرسطو، وغيرهم.

* ولم تكن الحضارة الإسلامية ولا الأمة الإسلامية بمنأى عن تأثيرات هاتين الحضارتين الفارسية والرومانية، كما لم تكن هاتان الحضارتان وما تفرع عنهما، ومن دار فى فلكهما من الشعوب بمنأى عن التأثر بالحضارة الإسلامية فيما بعد.

هذه حقائق تاريخية ثقافية يسلم بها معظم المثقفين مهما كان انتماؤهم الدينى أو العرقى أو الإقليمى، ومهما كانت العلاقة بين أهل الحضارات سلمًا أو حربًا أو غزوًا واستيطانًا، أو قهرًا واحتلالاً، أو نِدّية فى الحرية والاستقلال.

* ومن أراد أن يرصد هذا التأثير والتأثير بين الحضارات والثقافات فإنه يعجز أن يقول الكلمة الأخيرة، أو يصل إلى تحديد كامل، أو تحليل نهائى لهذا التأثير والتأثر بين الحضارات، وإنما يجد نفسه فى مجال الإشارات الدالّة واللمحات المعبرة، إلا أن يكون من الباحثين المتخصصين فى هذا المجال.

* وعلماء المسلمين ومفكروهم -كغيرهم من العلماء- لابد أن يكونوا قد تأثروا بهذه الحضارات والثقافات وأثروا فيها، بدليل أن كثيرًا من العلماء والمفكرين فى كل حضارة نقلوا عن غيرهم ممن سبقوهم نقلاً يكاد يكون حرفيًا فى مجالات علمية عديدة، وبخاصة أن الترجمات من لغة إلى لغة لم تتوقف فى فترة من فترات التاريخ.

ثانيًا: معانى الأخلاق وتنوعها وخصائصها:

أ- المعنى العام للأخلاق:

- من المفكرين من يرى أن الأخلاق تجربة ضرورية تستهدف الثورة على الحاضر باسم المستقبل، لتغيير سلوك الناس بتغيير ما فى نفوسهم، من أجل تحقيق الصورة المنشودة لإنسانية الإنسان.

- ومن المفكرين من يرون أن الأخلاق ثورة على الواقع، ويرون أن الحُرّية ثورة على القيم عمومًا، فكأنهم يرون أن القيم قيود.

المعنى الفلسفى للأخلاق:

- يرى كثير من الفلاسفة -وفى مقدمتهم أرسطو أن الأخلاق تعنى: أن كل إنسان فى المجتمع يسلك سلوكًا يهدف إلى غاية، وأن هذا السلوك خُلُق، وأن هذا الخُلُق معرفة، بل معرفة ثابتة علميًا أى يقينيًا فهى معرفة يقينية، وهى بهذا من النوع العقلى الفلسفى.

- والعمل العقلى الفلسفى -عندهم- يقوم على أساسين:

أحدهما: معطيات العلم:

والآخر: التشوّف إلى قيم يتوخّى تحقيقها.

- والفرق بين الإنسان والحيوان عندهم، أن الحيوان تهديه فطرته، وكيانه العضوى، ووظائف جسده، يهديه ذلك إلى ما يحافظ به على حياته.

أما الإنسان فلا يكتفى بما تهديه إليه فطرته وكيانه ووظائف جسده، وإنما يضيف إلى ذلك أن يرفض فى كثير من الأحيان الاستجابة لمطالب جسده إلا بعد أن يهذب هذه المطالب، ويخضعها للقيم الخلقية.

كما أن عقل الإنسان -وهو ما حُرِم منه الحيوان -يستهدف بلوغ الحياة الإنسانية الصحيحة، أو ما هو عند الفلاسفة: الخير الأسمى، ولا يبلغ الإنسان هذه الدرجة -عندهم- إلا إذا حقق طبيعته الخاصة به أى الطبيعة العاقلة؛ لذلك اعتبر الفلاسفة الحكمة التى يبلغ بها الإنسان هذا المستوى هى رأس الفضائل، وعنوان الخير؛ لأن الحكمة تأمل فلسفى يجعل الإنسان يعقل ذاته.

- ويرى الفلاسفة أن الوجود الأخلاقى هو: قدرة الإنسان على تجاوز حاجات طبيعته الغذائية، وحاجته الشهوانية؛ لتحقيق طبيعته العقلية أو الإنسانية، وهذه الطبيعة العقلية أو الإنسانية ترتبط تمامًا بمعرفة ما هو الخير وما هو الشر، وهما يؤلفان فى مجموعهما المعرفة الخلقية، وهى معرفة نامية متجددة، بل مركبة معقدة.

- ومن أجل أن أشهر الفلاسفة القدامى كانوا من اليونان أو من الغرب، كان من الضرورى أن نتحدث عن معنى الأخلاق لديهم بصفة خاصة، فنقول:

- الأخلاق عند اليونان هى: العرف أو الاستعمال الذائع، أو العادات الأخلاقية، أو الأعراف والتقاليد الأخلاقية، أو طُرُز من السلوك المستنير، وهو ما يسمى بالأخلاق الفلسفية، أو فلسفة الأخلاق.

- والباحثون المعاصرون من الغربيين اهتموا كثيرًا -فى تحديد معنى الأخلاق الفلسفية- بالجانب القيمى -أى علم القيم- متجاوزين بذلك الاتجاه أو الاهتمام الجانب المدرسى من الأخلاق، الذى يحصر الأخلاق فى أنها: علم الخير.

- وكلمة أخلاقى فى الثقافة الغربية تدل على:

المعنوى أو الأدبى فى مقابل: الجسدى أو المادى، أو «الفيزيائى» أو «الفسيولوجى» أى أن صفة أخلاقى تنطبق على الأفعال التى تعزى للعقل والفكر لا للجسد.

- وأوضح ما تكون التفرقة بين ما هو معنوى أو مادى من الأخلاق أن يقال فى وصف شعب نزلت به كارثة فامتصها وصبر عليها ولم يجزع: إنه شعب ذو روح أخلاقية سليمة، وأن شعوره القيمى قوى، أى لديه حصيلة وزاد من العلوم الإنسانية المعنوية التى تمكنه من التغلب على متاعبه وآلامه كعلوم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم السياسة وعلم الاقتصاد، وعلم التاريخ... إلخ وهى علوم تتضمن علم الأخلاق.

وتلك العلوم تقابلها العلوم التى تتصل بالمادة مثل: علم الفيزياء وعلم الكيمياء وعلم الأحياء الحيوانية والنباتية وسائر العلوم التجريبية.

ب- تنوع الأخلاق:

من المعروف لدى الباحثين فى علم الاجتماع أن الأخلاق ليست كلها نوعًا واحدًا، وإنما هى متنوعة تنوعًا عرقيًا أو قوميًا أو جغرافيًا.

وربما كان هذا التنوع نتيجة للتعريف الشائع للأخلاق وهو: أنها جملة القواعد والسلوك المقبولة فى عصر ما، أو لدى جماعة ما، أو مجتمع ما من الناس.

ومن أجل هذا نجد أنواعًا من الأخلاق مثل:

- الأخلاق القاسية أو السيئة أو المنحلة، أو الحسنة أو الفاضلة أو المحمودة،
- والأخلاق الفلسفية، وهى التى ترتكز على النظرية العقلية عن الخير والشرّ،
- والأخلاق النظرية، والأخلاق العملية أو التجريبية،
- والأخلاق الاعتقادية، والأخلاق الاتباعية،

* وقد تتنوع الأخلاق بالنظر إلى الشعوب والأجناس، فيقال مثلا:

- الأخلاق الصينية، والأخلاق الروسية، والأخلاق الغربية، وهى أنواع بحسب أقاليم أصحابها وأجناسهم، والأخلاق العربية وهكذا. . .

* وقد تتنوع الأخلاق بتنوع الإقليم الواحد، فيقال:

- الأخلاق الريفية، والأخلاق البدوية، وأخلاق أهل السواحل، وأخلاق أهل المدن والحواضر، وأخلاق ذوى الثراء. . .

* وقد تتنوع الأخلاق بالنظر إلى مهن أصحابها وحرفهم، فيقال مثلاً:

- أخلاق الأساتذة والمعلمين، وأخلاق العلماء، وأخلاق الأطباء، وأخلاق التجار، وأخلاق رجال الأعمال، وأخلاق الصناع، وأخلاق الرجال وأخلاق النساء.

* ومن هذا التنوع للأخلاق يقال:

- أخلاق إنسانية، وأخلاق وحشية، وأخلاق غزاة، وأخلاق مستوطنين محتلين لأراضى غيرهم، وأخلاق مجرمين، وأخلاق سياسيين. . . وهكذا.

* وقد تتنوع الأخلاق بالنظر إلى الباعث عليها والمحرك لها، فيقال مثلاً:

- أخلاق طغاة معتدين،
- وأخلاق غزاة مستوطنين،
- وأخلاق مقاومين لاحتلال بلادهم،
- وأخلاق عنصريين متعصبين،
- وأخلاق الرجل الأبيض،

- وأخلاق الذين يصيدون البشر كأنهم حيوانات ويضعون فى أعناقهم أطواق العبودية،
- وأخلاق المتعالين المتغطرسين المغرورين بقوتهم وعتادهم،
- وأخلاق الذين يستعذبون تعذيب الناس بعد اعتقالهم وسجنهم،
- وأخلاق العسكريين،
- وأخلاق الثوريين،
- وأخلاق العملاء والجواسيس، وغير ذلك من التنوع الذى يضفيه العمل على صاحبه.

* ولكل نوع من هذه الأخلاق التى ذكرنا بعضها ولم نستوعبها أو نستقصها، لكل نوع تعريف يخصها يطلقه علماء الاجتماع، ومن أجل ذلك كان تعريف الأخلاق تعريفًا جامعًا مانعًا، أى جامعًا لكل أنواع الأخلاق، مانعًا لغيرها؛ من الأمور الصعبة نسبيًا.

- وأقرب تعريف للأخلاق قولهم: «إن الأخلاق منظومة من قواعد السلوك التى ينبغى على المرء اتباعها، ليعيش متوافقًا مع طبيعته الحقيقية أو المرتجاة».

وبناءً على هذا التعريف فإن الأخلاق علم عملى، بل معيارى فى حياة الإنسان.

- وإنما كانت الأخلاق علمًا عمليًا لأن هدفها ليس مقصورًا على المعرفة والإفهام فحسب، وإنما يتناول توجيه العمل وتحقيق نتيجة بعينها.

- وإنما كانت الأخلاق معيارية، لأنها تحدد الهدف، وتحدد وسائل الوصول إلى تحقيق الهدف.

* ومما نحب أن نشير إليه أنه ما من تعريف للأخلاق إلا وُجد حوله اعتراض من طائفة من العلماء، غير أن الاتفاق بين غالبيتهم على تعريف يقرب بين المختلفين هو قولهم: إن الأخلاق الطبيعية التى توافق طبيعة الإنسان هى الأخلاق، لأنها بهذا القيد تحافظ على إنسانية الإنسان.

- وكل ما يحافظ على إنسانية الإنسان أى كرامته، وحريته وحقوقه وواجباته نحو نفسه ونحو خالقه ونحو الآخر فهو من صميم الأخلاق.

جـ- خصائص الأخلاق:

للأخلاق أو للقيم الخلقية خصائص تميزها عن سواها، ومن أهم هذه الخصائص:

١- أنها مطلب إنسانى تعزز الاستجابة إليه إنسانية الإنسان وكرامته التى كرمه الله تعالى بها؛ ولهذا كانت القيم الخلقية ولاتزال أملاً يراود أصحاب الأخلاق من الناس، يسعون

إلى تحقيقه، ويتحملون فى سبيل ذلك كثيرًا من الصعاب، ويستعذبون الجهد والتضحية فى سبيل ذلك.

٢- وأن هذه الأخلاق قيود عقلية وشرعية على رغبات الإنسان وشهواته، ولكونها قيودًا عقلية وشرعية، فإن الإنسان يكون له مع هذه القيم أحد موقفين:

أولهما: أن يلتزم بهذه القيم الخلقية، فيحفظ كرامته وإنسانيته ويصلح بذلك الالتزام دينه ودنياه.

والآخر: أن يستجيب لهذه الرغبات والشهوات دون قيد من عقل أو شرع استجابة لهمزات الشياطين فيخسر كرامته وإنسانيته ودنياه وآخرته.

٣- وأن هذه الأخلاق تلزم الإنسان بأن يضحى بكثير مما يحب وأن يقوم بكثير مما يكره، وهذا صراع بين الخير والشر فى جوهره وبين العقل والشرع من جانب، والهوى والشيطان من جانب آخر. والسعيد من ألزم نفسه منهج الله ونظامه الذى يضمن له سلامة العقل والنفس والجسد ويضمن له طهارة المجتمع ونقاءه.

٤- وهذا الصراع بين رغبات الإنسان وشهواته من جانب وبين عقله وما شرع الله وقيمه الخلقية من جانب آخر، صراع قديم فى تاريخ الإنسانية مواكب لمعرفة الإنسان بالقيم الخلقية ومستمر معه فى كل عصور حياته، وأن هذا الصراع يشتد وتزيد حدته كلما مَنَّ الله تعالى على الناس بدين، لأن الدين السماوى يضيف إلى القيم ويعززها، أو يعدل منها، والإنسان فى جميع الأحوال فى صراع مع الشهوات والشياطين التى تزينها، والقيم الخلقية التى تهذب هذه الشهوات.

٥- وهذه القيم النابعة من الشرع والعقل؛ لا تضارب فيها بين العقل والشرع، لأن الله تعالى واهب العقل والشرع من أجل صالح دين الإنسان ودنياه، وبين حكمته سبحانه وتعالى أن ساعد العقل بالشرع، وأن عزَّز الشرع بالعقل، وقضى سبحانه ألا يكون تعارض أو تناقض بينهما.

ومعنى الالتزام بهذه القيم الخلقية النابعة من الشرع المتوافقة مع العقل أن الإنسان يوائم بين رغباته الدنيوية العاجلة، وبين منافعه الآجلة يوم القيامة.

٦- ومن خصائص القيم الخلقية أنها ترتبط بالإنسان نوعين من الارتباط:

أحدهما: ارتباطهما بألم الإنسان وضيقه عندما يحرم نفسه من مطلق شهواتها ولذائذها.

والآخر: ارتباطها بمتعة حب الخير وبذله للناس، وهذه المتعة عند التدبر أعمق وأدوم من متعة الانكباب على الشهوات.

وحسب الإنسان متعة وراحة نفسية أن جاهد شهواته وألجمها بلجام العقل وهداها بنور الشرع.

٧- ومن خصائص هذه القيم الخلقية أنها جاذبة للإلزام ومعينة عليه، ومع هذا الإلزام فإنها لا تحظر عليه الحرية حظرًا مطلقًا وإنما تهذبها وتربطها بشرط ألا تضر ممارستها بمصالح الآخرين.

ولهذا السبب كان للقيم الخلقية أكبر الأثر فى ترقية الحياة الإنسانية وترشيدها، والمواءمة فى حياة الإنسان بين التزامه وحريته.

٨- ومن خصائص هذه القيم الخلقية مهما تعددت منابعها عند بعض الناس ومهما ذهبوا فيها مذاهب عديدة:

* حيث ذهب بعضهم إلى أنها نابعة من الفكر أو الشعور أو من كليهما.

* وذهب بعضهم إلى أنها نابعة مما ارتضاه العقل ورضى به الناس من عادات وسلوك.

* وذهب بعضهم إلى أنها نابعة من الأديان على خلاف بينهم فى مسمى الذين، وفى سماويته أو غير سماويته.

وكل هذه المذاهب لا تنفى أن القيم الخلقية مرتبطة تمامًا بالمعطيات الحضارية كلها، ومما هو مسلَّم به أن الحضارات كانت دائمًا ولاتزال ثمرة ونتيجة للتقدم العلمى والتقنى.

وهذا التقدم يعود بالخير والنفع على الحياة الإنسانية الراقية المزدهرة الآمنة، على ذلك أجمعت عقول العقلاء وأيَّدت ذلك كل الأديان السماوية.

ومعنى ذلك أن الدمار والإبادة للناس والأشياء؛ عمل وحشى وهمجى لا يمارسه الإنسان إلا وهو عدو للإنسانية كلها، لأنه يسهم بجبروته وظلمه وعلمه وعمله وآلياته فى تدمير الإنسانية.

والذى أريد أن أؤكده هو أنه ليس من القيم الخلقية وليس من الحضارة إبادة الإنسان أو إلحاق الأذى به الآن أو فى المستقبل، مهما تكن تعليلات المعتدى وحججه[1] كما هو دأب إسرائيل في كل حرب تشنها على العرب!!!.

(١) أرجو أن يتدبر قارئ هذا الكلام فيما فعلته الحكومة الأمريكية فى الهنود الحمر، وفى اليابان، وفى فيتنام، وفى الصومال، وفى لبنان وفى فلسطين، ثم ما فعلته فى أفغانستان والعراق، وما سمحت به ووافقت عليه بل أيدته فى الشيشان وفى كثير من بلدان آسيا وإفريقيا!!!

كيف تستطيع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة جورج بوش الابن اليوم أن تفعل بالعراق ما تفعله من جرائم حرب، وإبادة للإنسان الأعزل من السلاح، وتعذيب له وعدوان على إنسانيته.

وبأى حق تنتج أمريكا وكثير من دول أوروبا وغيرها أسلحة الدمار الشامل وتحظر إنتاجها على الدول غير الغربية؟ وكيف تحاسب حكومة بوش الناس على نواياهم!!! فى حين تدعم إسرائيل وتشجعها وتمدها بالوقود والآليات والخبراء لكى تنتج أسلحة الدمار الشامل؟ إننا نعيش عصر التفرقة العنصرية والدينية وعصر إبادة الإنسان.

ثالثاً: موقف الأديان من القيم الخلقية:

الأديان السماوية كلها تأمر بالفضائل وتنهى عن الرذائل، والفضائل أو الرذائل ليس عليها كبير خلاف بين الناس، لأن هذه وتلك مركوزة فى طباع الناس ووجدانهم؛ لأن الفضائل هى عمل الواجب الذى أوجبه الشرع أو العقل والتمسك به، والرذائل هى مخالفة هذا الواجب، أو عمل ما ينهى عنه الشرع والعقل.

- وأداء الواجب تعقبه راحة نفسية، وشعور بالرضا والسعادة، ومخالفة الواجب يعقبها إحساس بالأسف والندم، هذا فى فطرة كل إنسان، فإذا أضيف إلى هذه الفطرة أن الدين أمر بأداء الواجب ونهى عن مخالفته، تعمقت الراحة النفسية عند كل من أدى الواجب أو أمسك عما يخالفه، بالإضافة إلى رضا الله تعالى وحسن ثوابه لكل من أدى واجبه.
- وأداء قيمة خلقية رفيعة المستوى تسهم فى بناء مجتمع إنسانى نظيف آمن يعرف كل من فيه واجبه ويؤديه بحب ورضا.

وإنما كان أداء الواجب قيمة خلقية اجتماعية عالية القيمة؛ لأن أبشع الجرائم فى أى مجتمع لابد أن يكون وراءها إنسان أهمل وقصَّر فى أداء واجبه.

بل إن الفقير والمريض وذا الحاجة، يندفع عنهم الفقر والمرض والحاجة، لو أدى الأغنياء والأصحاء والموفوروا الحظ واجباتهم نحو الناس.

إن أداء الواجبات يمثل فى المجتمع نمطًا عاليًا من التكافل الاجتماعى، ويدعم التراحم، والتواد بين الناس، أى يغرس فى المجتمع الأمن والاطمئنان، ويخلص القلوب من الحقد والحسد، ويحول بين الناس وبين الجرائم.

- والأديان السماوية كلها تنادى بل تأمر بأداء الواجبات وتعلن أن أداء الواجبات مرضاة للرب سبحانه وتعالى، لحسن الثواب يوم القيامة.

كما تعلن الأديان السماوية كلها أن مخالفة الواجب أو الوقوع فيما حرَّم الله تعالى، يهدد المجتمع ويقرض دعائم الأمن والاستقرار فيه، ويوغر الصدور ويطلق العنان للحقد والحسد، ويجلب غضب الرب سبحانه وتعالى، ويستحق فاعله العقاب.

- وربما شاركت بعض القوانين الوضعية الأديان السماوية فى ردع المخالف المنتهك لحرمات الناس والمجتمع، فعاقب بالغرامة المالية، فإذا كبرت المخالفة عاقب عليها بالسجن فإذا تفاقمت عاقب عليها بالإعدام.

وهذا القانون وأمثاله ينبع من القيم وينهل منها، ويعتبر القيم الخلقية التى جاء بها الدين أو أقرتها العقول مصدرًا من مصادره يستمد منها ما يحقق للمجتمع أمنه واستقراره.

- والأديان السماوية تركز فى الجانب الخلقى منها على قضية الحقوق والواجبات، فتوضح هذه الحقوق وتصونها وتحميها وتجرم من يعتدى بالانتقاص أو الإهدار، وربما أسقطت اعتباره إن تكرر منه العدوان على حقوق الآخرين، كما تدعو كل إنسان إلى التمسك بحقوقه وممارستها إلا أن يتسامح ويعفو.

ويبين الدين السماوى بكل وضوح واجبات الفرد والأسرة والمجتمع، ويأمر بأدائها، ويفرض ذلك فرضًا على كل قادر على أداء الواجب.

- وإذا مارس كل إنسان حقوقه وأدَّى واجباته، كان ذلك مقتضى العدل، فإن تسامح بعض الناس وعفا وتنازل عن بعض حقوقه، أو أدى كلٌ واجبه وزاد عليه من عنده فذلك مقتضى الإحسان، والعدل فريضة، والإحساس فضيلة وكلاهما لبنة قوية فى بناء المجتمع الآمن.

- والأديان توقظ فى الإنسان الشعور بالمسئولية، سواء أكانت مسئولية فردية أو اجتماعية أو سياسية، أو اقتصادية أو ثقافية، وتربط تلك المسئولية بالقيم الخلقية التى ترتبط بدورها بنصوص الدين ونظمه وآدابه.

والمسئولية فى معناها البسيط المباشر هى: أن يتحمل كل إنسان نتيجة أقواله وأعماله وسكونه وتركه، مادام أهلاً لتحمل المسئولية -أى ليس طفلاً ولا مجنونًا ولا مقهورًا ولا عاجزًا عن أداء واجباته- يتحمل نتائج ذلك كله أمام الله تعالى وأمام نفسه وأمام المجتمع.

* والأديان السماوية تعتبر المسئولية الخلقية متمثلة فى أمْرَين بالغى الأهمية فى المجتمع، هما:

- حب الخير وفعله ونشره فى الناس،
- وكره الشر وتركه وحجزه عن الناس؛

وذلك يعنى أن المتدين عليه أن ينشد فى أخلاقه المثل الأعلى، وهذا المثل الأعلى هو ما حددته الأديان، وهو المثل الأعلى الصحيح دائمًا، بدليل أنه ما من مثل خُلُقى حدده الدين إلا رضيه العقل السليم، وكان التمثيل به فى صالح الفرد والمجتمع.

* والأديان السماوية تعتبر القيم الخلقية، والسلوك الأخلاقى عملاً مستمرًا فى حياة الإنسان يلازمه منذ بلوغه سن التكليف ويظل ملازمًا له إلى أن يلقى الله، لأن الخُلق عمل أو حركة فاعلة مؤثرة تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل، ولا يجوز التوقف عنه إلا لعذر قاهر، وهذه القيم الخلقية وهى مستمرة تثبت فى المجتمع الفضائل والقيم الرفيعة، وتنقيه من الرذائل والقيم الهابطة، وتهذب الغرائز وتلجم الشهوات، وتضبط العواطف والأهواء، وتوجه دائمًا إلى أحسن الأقوال والأفعال.

أ- أشهر الأديان فى التعامل مع القيم الخلقية:

كل دين لابد أن يكون له تعامل مع القيم الخلقية، يضع لها المبادئ التى تقوم عليها، ويرسم لها الأطر التى تتحرك فى مجالها، ويحيطها بالاحترام والتقدير.

ولقد اشتهر من الأديان السماوية فى التعامل مع القيم الخلقية ثلاثة أديان هى: اليهودية والمسيحية والإسلام؛ فهى التى وصلت إلينا كتبها، أما ما عداها فليس لدينا عنها ما ينقع غلة أو يشفى علة فى الحديث الضافى أو المفصل، حتى ما ورد عن هذه الأديان فى القرآن والسنة النبوية المطهرة فلم يشأ الله تعالى أن يفصله على نحو أكثر مما جاء عليه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

* ولقد أقامت الأديان الثلاثة الأخلاق والقيم الخلقية على عدد من المبادئ لا خلاف عليها فى تلك الشرائع، ولا فى عقول الناس.

وهذه المبادئ التى قامت عليها القيم الخلقية أهمها:

- مبدأ أن هذه القيم الخلقية الفاضلة هى من اختيار الله تعالى ومما أمر به أو حبب فيه، ووعد بالإثابة على التحلى بها.
- وأن القيم الخلقية الراذلة هى ما نهى الله تعالى عن ممارستها وأوعد بالعقاب على فعلها وأوجب التخلى عنها.
- ومبدأ وجوب طاعة الله تعالى فى امتثال ما أمر به من قيم واجتناب ما نهى عنه منها. للحصول على ثوابه والنجاة من عقابه.
- ومبدأ أن كل ما جاء من عند الله تعالى على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذى لا يجوز التنازع فيه، ولا الاختلاف عليه.
- ومبدأ حب الخير وفعله ونشره فى الناس، وكراهية الشر والإمساك عنه، وحجزه عن أن يصيب أحدًا من الناس.

* والذى وصل إلينا من هذه القيم عن هذه الأديان استقيناه من كتبها السماوية التى بين أيدينا.

- الديانة اليهودية:

تنظر الديانة اليهودية للقيم الخلقية -كما رأينا فى التوراة- على أنها نابعة من تعاليم الرب سبحانه وتعالى.

وقد خاطبهم الله تعالى فى التوراة بقوله: «أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين، وأنا أحملكم على أجنحة النسور، وجئت بكم إلىّ، فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون خاصة لى من جميع الشعوب...»[١].

ومن هذه القيم التى نسبت إلى الرب سبحانه وتعالى؛ تلك القيم الخلقية التى تفهم من قوله فى خطاب اليهود:

«أكرم أباك وأمك تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك، لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئًا مما لقريبك»[٢].

* والقيم الخلقية فى الديانة اليهودية تفهم بتفصيل أكثر من الأحكام العديدة التى جاءت بها التوراة، وهذه الأحكام مبثوثة فى ثلاثة إصحاحات فى سفْر الخروج هى:

الإصحاح الحادى والعشرون،

والإصحاح الثانى والعشرون،

والإصحاح الثالث والعشرون.

- ففى الإصحاح الحادى والعشرين بدأ بخطاب الله تعالى لموسى عليه السلام بقوله: «وهذه هى الأحكام التى تَضَعُ أمامهم» ثم ذكر عددًا من الأحكام فى ست وثلاثين جملة.

---

(١) التوراة: سفر الخروج: ٤- ٦.

(٢) السابق: ١٢- ١٧. والذى يلحظ أن النهى عن هذه الجرائم من شهادة الزور، واشتهاء ما ليس للإنسان، مقيد بأنه يحرم إذا كان لقريبه، وهذا يوحى بأن تلك الجرائم مباحة فى حق غير القريب، وحاشا لله أن يفرق فى قانونه ونظامه بين قريب وغير قريب.

وجاء الإصحاح الثانى والعشرون مشتملاً على أحكام وقيم فى إحدى وثلاثين جملة.

وفى الإصحاح الثالث والعشرين اشتمل على أحكام وقيم تحدثت عنها ثلاث وثلاثون جملة.

- والديانة المسيحية:

فى هذه الديانة جاءت القيم الخلقية أعم وأشمل مما جاءت فى الديانة اليهودية؛ لأن الديانة اليهودية التى جاءت فى التوراة التى بين أيديهم اليوم عُنيت بالحياة الدنيا بأكثر مما عُنيت بالحياة الآخرة، فلم يتسع فيها الحديث عن القيم الخلقية بأكثر مما ذكرنا.

أما الديانة المسيحية فإنها أولَتْ الحياة الآخرة أهمية كبيرة ودعتْ إلى العزوف عن متع الحياة الدنيا والزهد فيها.

كما دعت إلى التخلق بالأخلاق الوديعة، ومحبة السلام للناس. كل ذلك من أجل كسب الحياة الآخرة الأبدية.

* وقد تحدثت عن هذه القيم الخلقية ثلاثة إصحاحات من إنجيل «متى» هى:

الإصحاح الخامس،

والإصحاح السادس،

والإصحاح السابع.

- ففى الإصحاح الخامس جاء عدد من القيم الخلقية بدأها بالجملة التى تقول: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للحزانى لأنهم يتعزَّون، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون، طوبى للأنقياء والقلب لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون[1]، طوبى للمطرودين من أجل البرّ، لأن لهم ملكوت السموات، طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى -كاذبين- افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم فى السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم...»[2].

---

(١) لا ينبغى وصف الله تعالى بأبوة ولا الناس أبناء الله تعالى، لأنه لم يلد ولم يولد، فليس سبحانه أبًا لأحد من الناس، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(٢) العهد الجديد: إنجيل «متى» الإصحاح الخامس: الجمل من: ٣- ٤٨. ط مصر القاهرة: ١٩٦٢م.

– وفى الإصحاح السادس جاء عدد من القيم، بدأ بقوله: «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر. . .»[١].

– وفى الإصحاح السابع جاء عدد من القيم الخلقية التى تبدأ بقوله: «لا تدينوا لكى لا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون، وبالكيل الذى تكيلون به يكال لكم، ولماذا تنظر القذى فى عين أخيك، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها، أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك، وها الخشبة فى عينك، يا مرائى، أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك، لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها، وتلتفت فتمزقكم.

اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم؛ لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له. . .[٢].

– الديانة الإسلامية:

القيم الخلقية فى الديانة الإسلامية تتناول ما يصلح الدنيا والآخرة، لأن بين الدارين تلازمًا، لأن الدنيا دار عمل وزرع وتعهد ورعاية، والآخرة دار قرار وجزاء وحصاد.

* ومن المقرر فى الإسلام أن من عمل للدنيا وتجاهل الآخرة فهو من الحمقى الخاسرين، وهو بهذا التجاهل للآخرة يجحدها فيفقد الإيمان، ويعصى الله تعالى الذى أمر بالعمل للآخرة أى أن يلتزم بما أمر الله تعالى به ويجتنب ما نهى الله تعالى عنه، ويعمل الصالحات ليترجم بها عن إيمانه وإسلامه.

وكذلك لا يجوز لمسلم أن يتجاهل الدنيا فلا يعمل لها ولا يتمتع بطبيعتها التى أحل الله تعالى.

– روى البيهقى –فى سننه– بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«اعمل عَمَلَ امرئ يظن أن لن يموت أبدًا، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدًا».

وفى رواية: **«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»**[٣].

(١) العهد الجديد: إنجيل «متى» الإصحاح الخامس: الجمل من ١ – ٣٤

(٢) السابق: الإصحاح السابع: الجمل من ١– ٢٧.

(٣) ذكره الأصبهانى فى كتابه: «الذريعة فى مكارم الشريعة» ولم أجده فى الكتب الثمانية.

* والإسلام يعتبر القدوة والأسوة فى الأخلاق الفاضلة هو الرسول الخاتم ﷺ، وقد أراد الله تعالى ذلك فعصمه عن الخطايا والدنايا وسفاسف الأمور، وجعل فى سيرته نماذج للأخلاق المحمودة التى ترضى الله عز وجل ليكون للمسلمين فيه أسوة حسنة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال سعيد بن جبير فى معنى هذه الآية: المعنى لمن كان يرجو لقاء الله بإيمانه، ويصدق بالبعث الذى فيه جزاء الأفعال.

وهذه الأسوة واجبة شرعًا فى كل أمور الدين، ومستحبة شرعًا فى كل أمور الدنيا، لأن الرسول المقتدى به لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى.

* والآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى تدعو إلى التمسك بالقيم الخلقية الفاضلة، وتنهى عن الاتصاف بالقيم الخقية الراذلة أكثر أن أحصيها فى هذا المجال من الكتاب، غير أننا نكتفى ببعض الشواهد الآن، ثم نتوسع فى ذلك عند حديثنا عن النقطة الرابعة من هذا الفصل وهى: «الأخلاق الإسلامية».

* ومن آيات القرآن الكريم الداعية إلى حسن الأخلاق:

- قول الله تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦- ٢٩].

* ومن أحاديث النبى ﷺ:

- ما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق».

- وما رواه أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله: أخبرنى بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة، صِلْ من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك».

- وما رواه أبو داود بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة، عليك بتقوى الله، والرفق، فإن الرفق لم يكن فى شىء إلا زانه، ولا نزع من شىء إلا شانه».

إلى غير ما ذكرت من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ التى أوضحت معالم القيم الخلقية وأصولها، وأنواعها، مما سنفصل القول فيه بإذن الله تعالى ونحن نتحدث فى النقطة الرابعة من هذا الفصل الآن.

رابعًا: الأخلاق الإسلامية:

إذا كانت الأخلاق فى معناها العام -كما أوضحنا آنفًا- «هى منظومة من قواعد السلوك التى ينبغى على المرء اتباعهـا ليعيش متوافقًا مع طبـيعته الحقيقيـة أو المرتجاة»؛ فإن الأخلاق الإسلامية هى كـذلك أيضًا ولكن قواعد السلوك فيها هى التـى حددتها آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ وسيرته، وهى الـتى تستهدف إرضاء الله تعالى بعبـادته وطاعته وطاعة رسوله ﷺ، لكى يعيش الناس جميعًا فى أمن وأمان، وعـمل مثمر من أجل تحقيق سعادة الدنيا والآخرة.

* والأخلاق فى الإسلام ليست ابتكارًا إسلاميًا غـير مسبوق، وإنما هى امتداد للأخلاق التى جاء بها أنبياء الله ورسله من قبل، كما أنهـا تتميم لصالح الأخلاق وإكمال لها لأنه لا دين بعد الإسلام ولا شريعة بعد شريعته.

ومحمـد ﷺ الذى بعثه الله تعالى ليـتمم صالح الأخلاق، هو الذى اسـتجمع فى ذاته كمال الأخلاق حتى وصفه الله تعالى بأنه على خلق عظيم.

وخُلق الرسول ﷺ هو الأنموذج الرفيع للأخلاق الإسلاميـة فى صورتها الإنسانية، وقد أوضح القرآن الكريم أسس الإخـلاق الإسلامية فى قـوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وهذه الثلاثة هى أمهات الأخلاق الصالحة وعنها تتفرع كل مفردات الأخلاق الإسلامية.

* والأخلاق الإسـلامية من مـعانيـها: الأدب، والأدب هو ما يحـترز به من جـميع أنواع الخطأ، أو هو كل رياضة محمودة يتحلى بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل.

- ومن معـانيها: التهـذيب والتأديب بممارسة الصـفات الفاضلة التى أمر بهـا الله تعالى ورسوله ﷺ.

- ومن معـانيها: الالـتزام بأمر الله تعـالى وامتثـاله، واجتناب مـا نهى الله عنه، وعدم الاقتراب منه.

- ومن معانيهـا: عمل ما يرضى الله تعالى من قول أو عمل، والـكف عما يغضب الله تعالى من قول أو عمل.

- ومن معانى الأخلاق الإسلامية حب الخير ونشره فى الناس، وبغض الشر، وكفه عن الناس عمومًا حتى غير المسلمين،

- ومن معانيها حب الناس ودعوتهم إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر،

- ومن معانيها الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا، الجهاد بكل أنواعه ومراحله،

- ومن معانى الأخلاق الإسلامية؛ قبول التكاليف الشرعية والمبادرة إلى أدائها كما شرعها الله تعالى وكما جاء به رسوله ﷺ.

* والأخلاق الإسلامية أو القيم الخلقية الإسلامية هى كل ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

- وقد تمثل ما جاء به الرسول الخاتم من الهدى ودين الحق فى مصدرين هما:

القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة بمعناها الواسع الذى يشمل السيرة النبوية،

وقد جعل الله تعالى من وظائف رسوله الخاتم وعمله:

* أن يبين ما جاء من القرآن مجملاً،

* وأن يفسر منه ما يحتاج إلى تفسير،

* وأن يحقق منه ما كان يحمل معانى عديدة،

* وأن يضيف إليه من الأحكام الشرعية ما يوحى إليه الله تعالى به، مما لم يرد فى القرآن الكريم.

فقال الله تعالى فى تقرير ذلك: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فالرسول ﷺ من وظائفه أن يحدد القيم الخلقية، ويعرفها فى مجاليها الأساسيين: الفضائل والرذائل، ولقد كان بقوله وفعله وتقريره يدعم القيم الفاضلة، ويحارب القيم الرذلة.

وقد أتاح الله تعالى لعلماء المسلمين فى كل عصر أن يتدبروا القرآن الكريم وأن يبحثوا فى السنة والسيرة النبوية؛ لكى يستنبطوا ما يمكن استنباطه من القيم الخلقية التى تعزز صالح الإنسان فى دنياه وآخرته.

وقد اتفق علماء المسلمين فى كل عصر على أن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هما الأصل فى العقيدة والعبادة والخلق، وأن استنباط علماء المسلمين منهما هو إيضاح وكشف وبيان.

* ولقد أجمع علماء المسلمين فى كل العصور على أن الأخلاق أو القيم الخلقية من ثوابت الدين الإسلامى، وأنها من بين التكاليف التى كلف الله بها عباده ليصلح لهم دنياهم وأخراهم رحمة منه سبحانه بهم، وتقديرًا لطبيعتهم وما فطرهم الله عليه.

- والتكاليف الشرعية للإنسان ثلاثة أنواع:

* نوع أمرهم الله تعالى باعتقاده إثباتًا أى أمرًا، ونفيًا أى نهيًا. وذلك كأمره بتوحيده وعبادته وبعثه رسله وتصديقهم فيما جاءوا به، ونفى ما لا يليق به عنه سبحانه.

* ونوع أمرهم به ليعبدوه بالقيام به كما شرع لهم، وليس فى كل العبادات لله تعالى ما يشق على الإنسان فعله ولا ما يشق عليه تركه إن نهاه عنه.

* ونوع أمرهم الله تعالى بالتحلّى به، والتخلى عما يضاده أو يناقضه، وهو الأخلاق أو القيم الخلقية، التى يلتزم الإنسان بها طول حياته.

- وهذه التكاليف الشرعية الثلاثة إنما جاءت من الله تعالى رحمة بالإنسان ورفقًا به، وإصلاحًا لأمر دينه ودنياه، ودليل هذه الرحمة أن كل ما أمر الله تعالى به عباده، جعله على حالتين:

* حالة كمال،

* وحالة جواز،

وذلك أن الناس فى أداء العبادات ليسوا سواء؛ إذ فيهم النشيط المبادر الذى يؤدى على أكمل وجه، وتلك حالة الكمال، وفيهم المتثاقل الذى لا صبر له على الأداء الأكمل، وتلك حالة الجواز.

فَمَن أخَلَّ ببعض صفات الكمال، لا يحول ذلك بينه وبين أداء الفرض وإسقاطه عنه، ولو كان على وجه غير كامل، ولا حرمان له من أجر ما أداه غير كامل.

- وهذه التكاليف الشرعية الثلاثة رُوعيت فيها طبيعة الإنسان وما رُكِّبَتْ عليه من ضعف، يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩- ١١].

ومن رحمته تعالى بالإنسان أن خفف عنه لعلمه سبحانه بضعفه، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

- وهذه التكاليف الشرعية الثلاثة، قد أجمع المسلمون منذ زمن النبى ﷺ وإلى يوم يقوم الناس لرب العالمين على أن المسلم المتمسك بها هو عز للإسلام وللمسلمين، وأن المسلم المتهاون فى التمسك بها هو سبب من أسباب ضعف المسلمين وهزيمتهم وتأخرهم، لأن التخلى عن هذ الثوابت الثلاثة مجلبة لكل ضعف وخذلان، وذلك يؤدى إلى غضب الله تعالى لمخالفة أمره ونهيه.

وباستقراء تاريخ المسلمين نجد أن تمسكهم بهذه الثوابت الثلاثة هو من أهم أسباب تقدمهم وانتصاراتهم.

- وهذه الثوابت الثلاثة قد نوَّع الله تعالى فيها وجعلها شعبًا كثيرة، وقضى بأن تشتمل على كل ما يصلح شئون الحياة بمختلف شعبها، ويطب لكل الأدواء اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها، وتقدر على علاجها أنجع علاج.

بل إن المسلمين إذا تمسكوا بهذه الثوابت الثلاثة ضمن الله تعالى لهم الانتصار فى كل معركة يخوضونها لإحقاق الحق أو الدفاع عنه.

- وإذ قلنا: إن المسلمين ما سادوا ولا تقدموا علميًا وحضاريًا إلا عندما تمسكوا بهذه الثوابت، وما ضعفوا ولا استكانوا إلا عندما تخلوا عن هذه الثوابت، لو قلنا ذلك ما جاوزنا الحق ولا الصواب فى كثير أو قليل، ولما قررنا إلا ما هو مقرر عند كل من راقب تاريخ المسلمين حتى لو كان من غير المسلمين.

* وعندما يظهر فى فترة من فترات التاريخ أن المسلمين قد انتصروا فى إحدى معاركهم مع أن فيهم من تَخَلَّى عن هذه الثوابت، فإن ذلك ليس خرقًا للقاعدة، لأن الله تعالى قد يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، فقد روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«.. يا بلال قم فأذِّن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»**.

وإذا هيأ الله تعالى للعاصى بعض ما يصلح له شأنه فى الدنيا، فإن هذا من باب الاستدراج، لأنه ينتظره عذاب الله الذى توعده الله به على معصيته، ودليل ذلك:

- ما رواه أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك منه استدراج»(1).

ومما يؤيد هذه القاعدة، قاعدة استدراج العصاة، قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢- ٤٤].

والمبلس هو المحتار الذى انقطعت حجته.

أ- تميز الأخلاق الإسلامية:

أهم ما يميز الأخلاق الإسلامية:

- أنَّها نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهما أوثق مصدرين وأنفعهما للناس فى معاشهم ومعادهم، لأنهما ختام الوحى، فلا وحى من الله بعدهما لأى نبى أو رسول، لأن محمداً ﷺ خاتم الرسل.

* أما القرآن الكريم فقد شاء الله تعالى أن يتكفل بحفظه بنفسه ولم يستحفظ عليه أحداً من خلقه -كما فعل مع الكتب السماوية السابقة- فهو مصدر لا سبيل إلى الشك فيه، كما أنه يخلو من أى نقص أو قصور فى أى جانب يحتاج إليه الإنسان فى حياته الدنيا أو حياته الآخرة.

والقرآن الكريم كتاب حىّ متجدد، قادر على علاج كل مشكلة تتصل بالإنسان، أكمل ما يكون العلاج وأحسنه وأتمه، مهما تطاول الزمان ومهما تباعد المكان.

والقرآن الكريم كتاب البشرية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد وجهه الله تعالى للعالمين، وجعل فيه قدرة على أن يهدى الإنسانية كلها للتى هى أقوم لما ضمنه من هدى للناس وبينات، وما يحمله إليهم من شفاء ورحمة.

والقرآن الكريم شرف للأمة العربية، وللغة العربية إذ جعل الله تعالى لغته هى العربية ورسوله الخاتم من العرب، وما كان ذلك إلا لحكمة يعلمها الله تخص العربية والعرب بهذا الشرف العظيم، مما جعل العلماء يفيضون فى الحديث عن ذلك فى كثير من مؤلفاتهم.

---

(1) استدرج الله العبدَ: أمهله، ولم يباغته، ومنه قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

* وأما السنة النبوية فهى تفصيل لما أجمله الله تعالى فى القرآن الكريم، وبيان لكثير من الفروع والتفصيلات التى سكت عنها القرآن ليبينها الرسول الخاتم ﷺ، والسنة النبوية إضافة إلى ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام وأخلاق وآداب يضيفها الرسول الخاتم الذى لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى ﷺ.

والسنة النبوية كالقرآن فى وجوب الأخذ بها فى أمور الدين وفى استحباب الأخذ بها فى أمور الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

والسنة النبوية قد تكفل الله بحفظها حين تكفل بحفظ القرآن لأنها مثله ومتممة له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وروى أحمد بسنده عن المقدام بن معد يكرب، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا إنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يغصبهم بمثل قراه»**.

والسنة النبوية ما تركت من خير للناس فى دينهم ودنياهم إلا أمرتهم به، وما تركت من شر يعود ضرره على الناس إلا نهتهم عنه، لأن صاحب السنة ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولأن الله تعالى قد جعل فيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

- وثانى ما يميز الأخلاق الإسلامية:

أنها ترجمة صادقة صحيحة لمنهج الإسلام ونظامه فى الحياة، وهو منهج يقوم على ثلاث دعائم ثابتة:

العقيدة، والعبادة، والخلق.

فالأخلاق الإسلامية إحدى دعائم المنهج الإسلامى الثابتة التى لا تتغير مهما تغير الزمان والمكان والناس.

وأن هذه الأخلاق الإسلامية قد حظيت من المنهج الإسلامى بعناية ورعاية وحماية، وتفصيل، تجعلها ركنًا ركينًا من هذا المنهج وجزءًا أصيلاً منه، لا يستغنى عنه بحال.

- فقد وضَّع المنهج لهذه الأخلاق الإسلامية مجالين واضحين لا لبس فيهما ولا غموض:

أحدهما:

مجال الأمر والفعل، فى كل خلق محمـود كريم، وفى كل فعل يعود على الناس بالخير فى دينهم ودنياهم، وذلك فى كل ما أمر الله تعالى به عباده.

والآخر:

مجال النهى والتـرك، فى كل مذموم دنىء، وفى كل فعل يعـود على الناس بالضرر فى دينهم ودنياهم، وذلك فى كل ما نهى الله تعالى عنه عباده.

- ولم يكتف المنهج بذلك لعلم الله تعالى بطبيعة الإنسان وأنه قـد يجتهد، وقد يقصر، فوضع للأخلاق الإسلامية ولمن يمارسونها مجالين آخرين:

أحدهما:

مجال الاستحبـاب، فحدد أعمالاً وأقوالاً يستحب فعلها، ولم يدع شـيئًا من أمور الدنيا التى ترضى الله تعالى إلا حبب فيها.

والآخر:

مجال الكراهيـة، فحدَّد فيه كل عـمل مكروه من الأقوال والأفعال، ولم يدع شـيئًا من أمور الدنيا يكرهه الله تعالى إلا كرَّه فيه.

- وثالث ما يميز الأخلاق الإسلامية:

أنها إذا اتبعت والتزم بها الإنسان حقَّق لنفسه سعادة الدنيا والآخرة، لأنها الأخلاق التى جاء بهـا محمد ﷺ، وأوجب الله تعـالى اتباعهـا للحصول على الهـدى والهداية فى الدنيا ورضا الله وثوابه فى الآخرة، قال الله تعالى على لسان رسوله الخاتم ﷺ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]

فالهداية باتباع الرسول ﷺ، وهذه الهداية على أربعة أقسام -كما رأى ذلك علماء الأمة الإسلامية خلفًا عن سَلَف- وهى:

١- قسم من الهداية عم الله بجنسها كل مكلف، مثل الهداية بنعم الله تعالى من العقل والفطنة والمعارف الضرورية للإنسان، وهى التى يشير إليها ويذكر بها قول الله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

٢- وقسم من الهداية وجهها الله إلى الناس على ألسنة أنبيائه ورسله عليهم السلام وبخاصة خاتم رسله ﷺ، وهى الهداية التى تفهم من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

٣- وقسم منها هو التوفيق الذى يختص الله تعالى به من اهتدى من عباده فاتبع ما جاء به النبى الخاتم، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العكبوت: ٦٩].

٤- والقسم الرابع من الهداية، هو الهداية فى الآخرة إلى الجنة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤- ٦].

وهذا القسم الرابع من الهداية مترتب على الأقسام الثلاثة ونتيجة لها، وذلك يؤكد أن التمسك بالأخلاق الإسلامية فيه سعادة الدنيا والآخرة.

- ورابع ما يميز الأخلاق الإسلامية:

أن أصولها ورءوسها دَلَّ عليها القرآن الكريم، وأن ما يتفرع عن هذه الأصول من مفردات قد دلَّتْ عليه آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة[١].

وهذه الأصول للأخلاق الإسلامية قد قسمها علماء الأخلاق من المسلمين إلى قسمين:

* فضائل تلتزم ويأمر الله تعالى بالتمسك بها.

* ورذائل تجتنب وينهى الله تعالى عن الاتصاف بها.

* وأصول هذه الفضائل أهمها:

- الإخلاص لله تعالى وللدين الخاتم وللنفس وللناس،

- والصدق مع الله ومع النفس ومع كل موقف ومع الناس،

(١) سنتحدث عن تلك المفردات بالتفصيل فى النقطة التالية تحت عنوان مفردات الأخلاق الإسلامية.

- وإيصال الحقوق إلى أصحابها دون غمط أو مطل أو تباطؤ،
- وأداء الواجبات نحو الله ونحو الناس دون جحد أو تكاسل،
- والتزام العدل فى كل موقف لأنه الأقرب إلى التقوى، وصمام الأمان فى المجتمع، وإقرار للحقوق والواجبات، وتطبيق للمساواة بين أصحاب الحقوق ومن عليهم واجبات.
- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لغرس الخير فى المجتمع وحجب المنكرات عنه.
- والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وتحت كل أصل من هذه الأصول عشرات المفردات بل مئاتها فى بعض الأصول.

* وأصول هذه الرذائل أهمها:

- إنكار الله تعالى وجحده أو الشرك به، أو اتخاذ إله أو آلهة معه.
- ومعصية الله ورسوله فى كل ما أمرا به أو نهيا عنه،
- والعدوان على الناس أو إلحاق أى ضرر بهم، أو التوقف عن إنقاذ من يمكن إنقاذه أو الامتناع عن إغاثة من يمكن إغاثته.
- والعمل على إثارة الفِتَن والمشكلات إيجابًا بالعمل على إيقاظها وسلبًا بالسكوت على مقاومة أسبابها.
- وإشراب القلب والنفس الغل والحقد والحسد، لأن تلك جرائم تهدد أمن المجتمع وتقضى على روح المحبة بين أفراده.
- وسوء الظن بالناس، أو العمل على فضحهم أو التطاول عليهم.
- والتشدّد فى الدين والتنطع فى ممارسة شعائره.

وتحت كل رذيلة من هذه الرذائل عشرات المفردات بل مئاتها بالنسبة لبعض أصولها.

* وآيات القرآن الكريم الآمرة بالتَّحَلّى بالفضائل عديدة نذكر منها:

- قول الله تعالى فى صفات المؤمنين الفاضلة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣ : ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

[المؤمنون: ١-١١]

- وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

- وقوله جل وعلا: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦-٤٣].

- وقوله جل علاه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ١، ٢].

- وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ⑩١ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

- وقوله جل شأنه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

* وآيات القرآن الكريم الناهية عن الرذائل عديدة نذكر منها:

- قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ㉒ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ㉓ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ㉔ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ㉕ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ㉖ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ㉗ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ㉘ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ㉙ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ㉚ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ㉛ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ㉜ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ㉝ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٢٢- ٣٤].

- قوله عز جل: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٦- ٣٩].

- وقوله جل شانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٩٠- ٩٥].

- وقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣].

- وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ

النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٩- ٢٣].

- وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١) وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩ -٣٢].

- وقوله جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة ٢٣، ٢٤].

- وخامس ما يميز الأخلاق الإسلامية:

أنها وحدها الأخلاق التى يرضى الله عنها لأنها من صنعه سبحانه وتعالى، كما يرضى عن المتمسك بها لأنها كلها من الفضائل والمحامد والمحاسن، لأنه سبحانه أمر بالتمسك بها، وأعلن إثابته لكل من تحلى بها؛ وما كان الله ليأمر بغير الخير ولا يثيب إلا من أطاعه.

ومن أجل ذلك جاءت الأخلاق الإسلامية بريئة من كل عيب، خالية من أى نقص أو قصور، صالحة لأن يُتمسك بها فى كل زمان ومكان.

تتميز الأخلاق الإسلامية بذلك على حين يجد الباحث والناقد جميع المذاهب والنظم الأخلاقية غير الإسلامية قديمًا وحديثًا مشتملة على بعض ما تعاب به، وعلى كثير من

أنواع القصور والنقص، وتجد فى كتب علماء الاجتماع ودراسات علماء الأخلاق من هذه المآخذ على الأخلاق غير الإسلامية شيئًا كثيرًا.

ب- مفردات الأخلاق الإسلامية:

مفردات الأخلاق الإسلامية تمثل وحدة متكاملة، وكُلاً لا يقبل التجزئة، فهذه المفردات على تعددها لا يغنى بعضها عن بعض، وإنما يكمل بعضها بعضًا، ولابد منها جميعًا لكى يكون صاحبها ذا خلق إسلامى.

وحصر هذه المفردات واحدة واحدة عمل ضخم لا يحتمله هذا الجانب من الكتاب، لكننا نشير إلى أصوله، ثم نتحدث عن بعض مفرداته فى إيجاز.

* أما أصول الأخلاق الإسلامية فتتمثل فى عمومها فى المصدرين الجليلين:

القرآن الكريم.

والسنة النبوية المطهرة.

فكل ما فيهما من خلق أُمِرَ المسلم أن يتحلى به، وكل ما فيهما من خير أُمر المسلم أن يفعله، فذلك من أصول الأخلاق الإسلامية وأُسُسها، وما أكثر ما فيهما من ذلك!!!

- ومما فُصل فى القرآن الكريم من فروع هذه الأخلاق ومفرداتها تلك الأخلاق التى دلّت عليها آيات القرآن الكريم التى أشرنا إليها آنفا فى الأمر بالتحلى بالفضائل، وهى عشرات الآيات الكريمة بل مئاتها، والآيات الكريمة التى نهت عن الاتصاف بالرذائل أو فعلها، وهى -أيضًا- عشرات الآيات بل مئاتها.

- ومما فصل فى السنة النبوية من مفردات هذه الأخلاق الإسلامية ما أشار إليه الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث بأسانيدهم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: **«الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أعلاها -أو فأرفعها، أو فأفضلها- قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الأيمان»**.

وقد جمعها الإمام البيهقى صاحب السنن الكبرى (٣٨٤- ٤٥٨هـ) فى كتاب موسع وعدها فى سبع وسبعين شعبة، كل واحدة منها هى مفردة من مفردات الأخلاق الإسلامية، وقد سردناها آنفًا.

* ولقد استشهد العلماء وبخاصة البيهقى فى شعبه والقزوينى (المتوفى سنة ٦٩٩هـ) فى مختصره للشعب، على كل شعبة من شعب الإيمان أو خُلُق من أخلاقه بآية قرآنية أو أكثر، وبحديث نبوى أو أكثر.

وبتصفحى لهذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وجدت عشرات المفردات من الأخلاق الإسلامية بل مئاتها، فما بالنا بسائر آيات القرآن الكريم، وسائر أحاديث النبى ﷺ؟ إنها مفردات تفوق الحصر من جانب، وتتشعب فى مختلف شعب الحياة من جانب آخر.

* ومما هالنى وأنا أحاول جمع هذه المفردات للأخلاق الإسلامية سواء ما أمر الله تعالى بالتحلى بها من الفضائل أو أمر بالتخلى عنها من الرذائل، وجدت أكثر من مائتى حديث شريف تبدأ كلها بـ:نهى رسول الله ﷺ عن كذا... وكل ما نهى عنه هو من ذميم الأخلاق.

* وأما ما أمر به رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق الإسلامية فهو بحر بغير سواحل، ونهر لا تحصى له جداول، وما تعددت هذه المفردات، ولا شملت كل أمور الحياة والأحياء إلا لأنها الأخلاق التى ارتضاها الله تعالى للإنسانية كلها سلوكًا وعملاً، من أجل تكريم الإنسان واحترامه، وكيف لا يكرم الإنسان أخاه الإنسان، وقد كرّم الله تعالى بنى آدم جميعًا، إذ حملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه تفضيلاً؟

وما كان أمر الأخلاق الإسلامية كذلك إلا بسبب أنها تقوم على دعائم راسخة قوية، لا يتم إيمان مؤمن، ولا إسلام مسلم، ولا إحسان محسن إلا إذا تخلق بها، وقصد بها وجه الله سبحانه وتعالى، فما هذه الدعائم، ذلك ما نرجو أن نوضحه فى الصفحات التالية، سائلاً الله تعالى العون والتسديد.

جـ- دعائم الأخلاق الإسلامية:

الدعائم التى تقوم عليها الأخلاق الإسلامية، وتتميز بها عن غيرها من الأخلاق سبع دعائم -فى تصورى- هى التى ضمنت للأخلاق الإسلامية ثباتها واستقرارها وقدرتها على مواكبة المتغيرات، وقدرتها على بناء حضارة إسلامية باذخة تحمل للإنسان فى كل زمان ومكان خير الدنيا والآخرة.

وهذه الدعائم السبع هى:

- الإيمان بالله تعالى بكل مفرداته،
- والإسلام لله تعالى بكل أركانه،
- والإحسان بكل معانيه،
- والعمل الصالح،
- والدعوة إلى الله تعالى وإلى الدين الحق،
- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،
- والجهاد فى سبيل الله تعالى.

ولكل دعامة من هذه الدعامات تأثير بارز فى الأخلاق الإسلامية، مما سنوضحه فى الكلمات الوجيزة عن كل واحدة من هذه الدعامات فيما يلى:

١- الإيمان بالله تعالى بكل مفرداته:

ومفردات الإيمان بالله تعالى هى الإيمان بحقيقة ما غيبه الله تعالى عن حواسّنا كالإيمان به سبحانه وبملائكته وباليوم الآخر والقضاء والقدر.

والإيمان بما جعلنا نشاهده بحواسّنا مثل كتبه ورسله.

* وهذه الدعامة: «الإيمان» تنعكس على الأخلاق الإسلامية انعكاسًا إيجابيًا ينتج فى الإنسان:

خشية الله تعالى وخوفه، ورجاءه، والتوكل عليه، والإنابة إليه.

٢- والإسلام لله تعالى بكل أركانه:

وأركانه النطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلاً.

* وهذه الدعامة: «الإسلام» تنعكس على الأخلاق الإسلامية انعكاسًا إيجابيًا ينتج فى الإنسان:

طاعة الله تعالى وحبه، والتقرب إليه بالنوافل من جنس هذه الفرائض، حتى يكتب الله تعالى له التوفيق.

٣- والإحسان بكل أنواعه:

والإحسان أن يعبد الإنسان ربه كأنه يراه، وهو خلق رفيع يعنى أن يأخذ الإنسان أقل مما له، وأن يعطى أكثر مما عليه، وأنواعه ثلاثة:

- الإحسان إلى الله بحسن عبادته والتقرب إليه بالنوافل،

- والإحسان إلى النفس بإلزامها بامتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه،

- والإحسان إلى الناس بتقديم الخير لهم.

* وللإحسان بكل أنواعه تأثير إيجابى فى الإنسان الذى يتمسك بالأخلاق الإسلامية يصل به إلى أن يكون محبوبًا من الله تعالى، ومن أحبه الله تعالى حبَّب فيه عباده.

* وأكبر نتيجة وأهم نتيجة لدعائم الإيمان والإسلام والإحسان هى تقوى الله تعالى، وتعد التقوى القطب الذى تدور حوله رحى الإسلام، أى تدور حوله الأخلاق الإسلامية فى نماذجها الفاعلة البانية للإنسان وللمجتمع، بل للحضارة كلها.

* وتقوى الله تعالى يتفرع عنها ممارسة كل فضيلة، واجتناب كل رذيلة.

٤- والعمل الصالح:

وهو من أهم الدعائم التى تقوم عليها الأخلاق الإسلامية، والعمل ترجمان أو ترجمة أو تطبيق للإيمان وللإسلام وللإحسان، لذلك عطفه الله على الإيمان فى أكثر من مائة وخمسين آية قرآنية كريمة.. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

* والإسلام يطالب كل مسلم بأن يعمل ويسعى فى الأرض ويحترف ويُمْسى كالاً من عمل يده ليُمْسى مغفورًا له، وترك العمل والرضا بالعيش عالة على الناس يسأل ويتكفف كبيرة من الكبائر، ومعصية لله ولرسوله، ومخالفة لما جاء فى الكتاب والسنة.

* والإسلام يعتبر العمل للحصول على الرزق، وللوفاء بحاجة الأهل والعيال جهادًا فى سبيل الله تعالى أو كالجهاد فى سبيله من حيث شرف الجهاد وعظيم أجره، وليس فى الإسلام عمل حقير مادام شريفًا.

* والعمل خلق إسلامى رفيع المنزلة، ينعكس على المسلم نشاطًا وحيوية وإنتاجًا وأخذًا بأسباب الرزق، ومكانة رفيعة فى المجتمع لإسهام العامل فى بناء حضارة أمته.

* ويتنوع العمل فى الإسلام ليشمل جميع مستوياته، من العمل الفردى إلى العمل الجماعى، ويدخل فى إطار ذلك العمل الفنى والأدبى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى، والرياضى، وفى قمته العمل فى مجال الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا.

وكل هذه الأنواع من العمل يجب أن يمارسها المسلم إذا أتيحت له واتسعت لها طاقته، والتقصير فيها مع القدرة عليها إثم ومعصية لله ولرسوله.

٥- والدعوة إلى الله تعالى:

وهى الدعوة إلى الدين الحق ونشره فى الناس، وتبليغه لمن لم يبلغه، الدعوة إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن.

والدعوة إلى الله تصاحبها بل تلازمها الحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق.

وطبيعة الحركة بالدين تقتضى العمل على تغيير كل ما يخالف الإسلام فى حياة المسلم إلى ما يوافقه، وميادين التغيير عديدة، تتناول البيت والعمل والجماعة والمجتمع، فى مجال الاقتصاد والسياسة والإعلام والثقافة، لأن ذلك الطريق إلى تطبيق الإسلام.

والدعوة إلى الله دعامة أساسية للأخلاق الإسلامية؛ فمن تمسك بالأخلاق الإسلامية وجب عليه أن يقوم بأعباء الدعوة إلى الله والحركة بدينه فى الناس والآفاق وأدلة وجوب الدعوة إلى الله والحركة بدينة فى الناس والآفاق عدد من آيات القرآن الكريم، وعدد من الأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة النبى ﷺ.

* فمن آيات القرآن الكريم:

- قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴾ [النحل: ١٢٥].

- وقوله عز وجل: ﴿ ...قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ [الرعد: ٣٦]

- وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٣، ٧٤].

* ومن أحاديث النبى ﷺ:

– ما رواه الترمذى بسنده عن عثمان بن عفان –رضى الله عنه– قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّرَ الله امرأً سمع منا حديثًا، فحفظه، حتى يبلغه غيره، فَرُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورُبَّ حامل فقه ليس بفقيه».

– وما رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بلِّغوا عنِّى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

– وما رواه أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه: أنَّ غلامًا يهوديًا كان يضع للنبى ﷺ وَضوءه، ويناوله نعليه؛ فمرض؛ فأتاه النبى ﷺ، فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه؛ فقال له النبى ﷺ: «يا فلان، قل لا إله إلا الله» فنظر إلى أبيه فسكت أبوه، فأعاد عليه النبى ﷺ، فنظر إلى أبيه فقال أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله؛ فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذى أخرجه لى من النار».

* وأما سيرته ﷺ فحافلة بالدعوة من يوم بعثه الله تعالى بدين الحق فأخذ يدعو إليه مستخفيًا وأصحابه فى دار الأرقم، وظلوا كذلك ثلاث سنين أو تزيد، إلى أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، وظل إلى أن لقى ربه، والمسلمون يجب أن يكونوا كذلك لأن الله تعالى جعل لهم فى رسول الله أسوة حسنة.

وأكتفى من سيرة رسول الله ﷺ بموقف واحد –وإن كانت حافلة بألوف المواقف– وهو دعوته ﷺ لعدى بن حاتم الذى كان على النصرانية؛ روى الإمام أحمد بسنده عن عدى ابن حاتم رضى الله عنه قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدى أسْلِم تَسْلَم» فقلت: إنى من أهل دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلتُ: أنت أعلم بدينى منى؟ قال: «نعم ألستَ منَ الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك»؟ قلتُ: بلى، قال: «فإن هذا لا يحل فى دينك» قال: فلم يعدُ أن قالها فتواضعتُ لها. قال: «أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام؛ تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب؛ أتعرف الحيرة»؟ قلتُ: لم أرها وقد سمعت بها، قال: «فوالذى نفسى بيده ليتمَّن الله هذا الأمر؛ حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلتُ: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم، كسرى بن هرمز، وليُبْذَلَنَّ المال حتى لا يقبله أحد» ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قالها.

٦- والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

وكلاهما دعامة راسخة ثابتة من دعائم الأخلاق الإسلامية بل هما أبرز الدعائم الإيجابية الفاعلة، فإذا ضم إليهما الجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا، فإن الثلاثة هى مُعامل الأمان فى المجتمع، لأن بها هداية الناس إلى الخير ونصحهم به، ونهيهم عن الشر، وحملهم على تركه، وجهاد الفاجر منهم حتى يثوب إلى الحق والصواب.

* بل إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خُلقان إسلاميان رفيعا القدر، يجب أن يمارسهما المسلم فى حياته إلى أن يلقى الله تعالى.

وقد أوجب الله تعالى ورسوله ﷺ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأمرا بهما أمرًا صريحًا مباشرًا فى عديد من آيات القرآن الكريم وعديد من الأحاديث النبوية المطهرة:

* فمن آيات القرآن الكريم:

- قول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فالفلاح فى هذه الآية الكريمة منوط أو مرتبط بممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأن هذين العملين هما القطب الأعظم فى الدين، وهما العملان الجليلان اللذان بعث الله من أجلهما الأنبياء والمرسلين.

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فقد وصف الله المؤمنين والمؤمنات بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، فكل من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعدل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، وهذه الصفات الخمس هى صفات المؤمنين فى هذه الآية الكريمة، ومن فقد صفة منها فقد صفة من صفات الإيمان.

- وقوله عز وجل: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]

ومعنى ذلك أنَّ من هجر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان مستحقًا للعنة الله تعالى، كما استحقها الذين كفروا من اليهود عندما كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

- وقوله جل وعلا: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى هذه الآية الكريمة يعدلان إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكل هذه الأربعة إذا أُدِّيتْ على وجهها، فإنها تؤدى إلى تمكين دين الله فى الأرض ناسًا وأشياء مما يؤكد أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بوصفهما دعامتين من دعائم الأخلاق الإسلامية.

* ومن الأحاديث النبوية الشريفة:

- ما رواه الترمذى بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتَدْعُنَّه فلا يستجيب لكم».

فترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعود على التارك بخسارتين، عقاب الله تعالى، وعدم إجابة دعائه.

- وما رواه أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا؛ فجالسوهم فى مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس، فقال: لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرًا».

- وروى أحمد بسنده عن امرأة من الأنصار قالت: دخلت على أم سلمة، فدخل عليها رسول الله ﷺ وكأنه غضبان، فاستترت بكُمِّ درعى، فتكلم بكلام لم أفهمه، فقلت: يا أم المؤمنين: كأنى رأيت رسول الله ﷺ غضبان: قالت: نعم، أو ما سمعتيه؟ قالت: قلتُ: وما قال؟ قالت: قال: «إن السوء -أو الشر- إذا فشا فى الأرض فلم يُتَنَاه عنه؛ أنزل الله عز وجل بأسه على أهل الأرض» قالت: قلت يا رسول الله: وفيهم الصالحون؟ قال: «نعم وفيهم الصالحون، يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يقبضهم الله عز وجل إلى مغفرته ورحمته، أو إلى رحمته ومغفرته».

* فالأمر بالمعروف خُلُق إسلامى أصيل يستهدف:

- تذكير الناس بالمعروف والخير،

- وحثهم على ممارسته فى الناس جميعًا،

- وغرس المعروف والخير فى المجتمع ونشره فيه.

وذلك واجب إسلامى لا يختلف عليه المسلمون فى أى زمان أو أى مكان، ودليل هذا الوجوب ما ذكرنا من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة -وهى قليل من كثير- وكلها تأمر الناس بأن يأمروا بكل معروف كل أحد، وأن يستمروا على ممارسته حتى يسود الناسَ والمجتمع المعروفُ الذى هو الحق والخير والعدل والأمن، وكل صفة حسنة تعود بالخير على الناس فى دنياهم وآخرتهم.

* والنهى عن المنكر خُلُق إسلامى أصيل؛ يستهدف:

- تذكير الناس بالشرور والمنكرات ليحذروها،

- وحثهم على أن ينهوا عن كل منكر كل أحد، ويقاوموه،

- وتنقية المجتمع وتطهيره من الشرور والمنكرات.

وذلك واجب إسلامى أيدته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى ذكرنا آنفًا، والنهى عن المنكر يجب على المسلم أن يستمر فى ممارسته حتى يتطهر المجتمع من الشرور والآثام، وينحسر الإجرام، ويتحقق الأمان.

٧- والجهاد فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا:

هذا الجهاد فى سبيل الله تعالى هو ذروة سنام الإسلام، وهو قمة الأخلاق الإسلامية وأرفعها قدرًا عند الله تعالى، وذلك أنه مطلب رئيس من مطالب الدين دلَّت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ وسيرته لأن به تعلو كلمة الله تعالى، ويعزّ دينُه، ويسود منهجُه، وينقمع أعداؤه سبحانه وتعالى، فتصبح العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، كما قرر ذلك رب العزة سبحانه وتعالى.

* والإعداد والاستعداد للجهاد خُلُق إسلامى أصيل، قال الله تعالى مخاطبًا كل المسلمين:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

فالإعداد والاستعداد للجهاد فى سبيل الله مطلب دينى مستمر حدَّد الله تعالى أهدافه وبين خطوات الإعداد له، وتلك هى أخلاق المسلمين فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم لا يحيدون عنها إلا ضلوا وذلوا وتخطفهم أعداؤهم.

* والجهاد إذا صاحبه العمل الصالح فهو طريق الفلاح، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [المائدة: ٣٥] والوسيلة التى تصحب الجهاد أو تصحب المسلم فى حياته كلها هى العمل الصالح.

- روى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «**تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد فى سبيله وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة**».

* والجهاد فى سبيل الله أنواع ودرجات، وكل مسلم مطالب بأن يجاهد نوع الجهاد الذى يستطيعه، سواء أكان جهادًا بالمال أو بالكلمة أو بالجاه أو بالعمل أو بالقتال للعدو الذى يهدد أمن المسلمين ويحتل أرضهم ويتحدى مصالحهم، ذلك واجب شرعى لا يختلف عليه المسلمون فى تاريخهم كله.

* والجهاد بكل أنواعه تطبيق عملى لركن من أركان الدين وترجمة عملية للأخلاق الإسلامية، وهو طريق الهداية إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* والجهاد فى سبيل الله تعالى -كبقية أركان الإسلام- خُلُق عام للمسلمين، لا يتخلى عنه إلا من ضيع ركنًا من أركان الدين وعَطَّله، ومن تمسك به فإن له عند الله منزلة عالية هى الجنة، لأنَّ له على الصبر تجربة ترفع قدره عند الله تعالى، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً**[١] **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٦].

* بل إن المسلم يجب أن يحب الجهاد كما يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله والجهاد أكثر من حبه لأبيه وابنه وأخيه وزوجه وعشيرته، ومن أى أموال اكتسبها، ومن أى تجارة

(١) الوليجة: كل ما يتخذه الإنسان من أحد يعتمد عليه وليس من أهله.

يخشى عليها الكساد، ومن أى مساكن يرضاها، فإن لم يفعل ذلك فليتربص أى ينتظر عقابًا من الله تعالى، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

* إن الجهاد فى سبيل الله بهذه القيم النبيلة السامية؛ دعامة قوية ترتكز عليها الأخلاق الإسلامية فى كل زمان ومكان؛ لأن الجهاد -كما هو معروف- فريضة ماضية إلى يوم القيامة لا يعطلها جور جائر ولا بطش ظالم.

د- الرسول الخاتم والأخلاق الإسلامية

الأخلاق الإسلامية مرتبطة أوثق رباط بشخصية الرسول ﷺ؛ لأنها تمثلت فيه بأوضح صورها وأكمل معانيها، إذ أراد الله تعالى له ذلك وجعله للمؤمنين أسوة حسنة.

وقد وصفه ربه سبحانه وتعالى بأنه على خُلُق عظيم، فقال تعالى فى خطابه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

- قال المفسرون: الخلق العظيم هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشد الكمال المحمود فى طبع الإنسان وهو أعلى درجة من الخُلق الحسن.

وجماع الخلق العظيم هو: التديّن، ومعرفة الحقائق، وحلم النفس، والعدل، والصبر على المتاعب والاعتراف للمحسن، والتواضع، والزهد، والعفة، والشجاعة، والعفو، والحياء، وحسن السمت، والوقار، والتؤدة، والرحمة، وحسن المعاملة والمعاشرة.

- وإنما تظهر الأخلاق فى الناس عمومًا فى:

سلوك الإنسان في كلامه، وصمته، وطلاقة وجهه، وثباته، وغضبه لله وللحق، وحكمه على الناس والأشياء، وتأديبه أهله، ورفقه بعياله وخدمه، وإكرامه لضيفه وجاره، وطعامه، وشرابه، وحركته، وسكونه.

* وقد ظهرت أخلاق الرسول ﷺ فى ذلك كله، بالإضافة إلى خلقه فى الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله، وسياسته أمته.

- ومن رحمة الله تعالى بالأمة الإسلامية أن جعل تأسيها بهذه الأخلاق النبوية مستطاعًا، لا يشق على أحد، وليس فيه حرج أو تضييق على أحد، مع أن الأخذ بهذه الأخلاق هو التتميم لمكارم الأخلاق، وصالحها الذى جاء به محمد ﷺ.

- ولأن الرسول ﷺ هو القدوة والأسوة، وأخلاقه هى الأخلاق العظيمة، دأب المسلمون فى عصورهم كلها على الاهتمام الشديد بتوضيح هذه الأخلاق، فاتجهوا من أجل ذلك ثلاثة اتجاهات هى:

* جمع أحاديثه الشريفة فهى التى تدل على أخلاقه،

* وكتابة سيرته،

* والكتابة عن أخلاقه وشمائله ﷺ.

أما جمع أحاديثه ﷺ، فعلم قائم بذاته توفر عليه حشد من العلماء الأفذاذ، والأئمة الأمجاد، فجمعوا فى كتبهم أحاديث رسول الله ﷺ جمعًا دقيقًا مستوعبًا، لم يغادر من الأحاديث النبوية الصحيحة حديثًا، وقد جمعوا كتبهم مما نقلوه عن رواة الحديث من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين رحمهم الله تعالى.

والذين اشتهروا برواية أحاديث رسول الله ﷺ من الصحابة:

- أبو هريرة -رضى الله عنه-، روى عن النبى ﷺ ٥٣٧٤ حديثًا. وكان أحفظ الصحابة رضوان الله عليهم.

- وعبد الله بن عباس رضى الله عنهما، روى ٢٦٦٠ حديثًا.

- وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما، روى ٢٦٣٠ حديثًا.

- وأنس بن مالك رضى الله عنه، روى ١٢٨٦ حديثًا.

- وجابر بن عبد الله رضى الله عنهما، روى ١٥٤٠ حديثًا.

- وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنه، روى ١٢٧٠ حديثًا.

- وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، روت ١٢١٠ أحاديث.

أما غير هؤلاء من الصحابة فقد رووا -معظمهم- أحاديث عن رسول الله ﷺ لكنهم لم يشتهروا بالرواية.

* وأشهر من جمعوا السنة -كما أجمع على ذلك العلماء- هم:

- الإمام البخارى (١٩٤- ٢٥٦هـ) صاحب الصحيح.

- والإمام مسلم (٢٠٤- ٢٦١هـ) صاحب الصحيح.

- والإمام الترمذى (٢٠٩- ٢٧٩هـ) صاحب الجامع الصحيح أو السنن.
- والإمام أبو داود (٢٠٢- ٢٧٥هـ) صاحب السنن.
- والإمام النَّسائى (٢٢٥- ٣٠٣هـ) صاحب السنن.
- والإمام ابن ماجة (٢٠٩- ٢٧٩هـ) صاحب السنن.

* وأشهر علماء المسلمين فى الفقه:

- سفيان الثورى (٦٧- ١٦١هـ) أمير المؤمنين فى الحديث.
- مالك بن أنس (٩٣- ١٧٩هـ) إمام المذهب المالكى.
- الإمام أبو حنيفة (٨٠- ١٥٠هـ) إمام المذهب الحنفى.
- والإمام الشافعى (١٥٠- ٢٠٤هـ) إمام المذهب الشافعى.
- والإمام أحمد بن حنبل (١٧٤- ٢٤١هـ) إمام المذهب الحنبلى.
- والإمام الأوزاعى (٨٧- ١٥٧هـ).
- والإمام إسحق بن راهويه (١٦١- ٢٣٨هـ).

* والحفاظ السبعة، وهم:

١- الحافظ أبو الحسن الدارقطنى (٢٠٦- ٣٨٥هـ).
٢- والحافظ -الحاكم- النيسابورى (٣٢١- ٤٠٥هـ).
٣- والحافظ عبد الغنى بن سعيد المصرى (٣٣٢- ٤٠٩هـ).
٤- والحافظ أبو نعيم الأصبهانى (٣٥٤- ٤٣٠هـ).
٥- والحافظ أبو عمر النمرى (٣٦٨- ٤٦٣هـ).
٦- والحافظ أبو بكر البيهقى (٣٨٤- ٤٥٨هـ).
٧- والحافظ الخطيب البغدادى (٣٩٢- ٤٦٣هـ).

ثم الحافظ الطبرانى (٢٦٠- ٣٦٠هـ) صاحب المعاجم الثلاثة فى الحديث الشريف (الكبير والوسيط والصغير).

- والحافظ أبو بكر بن السنى (المتوفى سنة ٣٦٤هـ) صاحب السنن وصاحب عمل اليوم والليلة.

وكل هؤلاء الذين رووا عن رسول الله ﷺ من الصحابة رضوان الله عليهم، ومن ألفوا كتبًا فى السنة النبوية، ومن ألفوا كتبًا فى الفقه، ومن سُموا حفاظًا، كل هؤلاء تحدثوا عن أخلاق رسول الله ﷺ فيما كتبوا وفيما ألفوا، بل كانت أعمال رسول الله ﷺ وأخلاقه محور كتاباتهم وتأليفهم.

* وأما كُتَّاب سيرته ﷺ:

فمنهم:

١- عروة بن الزبير بن العوام (٢٢- ٩٣هـ) رضى الله عنهما، وأبوه الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ.

وعروة بن الزبير: أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها خالته، وهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع من أحاديث النبى ﷺ ما يُعد تسجيلاً لجوانب من سيرته ﷺ.

٢- وأبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنهما (توفى سنة ١٠٥هـ) وقد ألف فى السيرة النبوية صحفًا جمع فيها عددًا من الأحاديث النبوية الشريفة.

٣- ووهب بن منبه الصنعانى اليمنى (٣٤- ١١٤هـ) وهو مؤرخ يروى الأخبار القديمة وله علم بالأساطير والإسرائيليات، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء. وله كتاب فى التاريخ تحدث عن سيرة النبى ﷺ.

٤- وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى سنة ١٢٠هـ، وكان أحفظ أهل البصرة -كما وصفه الإمام أحمد بن حنبل- وله كتاب مغازى رسول الله ﷺ.

٥- وشرحبيل بن سعد المتوفى سنة ١٢٣هـ، وله كتاب فى المغازى أيضًا.

٦- وابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤هـ، وله كتاب فى المغازى كذلك.

٧- وموسى بن عقبة بن أبى عياش المتوفى سنة ١٤١هـ، وهو عالم بالسيرة النبوية، ومن ثقات رجال الحديث، له «كتاب المغازى».

٨- محمد بن إسحق بن يسار المتوفى سنة ١٥١هـ من أهل المدنية لكنه زار الإسكندرية بمصر سنة ١١٩هـ وسكن بغداد وبها مات، وله كتاب جليل فى السيرة هو: «السيرة النبوية» التى رواها عنه عبد الملك بن هشام المؤرخ المتوفى سنة ٢١٣هـ، المشهور بسيرة ابن هشام.

٩- ومعمر بن راشد الأزدى (٩٥- ١٥٣هـ) الفقيه الحافظ للحديث، ثقة من أهل البصرة، سكن صنعاء، فلما أراد العودة إلى البصرة كره أهل صنعاء أن يفارقهم، فقال لهم: رجل قيِّدوه، فزوجوه فأقام فى صنعاء، وهو عند علماء التاريخ أول من صنف باليمن.

١٠- والواقدى محمد بن عمر بن واقد السهمى (١٣٠- ٢٠٧هـ) وهو من أقدم مؤرخى الإسلام ومن أشهرهم، حافظ للحديث، ولى قضاء بغداد وله كتاب: «المغازى النبوية» وله كتب عديدة فى الفتوحات الإسلامية.

١١- وعبد الملك بن هشام الحميرى المعافرى المتوفى سنة ٢١٣هـ، وهو مؤرخ عالم بالأنساب، وباللغة، ولد ونشأ بالبصرة وتوفى بمصر، أشهر كتبه: «السيرة النبوية» المعروف بسيرة بن هشام رواه عن محمد بن إسحق.

١٢- ومحمد بن سعد بن منيع الزهرى (١٦٨- ٢٣٠هـ) وهو مؤرخ ثقة من حفاظ الحديث، صحب الواقدى زمانًا فعرف بكاتب الواقدى، وله كتاب: «طبقات الصحابة».

* ولقد شاع التأليف فى السيرة النبوية بين علماء المسلمين بعد القرن الثالث الهجرى وإلى يومنا هذا، حتى ليصعب إحصاء أسمائهم وكتبهم فى كتابنا هذا، ولكننا نكتفى بسرد أسماء بعضهم فيما يلى:

- ابن فارس اللغوى المشهور المتوفى بالرىّ سنة ٣٩٠هـ.
- ومحمد بن يوسف الشامى المتوفى سنة ٦٠٠هـ.
- وابن أبى طىّ يحيى بن حميد المتوفى سنة ٦٣٠هـ.
- وظهير الدين على بن محمد الكازرونى المتوفى سنة ٦٩٤هـ.
- وعلاء الدين على بن محمد الخلاطى الحنفى المتوفى سنة ٧٠٨هـ.
- وابن سيد الناس البصرى الشافعى المتوفى سنة ٧٣٤هـ.
- وشهاب الدين الرعينى الغرناطى المتوفى سنة ٧٧٩هـ.
- وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٨٠هـ.
- ومحمد بن يوسف الصالحى الشامى المتوفى سنة ٩٤٢هـ.

- وعلى بن برهان الدين الحلبى المولود بمصر والمتوفى سنة ١٠٤٤هـ وكتابه ذائع الصيت هو: «السيرة الحلبية»

* وغير هؤلاء كثيرون ممن كتبوا فى السيرة النبوية الشريفة وما منهم من أحد إلا تحدث فى كتابه عن أخلاق رسول الله ﷺ، وهو يسجل سيرته المطهرة.

هـ- أشهر الكتب فى الأخلاق الإسلامية

أمَّا مَنْ كتبوا عن أخلاق النبى ﷺ:

فهم كثيرون، نذكر منهم ممن تحدثوا عن أخلاق النبى ﷺ فى كتبهم الجامعة عن أحاديث النبى ﷺ، مثل:

- الإمام مالك فى: «الموطأ» عقد فيه كتابًا بعنوان «صفة النبى ﷺ».

والإمام مسلم فى: «صحيحه» حيث عقد فيه كتابًا بعنوان «الفضائل» اشتمل على تسعة وثلاثين بابًا أولها: باب فضل نسب النبى ﷺ، وآخرها: باب فضل النظر إليه ﷺ.

- والإمام البخارى فى: «صحيحه» عقد فيه كتابًا بعنوان: «كتاب المناقب» عقد فيه عشرة أبواب عن النبى ﷺ.

- والإمام الترمذى فى «سننه» عقد فيه كتابا بعنوان: «كتاب المناقب» عقد فيه ثلاثة عشر بابًا فى صفات النبى ﷺ وأخلاقه.

- وللإمام الدارمى في سننه: «صفة النبى ﷺ». تحدث فيه عن أربع عشرة صفة من صفاته ﷺ.

* وممن أفردوا مؤلفات مستقلة فى أخلاق النبى ﷺ وشمائله:

- الإمام الترمذى صاحب السنن (٢١٠- ٢٧٩هـ)، له كتاب: «الشمائل».

- وأبو بكر بن المقرى (٢٨٢ - ٣٨١هـ)، له كتاب «الشمائل».

- وأبو العباس المستغفرى (٣٥٠- ٤٣٢هـ)، له كتاب: «الشمائل والدلائل ومعرفة الصحابة الأوائل».

- وأبو بكر محمد الحسين بن مسعود البغوى (٤٣٦- ٥١٠هـ)، له كتاب: «الأنوار فى شمائل النبى المختار».

* ولكن أبرز عالمين جليلين كتبا عن أخلاق النبى ﷺ هما:

- محمد بن عبد الله بن محمد أبو الشيخ الأصفهانى (٢٧٤- ٣٦٩هـ).

- والقـاضى أبو الفضـل بن عيـاض بن موسـى السبـتى اليـحصـبى الأندلسى (٤٧٦-٥٤٤هـ).

أما أبو الشيخ الأصـفهانى فألف كتـاب: «أخلاق النبى وآدابه» وسوف نستعـرضه لبالغ أهميته فى الأخلاق الإسلامية.

وأما القـاضى عياض فـألف كتاب: «الشـفا بتعـريف حقـوق المصطفى ﷺ»، وسوف نستعرضه لما فى ذلك من الفائدة.

ونسأل الله التوفيق.

أولاً: كتاب «أخلاق النبى ﷺ وآدابه»:

جمع أبو الشـيخ الأصفهانـى فى كتابه عددًا كـبيرًا من أحـاديث النبى ﷺ، ونظمه من داخله على ما يشبه الأبواب فى الكتب لكنه لم يسمها أبوابًا؛ وإنما عنون لها بما يلى:

- ما رُوى من حسن خلقه،
- ما روى من كرمه، وكثرة احتماله، وكظمه الغيظ،
- ما روى من عفوه وصفحه،
- ذكر جوده وشجاعته،
- ما ذُكر من شجاعته،
- ما ذكر من تواضعه،
- ما ذكر من علامة رضاه وعلامة سخطه،
- فى إغضائه،
- ما رُوى فى رفقه بأمته،
- ما روى فى كظمه الغيظ، وحلمه،
- صفة بكائه وحزنه،
- صفة منطقه وألفاظه،
- صفة مشيه والتفاته،
- ذكر قوله عند قيامه من مجلسه،
- ذكر محبته للطيب وتطيبه،

- ذكر صفة لباس رسول الله ﷺ،

وقد ذكر فى ذلك خمسة عشر عنوانا،

- ذكر خاتمه، وخُفَّه، ونعله،

- ذكر أدوات كان يستعملها فى الحرب، بدأها بذكر رمحه وعطف عليها أربع عشرة أداةً،

- ذكر شعاره فى حروبه،

- ذكر فراشه، وذكر فيه خمسة عناوين،

- ذكر قوله عند نومه، وذكر مرآته ومشطه،

- فعله فى ليلته،

- نعتُ قراءة النبى ﷺ،

- ذكر شدة اجتهاده فى عبادته، وتضرعه وطول قيامه،

- صفة أكل رسول الله ﷺ وشربه،

وقد ذكر فى ذلك عشرين عنوانًا.

- ذكر قولِه: حُبب إلىّ النساء والطيب، وقد ذكر فيه أربعة عناوين.

- ذكر قبوله الهدية، وإثابته عليها،

- ذكر عيادته المريض،

- ذكر فعله عند عطسته،

- ذكر استعماله يده اليمنى واليسرى،

- ذكر مشورته لأصحابه،

- ذكر ردّه السّلام،

- ذكر قوله عند الشىء يعجبه،

- ذكر تشييعه أصحابه عند خروجهم إلى السفر،

- ذكر محبته لليوم الذى يسافر فيه، وفعله فى سفره،

- ذكر جلوسه واتكائه واحتبائه، ومشيه.
- ذكر محبته للفأل الحسن من القول.
- ماذكر من تكلمه بالفارسية.
- ذكر ما تحرَّاه فى يوم الجمعة وليله على سائر الأيام.
- ذكر حَلْق شعر عانته.
- ذكر حجامته ودفنه دَمَه.
- ذكر جَزّ شاربه.
- ذكر لزومه المسجد وذكر الله فيه بعد صلاة الغَداة إلى طلوع الشمس.
- ذكر قراءته القرآن، ومدة ختمه.
- ذكر فعله فى أول مطر يمطر.
- ذكر محبته للتيامن فى جميع أفعاله.
- باب فى ذكر زهده، وإيثاره على نفسه، ومعيشته.

* جاء كتاب: «أخلاق النبى ﷺ وآدابه» أجمع كتاب وأوفاه فى تعريف أخلاق النبى ﷺ وآدابه، ولقد أحسن أبو الشيخ فى كتابا أنواعًا من الإحسان نذكر منها:

- أحسن فى جمع الأحاديث النبوية الصحيحة يعزز بها ما وصف به النبى ﷺ من صفات، فنحا بذلك نحو علماء الحديث النبوى الشريف.
- وأحسن كل الإحسان فى توضيح أعمال النبى ﷺ فى جميع أحواله فى السلم والحرب، والرضا والغضب، ومع الأولياء والأعداء، مما جعل من كتابه زادًا وفيرًا لكل من يبحث عن القدوة برسول الله ﷺ فى أى شأن من شئون الحياة.
- وأحسن فى استيعاب كل شئون حياته ﷺ، فى أقواله وأفعاله وتقريراته، وهديه، وما اشتملت عليه حياته من أذكار وأوراد، وعبادات، وطاعات، وصفات أخلاقية لا تفارقه ﷺ.
- كما أحسن فى استشهاده على ما وصف به النبى ﷺ بكلمات الصحابة رضى الله عنهم، إذ كانوا ألصق الناس به وأحبهم إليه.

* إن أبا الشيخ الأصفهانى بهذا الكتاب الجامع لأخلاق النبى ﷺ وآدابه، قد بَزَّ من سبقوه فى الحديث عن ذلك من العلماء الذين جمعوا شمائل النبى ﷺ، وجاء كتابه دليلا وهاديا لمن كتبوا بعده عن النبى ﷺ، ليعرفوا الناس تفاصيل خلقه ومفردات صفاته، ومعالم سيرته ﷺ، فجزاه الله عن العلماء وعن سائر المسلمين خير الجزاء.

ثانيًا: كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ»

هذا الكتاب كسابقه من أحسن الكتب -عندى- فى توضيح أخلاق الرسول ﷺ، وأجمعها، وأدقها وأوثقها، وأكثرها احترامًا وتقديرًا لدى كثير من علماء المسلمين.

* ولنستعرض هذا الكتاب بعون من الله وتوفيقه:

- قال القاضى عياض فى تقديمه لكتابه: «ترجمته بالشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ وحصرت فيه الكلام فى أربعة أقسام:

القسم الأول:

فى تعظيم العلى الأعلى لقدر هذا النبى قولا وفعلا، وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول: فى ثنائه تعالى عليه، وإظهار عظيم قدره لديه.

وفيه: عشرة فصول.

والباب الثانى: فى تكميله تعالى له بالمحاسن خَلْقًا وخُلُقًا وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نَسَقًا.

وفيه: سبعة وعشرون فصلاً.

والباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها لعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه الله به فى الدارين من كرامته.

وفيه: اثنا عشر فصلا.

والباب الرابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمعجزات وشَرَّفه به من الخصائص والكرامات.

وفيه: ثلاثون فصلاً [١].

(١) هذا القسم الأول من الكتاب قد اشتملت أبوابه الأربعة على تسعة وسبعين فصلا فى ٣٧٠ صحيفة.

والقسم الثانى:

فيما يجب على الأنام من حـقوقه عليه الصلاة والسلام، ويترتب القـول فيه على أربعة أبواب:

الباب الأول: فى فرض الإيمان ووجوب طاعته واتباع سنته.

وفيه: خمسة فصول.

والباب الثانى: فى لزوم محبته ومناصحته.

وفيه: ستة فصول.

والباب الثالث: فى تعظيم أمره، ولزوم توقيره وبره.

وفيه: سبعة فصول.

والباب الرابع: فى حكم الصلاة عليه والتسليم، وفرض ذلك وفضيلته.

وفيه عشرة فصول[١].

والقسم الثالث:

فيما يجب للنبى وفـيما يستحيل فى حقه ﷺ، وما يجـوز عليه، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه.

وقد علق القاضى عياض رحمه الله تعالى على هذا القسم بقوله:

وهذا القسم هو سرّ الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قـبله كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نورده فيه من النكت.. وفى هذا القسم بابان:

الباب الأول: فيما يختص بالأمور الدينية.

وفيه: ستة عشر فصلاً.

والباب الثانى: فيما يخصهم[٢] فى الأمور الدنيوية.

وفيه: ثمانية فصول.

---

(١) اشتمل القسم الثانى من الكتاب على أربعة أبواب تضمنت ثمانية وعشرين فصلا. كتب فيها ٧٣ صحيفة.

(٢) أى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

والقسم الرابع:

فى تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقَّصه أو سبه عليه الصلاة والسلام.

وفى هذا القسم ثلاثة أبواب.

الباب الأول: فى بيان ما هو فى حقه ﷺ سَبٌّ أو نقص من تعريض أو نص.

وفيه: تسعة فصول.

والباب الثانى: فى حكم سابِّه ﷺ.

وفيه: أربعة فصول.

والباب الثالث: فى سابّ الله تعالى

وفيه: تسعة فصول.

هـ- أشهر الكتب فى الأخلاق الإسلامية:

تعاقب علماء المسلمين، على التأليف فى الأخلاق الإسلامية تأليفًا مستقلاً حينًا، وحينًا يكتبون عن الأخلاق وهم يكتبون عن سيرة النبى ﷺ.

* ومن الكتب التى أُلفَتْ فى الأخلاق ما نذكر بعضها الآن:

- كتاب: «الأدب الكبير» وكتاب: «الأدب الصغير» لابن المقفع (١٠٦-١٤٢هـ).
- ومعظم كتاب: «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢١٣ - ٢٣٦هـ).
- وكتاب: «تجارب الأمم وتعاقب الهمم» وكتاب: «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق» لابن مسكويه أحمد بن محمد (المتوفى سنة ٤٢١هـ).
- وكتاب: «أدب الدنيا والدين» للماوردى على بن محمد بن حبيب (٣٦٤-٤٥٠هـ).
- وكتاب: «مداواة النفوس» وكتاب: «رسالة فى الأخلاق» لابن حزم الأندلسى على بن أحمد (٣٨٤-٤٥٦هـ).
- وكتاب: «إحياء علوم الدين - وبخاصة ما جاء فيه تحت عنوان: كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة» للإمام أبى حامد الغزالى (٤٤٥ - ٥٠٥هـ).
- وكتاب: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ).

* وسوف أكتفى باستعراض أهم كتابين فى نظرى فى هذا المجال، وهما:

أدب الدنيا والدين للماوردى.

وطريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم [١].

واسأل الله العون والسداد.

أولا: كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى.

أقام الماوردى كتابه على خمسة أبواب، وختمه بفصل لا يقل أهمية عن باب.

وهى:

الباب الأول: فضل العقل وذم الهوى:

وفيه: فصلان:

فصل فى فضل العقل وأنه منبع الأخلاق وفصل فى ذم الهوى وتسببه فى فساد الأخلاق.

والباب الثانى: أدب العلم:

وفيه: ثلاثة فصول:

الفصل الأول: فى أوائل العلم وأواخره.

والفصل الثانى: فيما يتأدب به المتعلم وما يكون عليه العالم من أخلاق.

والفصل الثالث: فيما يجب أن يكون عليه العلماء من أخلاق تليق بهم.

والباب الثالث: أدب الدين:

وفيه مباحث:

المبحث الأول: فى أقسام التكاليف الثلاثة:

- الاعتقاد.
- وما أمر الله عباده بفعله.
- وما أمرهم بالكفّ عنه.

(١) اخترت هذين الكتابين لتعدد طبعاتهما ويسر الحصول عليهما واهتمامهما الشديد بالأخلاق.

والمبحث الثانى: فى أحوال الناس فيما أمروا به من فعل الطاعات وما نهوا عنه من المعاصى.

والمبحث الثالث فى رياضة النفس: وتراض النفس بأمور:

- أن تصرف عنها حب الدنيا والتعلق بها.

- وأن تصدُق نفسك فتلزمها الحق والصواب.

- وأن تكشف لها حال أجلك وغرور أملك.

والباب الرابع: أدب الدنيا والدين:

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: فيما يصلح به الإنسان فى الدنيا.

والفصل الثانى: فى المؤاخاة بالمودة.

والفصل الثالث: فى البِّر.

والباب الخامس: أدب النفس:

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: فى مجانبة الكبر والإعجاب.

والفصل الثانى: فى حسن الخُلق.

والفصل الثالث: فى الحياء.

والفصل الرابع: فى الحلم والغضب.

والفصل الخامس: فى الصدق والكذب.

والفصل السادس: فى الحسد والمنافسة.

* وأما الفصل الذى يشبه الباب فى موضوعه وحجمه فهو:

آداب المواضعة والاصطلاح وهو ضربان:

أحدهما: ما تكون المواضعة فى فروعه والعقل موجب لأصوله.

والآخر: ما تكون المواضعة فى فروعه وأصوله.

وفيه: ثمانية فصول:

الفصل الأول: فى الكلام والصمت.

والفصل الثانى: فى الصبر والجزع.

والفصل الثالث: فى المشورة.

والفصل الرابع: فى كتمان السِّرّ.

والفصل الخامس: فى المزاح والضحك.

والفصل السادس: فى الطيَرة والفال.

والفصل السابع: فى المروءة.

والفصل الثامن: فى آداب منثورة.

* وسوف نفصل القول بعض التفصيل فى ثلاثة أبواب من الكتاب هى:

باب أدب الدين.

وباب أدب الدنيا والدين.

وباب أدب النفس.

باب أدب الدين:

تَحدَّث فى هذا الباب عن:

- أهمية الدين فى حياة الناس.

- وموقف الناس مما أمر به الدين أو نهى عنه

فقال: ليس يخلو أمر الناس فيما أمروا به ونُهوا عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصى من أربعة أحوال:

١- منهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصى، وهذا أكمل أحوال أهل الدين، وأفضل صفات المتقين، فهو المستحق جزاء العاملين.

٢- ومنهم من يمتنع عن فعل الطاعات، ويقدم على ارتكاب المعاصى، وهو أخبث أحوال المكلَّفين، وشرّ صفات المتعبدين، فهذا يستحق جزاء اللاهى عن فعل ما أُمِرَ به من طاعة، وعذاب المجترئ على ما أقدم عليه من معاص.

٣- ومنهم من يستجيب إلى فعل الطاعات، ويقدم على ارتكاب المعاصى، فهذا يستحق عذاب المجترئ لأنه تورط بغلبة الشهوة، وإن سلم من التقصير فى فعل الطاعة.

٤- ومنهم من يمتنع عن فعل الطاعات، ويكف عن فعل المعاصى، فهذا يستحق عذاب اللاهى عن دينه.

* وقد فصَّل القول فى هذا الباب، وفرّع فيه تفريعات عديدة، فى ممارسة العمل الصالح والخلق الصالح، والأصدقاء الصالحين.

* وتحدث عن رياضة النفس - كما أشرنا آنفا - وقسمها إلى أحوال ثلاثة:

- أن تصرف حب الدنيا عن قلبك، لأن التعلق بها يلهى عن الآخرة.

- وأن تصدق نفسك فيما منحتك من رغائبها.. فتعلم أن العطية فيها مرتجعة، والمنحة مستردة، بعد أن تبقى عليك ما احتقبت من أوزار.

- وأن تكشف لنفسك حال أجلك، وتصرفها عن غرور أملك حتى لا يطيل لك الأملُ أجلاً قصيرًا ولا ينسيك نشورًا.

باب أدب الدنيا والدين:

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ما يصلح به حال الإنسان فى الدنيا، وهو قواعد ثلاث:

١- النفس المطيعة؛ لأنها إذا أطاعت صاحبها ملكها، وإن عصته ملكته، ومن لم يملك نفسه فهو أجدر أن لا يملك غيرها، ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها أولى..

وللنفس آداب هى: تمام طاعتها، وكمال مصلحتها[1].

٢- والألفة الجامعة؛ لأن الإنسان مقصود بالأذية محسود بالنعمة، فإذا لم يكن آلفًا مألوفا تخطفته أيدى حاسديه، وتحكمت فيه أهواء أعاديه.. وبالألفة ينتصر على هذا وذاك.

وأسباب الألفة عنده هى: الدين، والنسب والمصاهرة، والمودة، والبِّر.

---

(١) سيفصل الماوردى ذلك فى باب أدب النفس الذى فيه ستة فصول.

٣- والمادة الكافية، لأن حاجة الإنسان لازمة لا يَعْرَى منها بشر، فإذا عدم المادة التى هى قوام نفسه لم تدم له حياة، ولم تستقم له دنيا.

* وما تصلح به الدنيا، وهو ست قواعد:

١- الدين المتبَّع: فالدين أقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها واستقامة الناس فيها على الحق والخير.

٢- والسلطان القاهر: الذى تتألف برهبته الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة، وتنكفُّ بسطوته الأيدى المتغالبة.

٣- والعدل الشامل: الذى يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان..

٤- والأمن العام: الذى تطمئن إليه النفوس وتتيسر فيه الهِمَم، ويسكن فيه البرئ، ويأنس فيه الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة..

٥- وخِصْب دَارٌّ: تتسع النفوس به فى الأحوال، ويشترك فيه ذوُو الإكثار والإقلال، فيقل فى الناس الحسد، وينتفى عنهم التباغض، وتكثر المواساة والتواصل؛ وذلك من أقوى الدواعى لصلاح الدنيا وانتظام أحوالها..

٦- والأمل الفسيح: الذى يبعث على اقتناء ما يَقْصُر العُمْر عن استيعابه، ويبعث على اقتناء ما ليس يؤمل فى دَرْكه بحياة أربابه، ويتم به العمران من قرنْ إلى قَرْن، فيُتم الثانى ما أبقاه الأول من عمارة الدنيا، ويَرُمّ الثالث ما أحدثه الثانى من شعثها؛ لتكون أحوال الدنيا ملتئمة، وأمورها منتظمة..

والفصل الثانى: المؤاخاة بالمودة: -وهى من أسباب الألفة- فلأنها تكسب بصادق الميل إخلاصًا ومصافاة، وتُحْدث بخلوص المصافاة، وفاء ومحاماة، وهذا أعلى مراتب الألفة. ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه رضى الله عنهم.

والفصل الثالث: البر: وهى من أسباب الألفة -لأن يوصل إلى القلوب ألطافًا، ويثنيها محبة وانعطافًا.

وباب أدب النفس:

لا تستغنى النفس الإنسانية عن التأديب والتهذيب والتَّحلى بالأخلاق الفاضلة، فقد قال

الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه: إن الله تعالى جعل مكارم الأخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم، فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها».

وتأديب النفس يلزم من وجهين:

أحدهما: ما لزم الوالد لولده فى صِغَره.

والآخر: ما لزم الإنسان فى نفسه عند نشأته وكبره، فهو أدب رياضة واستصلاح.

* وهذا الباب فى أدب النفس يحوى ما يلزم احتواؤه ومراعاته من الأخلاق، وما يجب معاناته من الأدب.

وفى هذا الباب ستة فصول:

الفصل الأول: فى مجانبة الكبر والإعجاب، وقد سردنا هذه الفصول الستة آنفًا.

وبعد: فإن كتاب أدب الدنيا والدين للإمام الماوردى رحمه الله تعالى، كتاب فى القيم الخلقية عمومًا، وفى الأخلاق الإسلامية على وجه أخص، لا أبالغ إن قلتُ: إنه من أهم الكتب فى الأخلاق الإسلامية.

ثانيًا: كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم عليه رحمة الله تعالى.

وقد جعل كتابه -على نفاسته وأهميته فى رصد الأخلاق الإسلامية غير خاضع للتبويب الذى ألِفَه العلماء فيما يؤلفون -جعله فصولاً بلغت ثلاثة وستين فصلاً، لكنها متماسكة آخذ بعضها بحجز بعض، تضمها جميعًا قيم تربوية خلقية نابعة جميعها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن أمثلة هذه الفصول:

- فصل فى أن الله تعالى هو الغنى المطلق، والخلق فقراء محتاجون إليه.

ثم عقد بعد ذلك عشرة فصول فى تفسير الغنى والفقر وتقسيم الفقراء والأغنياء.

- وفصل فى بيان مقامين: مقام هدى ومقام ضلال.

- وفصل فى أن الله تعالى خلق دارين وخص كل دار بأهل.

- وفصل فى الزهد وأقسامه.

- وفصل فى التوكل وفصل فى الصبر.

- وفصل فى الخوف، وفصل فى المحبة، إلى غير ذلك الفصول الثلاثة والستين، وكلها تقوم على قيم خلقية جاء بها الإسلام ودعا إلى التمسك بها، والتخلّى عما يضادها أو يناقضها.

* وأروع ما فى كتاب: طريق الهجرتين وباب السعادتين -فى تصورى -هو فصل: مراتب المكلفين فى الدار الآخرة وطبقاتهم فيها، وهم ثمانى عشرة طبقة.

وإنما كان هذا الفصل -عندى أحسن ما فى الكتاب، لأنه أوضح الأخلاق الإسلامية وبيَّن الطريق الذى يفضى إليه التمسك بها أو التخلى عنها.

وهذه الطبقات إنما تفاوت أصحابها فى الدنيا لتفاوت تمسكهم بالأخلاق الإسلامية مما انعكس على مكانتهم فى الآخرة بين يدى الله تعالى، وهذه الطبقات هى:

١- مرتبة الرسالة.

٢- مَنْ عداهم من الرسل على مراتبهم.

٣- الذين لم يرسلوا إلى أممهم وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة.

٤- ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم.

٥- أئمة العدل وولاته الذين تؤمن بهم السبل.

٦- المجاهدون فى سبيل الله تعالى.

٧- أهل الإيثار والصدقة والإحسان.

٨- من فتح الله له بابا من أبواب الخير القاصر على نفسه كالحج والصلاة..

٩- أهل النجاة.

١٠- قوم أسرفوا على أنفسهم وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكنهم تابوا توبة نصوحًا.

١١- أقوام خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

١٢- قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم.

١٣- طبقة أهل المحنة والبلية الذين غلبت سيئاتهم على حسناتهم.

١٤- قوم لا طاعة لهم ولا معصية ولا كفر ولا إيمان، ومذاهب العلماء فيهم.

١٥- طبقة الزنادقة: وهم المنافقون.

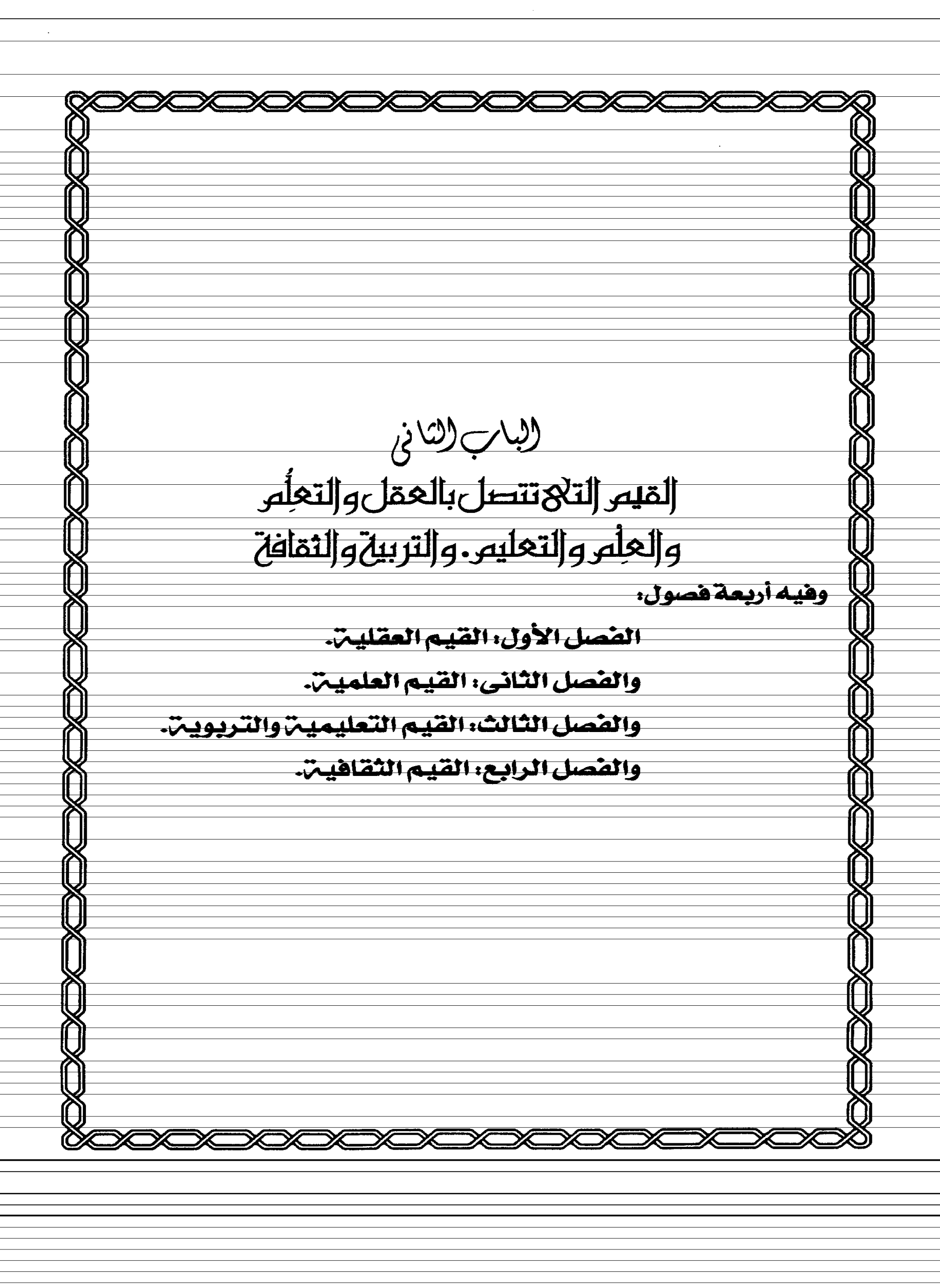
١٦- رؤساء الكفر وأئمته ودعاته.

١٧- طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم.

١٨- طبقة الجن، وآراء العلماء فيهم فى مؤمنهم وكافرهم.

* إن هذا الكتاب جمع الأخلاق الحميدة وحبب فيها بأدلة من الكتاب والسنة، وسرد الأخلاق الذميمة وحذر منها بآيات من الكتاب وكلمات من السنة النبوية المطهرة.

فهو كتابٌ أمٌّ فى التربية الإسلامية عمومًا، وفى الأخلاق الإسلامية على وجه الخصوص، جزى الله مؤلفه خير الجزاء، ورزقنا الله القدرة على التمسك بما دعا إليه من فضائل وباعد بيننا وبين ما سرد فيه من رذائل حذَّر منها، إنه سبحانه على ما يشاء قدير.



الباب الثانى

القيم التى تتصل بالعقل والتعلُّم والعِلم والتعليم. والتربية والثقافة

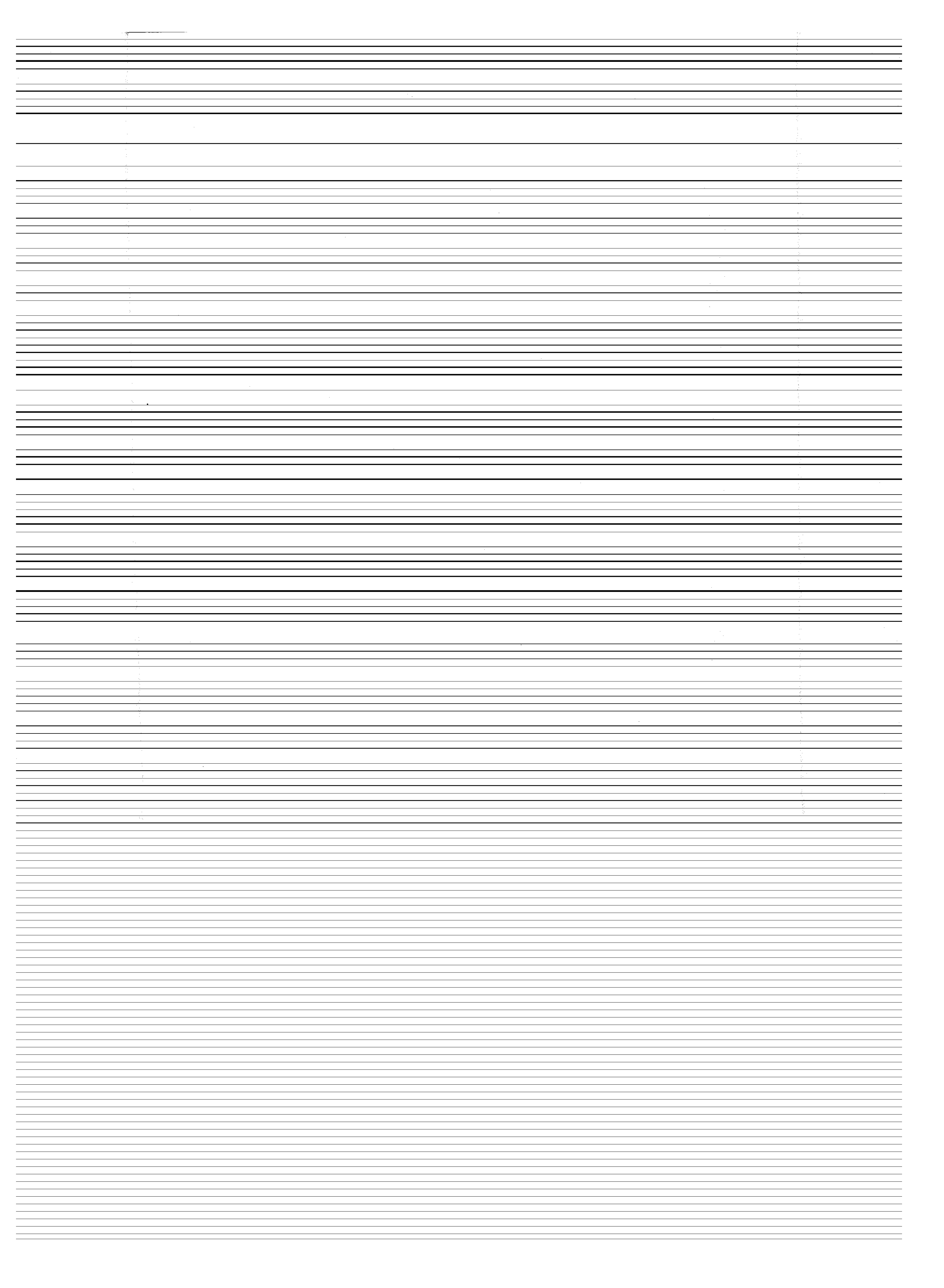
وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: القيم العقلية.

والفصل الثانى: القيم العلمية.

والفصل الثالث: القيم التعليمية والتربوية.

والفصل الرابع: القيم الثقافية.



القيم التى تتصل بالعقل والتعلم والعلم،
وما له صلة بالتعليم والتربية والثقافة

نحاول بعون الله فى هذا الباب أن نوضح مكانة القيم الإسلامية ذات الصلة، بالعقل، والتعلم، والعلم والتعليم، والتربية والثقافة، لنؤكد بهذا التوضيح أمورًا ذات أهمية، نشير إلى بعضها فيما يلى:

- أن هذه القيم ذات الصلة بالعقل والعلم، والتربية والثقافة قيم إسلامية أصيلة نابعة من المصدرين العظيمين الموثقين القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مما يؤكد نُبل هذه القيم وإنسانيتها، وقدرتها على أن تحقق للإنسان مصالح دنياه وآخرته؛ إذا التزم بها فى حياته.
- وأن التمسك بهذه القيم والالتزام بها وبغيرها من القيم الإسلامية؛ يسهم فى بناء الحضارة الإسلامية الإنسانية إسهاما فاعلاً، قادرًا على تحقيق التقدم فى كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية، بل يؤمِّن الكفاية والتكافل للمجتمع، بل الرفاهية المادية والمعنوية.
- وأن هذه القيم المتصلة بالعقل والعلم والتربية والثقافة قيم أصيلة بل ضرورية فى الحياة الإسلامية؛ بحيث لا يمكن الاستغناء عنها، أو السعى فى طريق سعادة الدنيا والآخرة دونها، فهى لِبناتٌ أساسية فى بناء الحضارة الإسلامية.
- وأن نؤكد أنه ليس كالإسلام دين أو نظام، احترم العقل وقدَّره، وجعله أصلاً للتدين، ومناطًا للتكليف: إذ به التفكير والاستدلال، وتمييز الحَسَن والقبيح، والتفرقة بين الحق والباطل، وحسبه شرفًا فى الإسلام أنه القوة المتهيئة لقبول العلم، أو هو العلم ذاته الذى يستفيده الإنسان بتلك القوة.
- وأن نؤكد تفرد الإسلام بوصفه دينًا سماويًا، مصدره الكتاب والسنة النبوية، قد أقام للعلم أكبر وزن وأعطاه أعظم أهمية، سواء منه ما كان علمًا دينيًا، أو علمًا دنيويًا ذا فروع غير متناهية تتصل بجسد الإنسان أو عقله أو ثقافته، أو تتصل بنظامه الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى، أو علومًا تتصل بالأرض وما فيها أو بالبحار أو بالسماء والأجواء، أو تتصل بتاريخ الإنسان على الأرض أو بالتيسير لحياته أو رفاهية هذه الحياة، إلى غير ذلك من علوم يحترمها الإسلام ويقدرها ويدعو للبحث والتبحر فيها..

– وأن نؤكد أنه ليس كـالإسلام دين أو نظام أقـام أكبر وزن للتـربية، ومدّ أثـرها وتأثيرها لتشمـل الدنيا والآخرة ولتتناول التـربية والتنمية لكل مـا يتصل بحياة الإنـسان، لإقدار الإنسان على التعامل الحسن مع الله تعالى ومع النفس، ومع الكتاب والسنة ومع الإنسان ومع الأشياء، تعامـلاً يحافظ فيه على ثوابت الإسلام من عقـيدة وعبادة وخلق، وتكوّن لديه المرونة وسعة الأفق للتعـامل مع المتغيرات تعاملاً مرنًا يأخذ منهـا ما لا يتعارض مع ثوابت دينه، أو أسس منهجه التربوى الإسلامى.

– وأن نؤكـد أنه ليس كالإسـلام دين أو نظام اهتم بالثقـافة بنوعـيهـا: المادية المتمـثلة فى المصنوعات والمنتجات كالمساكن والملابس وأنواع الطعام والشراب والأثاث المنزلى والآلات والأدوات، أو غير المادية كالقيم والمعتقدات والمعايير والمعارف، ونحوها.

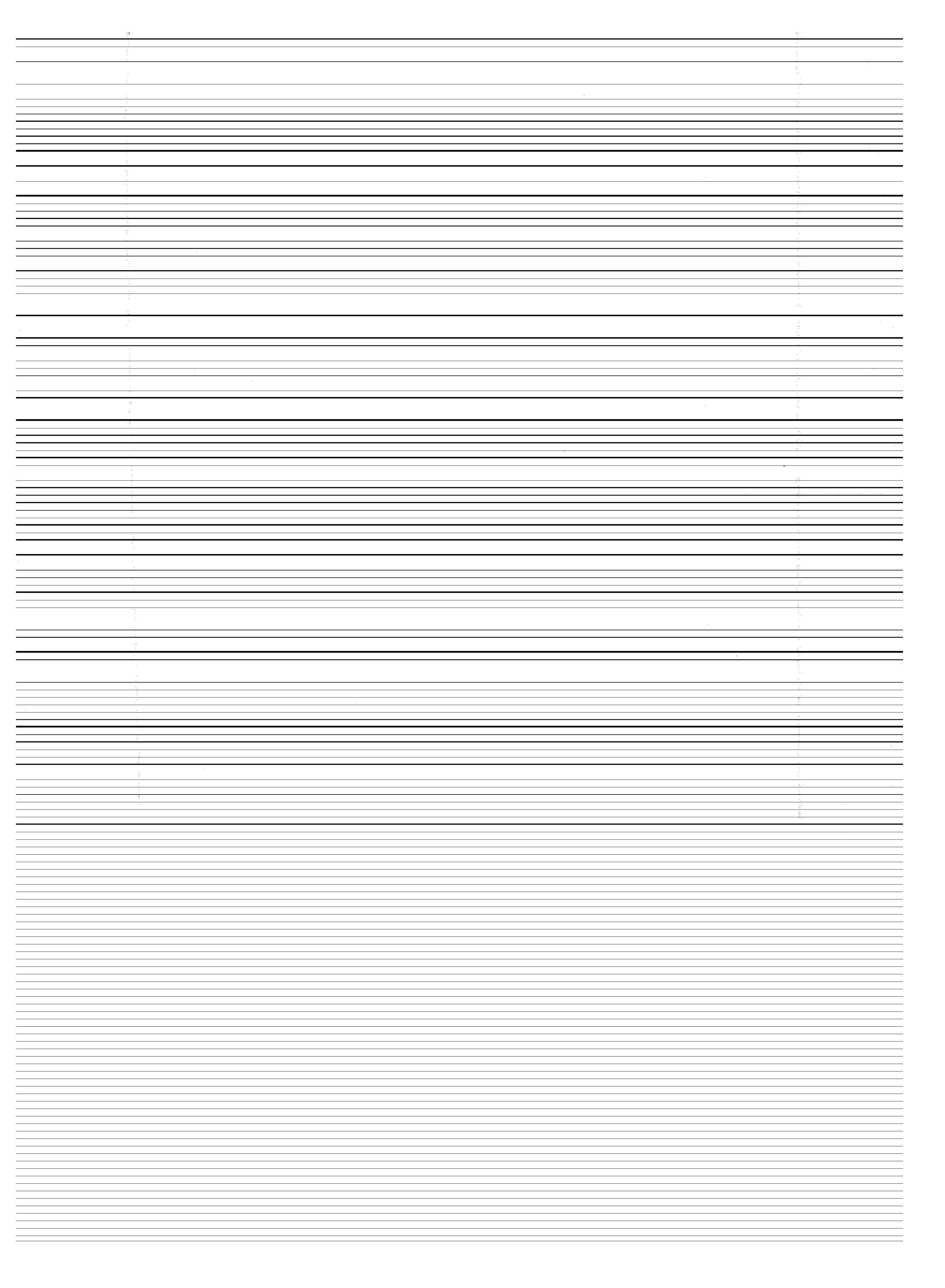
كلا النوعين من الثقافـة جعله الإسلام حقًا للمسلم لا يحجبـه عنه أحد، وجعله واجبًا على الأمة والحكومـة والجماعـات وجمعيـات المجتمع المدنى، كـما جعله واجـبًا على كل مسلم، إذ لا يجوز لمسلم أن يعيش بمعزل عن الثقافة التى تحيط به.

* نحاول فى هذا الباب الـثانى من الكتاب أن نلقى ضوءًا مناسبًـا على هذه القيم ذات الصلة بالعقل والعلم والتربية والثقافة.

ونسأل الله تعالى العون والتوفيق.



الفصل الأول
القيم العقلية



مفهومها ودلالتها:

هى: قيم منسوبة إلى العقل، والعقل هو ما يعقل حقائق الأشياء والعقل هو النفس الناطقة التى يشير إليها كل إنسان بقوله: أنا، وهو مجرد من المادة فى ذاته مقارن لها فى فعله.

وقيل: وهو جوهر روحانى خلقه الله متعلقًا بجسد الإنسان.

وقيل: هو نور فى القلب يعرف الحق من الباطل.

وقال بعض العلماء: العقل والنفس والذهن قوة واحدة:

- إلا أنها سميت عقلاً لأنها مدركة.
- وسميت نفسًا: لكونها متصرفة.
- وسميت ذهنًا.. لكونها مستعدة للإدراك.

* والعقل هو القوة المتهيئة لقبول العلم.

أو هو العلم الذى يستفيده الإنسان بهذا العقل.

* والعقل من أكبر نعم الله على الإنسان فقد جعل العقل أصلاً للدين، وعمادًا للدنيا، وسببًا فى تحمل التكاليف الشرعية، وشرفًا للإنسان على سائر مخلوقات الله تعالى، بل هو سبب فى استفادة الإنسان من الدين والدنيا، ولولاه لما أفاد الإنسان شيئا فى دنياه وأخراه.

* والتكاليف الشرعية عقائد وعبادات وأخلاقًا ومعاملات جعلها الله تعالى قسمين:

- قسمًا وجب بالعقل، أى من أجل سلامته وكماله، ثم جاء الشرع فأقره بل أكده.
- وقسمًا جاز فى العقل، لسلامته أيضا، فجاء الشرع فأوجبه بعد أن أقره.

* روى البيهقى بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما اكتنز المرء مثل عقل يهدى صاحبه إلى هُدى، أو يرده عن رَدَى»**.

فتلك من أهم وظائف العقل التى جاء بها الشرع.

* وروى الطبرانى فى الأوسط بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله»**.

فاستقامة الإنسان على دينه شرطها استقامة عقله، وهكذا يخدم العقل صاحبه.

* وروى أحمـد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحَسَبه خُلُقه».

والمرءوة هى كمال الرجولية، وهى آداب نفسية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.

وذكر القرطبى فى تفسيره قال: روى عن النبى ﷺ أن رجلا قال: يا رسول الله ما أعقل فلانا النصـرانى! فقال: «مَهْ إن الكافـر لا عقل له، أمـا سمعت قـول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

* وروى الحكيم الترمذى أبو عبد الله بإسناده عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ زجر الرجل، ثم قال: «مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله».

١- تنوع العقل وسماته:

أولا: نوعا العقل:

يرى عدد كبير من العلماء أن العقل نوعان:

- عقل غريزى.

- وعقل مكتسب.

أ- فالعقل الغريزى: هو العلم بالمدركات الضرورية.

وهذا العقل الغريزى قسمان:

أحـدهما: مـا وقع بإدراك الحـواس مـثل: المرئيات والأصـوات والطعـوم، والروائح، والأجـسام، فـتلك المدركـات تدرك بالحـواس الخاصـة بهـا كالعـين والأذن والذوق، والشم، واللمس.

والآخر: ما كان مبتـدأ فى النفوس مثل: العلم بأن الشىء لا يخلو من وجود أو عدم، وإن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم، وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين.

ب- والعقل المكتسب: هو نتيجة للعـقل الغريزى، وهو نهاية المعرفة، وصحـة السياسة وإصابة الفكرة.

ثانيا: سمات العقل:

- أنه ينمو بكثرة الاستعمال، إذا لم يصادمه ما يصده من هوى أو شهوة.
- وأن فرط الذكاء وحسن الفطنة قد ينميان العقل.
- وأن سرعة الفهم وإصابة الحكم، بل إصابة ما يتوهم من علامات العقل ودلائله.

* وللعقل مراتب عديدة تختلف باختلاف العلماء الذين تحدثوا عن العقل، ولن نستقصى أقوالهم كلها وإنما نكتفى منهم بنماذج على النحو التالى:

أ- على مستوى الدراسات الفلسفية القديمة:

- العقل المادى «الهيولى» القابل للإدراك قبولاً محضًا، ويمكن أن يسمى: العقل بالقوة أو بالفطرة، ويسمى الفطرى.
- والعقل المكتسب: أى المعرفة الأولية المستمدة من أفعال التعليم والتلقين المتنوع، ويسمى العقل المستفاد.
- والعقل بالفعل: أى اكتساب المعرفة والقدرة على استعمالها دون تعلمها مرة ثانية.
- والعقل الظاهر: وهو مرتبة فعلية العقل الفعال أى صدوره من ذاته إلى العقل المستفاد.
- والعقل القدسى: كما يرى بعض الغلاة، وهو فى مرتبة المعرفة المطلقة، أو كما قال بعض الذين فسدت عقيدتهم هو مرتبة «تأله الإنسان».

ب- وعلى مستوى الدراسات الفلسفية الوسيطة:

- العقل الفطرى أى بالملكة.
- والعقل المكتسب أى المستفاد.
- والعقل بالقوة.
- والعقل بالفعل.
- والعقل النظرى.
- والعقل العملى.
- والعقل الظاهر.
- والعقل القدسى.

جـ- وعلى مستوى الدراسات الفلسفية الحديثة:

- العقل الطبيعى أى الغريزى.
- والعقل التمييزى.
- والعقل النظرى الخالص.
- والعقل التجريبى.
- والعقل الجدلى.
- والعقل التحليلى.
- والعقل الكلى.
- والعقل المطلق.
- والعقل الناظم.
- والعقل المنظوم.

د- وعلى مستوى الدراسات المعرفية الحديثة:

- العقل البدائى أى الوحشى.
- والعقل الأسطورى أى الخرافى.
- والعقل الدينى.
- والعقل العادى أى اليومى.
- والعقل العلمى.
- والعقل الفنى أى الجمالى.
- والعقل الفلسفى «الميتافيزقى».

وبعض الباحثين قالوا: إن العقل هو الإنسان.

* ونستطيع أن نخلص من ذلك كله إلى تحديد واضح للمفهوم العام للعقل بأنه: الملكة التى يناط بها الوازع الأخلاقى، أو المنع عن المحظور.

* ونحن -المسلمين- نعتبر المحظور هو المنكر، وهو ما نهى الله تعالى عنه على وجه التحريم، وأن هذا الذى حرمه الله تعالى أو حظره، لا يتقبله العقل السوى المجرد عن الهوى.

ومعنى ذلك أن نؤكد أن العقل المجرد عن الهوى لا يناقض الشرع، فلو ظهر شيء من التناقض أحيانا كان العيب فى العقل لأنه قد سيطر عليه الهوى.

٣- القيم العقلية والعقل السليم:

القيم العقلية - بناء على ذلك الذى قدمنا- هى القيم التى يهتدى إليها ويرتضيها العقل السليم.

أولاً: علامات سلامة العقل:

وسلامة العقل تعنى صفات تلازمه تدل على سلامته وهذه الصفات عديدة، من أهمها:

أ- الفهم الصحيح:

وهذا الفهم الصحيح هو هيئة للإنسان يتحقق بها معانى ما يحسن وما يَقْبُح، وما يليق وما لا يليق من: القول والصمت، والفعل، والترك.

كما أن الفهم هو قوة الإدراك والتفكير التى تميز بين الخطأ والصواب.

أو هو الإدراك الذى يقوم على الذكاء، أى القدرة على فهم الأشياء والمواقف والأحداث.

- ومما يساعد على الفهم الصحيح:

* قدرة الألفاظ بحسن اختيارها على تحديد المعنى وتوضيحه.

* وقوة التعبير عن المعنى وعمقه وسلامته من الخلل.

* والتكرار لتأكيد المعنى، ولذلك ورد فى السنة النبوية ما رواه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه: كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه ﷺ.

ب- والتصور الصحيح:

وهو صفة ملازمة للعقل السليم، فإن عجز العقل عن التصور الصحيح فلعيب فيه يطعن فى سلامته -كما سنوضح هذه العيوب بعد جمعنا للصفات الدالة على سلامة العقل.

- والتصور الصحيح هو حصول صورة الشىء فى العقل بعد وصفه وصفًا دقيقًا يوضحه ويحدد أبعاده، ويزيل عنه الشبهات ويباعد بينه وبين الغموض.

- والتصور الصحيح للمعنى يكشف عن جزئياته وتفاصيله، ويزيده فى العقل بيانًا وتفسيرًا يكشف عن كل ما فيه مما يجمع سائر صفاته ويمنع مشاركة غيره له فى هذه الصفات والخصائص.

- والتصور الصحيح عمل عقلى يقوم على الإدراك الواعى العميق الملازم للعقل كلما فكر فى شىء ليفهمه.

جـ- وإدراك الوازع الأخلاقى:

- إذ من دلائل سلامة العقل إدراكه لأسباب الوازع الأخلاقى التى أدت إليه.

- وإدراك عواقب الوازع الأخلاقى.

- واتخاذ الأسلوب الملائم للسلوك الأخلاقى.

* والقرآن الكريم يخاطب العقل الذى يدرك الوازع الأخلاقى فى آيات قرآنية عديدة، تشيد بهذا العقل مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤][1].

فالعقل يقوم بإدراك الوازع الأخلاقى، أى قوائم الحسنات والسيئات، والأوامر والنواهى.

د- وإدراك سائر الأمور المحيطة بالإنسان:

فهذا الإدراك من علامات سلامة العقل، وهذا الإدراك عمل يقوم به العقل -بعيدًا عن الوازع الأخلاقى الذى تحدثنا عنه آنفا- فهو إدراك عام ينم عن نضوج العقل وقدراته.

---

(١) ورد مثل هذه الآية فى سور قرآنية عديدة تخاطب هذا العقل منها:
- الآيات من ٢-٤ من سورة الرعد.
- والآيات من ٣-١١ من سورة النحل، والآيات من ٦٥- ٦٧ من سورة النحل أيضا.
- والآيات من: ١٩- ٢٤ من سورة الروم، وغير ذلك من الآيات.

والقرآن الكريم يخاطب هذا العقل، ويحمد له هذا الإدراك فى آيات قرآنية عديدة منها:

- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

- وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]. وغير ذلك من الآيات الكريمة.

هـ- والقدرة على التأمل والتدبر:

وذلك بعد الإدراك، وهذه القدرة على التأمل والتدبر فيما يدركه العقل، دليل على صحة العقل وسلامته.

وهذه العملية من تأمل وتدبر لها أجزاء ثلاثة هى مكوناتها، وهى: التفكير، والتحليل، وإصدار الحكم.

- فالتفكير: إعمال العقل فى الأمر الذى يفكر فيه، وترتيبه وتنظيمه للوصول إلى مجهول، أو إلى حل لإشكال.

- والتحليل: أى فك أجزاء الموضوع وتجزىء المركب منه إلى عناصره الأولية، من أجل الوصول إلى فهم أفضل، وهذا التحليل يمهد للوصول إلى آخر مرحلة من المراحل التى يجرى فيها التحليل ويهيئ للقدرة على إصدار الحكم.

- وإصدار الحكم: ويجىء نتيجة للتفكير والتحليل، وما يلازمهما من تأمل وتدبر وإطالة نظر فى الموضوع.

وإصدار الحكم عمل عظيم القدر والفائدة، إذ يترتب عليه قبول الحسن من الأشياء أو الأمور ورفض القبيح منها.

وهناك صلة وثيقة بين إصدار الحكم، والحكمة، إذ مَنْ استطاع أن يصدر الحكم فقد وصل إلى الحكمة.

و- والقدرة على الوصول إلى الرشد والهُدى:

وتلك غاية أعمال العقل، وأرقى ما يمكن أن يصل إليه، وما يمكن أن يؤديه من وظائف، وذلك أن الرُّشد هو الاهتداء الراشد المستقيم إلى طريق الحق، ولأن الأمر كذلك وصف الله تعالى نبيه إبراهيم وامتن عليه بأن آتاه الرشد قبل النبوة كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٥١، ٥٢]. أى أعطيناه هذا الهدى والرشد قبل النبوة، فوفقناه للنظر والاستدلال عندما جن عليه الليل فرأى النجم ثم القمر، ثم أصبح فرأى الشمس فاستدل على أن هذه المخلوقات على أهميتها تأفل وتغيب، فلا تكون جديرة بأن تكون إلها يعبد.

- والراشد المهدى إلى الحق هو من أعمل عقله فاختار الإيمان، ورفض الكفر، فإن لم يصل إلى ذلك فقد ضل كما ضلت اليهود عندما رأت سبيل الرشد فلم تتخذه سبيلاً، ورأت سبيل الغى فاتخذته سبيلاً، كما تحدث عنهم القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ ..... **وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

- هذا العقل السليم الذى استوفى صفات سلامته من:

الفهم الصحيح، والتصور الصحيح، وإدراك الوازع الأخلاقى وإدراك ما يحيط به، والتأمل والتدبر فيما يدركه، والقدرة على الوصول إلى الهدى والرشد.

ثانيا: العقل السليم فى القرآن الكريم:

- هذا العقل بهذه الصفات وتلك الأعمال، ورد له ذكر فى القرآن الكريم موصوفًا بصفات الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والتذكر، والعلم فى آيات قرآنية عديدة منها:

- قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي**

ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠- ١٣].

فوصف العقل فى هذه الآيات بالتفكر والتعقل والتذكر.

- وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٦- ٨].

فوصف العقل فى هاتين الآيتين بالنظر والتبصر، والتذكر.

ثالثا: نظرة الإسلام إلى العقل السليم وتنقيته من العيوب:

القيم العقلية التى يرتضيها العقل السليم:

ينظر الإسلام فيها إلى العقل نظرة احترام وتقدير، ولهذا يحرص الإسلام على أن يحول بين العقل وبين العيوب التى تقدح فى سلامته فتفسد عمله بل تفسد نفسه، فنهى الإنسان العاقل عن الوقوع فى هذه العيوب القادحة فى العقل، وأشهر هذه العيوب:

- تقليد السابقين.
- والاقتداء بأصحاب السلطة الدينية.
- والخوف من أصحاب السلطة الدنيوية.
- واتباع الهوى والشهوات.

فماذا قال القرآن الكريم عن هذه العيوب؟

العيب الأول:

تقليد السابقين دون تفكير، ودون إنعام نظر وتدبر فيما كان عليه السابقون من خطأ أو ضلال؛ لأن تقليدهم دون تفكير وإنعام نظر وتدبر هو تعضيل للعقل وإلغاء لوظيفته ووقوع فى أسر التقليد.

* والقرآن الكريم يحظر هذا التقليد للسابقين من آباء وأجداد دون تأمل وتدبر، بل القرآن الكريم يوبخ على هذا التقليد، ويحظره وينعى على أصحابه.

قال الله تعالى فى ذلك: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠، ١٧١].

فالآيتان الكريمتان تنعيان على أصحاب هذه العقول تقليد السابقين دون تفكر وتدبر، لأنهم بذلك الموقف يعطلون عقولهم ويحرمونها من أهم وظائفها.

وهذا العيب الأول، المؤدى إلى تعطيل العقل يؤدى إلى الوقوع فى مفاسد وضلالات عديدة، منها:

- التقليل من شأن العقل، والعقل من أكبر نعم الله تعالى على الإنسان، وذلك يحجب العقل عن ممارسة التمييز بين الهدى والضلال، والحسن والقبح، والخير والشر، مع أن الله تعالى أعطى العقل هذه القدرات وأعانه عليها بالشرع، فالتقليد يحرمه من ممارسة هذه القدرات.

- واتخاذ الكسل والتواكل أسلوبًا فى الحياة الدنيا اعتمادًا على ما كان يفعل السابقون، مع أن ما كانوا يفعلونه قد لا يكون صالحًا لأن يفعله اللاحقون -والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم- وقد ظلت البشرية على هذه القاعدة حتى مَنَّ الله عليها بالدين القيم الصالح لكل زمان ومكان.

- وترك الابتكار والإبداع فى شئون الدنيا، مع ذلك من مطالب الإسلام؛ لأن المتدبر فى فقه شريعة الإسلام يجد الإبداع متمثلاً فى أمور تشريعية جوهرية هى:

* المصالح المرسلة.

* وسد الذرائع.

* والإجماع أى اتفاق المجتهدين على أمر من الأمور فى أى عصر من العصور.

والعيب الثانى:

تقليد أصحاب السلطة الدينية، ودون تفكير أو تدبر فيما يمارسون من أعمال، وذلك أن كثيرًا ممن يسمون أنفسهم رجال الدين ويأمرون الناس وينهونهم كأنهم مشرعون؛ فيأتمر الناس بما يأمرونهم به وينتهون عما ينهونهم عنه دون تفكير أو تدبر، فيلغون بذلك عقولهم ويعطلونها.

وآيات القرآن الكريم تنعى عليهم ذلك وتوبخهم عليه، وتنفرهم من هؤلاء الذين يسمون أنفسهم رجال الدين إذ تصفهم بأوصافهم الحقيقية، وهؤلاء هم كثير من الأحبار والرهبان وأبرز ما فيهم صفتان:

- أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل.

- وأنهم يصدون الناس عن سبيل الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ....﴾ [التوبة: ٣٤].

أى أن من استجاب لهم فقد عطل عقله وضل أبعد الضلال.

* وقال جل شأنه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

والأحبار هم: علماء اليهود، والرهبان هم: علماء النصارى.

ومعنى هذه الآية الكريمة أن الناس إذا أطاعوا أصحاب السلطة الدينية دون تفكير وتدبر، ونقد، فقد دخلوا بطاعتهم هذه فى عبادة هؤلاء الأحبار والرهبان واتخاذهم أربابًا.

فقد روى الترمذى بسنده عن عدى بن حاتم الطائى-رضى الله عنه- قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة براءة -التوبة-: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ....﴾ فقال ﷺ: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه».

وفى رواية: «فأطاعوهم؛ فتلك عبادتهم».

والعيب الثالث:

تقليد أصحاب السلطة الدنيوية واتباعهم فيما يطلبون خوفًا منهم ومن بطشهم؛ لأن فى هذا التقليد لهم وفى طاعتهم تعطيلاً لعقول المقلدين بل إلغاء لها.

وأصحاب السلطة الدنيوية -الزمنية كما يسميها بعض الباحثين- منهم المستبدون المتسلطون على الناس المرهبون لهم بما لديهم من سلطات وأعوان، على أن أعوانهم على الظلم إما أن يكونوا منافقين لهم، أو منتفعين أصحاب مصالح فى استمرار هذا التسلط والظلم للناس، وهم دائما أتباع خانعون.

* وتقليد هؤلاء غالبًا ما يكون فى ظلم الناس وأكل حقوقهم أو هضمها، أو التطاول عليهم، وهذا التقليد لأصحاب السلطة الزمنية، ينطوى على محاذير شرعية عديدة، منها:

- أنه تقليد فى الشر، والإضرار بالناس.

- وأنه ظلم حرمه الله بين عباده.

- وأنه عدوان على حقوق الناس فى الأمن.

- وأنه تعطيل لعقول المقلدين.

- وأنه استسلام لسطوة المقلَّدين وخنوع لهم، بينما الأصل أن يقاوم كل ظالم فيحال بينه وبين الظلم.

* والإسلام حرم على المسلم الخنوع للظالم، ودعاه إلى تغيير أى منكر فى المجتمع إذا استطاع ذلك ولو فى أدنى درجات الاستطاعة وهى الإنكار بالقلب، فإن عجز المسلم عن مقاومة المنكر فقد أباح الله تعالى له الهجرة إلى ديار الأمن والحرية وسيادة شريعة الله تعالى، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧- ١٠٠].

والمعنى -والله أعلم- أن المسلم لا يجوز له أن يخضع للظلم وأن يذل للظالم فيطيعه فيما يجلب عليه الهوان وضياع الحقوق، ويقول فى نفسه: إنى مستضعف فى الأرض.

وهذا المعنى هو الذى جعل المسلمين الأوائل فى ظل استبداد قريش بهم فى مكة، يهاجرون إلى الحبشة مرتين...

ثم اعتبرت الهجرة من سيطرة الظالمين مبدأ يلتزم به كل مضطهد من المسلمين، يحال بينه وبين أن يحكم بكتاب الله تعالى ومنهجه ونظامه.

* وقد يقال: إن أصحاب السلطة الزمنية لهم فى الإسلام حق الطاعة، وذاك قول صحيح، لكن طاعة أُولِى الأمر فى الإسلام مقيدة بشروط، أهمها:

– ألا طاعة لولى الأمر فى معصية لله تعالى.

– وأن الحاكم لا سلطان له على العقل والقلب، لأن أضعف إيمان المؤمن أن ينكر بقلبه.

– وعند العجز عن المقاومة للظلم والاستبداد، تُشرع الهجرة إلى أرض الله الواسعة حيث يأمن المسلم على نفسه وعلى دينه.

رابعًا: تحوُّطات الإسلام من أجل سلامة العقل:

وضع المنهج الإسلامى حوافظ وتحوطات من أجل أن يكون العقل سليمًا، ومن أجل أن تكون قيمه سليمة غير متعارضة مع القيم التى جاء بها الإسلام.

ومن هذه الحوافظ والتحوطات:

أ- حرص الإسلام على تزويد العقل بالعلم الموثق والمعرفة الصحيحة، والحكمة البالغة، والخبر الصادق، والعلم النافع، والهدى والنور، كل ذلك موفور فى مصدرى الإسلام الأساسيين الكتاب والسنة، كما يفهم ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [إبراهيم: ١].

وقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾ [الزمر: ٢٣]

وقوله جل شأنه: ﴿**إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٩]

وقوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥]

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة –رضى الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا**».

وروى ابن ماجة بسنده عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله: إن هذه لموعظة مودِّع،

فماذا تعهد إلينا؟ قال: «تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن كان عبدًا حبشيًا، فإنما المؤمن كالجمل الأُنُف حيثما قيد انقاد».

ب- وحث الإسلام العقل على التفكير، والتدبر، وإعادة النظر فيما يفكر فيه؛ لأن هذا من شأنه أن يشحذ العقل ويدربه ويقويه، ويعطيه القدرة على حل المشكلات ومواكبة المتغيرات.

وطريق الإسلام فى ذلك هو السير فى الأرض والتدبر لما يجرى فيها، باستخدام الحواس التى منحها الله تعالى للإنسان، وما لم يفعل الإنسان ذلك فقد أصيب فى قلبه أو فى عقله بالعمى، يفهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن طريق الإسلام فى حث العقول على السير فى الأرض والتدبر فى أمر من كذَّب رسل الله تعالى، فكانت له أسوأ العواقب، يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والآيات القرآنية الداعية إلى السير فى الأرض والتدبر فى شئون الناس -مؤمنين وكافرين- عديدة تبلغ أكثر من خمس وعشرين آية كريمة.

جـ- ودعوة العقل إلى الأخذ بالأدلة والبراهين، واعتبار ذلك زادًا يتزود به العقل فى الحكم على الناس والأحداث والأشياء، لأن ذلك من علامات نضج العقل وتنوره، وفى ذلك رفض للأهواء وما تُجُرُّ إليه من أنواع الضلال لأن اتباع الأهواء جهل أولاً وضلال ثانيًا.

يفهم ذلك من قول الله تعالى مخاطبًا رسوله الخاتم ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝١٩ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ١٨- ٢٠]

- وكما دعا الإسلام العقل إلى الأخذ بالأدلة والبراهين وترك اتباع الأهواء دعاه أيضًا إلى نبذ ما يتوصل إليه بالظنون والأوهام؛ لأن العقل لا يهتدى إلى الحق والصواب، يفهم

ذلك من قول الله تعالى موضحًا ذلك: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٥، ٣٦]

وهناك آيات قرآنية عديدة فى التحذير من الظنون الخادعة فاقت عشرين آية كريمة.

د- وطالب الإسلام الإنسان بأن يُعمل عقله وفق ما يقتضيه التفكير العلمى المنهجى الذى ضرب الله تعالى له أكثر من مثل فى القرآن الكريم، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥- ٧٩].

وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]

- وكما طالب الإسلام العقل باعتماد التفكير العلمى المنهجى سبيلاً للوصول إلى الحق والصواب، رفض رفضًا باتًا الخرافة، والسحر، والكهانة، والعرافة، وغير ذلك من الأساطير التى لو أخذ بها الإنسان لضل عن الحق، وضل سواء السبيل، وأبرز هذه الأمور فى حياة الناس وفى سرعة الأخذ بها: التطير، والتكهن، والسحر، وإتيان العرافين والكهان.

- روى البزار بسنده عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من تَطير أو تُطير له، أو تَكهن أو تُكهن له، أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**» ﷺ.

- وروى الطيالسى[1] -فى مسنده- بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**العرافة أولها ملامة وآخرها ندامة والعذاب يوم القيامة**».

(١) هو: سليمان بن داود بن الجارود -مولى قريش- أبو داود (١٣٣- ٢٠٤هـ) من كبار حفاظ الحديث، سكن البصرة وتوفى بها، مسنده مطبوع جمعه بعض الحفاظ من أهل خراسان.

هـ- وطالب الإسلام العقل بالأمانة العلمية فيما يفكر فيه، وهذه الأمانة العلمية فرع عن الأمانة فى عمومها، والأمانة من أمهات الفضائل، وهى صفة رئيسة فى كل نبى أو رسول من أنبياء الله ورسله عليهم السلام.

* والأمانة العلمية تعنى أمورًا منها:

- أن يتجرد العقل عن الهوى والميل الشخصى وهو يمارس التفكير فى العلم وقضاياه، حتى يستطيع بذلك أن يصل إلى الحقائق العلمية الصحيحة، ولأن اتباع الهوى نقيصة ومذمة، ولقد نعى الله تعالى على الكفار اتباعهم الهوى، فى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: ١٩- ٢٣].

- وأن يتجرد العقل من الأحكام الخرافية أى الالتزام بالتحرى والتدقيق قبل إصدار الحكم على الناس والأحداث والأشياء وهو الخلق الذى عبّر عنه القرآن الكريم بالتبيين مرة وبالتثبت مرة أخرى.

فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ٩٤].

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

- وأن يبتعد عن العجلة والتسرع؛ لأنها مما حذر عنه الإسلام ونهى عنه وهى خلق ذميم يصدر عن الشيطان، والعجلة والتسرع ضد العلم بل ضد العقل.

روى الترمذى بسنده عن سهل بن سعد الساعدى عن أبيه عن جده رضى الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الأناة من الله والعجلة من الشيطان**».

وربما كانت العجلة صفة شائعة من كثير من الناس، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء: ١١].

وكل تلك الصفات العقلية التى أمر بها الإسلام أو التى نهى عن الاتصاف بها لها علاقة وثيقة بالأمانة العلمية، ولها أوثق الصلة بالعقل والعلم والتعلم والتعليم.

و- وأن يتصف العقل بحرية التفكير:

أى أن يتحرر العقل، وتتحرر الإرادة، ويتحرر الاختيار من أى قيود تعطل هذه الحرية، بشرط واحد هو أن لا يضر بنفسه أو بغيره من الناس.

وحرية التفكير قد كفلها الإسلام للعقل من خلال منافذ عديدة نذكر منها:

- فتح باب الاجتهاد للعقل حتى فى الأمور الدينية الشرعية، فى ظل ظروف معينة؛ إجمالها أن يملك المجتهد وسائل الاجتهاد وأن يستجمع شروطه وأهليته.

- وإعطاء العقل الحق فى الاختيار ابتداء من قضية الإيمان والكفر: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ومرورًا بكل موقف يمر به الإنسان فى حياته، فهو حر دائمًا مختار أبدًا، لا تقيد إرادته إلا إن أحدث ضررًا.

- وإعطاء العقل الحق فى الاعتراض والمعارضة، بشرط واحد هو أن يكون الاعتراض والنقد مستهدفًا للحق وللمصلحة العامة.

وكل هذه الحريات للعقل شرعتها آية سورة الكهف التى ذكرنا، وأوضحها حديث الرسول ﷺ الذى رواه أحمد بسنده عن رجال من أصحاب معاذ رضى الله عنه، أن النبى ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: **«كيف تقضى؟»** قال: أقضى بكتاب الله، قال: **«فإن لم يكن فى كتاب الله؟»** قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: **«فإن لم يكن فى سنة رسول الله ﷺ؟»** قال: أجتهد رأيى ولا آلو. قال رسول الله ﷺ: **«الحمد لله الذى وفق رسولَ رسولِ الله»** ﷺ.

ز- وأن تكون الشورى منهجًا وخُلُقًا للمسلم:

الشورى عمل عقلى جعله الإسلام وسيلة لمعرفة الحق والصواب وتبين الباطل والخطأ، وممارستها فى الحياة الإنسانية تجنب الناس الأضرار، وتعصمهم من الاستبداد بالرأى، وتعودهم الاستماع إلى الرأى الآخر، واحترام التفكير والمفكرين.

ومما يؤكد أن الشورى أصل أصيل فى الإسلام أن الله تعالى أمر بها خاتم رسله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿.... فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ...﴾ [آل عمران: ١٥٩] مع أن الرسول ﷺ بما منحه الله تعالى من الوحى وما عصمه به من الخطأ، فى غنى عن مشورة أحد، ولكنه خلق الإسلام وتشريعه ونظامه واحترامه لعقول الناس، فالشورى عمل

عقلى يؤكد مكانة العقل فى الإسلام، ويؤكد قدرته على الاختيار بل حسن الاختيار، مادام هذا العقل لا يفكر ولا يشير بما فيه ضرر للناس.

إن الشورى تعنى أن يكون لكل إنسان الحق فى أن يدلى برأيه، ويشير بما يراه حقًا وصوابًا، وأن يستجيب إذا طُلبت مشورته فيشير بالحق وبالصواب، وبما يؤثره لنفسه، ومن أحاديث الرسول ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المستشار مؤتمن»**.

وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه»**.

وروى القرطبى -فى تفسيره- عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما شقى عبد بمشورة، وما سعد باستغناء رأى»**.

خامسًا: مكانة العقل فى الإسلام:

من احترام الإسلام للعقل وتقديره له أن جعل له مكانة كبرى فى الحياة الدنيا، وشرفه بأن جعله سببًا ومناطًا للتكليف، ولو ذهبنا نحشد آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ الدالة على ذلك، لما وسعتنا صفحات هذا الكتاب لكن نكتفى ببعضها:

أ- من القرآن الكريم:

- قال الله تبارك وتعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهذا النور الذى يشبه الحياة نفسها، والذى يخرج به الإنسان من الظلام إلى النور أى الهدى هو العقل، كما يرى ذلك كثير من مفسرى القرآن الكريم.

وقال بعضهم: إن النور فى الآية الكريمة هو: القرآن الكريم وهو قول راجح، يشهد للعقل ومكانته لأن القرآن الكريم إنما يهدى إلى الحق وإلى التى هى أقوم عند التدبر فى معانى آياته، وهذا التدبر إنما يكون بالعقل.

وقال بعضهم: إن النور فى الآية الكريمة هو: العلم، وإن الظلمة هى الجهل وهو قول صحيح صائب يشهد للعقل أيضًا لأن العلم لا يكتسب إلا بالعقل.

- وقال جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

فأى قيمة للعقل أكبر من ذلك؟ إنه يكشف للإنسان عدوه من صديقه، وتلك من أهم وظائف العقل.

- وقال جل وعلا: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤].

أى أن من آيات الله ودلائل عظمته أن يُرى الناس البرق من خلال السحب؛ ليشعروا بالخوف من الصواعق أو يطمعوا فى المطر الذى يعقبه فتحيا به الأرض بعد أن يبست.

وجعل الله تعالى فى ذلك دلالات لمن يتدبرون فى هذه الظواهر فيفهمونها على وجهها، مادامت لهم عقول تفكر وتتدبر.

ب- من السنة النبوية:

- روى الطبرانى -فى الأوسط- بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أول ما خلق الله العقل، فقال له: أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، ثم قال له: أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثم قال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقًا أكرم علىّ منك، بك آخذ وبك أعطى، وبك أثيب وبك أعاقب»**.

- وروى ابن المحبر[1] بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأيها الناس اعقلوا عن ربكم، وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أُمرتم به وما نهيتم عنه، وأعلموا أنه ينجدكم عند ربكم، واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر، حقير الخطر، دنىء المنزلة رث الهيئة، وأن الجاهل[2] من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر، عظيم الخطر، شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحًا نطوقًا، فالقردة والخنازير أعقل عند الله ممن عصاه، ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا إياهم فإنهم من الخاسرين»**.

---

(١) هو داود بن المحبر بن قحذم بن سليمان بن ذكوان (ت ٢٠٦هـ) من رجال الحديث من أهل البصرة، سكن بغداد ودفن بها، له كتاب «العقل» جمع فيه أحاديث نبوية عن العقل.

(٢) الجاهل فى سياق الحديث الشريف تعنى: غير العاقل.

– وروى البغوى –فى معجم الصحابة– رضى الله عنهم بسنده عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله بم يتفاضل الناس فى الدنيا؟ قال: **«بالعقل»** قلت: وفى الآخرة؟ قال: **«بالعقل»** قلت: أليس إنما يُجزون بأعمالهم؟ فقال: **«يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل؟، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يُجزون»**.

* ومن تشريف الإسلام للعقل، أمور عديدة نذكر منها:

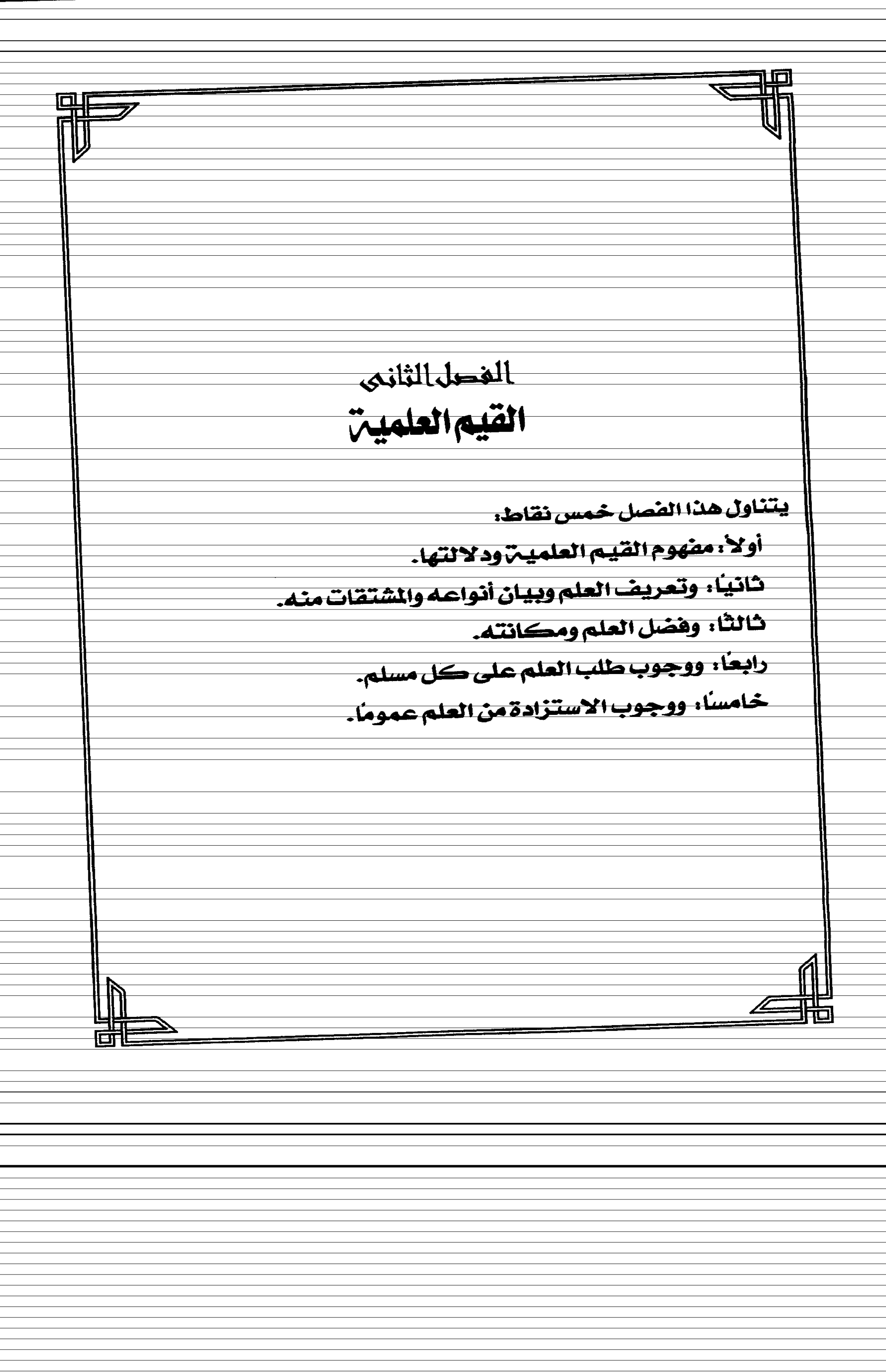
– أن جعل حفظ العقل والمحافظة عليه من مقاصد الشريعة الإسلامية الخمسة وهى: حفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ الدين. وجعل لكل عدوان على هذه المقاصد عقوبة دنيوية رادعة.

– وأن حرَّم كل ما يضر بالعقل من مطعوم أو مشروب أو نحوهما، مادام فى تعاطيهما ضرر للعقل.

– وأن جعل العقل مناطًا للتكليفات الشرعية، ولتحمل المسئولية، إذ بدونه، أو بحدوث خلل فيه تسقط التكاليف وتنعدم المسئولية بل الأهلية مطلقا.

– وأن جعل للعقل حرية التفكير وحرية الاختيار وحرية الاستشارة والمشورة.

– وأن أثنى عليه فى كتابه الكريم، وفى سنة رسوله الخاتم ﷺ، كما ذكرنا فيما سبق من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.



الفصل الثاني

القيم العلمية

يتناول هذا الفصل خمس نقاط:

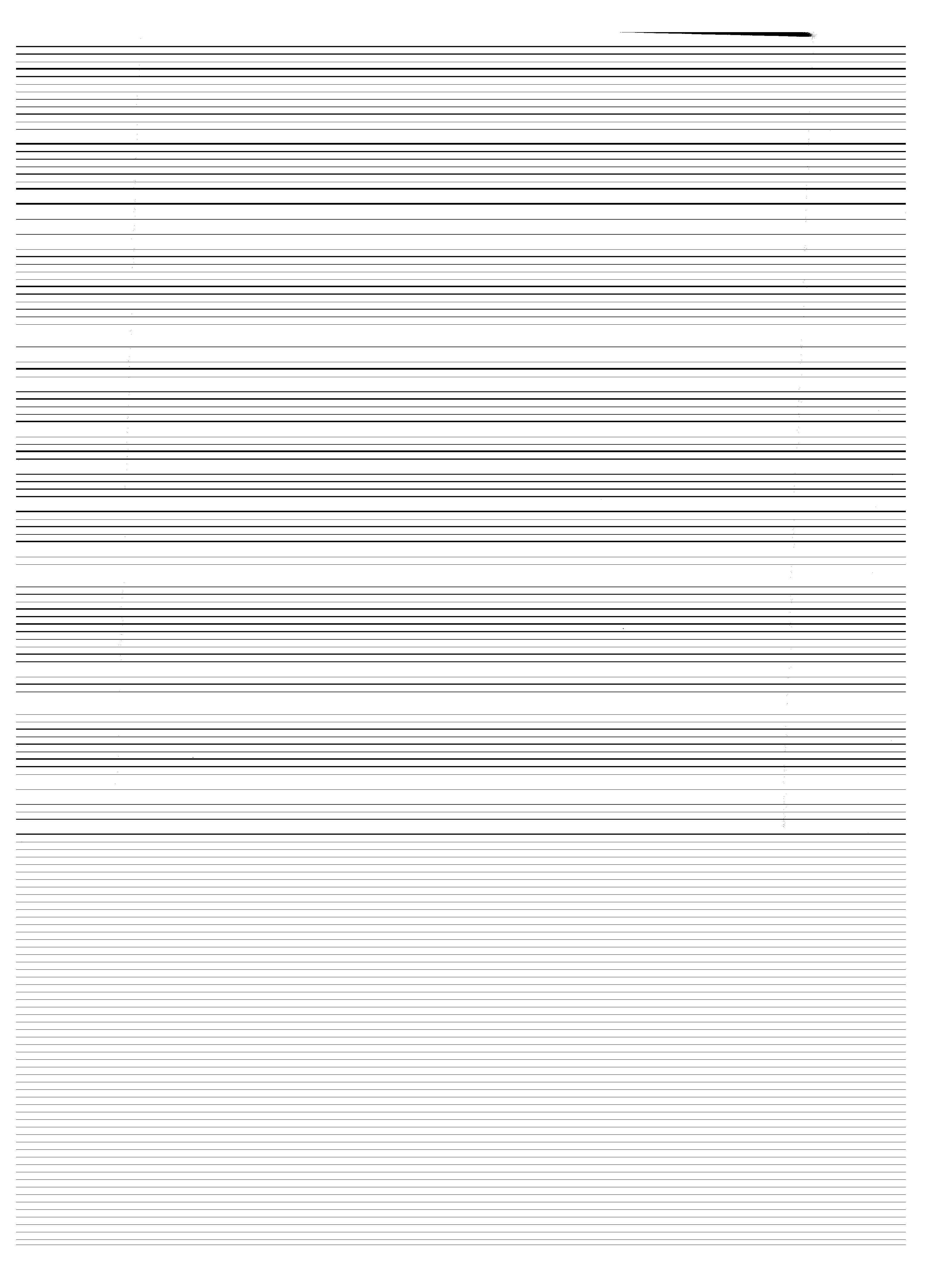
أولاً: مفهوم القيم العلمية ودلالتها.

ثانيًا: وتعريف العلم وبيان أنواعه والمشتقات منه.

ثالثًا: وفضل العلم ومكانته.

رابعًا: ووجوب طلب العلم على كل مسلم.

خامسًا: ووجوب الاستزادة من العلم عمومًا.



أولاً: مفهوم القيم العلمية ودلالتها

هى القيم المنسوبة إلى العلم، أو القيم التى جاء بها العلم أو حث عليها.

والقيم العلمية نتاج العقول السليمة، وترجمة صادقة عن رؤية الحق والصواب، مع الإيمان بهما، وبأهميتهما لحياة الإنسان فى دنياه، وفى آخرته.

* ولهذه القيم العلمية وظائف عديدة منها:

- أنها تكشف عن المحاسن والمساوئ فى الناس وفى الأحداث وفى الأشياء، والفرق بين المحاسن والمساوئ يلحظ بالعقل والعلم، وقد يدرك بالحواس، ولا يساوى بين المحاسن والمساوئ إلا خبيث من الناس يستهدف خلط الحق بالباطل أو جاهل ليس فى قدرته التمييز بين المحسن والمسىء أو بين الجميل والقبيح.
- وأنها تكشف بدقة الفرق بين الغنى والفقر الحقيقيين، دون أن تنخدع بالعرض عن الجوهر، أو الشكل عن الموضوع، أو بكثرة المال عن كرم المعدن، أو بتطاول البنيان عن كرم الأصل وطيب المحتد.
- وأنها تكشف عن الخلل فى ربط بعض الناس بين كثرة المال وقلة العلم، أو بين الفقر والعلم، لأن هذا الربط جهالة وحماقة، لأن الأرزاق لا تجرى على الناس بسبب العلم والعقل، ولكن تجرى عليهم بسبب الجد والحظ، بدليل أن البهائم ترزق وتعيش ولا حظ لها من علم أو عقل، وبدليل أن الجاهل كلما زادت ثروته زاد قبحه وفجاجته.
- وأنها تؤكد لكل عاقل أن التمسك بالقيم العلمية يُعقب للمتمسك بها سعادة فى الدنيا بالرضا بما قسم الله تعالى وقدَّر، وسعادة فى الآخرة بما أعد الله تعالى لأهل العلم من عباده وحسبهم شرفًا وفضلاً أن خشية الله تعالى مقصورة عليهم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال الصالحون من الأسلاف: من لم يستفد بالعلم مالاً استفاد به جمالاً عند الله وعند الناس.

القيم العلمية مفتاح للنهضة والإصلاح للمجتمع الإنسانى، ولذلك أعطى الإسلام للقيم العلمية أهمية كبرى؛ إذ أوجب العلم على المسلم مهما بَعُدَ مكانه ومهما كثرت تكاليفه، بل طالب المسلم بالاستزادة منه، وأعلن على الإنسانية كلها أن الإنسان مهما أوتى من العلم، فليس فى وسعه أن يحصل منه إلا على القليل، وعليه بذل الجهد لكى يستزيد منه دائمًا.

ثانيًا: تعريف العلم وبيان أنواعه والمشتقات منه:

للعلم لدى كل من تصدى لتعريفه أهمية قصوى فى حياة الإنسان، بحيث أجمع العلماء على أنه لولا العلم لما استطاع الإنسان أن يعيش حياته على المستوى الحضارى الذى يطمح إليه.

كما أجمع العلماء بجميع فصائلهم على أن للعلم أثرًا بارزًا فى كل مرافق الحياة الإنسانية فى الزراعة والصناعة والمواصلات والترفيه، وكل ما يحتاج الإنسان إليه فى حياته.

ومن أجل ذلك أصبح العلم -كما سنعرفه- موضوعًا للبحث والدراسة، كما أصبحت الطبيعة التى تحيط بالإنسان موضوعًا للبحث العلمى.

* وقد استهدف العلم الوصول إلى قوانين تمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة وتسخير مفرداتها لصالحه، فأخذ الإنسان يبحث فى الطبيعة باصطناع الافتراض والتجريب والاستنتاج. فكانت حصيلة بحثه هذا هى العلم.

* على أن هناك فرقًا بين العلم وفلسفة العلم ليس هنا مجال الحديث فيه، وإنما نشير إلى أن البحث فى العلم ذاته باصطناع التحليل المنطقى يعتبر فلسفة للعلم، أى أن فلسفة العلم هى نظرية العلم أو التحليل المنطقى له.

ولنشرع فى تعريف العلم:

أ- تعريف العلم عند الفلاسفة وعلماء الأخلاق وفى الإسلام:

للعلم تعريفات عديدة لدى الحكماء -الفلاسفة- ولدى علماء الأخلاق وعلماء الاجتماع، وله تعريف إسلامى نابع من آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة، ونحن نذكر من هذه التعريفات:

* **العلم لدى الحكماء (الفلاسفة):**

- العلم هو: حصول صورة الشىء فى العقل.
- أو هو: صفة راسخة فى الإنسان يدرك بها الكليات والجزئيات.
- أو هو: وصول النفس إلى معنى الشىء.
- أو هو: إضافة مخصوصة بين العاقل والمعقول.

- وليست فلسفة العلم جزءًا من العلم، ولا تدخل فى ميدان المعرفة العلمية.

- أو هو: المعرفة التى تتألف من قضايا عامة مترابطة منطقيًا، أى تؤلف نسقًا منطقيًا بمعنى أن مجموعة من الحجارة لا تكوِّن دارًا إلا إذا نظمت ونسقت وفق خطة معينة، فلذلك مجموعة المعارف لا تكوِّن علمًا إلا إذا نظمت ونسقت وفق خطة معينة.

- أو هو: السبيل إلى الوصول إلى الحقيقة، فى حين أن الفلسفة هى تحليل النتائج التى توصل إليها العلم وتفسير معانيها.

*** والعلم عند علماء الأخلاق:**

- هو: العلم بالخير والشر.

- أو هو: علم السجايا والطبائع.

- أو هو: المنظومة المنهجية التى تشتمل على تصور نظرى عند الإنسان والعالم، كما تشتمل على مبادئ أساسية تحكم بها على أنماط السلوك والأخلاق، مادامت الأخلاق منظومة قواعد السلوك، إذ هى علم عملى معيارى.

والعلم عندهم: ليس معرفة صادرة بصورة مطلقة، ولا يمكن أن يفيد اليقين فى معرفة الأشياء، وإنما هو فرضيات قابلة للتكذيب والدحض.

- وأبرز أنواع العلم -عند علماء الأخلاق- نوعان:

* علوم صورية يدخل تحتها المنطق والرياضيات من حساب وجبر وهندسة وتحليل، وعلوم اختبارية كالفيزياء والكيمياء وعلم النفس.

ويفرقون بين الصورى من العلوم والاختبارى منها: بأن الصورى من العلوم يخلو من المحتوى الواقعى بينما الاختبارى منها يقوم على المحتوى الواقعى.

*** وأما التعريف الإسلامى العام للعلم ففيه أقوال عديدة منها:**

- العلم هو: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.

- أو هو: زوال الخفاء من المعلوم.

- أو هو: إدراك الشىء بحقيقته.

- أو هو: أن يجعل الله تعالى فى الإنسان قوة ينطق بها ويضع أسماء الأشياء، ويفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

- أو هو: مجموع المعارف التى وصل إليها الإنسان خلال تاريخه فى هذه الدنيا سواء ما كان من هذه المعارف نظريًا أو فلسفيًا، أو عمليًا تجريبيًا، حتى ليصح أن يقال: إن تاريخ العلم هو تاريخ الإنسان أو المجتمع البشرى.
- أو هو: حصيلة أو ثمرة لما تمارسه الإنسانية من أعمال اجتماعية متشابكة فى مجالات العلم العديدة، بل هو منجزاتها فى هذه المجالات.
- أو هو: معرفة القوانين الخاصة بحركة الأشياء عمومًا فى مجال خاص من مجالات الوجود الطبيعى أو الإنسانى.

ب- بيان أنواع العلم:

للعلم أنواع كثيرة نذكر منها:

- العلم العقلى: وهو ما لا يؤخذ من الغير.
- والعلم السمعى: وهو ما جاء به الوحى من الله تعالى على لسان نبى من أنبيائه عليهم السلام.. يسمى: العلم الإلهى.
- والعلم الانفعالى وهو: ما يؤخذ من الغير.
- والعلم الانطباعى وهو: حصول العلم بالشىء بعد حصول صورته فى الذهن، ولذلك يسمى علمًا خصوصيًا.
- والعلم الحضورى وهو: حصول العلم بالشىء بدون حصول صورته فى الذهن كعلم الإنسان بنفسه.
- والعلم الاستدلالى وهو: ما يحصل للإنسان دون نظر وتفكر، وقيل هو: الذى لا يكون تحصيله مقدرًا للعبد.
- والعلم الاكتسابى وهو: الذى يحصل بمباشرة الأسباب.
- وهناك نوع من العلم يخص الله تعالى به أولياءه كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ...﴾ [الجن: ٢٦].
- والعلم فى عمومه نوعان:

أحدهما: نظرى وهو: ما إذا علم فقد كمُل، كالعلم بموجودات العالم.

والآخر: عملى وهو: ما لا يتم إلا بأن يُعمل وينفَّذ كالعلم بالعبادات.

جـ- المشتقات من كلمة العلم:

اشتق من هذه الكلمة عدد من المشتقات نذكر منها:

- العالِم: وهو المتقن للشىء.
- والمعلوم: وهو الشىء المعروف المفهوم.
- والعلامة: وهى السمة، وتسمى الأعلومة.
- وعالَمه: أى باراه ونافسه فى العلم.
- وتعالم الرجل: أى تظاهر بالعلم وادعاه.
- وتعالَم الناس الخير: أى علموه وعرفوه.
- والتعلم وهو: تنبه النفس لتصور المعانى.
- والتعليم وهو: تنبيه الغير لتصور المعانى، واختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر فى نفس المتعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١، ٢] وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥]. وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وما يستوى عالم وجاهل إذ منع الله من المساواة بينهما، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، بل إن الله تعالى نفى أن يكون غير العالم عاقلاً، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿ ...... وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وأهم أنواع العلم وأفضلها علم الدين، لأن الناس يعرفون به عبادة الله تعالى وما فرضه عليهم وما ندبهم إليه وما نهاهم عنه، ويلى هذا النوع من العلم سائر العلوم وتُرتب حسب احتياج الناس إليها فى معادهم ومعاشهم، سلمهم وحربهم.

ولم يُجز الإسلام جهل أى علم نافع، بل أوجبه على سبيل فرض الكفاية الذى إن فعلته طائفة من المسلمين سقط إثم جهله عن الباقين.

* ومما شاع الحديث عنه فى عصرنا هذا -وهو مشتق من العلم- «العلمانية» وهى مفهوم سياسى اجتماعى استحدث فى عصر النهضة الأوروبية، ويعنى عندهم: رفض سيطرة الكنيسة على الدولة وهيمنتها عليها وعلى المجتمع ونظمه.

أى رفض تنظيم الدين للحياة الاجتماعية والسياسية والإصرار على فصل الدين عن الدولة، وحصر الدين فى علاقة الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى.

* وأكثر الناس ضررًا بالعلمانية هم المسلمون الذين اتخذوها نظامًا فصلوا به الدين عن تنظيم الحياة الدنيا، منخدعين بما نادى به الأوروبيون فى ثورتهم على اعتساف رجال الدين المسيحى والكنيسة بحياة الناس، مع أن الإسلام ليس له كنيسة ولا رجال دين ولا يجيز لأحد مهما يكن وزنه فى المجتمع أن يقهر أحدًا، ولا يشهر أمامه سيف الحرمان ولا صك الغفران، ولا منح ألقاب النبلاء والأمراء كما كان يحدث من الكنيسة فى ذلك الزمان.

ثالثًا: فضل العلم ومكانته

العلم فى الإسلام قيمة عليا ذات أهمية بالغة فى بناء الثقافة والحضارة والحياة الإنسانية كلها.

وما قامت الحضارة الإسلامية التى أثْرَتْ الدنيا إلا على دعامتين: الإيمان بالله تعالى أى بسائر مفردات الإيمان والعلم بسائر أنواع العلم، وستظل هذه الحضارة تعطى وتثرى مادامت قائمة على الإيمان، والعلم بوصفها إسلامية تنتمى إلى هذا الدين الخاتم الذى أكمله الله تعالى وأتمه ورضيه للناس دينًا ونظامًا ومنهجًا وطريقًا.

* إن العلم قيمة إسلامية باذخة تقوم عليها الحضارة الإنسانية التى أقامها المسلمون على هدى من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن أجل ذلك لا يجيز الإسلام فى تشريعاته ونظمه التسوية بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل، لما للعلم والعلماء من مكانة رفيعة عند الله تعالى عبرت عنها آيات القرآن الكريم وكلمات ومواقف من السنة النبوية الشريفة، فمَن ذلك:

أ- من آيات القرآن الكريم:

- قول الله تعالى: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الزمر: ٩] أى لا يجوز التسوية بينهما.
- وقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...** ﴾ [فاطر: ٢٨]. أى: إن العلماء أقدر على معرفة ما أمر الله تعالى به، وعلى الالتزام به، وأقدر على معرفة ما نهى الله تعالى عنه، وعلى اجتنابه، وتلك هى خشية الله تعالى.
- وقوله جل شأنه: ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

والآيات القرآنية فى تفضيل العلم والعلماء عديدة.

ب- من السنة النبوية المطهرة:

- ومما جاء في السنة النبوية من تفضيل العلم والعلماء، وجعل طلب العلم والحصول عليه فريضة على بعض المسلمين، مهما تعبوا فى تحصيله، ومهما بعد المكان الذى يطلب فيه:
- ما رواه ابن ماجة بسنده عن أنس -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**».

وفى رواية أخرى عن أنس -رضى الله عنه-قال: قال رسول الله ﷺ: **«اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»**.

- وروى الحافظ المنذرى فى كتابه: الترغيب والترهيب بسنده عن أبى الدرداء -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سَهَّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولادرهمًا، ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**.

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقه جارية، أوعلم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**.

والعلم الذى ينتفع به علم عام يتناول ما له علاقة بالدين والخلق، وماله علاقة بحياة الإنسان على هذه الأرض يسخر ما فيها بعلمه، ويفيد مما تزخر به الأرض والسماء استجابة لأمر الله تعالى بالسعى فى الأرض والمشى فى مناكبها، وطلب العلم بل الازدياد منه، والمضى فى طريقه التى لا تنتهى، بل إن الإنسان كلما وصل إلى مرحلة من العلم، وجد قول الله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥] يحفزه على المزيد من العلم.

والأحاديث النبوية فى فضل العلم والعلماء عديدة، بل إن بعض العلماء ألفوا فى ذلك كتبًا جَمَعَتْ الأحاديث النبوية فى فضل العلم والعلماء[1].

جـ- الإسلام والعلم:

* والعلم الذى يفضله الإسلام ويجعل طلبه فريضة مهما بعد مكان طلبه أو زمان طلبه هو العلم بمعناه العام الشامل الذى يقوم على منهج ونظام وبحث وتحليل واختبار، واستنتاج، العلم الذى يبدأ بعلوم الدين، ويشمل علوم الحياة الإنسانية كلها، والعلم الذى يتناول كل عناصر المعرفة، وهى عناصر منضبطة منظمة مترابطة تستهدف صالح الإنسان فى دنياه وآخرته، العلم الذى جناه الإنسان فى مراحل تاريخه الطويل على هذه الأرض، سواء منه ما كان نظريًا أو عمليًا أو تقنيًا.

---

(١) من تلك الكتب الجامعة كتاب: «جامع بيان العلم وفضله» للإمام المحدّث أبى عمر يوسف بن عبدالبر المتوفى سنة ٤٦٣. طبع أكثر من مرة والطبعة التى بيدنا هى طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- دون تاريخ للطبعة.

والمجتمع البشرى كله -فى تحصيل العلم- سواء؛ لأن جوهر العلم وهدفه هو حرص الإنسان على اختيار الأفكار اختياراً موضوعيًا دقيقًا خاضعًا للتجارب العملية المباشرة، ويستوى فى تحقيق هذا الهدف والخضوع لتلك التجارب سائر العلوم مثل:

- الفيزياء بكل فروعها.
- والكيمياء بكل ما تشتمل عليه.
- وعلوم الأحياء مثل:

العلوم التى تتصل بالإنسان جسده وصحته ومرضه وعلاجه، والعلوم التى تتصل بالحيوان.

والعلوم التى تتصل بالنبات.

وعلوم الأرض وما على سطحها وما فى باطنها.

وعلوم الفلك.

وعلوم الفضاء.

وعلوم الاجتماع البشرى.

وعلوم النفس الإنسانية.

وعلوم البدن الإنسانى وما يتصل به.

والعلوم التى تتصل بالأعمال الأدبية، والفنية، والجمالية، ومالا أحصى من علوم تعود على الإنسان بما يصلح دينه، وما يطور حياته ويرقيها ويجعلها أكثر عطاء، وأليق بما أنعم الله به على الإنسان من كرامة وتكريم.

* ومن تفضيل الإسلام للعلم وتقديره له أن أزال من طريقه كل العوائق والعقبات التى تعترض الباحث فيه، المتعمق فى دراسته، ما نشير إلى بعضه فيما يلى:

- الجمود الفكرى، ورفض الجديد لكونه جديدًا.
- والتعلق بما كان عليه الآباء تعلقًا يصرف عن الحق.
- والأخذ بالأحكام المطلقة التى غالبًا ما تكون جزافية.
- والجزم أو القطع فى إصدار الأحكام، لأن من دُرَر تراثنا عند علمائنا قولهم: «لا يجزم إلا الجاهل».

- والتعميم فى إصدار الأحكام؛ لأن لكل قاعدة شواذّ تخرج عنها، وذلك تكذيب للتعميم.
- والتسرع أو ترك التثبت فى إجراء خطوات البحث.
- والتأكد من سلامة كل مفردة من مفردات إجراء التجارب.
- وتجاوز منهجية البحث وموضوعيته، فضلا عن نسيان ذلك أو تجاهله.
- وتجاهل اختبار صحة النتائج.
- والتسرع فى الوصول إلى النتائج.

وغير ذلك من العقبات التى إن وقفت فى طريق البحث العلمى حدَّتْ من حريته وحركته، ونجاحه.

* ومن تفضيل الإسلام للعلم وتقديره إياه، أن أحاطه بأدب يخصه وينبغى أن يكون من خلقياته وأدبياته، وهى صفات يجب أن يتخلق بها كل عالم وكل باحث فى أى مجال من مجالات العلم، وأهمها:

- اعتبار طلب العلم والبحث فيه والتعمق فى دراسته؛ عبادة لله تعالى لأنه سبحانه أمر به أو ندب إليه وحبب فيه.
- والتواضع بترك الغرور والتعالم.
- ومجانبة إعجاب المرء بنفسه.
- واعتبار العلم فى خدمة الإنسان، ولتحقيق مصالحه الدنيوية والأخروية.
- والاستفادة من علوم السابقين والإضافة إليها.
- والتخلص -عند إجراء البحث العلمى- من سيطرة أفكار السابقين لكيلا تُلهى العالِم عن الابتكار والإبداع.
- واجتناب الهوى والميل الشخصى، لما فى ذلك من تنكر للحياد وللموضوعية.
- وترك التهجم على المنافسين من العلماء أو الانتقاص من أعمالهم.
- وتَلَقِّى الرأى الآخر دون امتعاض ودراسته، وتقويمه بحياد وموضوعية.
- وتقوى الله تعالى فى كل خطوات البحث العلمى، وتحرى الدقة والأمانة العلمية.

* هذا هو العلم بمعناه الشامل، الذى أزال الإسلام من طريقه العقبات، وألزم العلماء بأخلاقيات الإسلام وقيمه وهم يمارسون العلم نظريًا وعمليًا وتطبيقًا وتقنيةً.

- هذا هو العلم الذى دعا الإسلام إلى الاستزادة منه كل طلعة شمس ليكون المسلم دائمًا عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا للعلم أو مُحبًا له وللعلماء، لقوله تعالى: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٤] ولما روى ابن عبدالبر بسنده عن أبى بكر -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ: **«اغدُ عالمًا، أو متعلمًا، أو مستمعًا، أو مُحبًا، ولا تكن الخامسة فتهلك».**

قال ابن عبد البر: «الخامسة التى فيها الهلاك، معاداةُ العلماء وبغضهم، ومن لم يحبهم فقد أبغضهم أو قارب ذلك وفيه الهلاك، والله أعلم»[(١)].

- هذا المفهوم الرحب الشامل للعلم هو الذى دعا الإسلام إلى طلبه بل أوجبه فى بعض الأحيان، وعلى بعض المسلمين، وهو الذى وردتْ فيه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التى ذكرناها آنفا والتى سنذكر بعضها فى حينه، وبخاصة فى النقطة الثالثة من هذا الفصل بإذن الله تعالى.

- هذا المفهوم الواسع للعلم يتناول علوم الدين كلها وعلوم الدنيا جميعها، وبهذا المفهوم انطلق علماء المسلمين يبحثون ويدرسون ويجرِّبون فى مختلف مجالات العلم، غير متجاهلين لما سبقهم إليه غيرهم من العلماء مطوِّرين ومجددين ومبتكرين، حتى كان لهم قصب السبق وكانت لهم أقدام راسخة فى أرقى العلوم فى كل عصر عاشوا فيه، وبخاصة فى القرون التى كانوا فيها متمسكين بدينهم حريصين على تطبيقه، ولقد سجل لهم هذا السَّبْقَ العلمى كثيرٌ من غير المسلمين من العلماء.

- ومن نافلة الكلام وتكراره أن نقول: إن النهضة العلمية فى أوربا -فى عصرها الزاهر- قد أفادت من العلم الذى وصل إليه علماء المسلمين فى مجالات عديدة من العلم، كما اعترف بذلك كثير من علماء الغرب، مما أصبح من الحقائق التاريخية التى لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر، فضلاً عن أن يكون حاقدًا على الإسلام والمسلمين.

---

(١) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله: ١/ ٣٠ ط بيروت لبنان- دار الكتب العلمية.

رابعًا: وجوب طلب العلم على كل مسلم

مِنْ تكامل منهج الإسلام ونظامه أنْ جعل طلب العلم، والتعمق فيه، واجبًا شرعيًا على كل مسلم قادر على ذلك[١]؛ لأن منهج الإسلام ونظامه يقوم على إلزام كل مسلم بأن يعمر الأرض التى استخلفه الله تعالى، ومنحه العقل والقدرة على التعلم وتحصيل العلم، وأعانه على إعمار الأرض بالرسل عليهم السلام، وما آتاهم الله تعالى من مناهج ونظم.

ومِنْ اهتمام الإسلام بالعلم واعتباره أصلاً وأساسًا فى حياة الإنسان على هذه الأرض، أنْ حارب الجهل ورفضه ورآه عيبًا وخللاً فى صاحبه، ورآه سببًا من أسباب الوقوع فى الأخطاء الكبيرة كالطيش والنزق وسوء التصرف، والإسراع فى الخروج على منهج الله تعالى ونظامه، إذ الجهل دائما قرين الغفلة والضلال والعمى عن الحق وإنكاره وجحده.

والتعلّم مع العلم يزيل كل أسباب الجهل ونتائجه، ويمهد للإنسان طريق الإيمان، ويعلمه وسائل إعمار الأرض والاستفادة مما أودع الله تعالى فيها من النعم الظاهرة والباطنة؛ لأن الإنسان بغير العلم لا يستطيع إعمار الأرض ولا ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة التى هيأ الله تعالى له أن يحياها.

* من أجل ذلك أوجب الإسلام العلم على كل مسلم، بل فرضه فرضًا، والفرض أقوى وآكد من الواجب، لأن الفرض هو ما ثبت بدليل قطعى لا شبهة فيه، بينما الواجب هو ما ثبت بدليل فيه شبهة[٢].

* والعلم الذى فرضه الإسلام قسمان:

الأول: فرض عين؛ وهو كل ما يلزم أداؤه على كل واحد من المسلمين -إلا غير المستطيع لعاهة أو نحوها- ولا يسقط فرض العين لأنه متعين بذاته، ومثاله:

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ومثل السير فى الأرض لأخذ العبرة والتدبر والعلم، وقد أمر الله تعالى بالسير فى الأرض فى سبعة مواضع أمرًا صريحًا يستهدف معرفة عواقب المكذبين. وهذه الآيات الكريمة هى:

---

(١) الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على ذلك عديدة، ذكرنا كثيرًا منها فيما سبق من هذا الكتاب وسنذكر كثيرًا منها فيما سيأتى من أبوابه وفصوله بإذن الله تعالى.

(٢) ويترتب على ذلك أن تارك الفرض كافر معاقب على تركه، بينما تارك الواجب غير كافر، وإنما هو عاصٍ يستحق العقاب على تركه.

١- الآية رقم ١١ من سورة الأنعام.

٢- والآية رقم ٣٦ من سورة النحل.

٣- والآية رقم ٤٧ من سورة الكهف.

٤- والآية رقم ٦٩ من سورة النمل.

٥- والآية رقم ٢٠ من سورة العنكبوت.

٦- والآية رقم ٤٢ من سورة الروم.

٧- والآية رقم ١٨ من سورة سبأ.

والآخر: فرض كفاية، وهو ما وجب على الأمة كلها لكن إذا فعله بعضها سقط عن الباقين، وأمثلته:

صلاة الجنازة، والجهاد، ونحوهما.

* وإنما كان التعلم والعلم من فرائض الإسلام لما جاء الأمر به فى الكتاب -على نحو ما بينا- وفى السنة- كما سنذكر بعد قليل -ولأسباب عقلية عديدة نذكر منها:

١- أن العلم هو سبب المعرفة الحقيقية الصحيحة لله تعالى ولطاعته، والحصول على رضاه.

٢- ولأنه سبب الاعتبار والاتعاظ بالاستفادة من تاريخ السابقين، وأخذ العبرة منه، ويكون ذلك بالسير فى الأرض كما أمر الله تعالى.

٣- ولأن العلم هو الأساس الصحيح الذى تقوم عليه الحياة الإنسانية وتزدهر، وتحقق للناس الأمن والاستقرار فى المجتمع الذى يعيشون فيه.

٤- ولأن العلم يشحذ العقل وينميه، ويفتح أمامه الأبواب المغلقة فى كل مجالات الحياة، ويمكنه من التفكير المنظم الذى يعينه على حل مشكلات الحياة.

٥- ولأن العلم يحرر العقول والقلوب من الأوهام والخرافات والأساطير، وكل ما يعوق العقل عن النظر والتدبر والفهم الصحيح لكل ما يحيط به.

٦- ولأن العلم والبحوث والدراسات المتصلة به تدرب العقل على المرونة واتساع الرؤية، وتحول بينه وبين الجمود الفكرى، والنظرة الضيقة، وحرج الصدر، ورفض الرأى المخالف، لأنه رأى مخالف فقط.

٧- ولأن العلم هو الذى يشجع العقل على قبول الحق مهما كان مكانه أو زمانه أو القائل به، وهو الذى يحمله على نبذ الباطل مهما كانت ظروفه والملابسات المحيطة به.

٨- ولأن العلم يعين الإنسان على ضبط سلوكه، وربطه بالقيم الخلقية المنضبطة مع ما أمر الله به، وما نهى عنه سبحانه وتعالى.

٩- ولأن العلم أحد أسباب خشية الله تعالى، بل أهم هذه الأسباب، ومن خشى الله تعالى كان مع الحق والعدل وسائر القيم الرفيعة، وقد أخبر الله تعالى بذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾ [فاطر: ٢٨].

١٠- ولأن العلم وسيلة إلى تنظيم الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بكل ما فيها من فروع وتفصيلات.

١١- ولأن العلم سبب من أسباب الصحة العقلية والنفسية والجسدية والاجتماعية والخلقية.

١٢- ولأن العلم غذاء القلب والعقل والروح، ومعامل أمان لهم فى مواجهة أى قصور أو فتور أو انصراف عن الأداء الجيد لوظائف القلب والعقل والروح.

١٣- ولأنه العمل الذى لا ينقطع أثره وفائدته حتى بعد موت العلم، مادام قد خلَّف وراءه علمًا نافعًا.

١٤- ولأنه يرفع من شأن صاحبه فيجعله إن كان من الموحدين لله العابدين له فى مصاف الأنبياء، بل يجعله متقدمًا فى الدرجة عن الشهداء الذين ماتوا فى سبيل الله تعالى.

١٥- ولأن العلم علامة على أن صاحبه موضع حب الله وعنايته وإرادته الخير له فى دينه ودنياه.

١٦- ولأن العلم وطلبه عبادة لله تعالى، بل إنها تفضل كثيرًا من أنواع العبادات.

١٧- ولأن العالم موضع رضا رسول الله ﷺ بل موضع دعائه وموضع دعاء الملائكة، ودعاء كل شىء حتى الحيتان فى البحر.

١٨- ولأن العلم ومدارسته طريق من طرق التوصل إلى الحق والتعرف إليه، بل التعلق به، بل التضحية فى سبيله.

١٩- ولأنه أنجع الوسائل فى نشر الدين الحق والدعوة إليه والإقناع به.

٢٠- ولأن العلم دليل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ونبراسهم وهداهم.

٢١- ولأن العلم مساند للجهاد فى سبيل الله من خلال تطويره وتجديده لآليات الجهاد المادية والمعنوية.

٢٢- ولأن العلم سبب من أسباب تحقيق النصر فى كل المعارك من أجل الحق، ابتداء بالمناقشة والحوار، وانتهاء بالقتال.

٢٣- ولأنه يمهد للحركة بهذا الدين الحق الخاتم فى الناس والآفاق؛ إذ ييسر للحركة الإسلامية ورجالها وسائط الاتصال بالناس والانتقال إليهم حيث يكونون.

٢٤- ولأن العلم ييسر لرجال الدعوة إلى الله تعالى، والحركة بدينه ومنهجه ونظامه، الوصول إلى التنظيم الأمثل لجهود الدعاة وأعمالهم فيساعدهم على تحقيق أهدافهم.

٢٥- ولأن العلم عنصر رئيس من عناصر الوصول إلى تمكين دين الله فى الأرض، لإقامة دولة الإيمان بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر.

٢٦- ولأن العلم تطوير وتجديد لأساليب الحكم وأدواته، لكى يأمن الناس على حاضرهم ويطمئنوا إلى مايستقبلون من الأيام.

٢٧- وبالعلم تتيسر جميع أسباب الأمن للناس جميعًا، وبه يتقرر أن رجال الأمن ساهرون على تحقيق أمن الناس ومصالحهم، وليسوا قوة قهر لهم لصالح حاكم ظالم أو مستبد غاشم.

٢٨- وبالعلم تضع الأمة برامجها الصحيحة فى كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية الكريمة، وتخرج الأمة من دائرة الارتجال أو وضع برامج غير متفقة مع القيم الإسلامية الثابتة الراسخة المستمرة مهما تغير الزمان والمكان.

٢٩- وبالعلم تتأصل فى المجتمع دعائم نجاحه الأساسية كالعدل والشورى والالتزام بأداء الواجبات، وممارسة الحقوق، والجدية فى العمل.

٣٠- ولأن العلم الذى يمكن المجتمع المسلم الذى وصل إلى تمكين دين الله فى أرضه ونظامه، يمكنه من المحافظة على هذا التمكين، بمقاومة عوامل الفساد والانحلال فى مفردات الحكم والنظام.

* لهذه الأسباب وغيرها مما لم تذكر، أوجب الإسلام طلب العلم على كل مسلم، بل جعله فرضًا عليه، فرض عين أحيانًا أو فرض كفاية، وطالب الإسلام كل مسلم بأن يسعى فى طلب العلم مهما كلفه ذلك من جهد وعناء، بل جعل تعليم الناس وتمكينهم من الحصول على العلم ومن التفوق فيه وتسخيره لخدمة المجتمع واجب الحكومة وكل قادر على الإسهام فى التمكن من العلم، لأن بالعلم ترقى الحياة الإنسانية، وبه يتمكن الإنسان من الحياة الكريمة التى أرادها الله تعالى للإنسان.

* الأدلة الشرعية على وجوب طلب العلم كثيرة فى الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، وسنذكر منها هنا ما تسمح به هذه الصفحات، ومن ذلك: خمس آيات من القرآن الكريم، وخمسة أحاديث نبوية، والله المستعان:

أ- آيات من القرآن الكريم:

- قال الله تعالى: ﴿... **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ [فاطر: ٢٨].

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [سبأ: ٦].

- وقال عز وجل: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩].

- وقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

- وقال جل وعلا: ﴿**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**...﴾ [النساء: ١٦٢].

ب- والأحاديث النبوية الشريفة، منها:

- روى ابن عبدالبرّ- بسنده فى كتابه: «جامع بيان العلم وفضله»: عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم، وطالب العلم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر**».

- وروى البيهقى -فى شعب الإيمان- بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم**».

– وروى البيهقى –فى الشعب– بسنده عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس؛ فإنى امرؤ مقبوض، وإن العلم سيُقْبَض حتى يختلف الرجلان فى الفريضة لا يجدان من يخبرهما بها**».

عن أنس –رضى الله عنه–قال: قال رسول الله ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم والله يحب إغاثة اللهفان**».

– وروى البيهقى بسنده –فى الشعب بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علما سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإنه ليستغفر له دوَابّ البَرّ، حتى الحيتان فى البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على الكواكب، وإن العلماء ورَثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يدَعوا ديناراً ولا درهمًا، ولكن ورَّثوا العلم؛ فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر**».

خامسًا: وجوب الاستزادة من العلم فى عمومه

لا يشك مؤمن فى أن القرآن الكريم قانون الحياة الإنسانية كلها، وأن ما جاء به مما فسَّره الرسول الخاتم ﷺ فى سنته هو السياسة الكاملة الضامنة لإصلاح أحوال كل من اتبعه فى الدنيا والآخرة إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

ومع نزول القرآن بهذا الشمول على الرسول الخاتم ﷺ؛ فإن الله تعالى أمر رسوله الخاتم الذى علمه ما لم يكن يعلم بأن يستزيد من العلم، فقال له: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤]

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد بسنديهما عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «**اللهم زدنى إيمانًا وفقهًا ويقينًا وعلمًا**».

وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم انفعنى بما علمتنى، وعلمنى ما ينفعنى، وزدنى علمًا، والحمد لله على كل حال**».

وهذه الآية الكريمة وهذان الحديثان الشريفان دليل وجوب الاستزادة من العلم بالإضافة إلى ما سنقدم من أدلة فى هذه الصفحات إذا أذن الله تعالى وأعان.

* العلم بمعناه العام بحر واسع، حتى إنه لاتساعه لا سواحل له، وإذا كان العلم لا سواحل له بل حدود وأبعاد معروفة فإن العبادة لله تعالى بما افترض علينا وما ندبنا إليه لا سبيل إلى تحديد غايتها ومداها، والعبادة من مفردات العلم، ومثل العبادة -وهى علم- سائر مفردات الشريعة؛ التى تنظم شئون الحياة الدنيا بكل ما فيها.

ومعنى ذلك أن العلم بمعناه الواسع يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا، أى يشمل ما تصح به العقيدة وما تسلم به العبادة، وما تستقيم به حياة الإنسان، وحياة الإنسان فى جوانبها المتغيرة ترتبط بعدد كبير من الأسس والدعائم التى تقوم عليها فى كل عصر من العصور وفى كل مصر من الأمصار مثل:

- ما يطرأ على الناس من تطور وتغير فى مجتمعاتهم ونظمها التى يجب أن تتواءم مع مصالح الإنسان فى دينه ودنياه.
- وما يطرأ على العلم فى نظرياته من تجديد وتحسين وتعمق وكشف وابتكار.

- وما يطرأ على العلم فى تطبيقاته وتقنياته، وتوفيره للآليات وتسخيره لكل آلية منها لكى تكون فى خدمة الإنسان.

- وحاجات الإنسان إلى الاستفادة من تقنيات العلم وتطبيقاته فى المجالات الحيوية فى حياة الإنسان، مثل:

* التربية علومها وتطبيقاتها وأهدافها ووسائلها ومؤسساتها.

* والإعلام الصادق الشفاف بوصفه حقًا للمواطن وواجبًا على كل من يملك وسيلة من وسائله.

* والزراعة والصناعة وما طرأ عليهما من تطور، وما يجب أن يكونا عليه من قدرة على الاستجابة لمطالب الحياة الإنسانية الكريمة التى أوجبها الله تعالى للإنسان.

* وعلوم البحار والمياه العذبة، ومدى ما يمكن أن يقدمه العلم للإنسان فى هذه الميادين.

* وعلوم الأرض وما يتفرع عنها.

* وعلوم الفضاء وما يتصل بها من علوم.

* وعلوم الفلك.

* وعلوم الكيمياء، نظرياتها وتطبيقاتها.

* وعلوم الفيزياء بأنواعها العديدة.

* وعلوم الرياضيات وما يتصل بها من علوم أخرى.

* وعلوم الهندسة وعلوم الطب وعلوم الاقتصاد، وعلوم السياسة.

* وعلوم الحيوان، وعلوم البيطرة، وما يتفرع عنها.

* وعلوم النبات، وفروعها.

وغير ذلك من العلوم التى لا أستطيع إحصاءها هنا، وهى جميعًا موظفة لخدمة الإنسان وتحسين حياته وإشباع حاجاته الأساسية، وتحقيق نفعه فى دنياه وآخرته.

- العلم بمعناه هو ما ذكرنا وأكثر مما ذكرنا، وكل ذلك العلم طولب المسلم بأن يتعمق فيه نظريا وعمليا، وطولب بأن يستزيد منه.

- ومما يؤكد وجوب الاستزادة من العلم عند الحاجة إليه -والحاجة إليه حاجة مستمرة على طول عمر الإنسان- ومما يؤكد وجوب الاستزادة من العلم إجماع علماء المسلمين فى كل عصر على: من العِلْم فرضٌ متعين على كل أحد فى خاصته بنفسه، ومن العلم: ما هو فرض على الكفاية إذا قام به مَنْ تتحقق بقيامه به الكفاية سقط فرضه على من لم يقم به.

ومعنى ذلك أن العلم مطلوب على كل حال، وما كان مطلوبًا دائمًا فإن الاستزادة منه لازمة للمسلم ليكون على علم بأمور دينه ودنياه.

- والمعنى الجامع المانع للعلم، والميعار الذى يقاس به صحيحه من سقيمه هو: أن يجلب للناس المصالح فى دينهم ودنياهم وأن يدفع عنهم الضرر فى دينهم ودنياهم كذلك.

وهذا المعنى للعلم الذى يتناول علم الدين والدنيا هو المعنى الحقيقى للعلم فى الإسلام، وكل حصر لمعنى العلم فى جانب من معناه دون جانب، تقوم ضده نصوص إسلامية صحيحة من الكتاب والسنة أولا، ثم تقوم ضده أدلة عقلية ومنطقية نابعة من المفهوم الصحيح له.

أما النصوص الإسلامية الدالة على ذلك، فمنها:

* من آيات القرآن الكريم:

- قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

وقد أمر الله تعالى بالسير فى الأرض للنظر والعلم والمعرفة وأخذ العبرة والعظة، وما ذلك إلا دعوة للعلم بمعناه الواسع الذى أشرنا إليه[١].

والسير فى الأرض يستوجب علمًا وعملا واتعاظًا.

- وقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

---

(١) ذكرنا فى الصفحات السابقة من الكتاب ست آيات غير هذه الآية الكريمة فى سور الأنعام، والنحل، والكهف، والنمل، والعنكبوت، والروم، وسبأ.

- وقوله جل شأنه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]

- وقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]

* فهذه الآيات الكريمة وأمثالها تدل على أن العلم معنى عامٌّ، وأن الإنسان مطالب بالسير فى الأرض للحصول على العلم بالتأمل والنظر وأخذ العبرة والعظة من حياة السابقين حتى يتبين له ما يمكنه من تكوين حصيلة من العلم والمعرفة تصلحه عقلاً وقلبًا وسلوكًا لينطلق بهذا العلم يعمر الأرض، ويفيد مما أودع الله فيها من نِعَم؛ لأن العلم مفتاح لكل ذلك وهو الطريق الموصلة إليه.

* وإعمار الأرض عمل جليل القدر إنسانيًا، ومرتبط تمامًا بمدى ما يستطيع أن يصل إليه الإنسان من علم وتقنية لتأمين حاضره ومستقبله، وتوفير حاجاته الإنسانية على النحو الذى يحقق له الكرامة التى قضى الله تعالى له بها.

وحاجات الإنسان فى هذه الدنيا كثيرة تبدأ بمعرفة الله تعالى وعبادته، وتستمر مواكبة لحياة الإنسان ومستجيبة لما يلزمه من زراعة وصناعة، وتعدين، ومياه، وطاقة، ونحو ذلك مما لا حصر له من الحاجات، ولن يصل الإنسان إلى ذلك إلا بالعلم.

* وهذا العلم الذى يصل بالإنسان إلى عبادة ربه سبحانه وتعالى، وإلى ممارسة حياته الإنسانية الكريمة له خصائص وسمات كثيرة.. ليس هنا مجال شرحها وتفصيلها، وإنما هى الإشارة الدالة، ومن هذه السمات والخصائص لهذا العلم الذى طالب به الإسلام وجعله باباً لإعمار العقل والقلب والأرض:

- أنه يجلب للناس المصالح ويدرأ عنهم المفاسد.

- وأنه العلم الذى يقوم على الملاحظة والتجربة والسَّيْر فى الأرض والتدبُّر.

- وأنه العلم الذى يقوم على التفكير العلمى، المشتمل على دقة المفاهيم، وعلى التقسيم والتصنيف، والموضوعية، واختبار الصدق وثباته.

- وأنه العلم الذى يمهد السبيل للعمل والإخلاص والتضحية من أجله ومن أجل السعى فى طريقه.

- وأنه العلم العام الذى لا ينحصر فى نوع معين منه، كما دلَّ على ذلك كلام النبى ﷺ، فقد روى البيهقى بسنده عن أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعلموا العلم وعلموه الناس»** فلم يحدد نوعًا من العلم، وإنما ترك هذا التحديد وذلك التفسير للمجتهدين من المسلمين فى كل عصر يفسرونه بمعناه العام فى عصرهم.

- وأنه العلم الذى يظل بابه مفتوحا إلى يوم القيامة لايجوز أن يغلقه أحد؛ لأن المسلم مهما وصل فى مجال العلم الذى يطلبه ويبحث فيه، فإنه يعتقد أنه ما أوتى منه إلا القليل، لأن الله تعالى قال مخاطبًا كل الناس:

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

*** ومن الأحاديث النبوية الدالة على عموم العلم:**

- ما رواه البيهقى بسنده عن عمرو بن العاص -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة حكمة، يزيده الله بها هدًى أو يرده عن ردى»**.

- وما رواه ابن عبدالبر -فى كتابه جامع بيان العلم وفضله- بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ غدا لعلم يتعلمه، سَهَّل الله طريقًا إلى الجنة..»**.

- وما رواه ابن عبدالبر -فى كتابه السابق ذكره- بسنده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ طلبَ علمًا فأدركه كتب الله عز وجل له كِفْلَيْن من الأجر، ومن طلب علمًا فلم يدركه كان له كفل من الأجر»**.

* وجميع أنواع العلم الدينى والدنيوى يهدى إلى الإيمان بالله تعالى؛ إذا أخلص طالب العلم فى علمه؛ وذلك أن العلماء فى أى مجال من مجالات العلم أقرب إلى الاهتداء إلى الإيمان بالله تعالى، بل إن كثيرًا منهم هداهم علمهم إلى ذلك الإيمان، مع أنهم لم يكونوا من قبل من المؤمنين.

- إن العالم فى معمله ومع مختبراته وآلياته أقرب إلى الاهتداء إلى الإيمان بالله تعالى وبقدرته سبحانه، وبعظيم خلقه، وتدبيره لهذه المخلوقات، ممَّن لا يمارس العلم ولا يعانى فى بحوثه ودراساته، ومعامله ومختبراته، فإذا آمن هذا العالم بالله تعالى، فإن إيمانه يكون

أقوى وأشد رسوخًا[١]. وفى تأكيد أهمية العلم والعلماء وتأييد أن العلم يهدى إلى الحق والإيمان، ما رواه ابن عبدالبر -فى كتابه: جامع بيان العلم وفضله- بسنده عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعلَّموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سُبُل أهل الجنة، وهو الأنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدِّث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزَّين عند الأخلاء؛ يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تُقْتَصُّ آثارهم ويُقْتَدَى بأفعالهم، ويُنْتَهَى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البرّ وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار منَ الظُّلَم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العُلَى فى الدنيا والآخرة، التفكُّر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، هو إمام العمل والعمل تابعه، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء»**[٢].

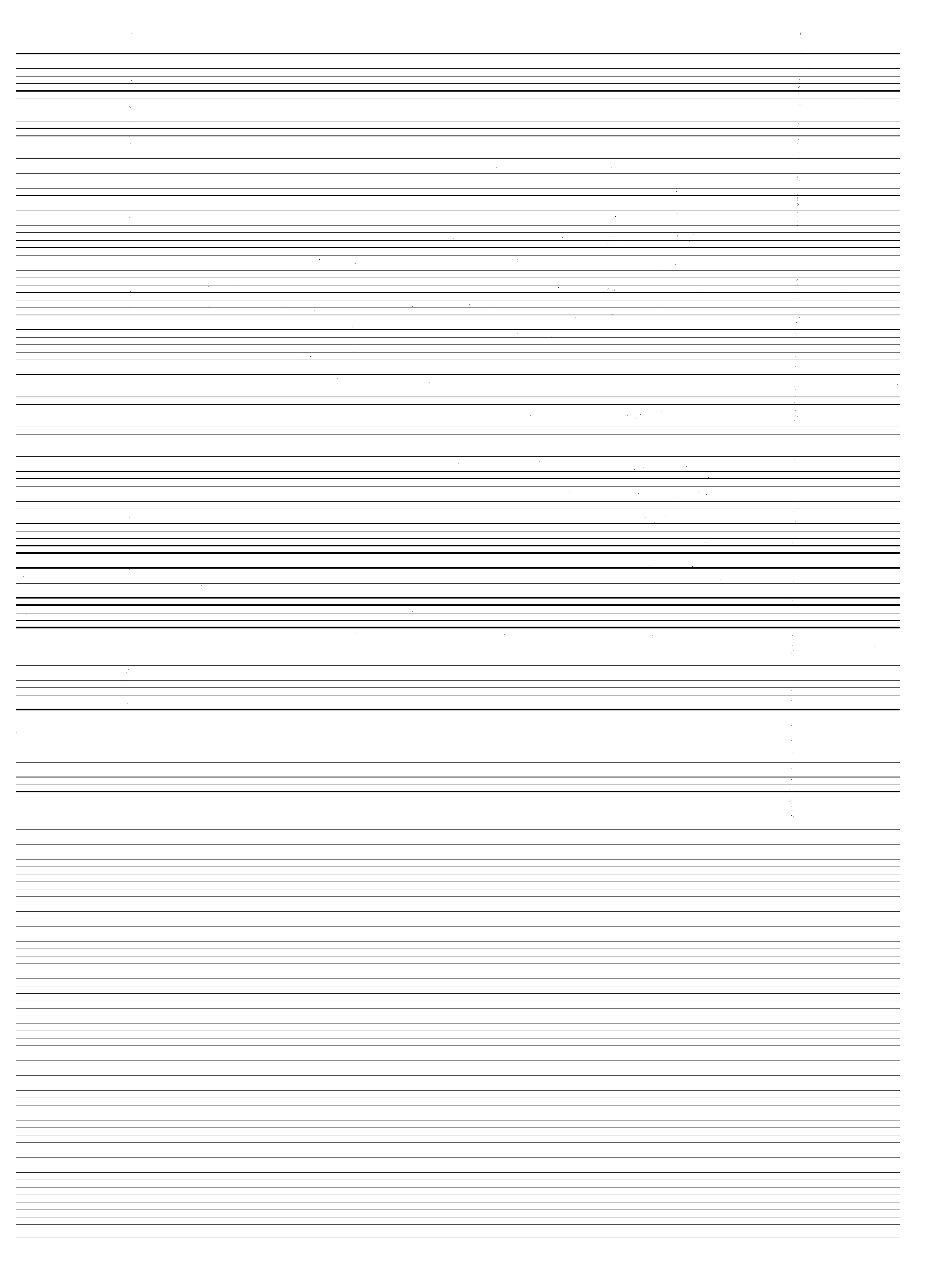
- وروى ابن عبد البر بسنده عن أنس -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«... إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل»**.

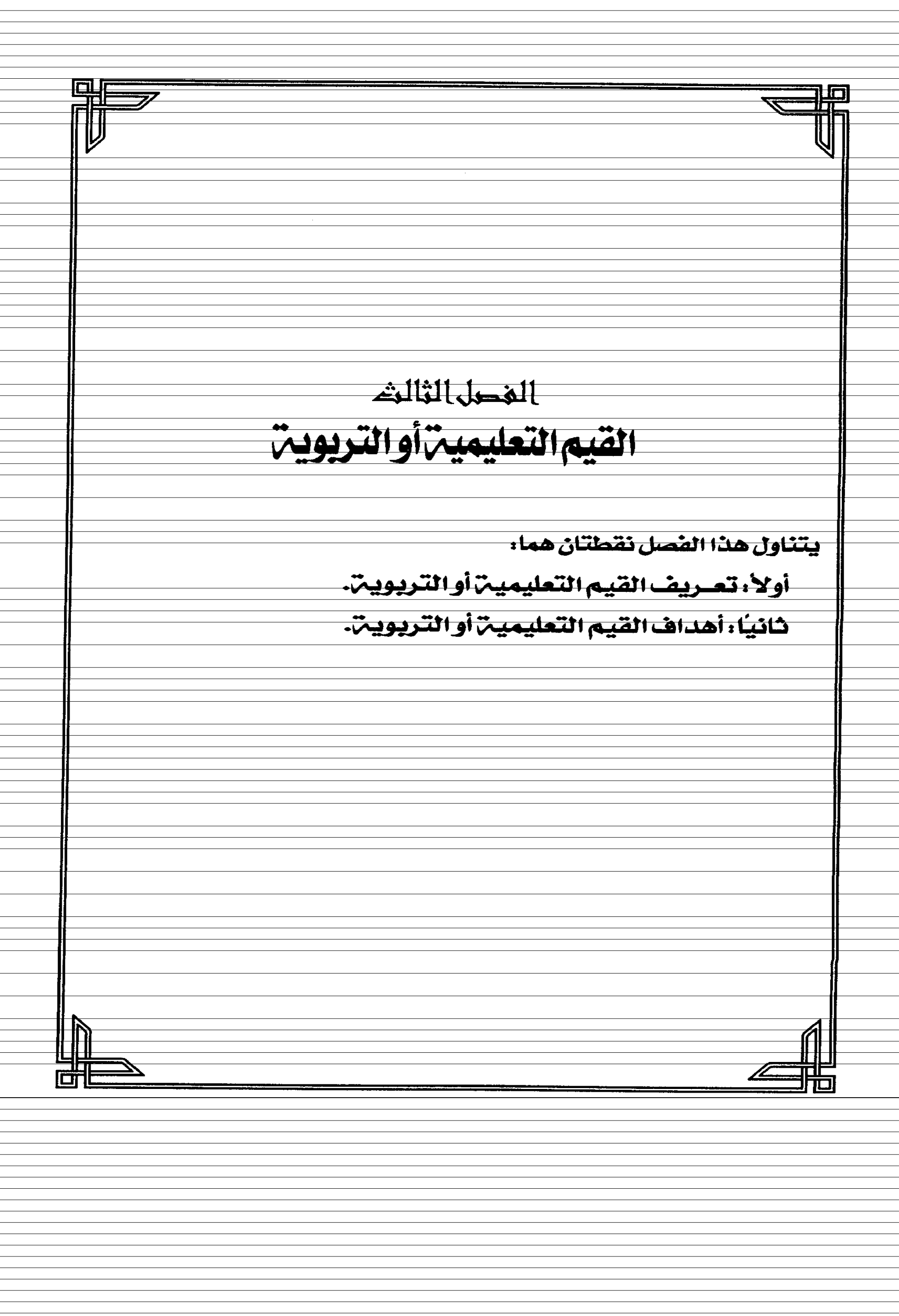
وبعد: فتلك هى القيم العلمية فى الإسلام، وهى مكملة ومتممة لمنظومة القيم الإسلامية التى تحكم حياة المسلمين فى الدنيا فى كل شعبة من شعبها العديدة، وتحل لهم كل إشكال يؤدى إليه بعدهم عن هذه القيم وضعف تمسكهم بها؛ لأن الأصل فى المسلمين أن يأخذوا بهذه القيم بقوة أى بعزيمة وجدّ، لأنها نابعة من كتابه الخاتم ومن سنة نبيه الخاتم ﷺ، كما أن الأخذ بهذه القيم بقوة يجلب لهم المصالح ويدفع عنهم المفاسد فى الدنيا والآخرة.

---

(١) لو شئنا أن نسرد بيانًا بأسماء بعض العلماء الذين هداهم علمهم ومعاملهم ومختبراتهم إلى الإيمان بالله تعالى لاتسع بنا الحديث إلى ما يخرج عن موضوع «وجوب الاستزادة من العلم فى عمومه»، بل لقد أُلِّفَتْ فى ذلك كتب بأقلام عديد ممن هداهم العلم إلى الإيمان بالله تعالى، مثل:
- محمد أسد «ليوبولدفايس» فى أكثر من كتاب له مثل: الطريق إلى الإسلام وكتاب الإسلام على مفترق الطرق.
- ومن المعاصرين: «هوفمان» الألمانى، و«جارودى» الفرنسى وغيرهما.
- وكثير غيرهما.
- ومن الكتب المعروفة فى ذلك المجال: لماذا أنا مسلم؟ وكتاب: لماذا أسلمنا؟ وغيرهما.

(٢) قال ابن عبد البّر: هكذا حدثنيه أبو عبد الله عبيد بن محمد رحمه الله مرفوعا بالإسناد المذكور، وهو حديث حسن جدا، ولكن ليس له إسناد قوى.





الفصل الثالث

القيم التعليمية أو التربوية

يتناول هذا الفصل نقطتان هما:

أولاً: تعـريف القيم التعليمية أو التربوية.

ثانيًا: أهداف القيم التعليمية أو التربوية.

القيم التعليمية أو التربوية

هى القيم المنسوبة إلى التعليم أو إلى التربية، مع ما بين الكلمتين من فرق لا نعتد به فيما نحن بصدده من الحديث عن القيم التعليمية أو التربوية فى الإسلام.

ولنبدأ فى شرح هذه النقاط الثلاث، والله المستعان.

أولا: تعريف القيم التعليمية أو التربوية

* تعريفنا للكلمتين ليس تعريفا نظرياً؛ لأن التعريف النظرى مثير للجدل لأنه يدعو إلى قبول نظرية معينة بشأن المعرَّف، والنظريات دائمًا موضع جدل، ونحن لا نريد أن نثير جدلا بين الناس حول الفرق بين التعليم والتربية، أو بين القيم التعليمية والقيم التربوية.

* كما أننا لا نتعمد التعريف الإقناعى للكلمتين، لأن هذا التعريف الإقناعى يؤثر فى المواقف، فيحول الإنسان من موقف إلى آخر بحشد الأدلة والبراهين، لأن الأمر عندنا أهون من أى فروق بين الكلمتين.

* وإنما نعرف الكلمتين لإزالة الالتباس والتفسير والتوضيح الذى يدل على المعنى المقصود من كل منهما، مما يزيل عنهما الغموض، ويحدد خواص كل منهما.

- فالقيم التعليمية هى القيم والمبادئ والأصول التى يتمسك بها المعلِّم وهو ينقل المعلومات والخبرات إلى المتعلّم، بقصد إكسابه ضروبًا من المعرفة والعلم والعمل، وكل ذلك يسهم فى تربية المتعلم، فالتعليم إذن يستهدف التربية ويعد جزءاً منها، فهو بهذا المعنى أخص من التربية وأضيق نطاقًا منها.

- والقيم التربوية هى القيم التى يلجأ إليها المربى ليسهم بها فى تنمية المتربى وتوجيه قواه وسلوكه، وتهذيب أخلاقه ضمن نظام اجتماعى يحدد الأثر الفعال للأسرة والمسجد، والمدرسة والمجتمع بكل مؤسساته، فى تنمية المتربى من النواحى الجسدية والروحية والعقلية والخلقية، ليتمكن بذلك من أن يحيا حياة إنسانية سَوِية يتكيف فيها مع مفردات الحضارة التى تحيط به.

- وإذا كانت الأسرة والمسجد والمدرسة ومؤسسات المجتمع تقوم بنقل المعلومات إلى المتعلم، فذلك تعليم يحمل بين طياته تربية؛ ومن هذا المنطلق يحق لنا أن نقول: إن

التعليم تربية لجوانب معينة من شخصية الإنسان، كما يحق لنا أن نقول: إن كل تربية تتضمن نوعًا من التعليم، فالتداخل بين التعليم والتربية قائم لا محالة، والقيم التى تحكم التعليم والتربية قيم متقاربة ومتشابهة وتسقى بماء واحد.

– ونؤكد أنه لا طائل من الإصرار على الفصل بين التعليم والتربية إلا عند بعض الباحثين الذين بهرهم لفظ التربية لما حُمِّل من دلالات رأوا أن التعليم لا يحملها.

– ولنا –بعد ذلك – أن نقول: القيم التعليمية أو القيم التربوية دون قصور أو تقصير فى فهم الكلمتين، والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

*** خصائص القيم التعليمية أو التربوية فى الإسلام:**

تلك الخصائص كثيرة نذكر منها:

أولا: أن تكون هذه القيم كلها نابعة من كتاب الله تعالى ومن سنة رسول الله ﷺ وسيرته، وهدى صحابته رضوان الله عليهم.

ثانيا: أن تؤكد هذه القيم أن هدف الإنسان فى حياته الدنيا هو عبادة الله تعالى وفق ما شرع على لسان رسوله ﷺ.

ثالثا: أن تستهدف هذه القيم فى الإنسان المسلم تحقيق كل ما يصل الإنسان بربه سبحانه وتعالى، من:

– صحة عقيدته فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقضاء والقدر، والإيمان بالغيب.

– وسلامة عبادته بحيث تكون كما شرع الله تعالى، وما أوحى به إلى رسوله الخاتم ﷺ.

– وطاعة الله تعالى فى كل ما أمر، وكل ما نهى عنه، وهو سبحانه لا يأمر إلا بما فيه خير الإنسان فى دنياه وآخرته، ولا نهى إلا عما يلحق بالإنسان ضررًا أو شرًا فى دنياه وآخرته.

– وولاء المسلم الله ولرسوله وللمؤمنين، واتباع سبيل المؤمنين، لا يحيد عن ذلك مهما تكن الشدائد والأهوال إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

- واستعداده للتضحية فى سبيل دينه، والدفاع ضد كل عدو مهما كلفه ذلك، فإن مات فى معركة الحق فهو شهيد له أجر الشهداء.

- وإحسانه تربية أبنائه ومن يليهم على مبادئ الإسلام وقيمه، وأيسر طريق لهذا هو تعريفهم بسيرة النبى ﷺ، وتحبيبهم فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة.

- وعمله ما وسعه العمل على دعوة الناس إلى الله وإلى الدين الحق الخاتم، مع الإيمان بسائر أنبياء الله تعالى ورسله الذين ذكروا فى القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة.

رابعًا: إحياء مبادئ الإسلام وقيمه فى نفسه وفى بيته وفى المجتمع الذى يعيش فيه، بحيث تكون هذه المبادئ هى السائدة التى يتحاكم الناس إليها فى كل أمورهم حتى يعم العدل ويرتفع الظلم، وتتّحقق للناس سعادة الدنيا والآخرة.

خامسًا: أن تكون القيم التعليمية أو التربوية غير متعارضة فى شىء منها مع ما جاء به الإسلام من عقيدة وشريعة ونظام، فى أى مرفق من مرافق الحياة الإنسانية فى نظامها الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى أو الجهادى.

سادسًا: وأن تكون تنمية طاقات الإنسان، وتوجيه قواه وجهوده وأقواله وأعماله، متجهة إلى إرضاء الله تعالى بحسن طاعته وكمال حبه وحب رسوله ﷺ، وأخوة المسلمين جميعًا.

سابعًا: أن يكون عمل المسلمين وفق هذه القيم عملاً مستمرًا، مهما تغيرت ظروف الزمان وظروف المكان، لأن تلك القيم من الثوابت التى لا تقبل التعديل ولا التبديل.

* ومما يدخل فى تعريف التعليم أو التربية فى الإسلام، أنه قد جاء فى التراث الفكرى والأدبى للإسلام تسمية التعليم والتربية أو أحدهما: أدبًا أو تأديبًا، وتسمية المعلم مربيا ورد ذلك فى كلمات النبى ﷺ:

- روى الدارمى بسنده عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم..»**.

قال ابن مسعود رضى الله عنه: ليس من مؤدّب إلا وهو يحب أن يُؤتَى أدبُه، وإن أدب الله القرآن.

– وروى ابن ماجة بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

– وروى أحمد بسنده عن أبى سعيد بن العاص عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن».

* وهذه القيم التعليمية أو التربوية فى الإسلام كثيرة شاملة لكل مفردة من مفردات التربية الإسلامية؛ الروحية؛ والخلقية، والدينية، والعقلية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية، والجمالية، والجسدية، وهى على كثرتها وشمولها وكمالها إنما تفيض من منبع واحد لا ينضب مهما تطاولت الأيام، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، وهو الذى من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم، إنه القرآن الكريم وشارحته السنة النبوية المطهرة.

* هذه القيم التعليمية أو التربوية الإسلامية النابعة من الكتاب والسنة، لا تغادر شيئًا مما يتصل بالتعليم أو بالتربية إلا نَصَّتْ عليه أو أشارت إليه[1].

* وما دام القرآن الكريم يهدى للتى هى أقوم، وما دامت السُّنَّة النبوية مثل القرآن الكريم، فإن القيم التعليمية أو التربوية التى تضمناها هى التى تهدى للتى هى أقوم من سُبُل الحياة الإنسانية.

* وما أكثر ما حفلت به قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وقصص مؤيديهم ومعارضيهم، ما أكثر ما حفلت به من قيم تعليمية أو تربوية، حملت من العِبَر لأولى الألباب ما يغنيهم وينفعهم فى دنياهم وآخرتهم، ولقد قال الله تعالى عن هذا القصص القرآنى لسير الأنبياء والمرسلين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

(١) لقد استطعت بفضل الله وعونه أن أستخرج من سورة واحدة من سور القرآن هى سورة الأحزاب وهى حزب واحد أى نصف جزء من أجزاء القرآن الثلاثين؛ أكثر من مائة قيمة تعليمية أو تربوية، وما استوعبت جميع ما فيها من هذه القيم، حتى إن القول بأن كل آية فى القرآن الكريم تتضمن قيمة تربوية أو تعليمية، لا مبالغة فيه بحال. انظر لنا: التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب –دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

ثانيًا: أهداف القيم التعليمية أو التربوية

ترتبط أهداف التعليم أو التربية ارتباطًا وثيقًا بتعريف التعليم أو التربية؛ لأن التعريف الجامع المانع يوحى بالهدف من المعرَّف فى الغالب الكثير.

ولنا على ذلك بعض الأمثلة من القديم والحديث:

* فعند «سقراط» وفى قراءة لآرائه يمكن تحديد أهداف التربية بأنها: «صياغة النفس الإنسانية صياغة تطبعها على الحق والخير والجمال لتحقيق المجتمع الفاضل»، وذلك لأن «سقراط» عرّف التربية بأنها تطبيع النفس الإنسانية على حب الحق والخير والجمال لبناء المجتمع الفاضل.

* وعند «أفلاطون» ومن خلال قراءة لآرائه فى التربية، يمكن تحديد أهداف التربية عنده بأنها: «معرفة الخير، وطبع النفس الإنسانية عليه وعلى الحق والجمال»؛ لأنه عرّف التربية بأنها: طبع النفس الإنسانية على معرفة الخير والحق والجمال، حتى يمكن تلافى عيوب المجتمع.

ويلحظ التقارب بين سقراط وأفلاطون لأنهما يعيشان فى المجتمع الذى تسوده عيوبٌ يرغبان فى مقاومتها بل القضاء عليها -وهو المجتمع اليونانى فى القرن الرابع قبل الميلاد وما حوله من عقود سابقة له أو لاحقة به، وأبرز هذه العيوب هى:

- سيطرة النزعة الفردية على الروح الجماعية.
- والرغبة الشديدة فى الحرب وفى سفك الدماء.
- والرغبة الشديدة فى الترف.
- وإطلاق العنان للشهوات.
- وإشاعة الفوضى[1].

وهذه العيوب الأخلاقية الاجتماعية كانت هى السائدة فى المجتمع الرومانى -المعادى للمجتمع اليونانى-.

(١) وعندما حارب سقراط تلك العيوب اتهم بإفساد الشباب وحكم عليه بالإعدام، وقد حاول أفلاطون فى جمهوريته أن ينحو نحو أستاذه وأن يدافع عن أفكاره.

كما كانت هذه العيوب هي السائدة في عصر سيادة المسيحية بعد ذلك -فيما سمي بعصر القرون الوسطى عندهم - فقد كانت العيوب في المجتمع قريبة من تلك العيوب التي ذكرنا، بل يضاف إليها عيوب أخرى مثل:

- انتشار الاستبداد وما يتبعه من ظلم.
- وازدياد حدة الفوارق بين طبقات المجتمع.
- واستعلاء الحكام والقادة واعتسافهم بحقوق الناس.
- وتعزيز تحويل المجتمع إلى طبقات عليا ودنيا.
- والاشتطاط في جباية الأموال.

* وفي هذه الظروف أصبحت أهداف التربية متجهة نحو الدين وقيمه وأخلاقه لتخليص الناس من هذه العيوب، وحملت الكنيسة ورجالها هذا العبء، فدعت الناس إلى الزهد والتقشف، ولكن نجاحها في ذلك لم يستمر..

* وفي أخريات العصور الوسطى الأوربية، وقبيل ما سمي بعصر النهضة العلمية أو عصر العلمانية بفصل الدين عن الدولة أضيف إلى تلك العيوب عيوب أخرى، أهمها:

- انتشار الإقطاع وما جره على الناس من متاعب وآلام.
- وازدياد الصراع بين رجال الكنيسة والأمراء.
- واتساع الفجوة بين طبقات المجتمع كالعبيد والأقنان والزراع والمحاربين والنبلاء وقادة الحرب.

* وقد أصبحت أهداف التربية إزاء هذه العيوب منحصرة في هدفين كبيرين هما:

- المناداة بحقوق الفرد لرفع الاضطهاد عنه، والإصرار عليها.
- وبناء شخصية الإنسان القادر على انتزاع حقوقه من ظالميه، ومن نظم المجتمع.

* ولما كان عصر النهضة العلمية وسمي عصر التنوير وطغت فيه المادية على كل القيم، وعزل الدين عن الحياة وسادت العلمانية، نادى بعض المفكرين من بعدُ مثل «جون لوك» (١٦٣٢ - ١٧٠٤م) و«جان جاك روسو» (١٧١٢ - ١٧٧٨م) بتربية قوامها الطبيعية وحقوق الإنسان الطبيعية، وبالغًا في الحديث عن الحرية.

فكانت أهداف التربية نابعة من هذا المفهوم للحقوق الطبيعية للإنسان، وليس من المبالغة القول بأن أهداف التربية هى: حقوق الإنسان فى الحرية والإخاء والمساواة التى نادت به الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) على الرغم من ضيق فرنسا «بروسو» من قبل وفراره من فرنسا خوفًا من رجال الثورة.

* وكذلك كان الشأن فى أهداف التربية الإسلامية، لأن الإسلام فى القرآن الكريم والسنة النبوية قد تحدث عن عيوب ونواح من النقص والقصور فيهم، وتحدث عن علاجها وتلافيها، لذلك جاءت التربية الإسلامية جامعة قادرة على علاج كافة عيوب الإنسان والجماعة والمجتمع.

وكذلك جاءت أهداف التربية الإسلامية على نفس المستوى من الشمول[١].

أهداف التربية والتعليم الإسلامى:

ليست أهداف التربية الإسلامية إلا مأخوذة من أهداف المجتمع المسلم الذى يعيش فى ظل القيم الإسلامية النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وقد تحدثنا عن أهداف التربية فى سلسلة مفردات التربية الإسلامية وهى كتب عشرة[٢].

- وقد توسعنا فى الحديث عن أهداف المجتمع وهى أهداف تعليمية تربوية، فى كتابنا: «التربية الإسلامية فى المجتمع»[٣] وهذه الأهداف فى إيجاز أو فى عناوين هى:

١- تطبيق منهج الله تعالى وتشريعه ونظامه فى المجتمع.

٢- وصيانة المجتمع الإسلامى عن كل ما يعرضه للخطر.

---

(١) شغلنى موضوع التربية الإسلامية منذ زمن باكر وأنا أدرس التربية طالبا فى كلية التربية بجامعة عين شمس بالقاهرة سنة ١٩٥٦م وأمزج بينها وبين ممارستى للتربية والدعوة إلى الله، وظل ذلك يختمر فى عقلى وقلبى حتى عبرتُ عنه فى سلسلة مفردات التربية الإسلامية فى حلقاتها العشر التى صدر الكتاب الأول منها: «التربية الروحية» فى عام ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، والكتاب العاشر الأخير: «التربية الجسدية» فى عام ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م بفضل من الله ونعمة.

(٢) تلك الكتب التى تتناولها هذه السلسلة هى: التربية الروحية، والتربية الخلقية، والتربية العقلية، والتربية الدينية، والتربية السياسية، والتربية الاجتماعية، والتربية الاقتصادية، والتربية الجهادية، والتربية الجمالية، والتربية الجسدية.

نشرتها دار التوزيع والنشر الإسلامية فى السنوات من ١٤١٥هـ إلى سنة ١٤٢٤هـ (١٩٩٥ -٢٠٠٣م)..

(٣) نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٣- وتحقيق الأمن فى داخل المجتمع المسلم وفى خارجه.

٤- وممارسة الحقوق والالتزام بأداء الواجبات.

٥- وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين.

٦- وتحقيق الوحدة بين المسلمين.

٧- وتأمين أهل الأديان الأخرى فى المجتمع الإسلامى.

- ثم تحدثنا فى نفس الكتاب عن وسائل المجتمع المسلم لتحقيق أهدافه وحصرنا فى ثلاثة خطوط كبرى تندرج تحتها تفاصيل عديدة، وهذه الخطوط الكبرى للوسائل هى:

١- التربية.

٢- الدعوة إلى الدين الحق، والحركة به فى الناس.

٣- والجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمته هى العليا.

* وأهداف التربية أو التعليم الإسلامى المأخوذة من أهداف المجتمع المسلم، والتى تسهم فى تحقيق أهداف المجتمع المسلم، هى فى إيجاز:

١- تربية الناس على توحيد الله تعالى:

وهذا التوحيد لله تعالى نوعان تهتم بهما التربية، وهما:

أ- توحيد فى المعرفة والإثبات، أى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله، وتكلمه سبحانه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من خلقه.

ب- وتوحيده سبحانه بأن يكون هو المقصود والمعين على جلب المرغُوب النافع، ودفع المكروه الضار.

* والتربية بمختلف وسائلها وآلياتها وميادينها، تعمل ما وسعها لتحقيق ذلك التوحيد، قولاً وصمتًا وعملاً وامتناعًا، لأن هذا التوحيد لله تعالى فطرة فطر الله الناس عليها، بحيث لا يجحد الله أحد، ولا يكفر بنعمه ولا يستعين بغيره إلا وقد خرج عن فطرته وانحرف عن طريق الحق والإيمان.

* وقد قسَّم علماء الإسلام الناس إزاء توحيد الله تعالى أربعة أقسام:

- قسم يعبد غير الله تعالى، ويستعين بغيره، وهذا من صميم الشرك بالله تعالى.

- وقسم يعبد الله تعالى، ولكنه يستعين بغيره، وهذا شأن كثير من الناس ممن اختلت لديهم الرؤية إذ عميت عندهم البصيرة.
- وقسم يستعين بالله تعالى، ولكنه يعبد غيره، وهؤلاء أكثرهم من ذوى الأحوال وذوى القدرة وذوى السلطان الباطن أو الظاهر، وأهل الكشف ومن إليهم.
- وقسم لا يعبد إلا الله تعالى، ولا يستعين إلا به سبحانه وهؤلاء هم الموحدون المؤمنون.

وواجب التربية بكل مؤسساتها أن تقوم فى هذا المجال بعمل يدعم التوحيد ويحسم الشرك والضلال؛ على النحو التالى:

* أن تدعم المؤمنين الموحدين وتعضدهم.
* وأن ترشد الثلاثة الأقسام الأخرى، وأن تعينهم على الإيمان والتوحيد، وأن تبصرهم بعواقب ما هم فيه فى الدنيا والآخرة، وأن تقنعهم بأن إيمانهم وتوحيدهم فى صالحهم وصالح المجتمع الذى يعيشون فيه.

٢- وأن تصون التربية المجتمع المسلم من أخطار الشرك والانحراف والفسق والفجور:

وإنما تكون تلك الصيانة بأمور:

أ- أن يؤدى البيت وظيفته فى تنشئة أبنائه تنشئة إسلامية أى تربيتهم على القيم النابعة من الكتاب والسنة.

ب- وأن يؤدى المسجد وظيفته فى توجيه الناس وربطهم بعبادة الله تعالى لما فى ذلك من صلاح دينهم ودنياهم.

جـ- وأن تؤدى المدرسة وظيفتها فى تربية المتعلمين تربية إسلامية تتناول قلوبهم وعقولهم وأخلاقهم وأجسادهم ودينهم وحسهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى والجمالى والجهادى.

د- وأن تقوم هيئات المجتمع المدنى والمجتمع كله، والحكومة؛ كل منهم بأداء واجبه نحو تبصيرهم وتوعيتهم بما لهم وما عليهم، وأن يعينوهم على ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم نحو أنفسهم وأسرهم وجماعاتهم والمجتمع الذى يعيشون فيه.

هـ- وأن يُحاصَر المنحرفون والفساق والفجار، ويضيَّق عليهم، بإغلاق أماكن لهوهم وفسوقهم وتنظيف المجتمع وتنقيته منهم، مع الحرص على نصحهم، وتوجيه طاقاتهم نحو ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم.

٣- وأن تسهم التربية بكل مؤسساتها فى العمل على تحقيق الأمن فى المجتمع كله.

وأمْن المجتمع نوعان:

الأول: أمْن داخلى أى فى داخل المجتمع، حيث تُعْنَى التربية بجعل الإنسان آمنا لتوفر تعليمه وعمله وسكنه وقدرته على تكوين أسرة، وتربية أبنائه. مع تأمينه على حقوقه وحرياته ومصدر رزقه، وتجريم اعتقاله واعتبار الاعتقال من الجرائم ضد الإنسانية؛ لأن الإنسان فى ظل النظام الإسلامى إمًّا مخطىء أو مجرم فيحاسب أمام قاضيه الطبيعى، وإما مستقيم فلا يروَّع ولا يراقب ولا يتنصت عليه ولا يعتقل، وإنما يعيش آمنا فى ظل شريعة الإسلام ونظامه وقيمه وآدابه.

والآخر: وأمْن خارجى، أى تأمين المجتمع من أعدائه الخارجيين بتأمين حدوده ورد أى عدوان عليها، والتربية تسهم فى تحقيق الأمن الخارجى للإنسان بتربيته تربية علمية وتشجيعه على الابتكار والاكتشاف، وإعداد جسده وعقله ليكون قادرًا على الحرب والقتال عند الحاجة إلى ذلك، ويدخل فى هذا الإعداد والتعليم كل ما له علاقة بآليات الحرب والقتال، وهذا الإعداد الذى تقوم به التربية مطلب إسلامى دلَّتْ عليه آيات القرآن الكريم، وكلمات السنة النبوية المطهرة(١).

٤- وممارسة الحقوق والالتزام بأداء الواجبات:

الحياة الإنسانية فى ظل منهج الإسلام وقيمه وأحكامه وآدابه تعنى فى التطبيق الحقيقى لها، ممارسة الإنسان لحقوقه والتزامه بأداء واجباته:

* والتربية هى الكفيلة بأن تُعرف الإنسان حقوقه وواجباته من خلال مؤسساتها التى ذكرناها آنفا -من البيت والمسجد والمدرسة والمجتمع والحكومة بسلطاتها الثلاث- وعلينا أن نقول كلمة وجيزة عن الحقوق، وأخرى عن الواجبات، ونسأل الله تعالى التوفيق.

---

(١) للتوسع: انظر لنا: «التربية الجهادية الإسلامية» نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

أ- الحقوق:

الحقوق مصطلح قانونى يعنى: السلطة التى يقررها القانون[١] للإنسان فيكون له بمقتضاها ميزات عديدة من أهمها:

- ميزة ممارسة عمل معين.

- وميزة احترام المجتمع لهذه الحقوق بحيث لا ينتقص منها أحد شيئا فضلا عن أن ينكرها أو يهضمها.

- وميزة استمرارية هذه الحقوق وعدم ارتباطها بحاكم مَّا عادل أو مستبد.

والقيد الرئيس فى ممارسة الإنسان لحقوقه ألا يضر بغيره.

* وحقوق الإنسان فى صورتها الإنسانية الكاملة، قد جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة منذ نزل القرآن على خاتم رسل الله محمد ﷺ قبل هجرته إلى المدينة المنورة بثلاث عشرة سنة، ومن حين نزول قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] وإلى أن نزل عليه ﷺ: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣]. وكان نزولها فى أيام حجة الوداع، وما بين نزول قوله تعالى ﴿اقْرَأْ﴾ وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي...﴾ وهى ثلاث وعشرون سنة، هى الوعاء الزمنى الذى تكاملت فيه حقوق الإنسان كلها، فى صورة كاملة تامة سابقة لكل محاولات الناس فى كل أقطار الأرض، إذ كان إعلان الإسلام لحقوق الإنسان الكاملة فى مستهل القرن السابع الميلادى سنة ١٣ قبل الهجرة وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة إلى أن لحق الرسول ﷺ بربه فى السنة العاشرة من الهجرة النبوية[٢].

---

(١) فى مصطلحاتنا الإسلامية أن القانون العام الذى تفرعت عنه سائر الأنظمة الاجتماعية والسياسية وغيرها هو: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

(٢) أقدم وثيقة معروفة لنا هى وثيقة العهد الأعظم «ماجنا كارتا» الصادرة سنة ١٢١٥م أى بعد تقرير حقوق الإنسان فى الكتاب والسنة بنحو ستة قرون؟

ثم وثيقة حقوق الإنسان الصادرة فى إنجلترا سنة ١٦٨٩م، ثم وثيقة حقوق الإنسان عقب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م.

وحقوق الإنسان فى الولايات المتحدة الأمريكية تعنى التعديلات العشرة الأولى على الدستور الاتحادى الذى =

* والتربية الإسلامية من أهم وظائفها، تربية الفرد والمجتمع على مبادئ وأسس جوهرية فى مجال الحقوق الشرعية للإنسان التى كفلها له الإسلام، أهمها:

- معرفة حقوق الإنسان.
- وممارستها عمليًا فى الحياة إلا إذا حدث تسامح فى بعضها من صاحبها دون إكراه أو خداع.
- واحترام حقوق الإنسان للناس جميعًا، حتى الأعداء.
- والعمل على كفالتها وإيصالها إلى أصحابها.
- والتنديد بكل من ما ينتقصها أو يهدرها بكل وسائل التنديد.
- واعتبار احترامها والمحافظة عليها تقربًا إلى الله تعالى بطاعته وامتثالاً لأمره واجتنابًا لنهيه.

ب- والواجبات:

الواجبات -فى الإسلام- هى الأمور التى إذا لم تُفعل استحق تاركها اللوم أو العقاب.

والواجبات فى الإسلام نوعان:

الأول: واجب من جهة العقل، وأمثلته كثيرة منها:

- وجوب معرفة الوحدانية، وصفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله..
- ووجوب معرفة النبوة، وصفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالصدق والأمانة والتبليغ من الله تعالى..

والآخر: واجب من جهة الشرع، مثل:

- وجوب أداء العبادات التى أمر بها الله تعالى ورسوله ﷺ.

= تمت الموافقة عليها سنة ١٧٩١م، وقد تضمنت عددًا من الحقوق والحريات العامة مثل: حرية العقيدة، وحرية التعبير، وحرية الاجتماع، وحرية المسكن، وبعض ضمانات التحقيق والمحاكمات الجنائية.

ثم أعلنت الأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨م.

وأصبحت كل الدساتير فى العالم بعد ذلك، تُصَدَّر بمقدمة عن حقوق الإنسان، ووجوب تأمينها لكل فرد فى المجتمع، وعلى الرغم من ذلك فما أكثر الذين يعتدون على حقوق الإنسان!!

- ووجوب التعامل الحسن مع كل أحد بل مع كل شيء لأن الإحسان قد كتبه الله على كل شيء.
- ووجوب البر بالوالدين والأبناء والأرحام والأقارب جميعًا، والجيران، والضيوف، والسائلين، وأبناء السبيل، والغارمين، وأصحاب الحاجات جميعًا.
- ووجوب الامتناع عن كل ما حرم الله ورسوله.
- ووجوب الامتثال لكل ما أمر الله ورسوله به.
- ووجوب طلب العلم «التعلم» لأنه لا يجوز للمسلم أن يكون جاهلا وهو قادر على التعلم.
- ووجوب إعداد الفرد لنفسه وجسده وعقله وماله للجهاد فى سبيل الله حين تدعو الحاجة إلى ذلك.

* والالتزام بمعرفة الحقوق وممارستها، وبأداء الواجبات كما شرع الله أداءها يعنى سيادة الشريعة الإسلامية بعد استقرار العقيدة الصحيحة فى القلب والعقل، وانعكاسها على الجوارح عملاً وسلوكًا، كما يعنى تربية الناس على أن الحقوق تقابلها واجبات، وأنه لا حياة للمجتمع إلا بأن تمارس الحقوق وتؤدى الواجبات.

- والالتزام بقضية أن الحقوق تقابلها واجبات يعنى كذلك أن الشريعة الإسلامية قد سادت أنظمة المجتمع كلها سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وعلمية وتعليمية، أى أن مسارها قد صُحح إذ انضبط مع الشريعة الإسلامية الكاملة.

إن الشريعة الإسلامية وضعت نظام الحلال والحرام وجعلته شاملا لا يند عنه حرام إلا أوضحته، وجعلت الحلال أوسع من الحرام، وأقر فقهاء الشريعة أن الأصل فى الأشياء الإباحة والحِلّ، ما لم يرد نص يحرمها.

وقد جمع القرآن الكريم أصول المحرمات وأمهاتها فى أنواع خمسة يدخل فيها كل محرّم وذلك فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله عز وجل؛ فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن».

- وروى أحمد بسنده عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لم يحرّم حرمة إلا وقد علم أن سيطلعها منكم مطلع، ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب**».

* وقد حرّمت الآية الكريمة خمسة أنواع من الحرام تندرج تحتها سائر المحرمات، وهى:

- الفواحش الظاهرة والمستترة: وهى الكبائر لفحش قبحها وتزايده، ويدخل تحتها كثير من الفروع.

- والإثم: وهو كل قول أوعمل حرمه الله تعالى أو حرمه رسوله ﷺ، وقيل: الإثم: كل عمل حَرُم ووجب حَدٌّ على من ارتكبه.

- والبغى بغير الحق: يدخل فيه إيذاء الناس فى أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، بل يدخل فيه كل ظلم.

- والشرك بالله: أى اتخاذ إله مع الله، وهو من أكبرالكبائر، ولم يُنزل الله تعالى إذنا لأحد فيه.

- والكذب على الله تعالى: بادعاء أنه قال ما لم يقل، وذلك من الكبائر ويستوجب أعظم العقاب من الله تعالى.

٥- وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المسلمين:

التكافل - كما جاء به الإسلام - هو الصورة المُثْلى للمجتمع المسلم، وللعلاقات الإنسانية الصحيحة العادلة التى يجب أن تسود الناس.

والتكافل الاجتماعى هو ذروة التضامن الاجتماعى، والتضامن الاجتماعى هو قمة التعاون على البر والتقوى، فالتكافل أعلى منزلة من التضامن والتعاون.

- والتكافل الاجتماعى من القيم الإسلامية الثابتة التى لا يجوز أن يتخلَّى عنها المسلمون فى أى زمان أو مكان.

- والتكافل بين المسلمين واجب شرعًا، فقد روى أحمد بسنده عن أبى بردة عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**على كل مسلم صدقة**» قال: أرأيت إن لم يجدْ؟ قال: «**يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق**» قال: أرأيتَ إن لم يستطع أن يفعل؟ قال: «**يُعين ذا الحاجة الملهوف**».

وكل الأعمال التى طالب بها الحديث الشريف داخلة فى صميم التكافل الاجتماعى.

وروى أحمد بسنده عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «كاتِبْ يا سلمان»[١]، فكاتبتُ على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ: «أعينوا أخاكم» فأعانونى بالنخل؛ الرجل بثلاثين وَدِيَّة[٢]، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لى ثلاثمائة وَدِيَّة، فقال لى رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان فَفَقِّرْ[٣] لها فإذا فرغت فائتنى أكون أنا أضعها بيدى» ففقرت لها وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معى إليها، فجعلنا نقرِّب له الوَدِىّ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده، فوالذى نفس سليمان بيده ما ماتت منها وَدِية واحدة، فأديت النخل وبقى علىّ المال، فأُتى رسول الله بمثل بيضة الدجاجة من ذهب المغازى؛ فقال لى: «ما فعل الفارسى»؟ قال: فدعيت له فقال: «خذها فأدِّ بها ما عليك يا سلمان» فقلتُ: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علىّ؟ قال: «خذها فإن الله عز وجل سيؤدى بها عنك» قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذى نفس سلمان بيده، أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم، وعتقتُ، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتنى معه مشهد.

وقصة سلمان رضى الله عنه فى هذه المكاتبة أنموذج حىّ للتكافل بين المسلمين.

تُرى كم من المسلمين اليوم يستعبدهم الفقر والمرض والجهل، والمسلمون لا يتكافلون معهم؟

* ميادين التكافل الاجتماعى الإسلامى:

الأصل فى التكافل الاجتماعى فى الإسلام أن يغطى كل احتياجات الناس فى المجتمع المسلم، ولذلك تعددت ميادينه، فمنها:

- ميدان الفقراء والمساكين والعاجزين عن العمل، والذين لا يجدون عملاً.
- وميدان المعوقين وأصحاب الأمراض وأصحاب الاحتياجات الخاصة.
- وميدان الصغار ممن فقدوا الأبوين أو أحدهما.
- وميدان الأرامل والأيتام، واللقطاء.

(١) المكاتبة: عقد بين السيد والعبد على مال أو نحوه، فإذا أدّاه العبد لسيده صار حرًا.
(٢) وَدِيَّة: نخلة صغيرة أو الفسيلة من النخل.
(٣) فَقِّر لها: أى احفر للفسيلة حفرة تغرس فيها.

- وميدان الأسر المسلمة التى لا تجد ما يسد حاجاتها.
- وميدان العاجزين عن التزوج من أجل الفقر.
- وميدان كبار السِّنّ، ممن لا يجدون من يمونهم.
- وميدان بناء المدارس والمشافى، ودور الأيتام.
- وميدان مَدّ يد العون للأقليات المسلمة فى العالمين العربى والإسلامى.
- وميدان الإعداد للجهاد فى سبيل الله عندما تحين الساعة التى يجب فيها.

*** الوسائل التى تعين على تطبيق نظام التكافل الاجتماعى:**

يَسَّرَ الإسلام على المسلمين أن يتكافلوا، بأن جعل كثيرًا من أنظمته تعين على التكافل الاجتماعى مثل:

- **نظام الزكاة،**
- **نظام الصدقات،**
- **ونظام الوقف،**
- **ونظام الوصية،**
- **ونظام الميراث،**
- **ونظام الهبة،**
- **ونظام الأمر بالمعروف،**
- **ونظام النهى عن المنكر،**
- **ونظام التعليم والتربية،**
- **ونظام الجهاد فى سبيل الله تعالى.**

وغير ذلك من الأنظمة الاجتماعية التى لا يقوم المجتمع إلا بها، ولا يستطيع أن يتغلب على مشكلات الفقر والمرض والجهل إلا من خلال ممارسته لهذه الأنظمة، وبخاصة الجهل والتخلف فى مجال العلم، والأمية للكبار من خلال نظام التعليم ومحو الأمية، وإعطاء البحث العلمى أهمية تتناسب مع متغيرات الحياة وتطور آلياتها.

*** أهداف تحقيق التكافل الاجتماعى:**

هذه الأهداف كثيرة، بعضها يستهدف تنقية المجتمع المسلم من عيوب تعود بالضرر على الفرد والمجتمع، وبعضها لغرس قيم اجتماعية تعود بالنفع على الفرد والمجتمع.

ولا نستطيع فى هذا الجانب من الكتاب أن نستقصى كل هذه الأهداف، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أبرزها:

أولاً: فى مجال التخلص من القيم الضارة بالفرد والمجتمع

كل خلل فى القيم يخرجها عن كونها إسلامية لابد أن يؤدى إلى خلل فى المجتمع؛ لأن سلامة المجتمع تستوجب أن تكون القيم السائدة فيه قيمًا إسلامية، ومن أجل ذلك يحرص التكافل الاجتماعى على أن ينقى المجتمع من العيوب المخلة به الجالبة لضرر الفرد والمجتمع.

* ومن هذه العيوب:

أ- القلق الاجتماعى:

وهو نتيجة للاحتكاك بالناس والإحباط فى العلاقات الاجتماعية معهم، وهذا القلق عند علماء الاجتماع نوعان:

- نوع محدد؛ تؤدى إليه القيادة التى تدير المجتمع، إذا هى لم تحسن الإدارة بأن تظلم أو تحابى فردًا على فرد، أو جماعة من الناس على أخرى، أو حزبًا سياسيًا على آخر.
- ونوع غير محدّد؛ يُؤدى إليه الاضطراب فى العلاقات الاجتماعية بين الناس، وغالبًا ما يكون هذا النوع من القلق الاجتماعى نتيجة لبعد الناس عن القيم الإسلامية بتركهم ما أمر الله به، وإتيانهم ما نهى عنه.

* وهذا القلق بنوعيه غالبًا ما يصيب صاحبه بالإحباط ثم الاكتئاب، وأهم ما يمكن الإنسان من التخلص من هذا القلق هو التمسك بالقيم الإسلامية.

ب- والصراع الاجتماعى:

وهو -أيضًا- نتيجة لأحد نوعين من العمل أو لكليهما، وهذان النوعان من العمل المؤدى إلى الصراع هما:

- العمل الذى يستهدف به صاحبه الانتصار على من ينافسه من الأفراد والجماعات أو يعارضه فى الوصول إلى منفعة ما، دون أن يحتكم القائم بهذا العمل إلى القيم الإسلامية.

- والعمل الذى يستهدف به صاحبه الإضرار بمن ينافسه أو يعارضه، إضرارًا يعود إلى شخصه أو ماله أو ذويه أو مصالحه عمومًا، دون أن يحتكم إلى القيم الإسلامية.

* وكلا النوعين من العمل سبب فى حدوث الصراع بين الناس أفرادًا وجماعات أو شركات أو جماعات مدنية.

* والقيم الإسلامية تحول بين الإنسان وبين القيام بأى عمل من هذه الأعمال المؤدية إلى الصراع، لأن الله خلق الناس ليعبدوه وليتعارفوا وليتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، ونادى بأعلى صوت بأن خير الناس أنفعهم للناس، وبأن الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه، وبأن المؤمنين إخوة، وحرّم الضرر والإضرار.

جـ- والتفكك الاجتماعى:

ويمكن أن يسمى «الفُرقة الاجتماعية» وهو: عدم كفاءة النَّسق أو التنظيم الاجتماعى، وعجزه عن أمرين:

أحدهما:

الفشل فى تحديد مراكز الأفراد والجماعات فى المجتمع مما يؤدى إلى الفوضى والتفكك، وعجز النسق الاجتماعى عن تيسير الالتزام بهذه المراكز.

والآخر:

عجز التنظيم الاجتماعى وفشله فى إحداث ترابط بين الناس أفرادًا وجماعات فى المجتمع.

* ومن أهداف التكافل الاجتماعى أن يحول بين الناس وبين هذا التفكك أو الفرقة فى حياتهم الاجتماعية.

* والقيم الإسلامية عند التمسك بها وتطبيقها قادرة تمامًا على جعل الترابط الاجتماعى بل الوئام يحل محل التفكك أو الفرقة؛ لأن القيم الإسلامية الاجتماعية تحدد لكل فرد أو جماعة عمله وتدعوه إلى التعاون والترابط مع الأفراد والجماعات فى المجتمع، والإسلام

يؤكد أن الجماعة رحمة والفرقة عذاب[١]، والرسول ﷺ يقول لأصحابه: «... إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة...»[٢].

د- والمشكلات الاجتماعية:

وهى تعنى: عدم التلاؤم أو المفارقة بين المستوى الاجتماعى المرغوب فيه، والظروف الواقعية التى يعيشها الناس.

والمشكلات الاجتماعية تحول بين الناس وقيامهم بأعمالهم وواجباتهم الاجتماعية وفق الإطار الذى ارتضاه المجتمع، ووفق المنهج الذى وضعه الإسلام للحياة الاجتماعية.

* والتكافل الاجتماعى الإسلامى كفيل بالقضاء على المشكلات الاجتماعية إن وجدت، وهو كفيل بأن يمنع وجودها أصلاً لأنه يغلق دونها الأبواب والنوافذ.

* والإسلام ومنهجه فى التكافل الاجتماعى يقوم على أسس من شأنها ألا تسمح للمشكلة الاجتماعية أن توجد، فإن وجدت الخلل فى الذين يطبقون المنهج فإنه سريعًا ما يعمل على إزالتها، ومن هذه الأسس:

- التقريب بين الأعمال الاجتماعية المرغوبة، والظروف الواقعية التى يعيشها الناس، وذلك بالعمل على ضبط رغائب الناس من جانب، وعلى تحسين الواقع من جانب آخر.

- والتشديد على أنه لا يجوز للمسلم أن يتسبب فى إيجاد مشكلة اجتماعية بالالتزام بقيم الإسلام وأخلاقه، والعلم بل اليقين بأن الله تعالى سوف يحاسب كل مقصر وكل متسبب فى ضرر عن قصد وإرادة.

- والتأكيد على أن المسلم فى المجتمع المسلم عليه واجبات عديدة، تقتضيه على الدوام أن يضحى بجزء من ماله وجزء من وقته وجزء من علمه وعمله وجهده، ليضع ذلك فى خدمة الناس والمجتمع والتغلب على ما يستطيع التغلب عليه من مشكلات.

- وأهم هذه الأسس نظام الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة.

هـ- والشذوذ الاجتماعى:

وهذا الشذوذ الاجتماعى هو عمل أو نشاط يقوم به فرد أو جماعة يخرج به عن الجماعة وعما ألفته الجماعة أو اصطلحت عليه وارتضته نظامًا للعلاقات فيما بين أفرادها.

---

(١) رواه أحمد بسنده عن النعمان بن بشير -رضى الله عنه- والذى ذكرناه جزء من حديث طويل.

(٢) رواه أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص -رضى الله عنه- والذى ذكرناه جزء من حديث طويل.

وهذا الشذوذ الاجتماعى دائمًا ضد مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة والمجتمع، ولذلك يرفضه الإسلام رفضًا، ويدين صاحبه فى الدنيا والآخرة.

- والتكافل الاجتماعى فى الإسلام لا وجود له إلا فى جماعة، ولا أثر له إلا فى الجماعة، ومن أجل أهمية الجماعة فى تطبيق التكافل الاجتماعى وممارسته عظَّم الإسلام من شأن الجماعة، وأمر بلزومها، وأعلن الرسول ﷺ أن يد الله مع الجماعة، وأن البركة مع الجماعة، وأن ترك السُّنَّة فى الخروج عن الجماعة، وأن من فارق الجماعة شبرًا فمات مات على شعبة من النفاق، وكل تلك الجمل أجزاء من أحاديث نبوية معروفة[1].

- وروى الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا يجمع أمتى -أو قال: أمة محمد- على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومَنْ شذَّ شذَّ فى النار**».

و- والتخلف الاجتماعى:

هو تقهقر المجتمع وجموده وقعوده عن التمسك بالقيم الإسلامية، أو هو سيادة الاتجاهات الرجعية فى أفراده وجماعاته، أو هو رفض الآخر، إدانته لأنه الآخر.

أو هو شيوع التزمت والتشدد فى المجتمع.

* والإسلام يحارب التخلف، وينهى عن الرجعية ويدعو للتعامل بالحسنى مع الآخر بل مع الناس جميعًا، ويرفض التشدد والتزمت وينادى بأن الدين يسر وسماحة.

* وإذا كان التكافل الاجتماعى من أهداف الإسلام ومن أهداف قيمه التعليمية أو التربوية، فإن التخلف الاجتماعى تعويق لكل تكافل اجتماعى، وتضييق عليه إلى حد الاختناق. ولا يجوز هذا ولا يقبل فى ظل أن تحقيق التكافل الاجتماعى من أهداف المجتمع المسلم.

* ومظاهر التخلف الاجتماعى كثيرة منها:

- انتشار العادات الضارة بالمجتمع والتمسك بها.

- وانتشار الأمية والجهل بقصور التعليم وفساده.

- وشيوع البطالة.

(١) ذكرنا منها فيما مضى من هذا الكتاب، وسنذكر بعضها فيما بقى منه بإذن الله تعالى.

- وانتشار الأمراض وانخفاض مستوى الرعاية الصحية.
- وانتشار الفقر، وإهمال أصحاب الحاجات.
- والإهمال فى رعاية اليتامى والأرامل والعاجزين عن العمل.
- وفساد الإدارة الحكومية، وغمط حقوق الإنسان.

ثانيًا: فى مجال تعزيز القيم النافعة للفرد والمجتمع

كل قيمة إسلامية نافعة للفرد والمجتمع أيًا كان نوعها، اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية؛ لأنها قيم الدين الخاتم الذى أكمله الله تعالى وأتمه ورضيه للبشرية كلها دينًا.

* ومن القيم الإسلامية الاجتماعية التى يحققها التكافل الاجتماعى:

أ- التنشئة الاجتماعية:

وهى الطريقة التى يتم بها تشكيل الأفراد منذ طفولتهم على التعايش مع المجتمع والتفاعل معه تحت ظل القيم الاجتماعية التى غرسها الإسلام فيه.

وهذه التنشئة الاجتماعية التى يستهدفها التكافل الاجتماعى تسهم فيها المؤسسات الإسلامية المعنية بالتربية وهى: البيت، والمسجد، والمدرسة، والجمعيات المدنية، والحكومية وهيئاتها جميعًا.

وهذه المؤسسات جميعًا توجه وتنصح وتعلم وتربى وتعين، وتسن القوانين، وتلزم بالواجبات، وتؤمن الحقوق، من أجل أن يحسن الناس التفاعل مع المجتمع فى ممارسة القيم الاجتماعية النافعة، وفى الامتناع عن ممارسة القيم الضارة.

والهدف من هذه التنشئة هو أن يكون المسلمون -كما وصفهم الرسول ﷺ- كالجسد الواحد، وكالبنيان يشد بعضه بعضًا، وبأنهم الأمة الوسط، وكل هذه الأوصاف توجب عليهم أن يتكيفوا مع المجتمع المسلم فى وئام وسلام وتواد وأخوة، وتعاون على البر والتقوى.

ب- والتماسك الاجتماعى الذى يحدث وعيًا اجتماعيًا:

التماسك الاجتماعى يحقق أهدافًا على جانب مهم فى مجال القيم الاجتماعية أهمها ثلاثة:

الأول:

تعزيز التعاون والتناصر والتضامن والتكافل بين الناس، بل يجعل ذلك واجبًا يتقرب إلى الله تعالى بأدائه، وقد أشار الرسول ﷺ إلى ذلك فى الحديث الذى رواه بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يرد مُشدهم على مضعفهم ومسرعهم على قاعدهم..»**.

والثانى:

من أهداف التماسك الاجتماعى حسن التنسيق بين الأفراد والجماعات بحيث يؤدى كل منهم عمله ووظيفته على الوجه الصحيح تحركه إلى ذلك الأداء القيم الإسلامية الاجتماعية وتدفعه دفعًا إلى الإسهام فى بناء المجتمع، وصميم الوظيفة الاجتماعية للإنسان أن يمارس حقوقه، وأن يؤدى واجباته، لأن ذلك هو روح التماسك الاجتماعى بين المسلمين.

والثالث:

التماسك الاجتماعى يسهم فى تحديد وظائف الأفراد وتحديد أعمالهم فى المجتمع، بل يحد مدى ترابطهم بشكل يوصلهم إلى تحقيق أهدافهم الاجتماعية بصورة جيدة تنعكس آثارها على المجتمع صلاحًا وخيرًا للفرد والمجتمع.

ولا يتحقق هذا التماسك إلا فى ظل وعى اجتماعى يجعل الأفراد والجماعات يحمل كل منهم مسئوليته نحو نفسه والمجتمع الذى يحيط به، مسئولية تمكنه من الإسهام فى تحسين الأحوال الاجتماعية للناس على قدر طاقته، مع رغبته فى المبادرة إلى الإسهام فى حل المشكلات الاجتماعية فى حدود طاقته أيضًا.

والوعى الاجتماعى يبدأ بهذا الاستعداد الذى تحدثنا عنه ويستمر ليشمل التفكير فى حل المشكلات الاجتماعية أو غيرها من المشكلات مما تسمح به ظروفه وقدراته فى علاج تلك المشكلات.

جـ- والعمل الاجتماعى المؤدى إلى الضبط الاجتماعى:

التكافل الاجتماعى فى الإسلام يقوم على العمل الاجتماعى المؤدى إلى الضبط الاجتماعى.

* والعمل الاجتماعى يتناول كل مجهود يخضع لنوع من التنظيم ويهدف إلى ضمان التقدم الاجتماعى، وإلى الإسهام فى حل المشكلات الاجتماعية التى تؤدى إلى تعويق التقدم الاجتماعى، مثل:

- مشكلة الفقر والبطالة.
- ومشكلة سوء الرعاية الصحية وقاية وعلاجًا.
- ومشكلة سوء التعليم وقصوره مما يؤدى إلى الأمية والجهل.
- ومشكلة الولاء لغير الله تعالى ولغير المؤمنين، ولغير سبيلهم التى يسلكون.

* وهذا العمل مما أوجب الإسلام على المسلمين، بحيث لم يسمح لأحد أن يعيش بلا عمل، لأن الفراغ مفسدة لصاحبه وبخاصة إذا كان شابًا ميسورًا.

* والعمل الاجتماعى الراشد يؤدى إلى الضبط الاجتماعى، وهذا الضبط الاجتماعى فى جوهره هى رقابة ذاتية نابعة من الفرد والجماعة والمجتمع والحكومة، يراقب كل منهم سلوكه وعمله، ويجعله منضبطًا مع القيم الإسلامية الاجتماعية، بل يدخل فى هذا الضبط الاجتماعى أن يتابع كل منهم أعماله للتأكد من أنها تجرى وفق القيم والمعايير الإسلامية.

وأروع ما ضبط به الإسلام عمل الإنسان وسلوكه أن يكون عملاً صالحًا -أى مما أمر الله تعالى به أو حبَّبَ فيه- وأن يكون خاليًا مما حرَّم الله تعالى أو كرَّه فيه.

د- والخدمة الاجتماعية النابعة من المسئولية الاجتماعية:

الخدمة الاجتماعية لدى المسلم نتيجة لحسن فهمه لدينه واعتزازه به وتمسكه بقيمه ومبادئه، ولا تكون الخدمة الاجتماعية على وجهها الصحيح إلا إذا صاحبتها النية المخلصة فى القيام بهذه الخدمة لوجه الله تعالى وابتغاء رضوانه.

* والخدمة الاجتماعية أو الخدمات الاجتماعية هى مجموعة من الخدمات المهنية والعمالية المنظمة، ذات الصبغة الوقائية فى رفع الضرر ورفع الحرج عن الناس، أو ذات صبغة نفعية فى الدين أو الدنيا، للوصول بهذين النوعين من الخدمات إلى تحقيق كرامة الإنسان بتوفير احتياجاته، فى أى مجال من مجالات الحياة العديدة التى تحتاج إلى عون ومساعدة، والأصل فى القيام بذلك أن يكون نابعًا من المسئولية الاجتماعية.

- والإسلام جعل أداء هذه الخدمات واجبًا أساسيًا على الحكومة وأجهزتها من وزراء ومديرين كل منهم فى دائرة اختصاصه، ثم أوجب الإسلام على المسلم القادر أن يؤدى هذه الخدمة الاجتماعية أو ندبه إلى القيام بها، وجعل للقيام بها أجرًا عند الله يوم القيامة.

بل إن الله تعالى يعاقب الحكومة وأجهزتها على التقصير فى أداء واجباتها، بل يعاقب المسلم القادر على ذلك إن امتنع عنه.

* والمسئولية الاجتماعية -التى تنبع منها الخدمات الاجتماعية- تعنى أن كل خدمة اجتماعية يؤديها الإنسان للمجتمع، فإنه يؤديها لنفسه وذويه أولاً؛ للارتباط الوثيق فى الإسلام بين الفرد والمجتمع.

- وقد حمَّل الإسلام هذه المسئولية لكل فرد على حدة، ولكل بيت وأسرة وجماعة بوصفها مجموعة أفراد؛ وحمَّلها للمجتمع بوصفه أسرًا وجماعات، وحمَّلها لكل وطن عربى بوصفه جزءًا من العالم العربى، وللعالم العربى بوصفه جزءًا من العالم الإسلامى.

- والمسئولية الاجتماعية بالنسبة لهؤلاء جميعًا واجبة، لأنها تسهم فى حل مشكلات المسلمين وتلافى ما يواجه حياتهم من نقص أو قصور، وهى فى الوقت نفسه تعزز أخوتهم فى الدين وانتماءهم له، وتسهم فى أن تسود القيم الإسلامية المجتمع المسلم، فضلاً عما فى هذه الخدمات الاجتماعية من التكافل بين أوطان العالمين العربى والإسلامى، فضلاً عما تسهم به هذه الخدمات من أعمال جليلة تقرب إمكان الوحدة بين دول العالمين العربى والإسلامى، تلك الوحدة التى تحاربها وتترصدها كل القوى المعادية للإسلام والمسلمين.

هـ- والنضج الاجتماعى:

التكافل الاجتماعى فى الإسلام يجلب خيرًا كثيرًا، ويدرأ شرًا كثيرًا عن الفرد والجماعة والمجتمع المسلم.

ومن أنواع الخير التى يجلبها للمجتمع المسلم النضج الاجتماعى أى الدرجة الجيدة من الوعى الاجتماعى، بل من التكيف الاجتماعى والانسجام والتلاؤم بين الفرد والمجتمع، وبين مصالح الفرد ومصالح المجتمع فى ظل سيادة القيم الإسلامية.

* والمؤسسات التى تسهم فى تكوين النضج الاجتماعى هى نفس المؤسسات التى زودت الفرد بأسس التنشئة الاجتماعية من: البيت، والمدرسة، والمسجد، والمجتمع...

* والنضج الاجتماعى -أو التكيف مع المجتمع المسلم- له صفات أو مظاهر تلحظ فيمن نضج من الأفراد والجماعات والأسر والمجتمع كله، ومن هذه الصفات:

- حسن استفادته من بيته ومن المسجد والمدرسة والجماعات بحيث تتم تنشئته تنشئة اجتماعية إسلامية، تفرز معطياتها التى تحدثنا عنها آنفًا.
- ورغبة الفرد أو الأسرة أو الجماعة فى المبادرة إلى فعل الخير، وإلى دفع الشر ومقاومته.
- والاستقرار النفسى والعقلى والعاطفى الذى يلحظ على كل ناضج اجتماعيًا فى المجتمع المسلم.
- وحسن تقديره للناس وللمواقف والأشياء، بحيث ينظر إلى كل ذلك بمنظار الإسلام وتحكيم قيمه ومبادئه.
- ودقة التزامه فى الاستجابة لما أمر الله به، وفى الامتناع عما نهى عنه.
- وحسن تعامله مع غير المسلمين وفق معايير الإسلام ونظمه دون تهويل أو تهوين، ودون تعالٍ عليه أو انبهار به، وإنما يخضعه لميزان الإسلام الدقيق العادل.

و- والرفاهية الاجتماعية:

وهى نتيجة من نتائج التكافل الاجتماعى فى المجتمع المسلم، وهى هدف من أهدافه، بل من أهداف النظام الاجتماعى الإسلامى، بل من أهداف الإسلام نفسه.

* والرفاهية الاجتماعية ليست ترفًا، ولا بطرًا، وإنما هى فى الحقيقة نسق أو نظام من الخدمات الاجتماعية التى تقوم بها الحكومة وهيئاتها ومؤسسات المجتمع المدنى، مستهدفة مساعدة الأفراد والجماعات للوصول إلى مستويات جيدة من المعيشة الإنسانية الكريمة التى تليق بالإنسان الذى كرمه الله تعالى وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير من مخلوقاته تفضيلاً ملحوظًا.

* وإذا كان الترف والبطر يستهدف التعالى على الناس أو ازدراء بعضهم فإن الرفاهية الاجتماعية تستهدف حياة الناس وإراحتهم، بتنمية مهاراتهم وقدراتهم فى مجال ما يقومون به من عمل، بحيث يجلب لهم الخير، ويدفع عنهم الشر، وكل ذلك من الأهداف المشروعة، والتطلعات الإنسانية المقبولة، وهى تدخل فى مجال أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكل حسن وملبس حسن ومركب حسن ومسكن حسن دون إسراف أو مخيلة ودون ظلم للناس أو تنكر لحقوقهم.

٦ - وتحقيق الوحدة بين المسلمين:

من أبرز أهداف التعليم والتربية فى المجتمعات الإسلامية: تحقيق الوحدة بين المسلمين، وحدة العالم العربى، ووحدة العالم الإسلامى.

هذه الوحدة الإسلامية جزء رئيس من مكونات المجتمع الإسلامى، وهى تعضيد لمبادئ الإسلام وتوسيع لرقعة المتعاملين بها والمتمسكين بمبادئها وقيمها، والعاملين على أن تسود هذه القيم الإسلامية.

* ومن المعروف أو الملموس عيانًا أن قوى كثيرة من أعداء الإسلام تضع من العراقيل والعقبات ما يعوق هذه الوحدة بين العرب خصوصًا وبين المسلمين عمومًا، وتقديم الأدلة على ذلك ليس أمرًا صعبًا لأنه مشاهد سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا فى بعض الأحيان.

* والوحدة بين المسلمين واجب دينى، دلت عليه آية من القرآن الكريم وعدد من الأحاديث النبوية الشريفة.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

أى أن هذه الأمة أو الملة التى هى الإسلام الخاتم هى ملتكم الصحيحة الواحدة المتجانسة، أى يجب أن تحافظوا عليها واحدة وأن تتوحدوا بها فلا تتفرقوا شيعًا وأحزابًا، لأن ربكم واحد ودينكم واحد، فاعبدوا ربكم وحده، وتوحدوا على الدين الخاتم.

وما رواه الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «.... وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملَّة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة، كلهم فى النار إلا ملة واحدة؛ قالوا: ومن هى يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى».

* والوحدة بين المسلمين قيمة عظيمة من بين القيم الإسلامية العظيمة؛ وذلك أن القيم الإسلامية لها مصادر ومنابع ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان وهى:

- القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكل ما اشتملا عليه من قيم.
- والعقيدة الإسلامية القائمة على توحيد الله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا ورازقًا....
- والشريعة الإسلامية بكل ما تفرع عنها من أحكام فى العبادات والمعاملات.

- والأخلاق الإسلامية كما ذكرت فى القرآن الكريم وكما التزم بها الرسول الخاتم ﷺ.

* كما أن لهذه القيم الإسلامية منابع ومصادر قد تتغير بتغير الزمان والمكان مثل:

- الأفكار والمفاهيم النابعة من الكتاب والسنة، كما يفسرها علماء المسلمين فى كل عصر.

- وما يراه المسلمون حسنًا فى أى عصر.

- والأنظمة السياسية والاقتصادية التى يضعها المسلمون فى أى عصر، لتجلب للمسلمين نفعًا أو تدفع عنهم ضررًا.

* وقيمة الوحدة بين المسلمين سبب من أقوى أسباب تقدمهم ورقيهم وامتلاكهم للعلم والتقنية فى كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية.

* والوحدة بين المسلمين واجب عقلى شرعى لا ينكر وجوبها إلا ذو عقل قاصر ضعيف، أو متهاون فى تطبيق الشريعة الإسلامية.

- أما أنها واجب عقلى؛ فلأنها سبب من أسباب قوة المسلمين وعزتهم، وبغيرها -أى بتفرق المسلمين- لا قوة ولا عزة لهم، ومادامت سببًا فى ذلك فهى واجب، لأن الله تعالى أخبر أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولا يعطى الله تعالى العزة للمؤمنين إلا بطاعته سبحانه وتعالى، وما لا يتم الواجب إلا به -وهو العزة والقوة- فهو واجب- وهو وحدة المسلمين وجمع شملهم.

- والوحدة بين المسلمين واجب عقلى وشرعى بسبب أنها تقى المسلمين التفرق والخذلان والنزاع، وكل ذلك مما نهى الله تعالى عنه، فمن الواجب تركه وترك الأسباب المؤدية إليه وهى الفرقة والانقسام والنزاع، فوحدة المسلمين واجب لأنها تحول بينهم وبين التفرق والانقسام والضعف.

* والوحدة بين المسلمين واجب عقلى وشرعى، لأن بها يستطيع المسلمون أن يتكاتفوا فيدفعوا عن أنفسهم المضرةَّ المادية والمعنوية التى تقع على الفرد والمجتمع.

- أما الأضرار المادية التى تدفعها الوحدة عن المسلمين فكثيرة منها:

* دفع الحاجة عن المحتاجين من فقراء ويتامى وأرامل ومنقطعين عن أهلهم وذويهم، وكل ذلك واجب عقلاً وشرعًا.

* ودفع الحاجة عن العـاطلين والعاجزين عن العمل، ومن لا يجدون مـا ينفقون، وكل ذلك واجب عقلاً وشرعًا.

* وغير ذلك من أضـرار مادية كرد الأعداء، والإسهام فـى تخفيض وقع الكوارث على الناس.

- وأما الأضرار المعنوية فكثيرة، ورفعها واجب أيضًا، ومما يتسبب فى رفعها وحدة المسلمين وتكاتفهم فى مواجهة هذه الأخطار، ومن تلك الأضرار المعنوية:

* قهـر المسلمين فى أى وطن والافتـيات على حقـوقهم، أو مـعاملتهم مـعاملة تتـجاهل حـقوقـهم الإنسانيـة، إذ تمس ما كـفله لهم الإسـلام من حريات، وذلك عندمـا يكون المسلمـون أقلية أو مـواطنين من الدرجة الثـانية فـى أى بلد من البلدان، إن المسلمين لا يستطيعـون أن يرفعوا عن إخوانهم هذه الأضرار المعنوية إلا بأن يكونوا وحـدة لها شوكة ومهابة.

* وقوع بعض المسلمـين فى أسْر الأعداء، أو تحت سـيطرتهم أو معتـقلاتهم، فهـذا ضرر معنوى للأمـة الإسلاميـة كلها، عليـها أن تبذل جـهدها لدفع هذا الضـرر عن الأسرى والمعتقلين، وهذا واجب شرعى لا يعين عليه مثل وحدة الأمة الإسلامية وتوحد صفوفها لمواجهة هذه الأخطار.

* ووحدة المسلمين هى التى تجلب لهم القوة فى كل مجـالات الحياة، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة:

- القوة التى تمـكن المسلمين من ممارسة الدعـوة إلى الله تعالى والحركـة بدينه فى الناس والآفاق، وهذا واجب تمكنهم منه وحدتهم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

- والقوة التى تمكنهم من تطبـيق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهمـا قطبا الدين، وصمـام الأمان للمجـتمع المسلم الذى يجب أن تسـوده الفضـائل، وأن تنحسر فـيه الرذائل حـتى يأمن الناس على أنفـسـهم وذويهم وأمـوالهم، والوحـدة بين المسلمين تساعد على ذلك وتيـسره، لأن هذين القطبين قد يحتـاجان إلى قوة تؤيد تطبيقـهما، والوحدة سبيل القوة، فالوحدة واجب عقلى وشرعى.

- والقوة التى تمكن المسلمين من ردع الأعداء حربًا أو قتالاً، فالوحدة هى التى تجعل المسلمين صفًا واحدًا فى مواجهة أى عدو لله وللمسلمين، وما يتحقق النصر فى هذه المعارك إلا والمسلمون صَفّ كأنهم بنيان مرصوص.
- والقوة السياسية لمواجهة التكتلات المعادية للإسلام والمسلمين وحشد الرأى العام العالمى لإبطال مخططاتهم، ولتأييد قضايا المسلمين فى أى مكان.
- والقوة الاقتصادية التى تجعل من المسلمين أمة ذات وزن اقتصادى عالمى، وبخاصة فى مجال ما تملكه من خامات ومواد أولية ومقدرات اقتصادية عديدة، ولن تخرج أوطان المسلمين من سيطرة أعدائها عليها اقتصاديًا إلا بأن تكون الوحدة بين المسلمين أمرًا واقعًا.
- والقوة الإعلامية، إذ أصبحت أجهزة الإعلام وآلياته ذات تأثير وفاعلية؛ فى جذب من توجه إليه إحدى وسائل الإعلام،وفى تكوين رأى عام مساند لقضايا الأمة الإسلامية فى المحافل الدولية، وليس ذلك متاحًا إلا بالوحدة بين المسلمين، فالمتحدون تكون أجهزة إعلامهم أشد فاعلية وأعظم تأثيرًا فى الرأى العام.
- والقوة التقنية القائمة على العلم والاكتشاف، لأن وحدة المسلمين تؤدى بالضرورة إلى تعميق البحث العلمى وتبادل الخبرات بين جامعاتهم وهى ألوف من الجامعات، وتبادل الخبرات العلمية والتقنية فى مجالات الزراعة والصناعة والتعدين، والطب والعلاج، وكل ذلك طريقه وحدة المسلمين، وكل ذلك واجب، فالوحدة واجب.

*** أسباب تيسير الوحدة بين المسلمين:**

من رحمة الله تعالى بالمسلمين أن يَسَّر لهم الوحدة فى أى زمان وأى مكان إذا هم عقدوا العزم عليها وأخلصوا النوايا فى تحقيقها، وجعلوها واقعًا يعيشونه ويتقلبون فى خيره وعزِّه؛ فقد يسّرها وهيأ لها أسبابًا تعين على الوصول إليها. ومن هذه الأسباب:

أولاً: وحدة الدين:

وقد تمثلت وحدة الدين الإسلامى الخاتم فى أمور:

أ- وحدة الإله الخالق المعبود فلا إله غيره.

ب- ووحدة مصدرى الدين الكتاب والسنة.

ج- ووحدة النبى الخاتم فلا نبى بعده.

د- ووحدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، فالعقيدة بذلك الإيمان واحدة.

هـ ووحدة أركان الإسلام وهى: الشهادتان، والصلاة، والصيام، والزكاة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

و- ووحدة القِبْلة التى يتوجه إليها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وهم يؤدون الصلوات الخمس فى كل يوم وليلة.

ز- ووحدة القِيم الخلقية، فالفضائل والرذائل تظل كذلك إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، فالصدق هو الصدق فى كل زمان ومكان، وكذلك العفة، والعدل، والشجاعة، وعون المحتاج، وغوث اللهيف، والكذب هو الكذب فى كل زمان ومكان، وكذلك الخيانة، والظلم، والجبن، وعدم الاستجابة للمحتاج واللهيف.

ثانيًا: ووحدة المنهج:

وقد نبعت وحدة المنهج من أصوله وقواعده نص عليها القرآن الكريم، وتفصيلاته وتفسيراته تكفلت بها السنة النبوية المطهرة، وما وراء ذلك من تفصيلات تركت لاجتهاد المسلمين فى كل عصر ومصر ماداموا لم يخالفوا شيئًا مما جاء فى الكتاب والسنة.

المنهج واحد فى نظام الحكم القائم على البيعة والعدل والشورى والالتزام بالحقوق والواجبات.

والمنهج واحد فى التربية والسياسة والاقتصاد والنظم الاجتماعية كما جاءت فى الكتاب والسنة إجمالاً، وكما يفصلها المجتهدون فى كل عصر ومصر ماداموا لم يخالفوا شيئًا مما جاء فى الكتاب والسنة.

ثالثًا: ووحدة الدعوة والحركة بالدين:

لن يختلف المسلمون فى آنٍ من الزمن مهما بعد على أن الدعوة إلى الله، إلى الدين الحق واجب أبدى، وأن الحركة بهذا الدين فى الناس والآفاق مواكبة للدعوة، وأن ذلك كله واجب لا يسقط إلا عن العاجز عنه، وأن جميع المسلمين القادرين على الدعوة والحركة لا يفارقهم هذا الواجب إلى أن يلقوا ربهم.

وللدعـوة إلى الله تعـالى وللحـركـة بدينه فى الناس والآفـاق شـروط وآداب وأهداف ووسـائل تدل عليـها جـميـعًـا بعض آيات القـرآن الكريم وأحاديث الـنبى ﷺ، وسيـرته العطرة[١].

رابعًا: ووحدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

كل ما أمر الله به تعالى من معروف أو خيـر -وهو كثير- أو أمر به الرسول الخاتم ﷺ من معروف أو خير -وهو كثير أيضًا- يستمر العمل به إلى يوم القيامة، ويظل هذا المعروف معروفًا ولن يتحول إلى منكر أبدًا مهما تطاول الزمان ومهما تعدد المكان.

وكل ما نهى الله تعالى عنه من منكر أو شر -وهو كثير- أو نهى عنه الرسول الخاتم ﷺ من منكر أو شر -وهو كثير أيضًا- يستـمر النهى عنه إلى يوم القيامة، لأنه سيظل هذا منكرًا أو شرًا ولن يستطيع الزمان أو المكان أن يحوله إلى معروف أو خير.

كل المسلمين فى مشـارق الأرض ومغاربها يوحدهم الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذلك مما يسّر الله تعالى من أسباب الوحدة بين المسلمين رحمة منه ولطفًا.

خامسًا: وحدة الجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمته هى العليا:

الجهاد فـريضة محكمة أوجبهـا الله تعالى فى كتابه وسنة نبيـه ﷺ على كل مسلم قادر عليها بنفسه وجسده أو بمالـه وجاهه أو بقدرته على تخذيل الأعداء وإرهابهم حتى لا يشنوا حربًا على المسلمين.

وقد أمر الله تعـالى بالإعداد للجهاد بما يسـتطيع المسلمون من قوة وآلـة، وجعل هدفه إرهاب عدو الله وعدو المسلمين حتى لا يشن حربًا على المسلمـين، وهو فريضة ماضية إلى يوم القيامة لا يلغيها جـور حاكم جائر، ولا ظلم ظالم، إذ هى من الثوابت التى لا تتوقف فى زمان أو مكان مادامت للمسلمين أمة ومادام لهم أعداء.

سادسًا: ووحدة العمل والتعاون:

العمل فى الإسلام واجب عقلى شرعى يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى ليقينه بأن الله تعالى سيراه ويحـاسبه عليه، وما من مؤمن بالله ورسـوله يجوز له أن يترك العمل ويؤثر البطالة؛ لأن الأمـر بالعـمل ثابت بدليل قـطعى الورود وقطعى الدلالة، وهو قـوله

---

(١) لنا كتاب موسع فى فقه الدعوة إلى الله فى أكثر من ألف صفحة -نشر دار الوفاء فى أكثر من طبعة.

تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

فالخطاب فيه لكل المؤمنين بل لكل الناس، لأن الأصل أن يعمل الإنسان، بل أن يجيد عمله ويتقنه ويحسنه؛ لأن الله تعالى يحب إذا عمل أحد عملاً أن يتقنه، ولأنه سبحانه وتعالى قد كتب الإحسان على كل شىء، حتى عند القتل أو الذبح، فقد روى مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: ثنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته فليُرِحْ ذبيحته»[1].

ومع العمل يكون التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان للأمر بذلك من الله تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ [المائدة: ٢].

فقد يسَّر للمسلمين وحدتهم على العمل والتعاون.

سابعا: وحدة الحب فى الله تعالى، وحب نبيه والمسلمين والناس عمومًا:

حب الله تعالى خضوع له وتذلل وعبادة، وحب الناس تواد وتراحم وتعاون على الخير وتكافل وإيثار.

وقد أنعم الله على الأمة الإسلامية بأن وحَّدهم على الحب له، ولخلقه من ناس وأشياء.

وقد تفضل الله على الأمة الإسلامية بأن جعل فى عقيدتهم وشريعتهم هذا الحب ووحَّدهم عليه وبين لهم حدوده ومعالمه، وجعله سببا من أسباب وحدة المسلمين.

والحب عند المسلمين درجات: أعلاها وأشرفها حب الله تعالى وحب رسوله الخاتم ﷺ وحب أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

ثم حب المؤمنين، وحب الناس جميعًا، وحب الخير، ثم حب الأشياء جميعًا بدءًا بالحيوان فالنبات ثم سائر الأشياء.

ولكل نوع من هذا الحب شرع الله تعالى أسلوبا فى التعبير عنه بعيدًا عن المغالاة والتهوين.

---

(١) ورواه أبو داود (فى الأضاحى) ورواه الترمذى (فى الديات) ورواه النسائى (فى الضحايا) ورواه ابن ماجه (فى الضحايا) ورواه الدارمى (فى الأضاحى).

ولنلق بصيصًا من الضـوء على كل نوع من أنواع هذا الحب الذى أسهم فى وحدة الأمة الإسلامية.

أ- حب الله تعالى:

من نِعَم الله على المسلمين أن وحدهم على حبه، فأوجب عليـهم أن يحبوه حبًا يقتضى خضـوعهم له ولمنهـجه، وعبـادتهم إياه وفق ما شـرع لهم مما جاءت به الأنبـياء والرسل، وبخاصة خاتمهم مـحمد ﷺ، حيث أوجب عليهم حب ما جاء به مـحمد ﷺ من القرآن الكريم وسنته وسيرته ﷺ، وأوجب عليهم تعظيم الله تعالى وتقديسه.

* وحب الإنسان لله تعالى لابد أن يصحبه ويعبر عـنه عمل صالح وطاعة لله تعالى بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

- وحب الله تعالى فى أعلى درجاته هو كمال طاعته وإيثاره على من سواه، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥].

- ومحبة الله تعالى هى دعوة كل رسول من رسله وكل نبى من أنبيائه، وهى أول ما يدخل به الإنسان الجـنة، وهى أصل الإيمان وركن الإسـلام، وقمة الإحـسان، وباب طاعـته سبحـانه وتعالى وطاعة رسـوله ﷺ، ومن أجل تحقيق هذه المحبـة لله تعالى، أنزل الله تعالى الكتاب والميـزان، كما أنزل الحديد، فالكتـاب يهدى إلى محبته، والميـزان لقياس درجة المحـبة للمكافأة عليـها، والحديد ببـأسه وقوته لعـقاب من خرج عن هذه المحـبة فأشرك مع الله تعالى غيره فى هذه المحبة، أو سـوّى بينه وبين غيره فى المحبة، ولنفعهم فى دنياهم منافع عـديدة يفهم ذلك من قـوله تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحديد: ٢٥].

- وحب الإنسان لله تعالى يقتضى أموراً جوهرية بغيرها لا يكون هذا الحب، ومن تلك الأمور:

١- توحيد الله تعالى إلهًا وخالقًا ورازقًا...

٢- وعبادته وحده جميع أنواع العبادة التى شرعها وبلغ بها نبيه الخاتم ﷺ.

٣- وإجلاله وتعظيمه.

٤- وخوفه ورجاؤه، والتوبة إليه وحده.

٥- والتوكل عليه والإنابة إليه، والاستعانة به، والحلف به وحده.

٦- وحب ما يحبه سبحانه وتعالى من قول أو عمل، وحب من يحبه من الناس.

٧- وأن يكون حب الناس من أجله سبحانه وتعالى، أى حب من كان حيث أمره الله تعالى.

٨- وحب أنبيائه ورسله عليهم السلام وطاعتهم.

٩- وحب امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه.

١٠- وحب المؤمنين.

١١- وحب الناس جميعًا لدعوتهم إلى الله وإلى الدين الحق.

١٢- وحب الموجودات كلها والتعامل معها بالإحسان.

* وكل هذه الأمور التى يستلزمها حب الله تعالى تدعم وحدة هذا الحب وتؤكد وحدة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، ليحسن محب الله تعالى الاستفادة مما خلق الله له وسخر من شىء فى الأرض أو فى السماء.

* نتيجة هذا الحب كله بمختلف أنواعه هى: وحدة المسلمين.

- ميزات الأمة الإسلامية وصفاتها:

وذلك أن وحدة المسلمين التى يحدوها الحب لله تعالى، تتجاوب مع ما ميز الله به الأمة الإسلامية من ميزات لم يجمعها لأمة من الأمم، ومن هذه الميزات أو الصفات:

١- أنهم الأمة الوسط من بين الأمم كلها:

* فهم وسط فى عبادة الله تعالى دون تطرف بالمبالغة أو التساهل.

* وهم وسط فى التعامل مع الناس والأشياء رائدهم فى هذا التعامل الإحسان والسماحة.

* وهم وسط فى التعامل مع مطالب الروح ومطالب الجسد.

* وهم وسط فى مراعاة التعادل بين ما تقتضيه الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

* وهم وسط فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

* وهم وسط فى الدعوة إلى الله تعالى وفى الحركة بدينه فى الناس والآفاق.

* وهم وسط فى ممارسة الجهاد فى سبيل الله، رائدهم هداية الناس لا قتلهم وإبادتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا....﴾ [البقرة: ١٤٣].

٢- وأنهم خير أمة أخرجت للناس من بين الأمم، لا لفضيلة عرقية أو إقليمية فيهم، ولكن لما يقومون به من عمل يحقق لهم وللناس خير الدنيا والآخرة، وذلك ثلاثة أنواع من العمل هى:

* الإيمان بالله تعالى بكل مفرداته التى يدخل فيها الإيمان بالملائكة وكتب الله تعالى ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

* والأمر بكل معروف كل أحد من الناس، حتى يعم الخير والبر والسلام.

* والنهى عن كل منكر كل أحد من الناس، حتى ينحسم الشر والضرر والعداء.

قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.....﴾ [آل عمران: ١١٠].

٣- وأنهم الأمة التى أراد الله تعالى بها اليُسر، اليُسر فى العبادة والمعاملة، فلم يكلفهم إلا بما يطيقون ولم يشق عليهم، ولم يجعل عليهم فى الدين من حرج. قال الله تعالى: ﴿....يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال جل شأنه: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾ [الحج: ٧٨].

وروى أحمد بسنده عن محجن بن الأدرع -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «... إنكم أمة أريد بكم اليسر».

٤- وأنهم الأمة القائمة بأمر الله تعالى -أى دينه ومنهجه ونظامه إلى يوم الدين-، لا يضرهم من كذبهم أو خالفهم، فهم الأمة التى يستقيم على يدها الأمر إلى يوم القيامة.

روى البخارى بسنده عن معاوية رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «... ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة أو يأتى أمر الله».

وروى مسلم بسنده عن جابر بن سمرة عن النبى ﷺ قال: «لايزال هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة».

٥- وأنهم أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة، إنما يكون عذابها فى الدنيا فتنا وزلازل وقتلا، وهذا تفضل من الله عليها لأن الآخرة هى دار القرار، والدنيا دار الارتحال، والرابح من ربح آخرته.

روى أبو داود بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة، عذابها فى الدنيا: الفتن، والزلازل، والقتل»**.

٦- وأنهم أمة لا تجتمع على ضلالة، وإنما يكون لـلحق فيها أنصار يؤيدونه ويذودون عنه، ويضحون فى سبيله.

روى ابن ماجه بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أمتى لا تجتمع على ضلالة، فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم»**.

٧- وأنهم الأمة المبشرة بالسناء والرفعة فى الدين والنصر والتمكين فى الأرض.

روى أحمد بسنده عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب»**.

٨- وأنهم الأمة التى يفتح الله عليهم الأرض، ويفيض عليهم من نعمه فيها بما لا يظنون.

- روى ابن ماجة بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: أول ما سمعنا بالفالوذج أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال: **إن أمتك تفتح عليهم الأرض فيفاض عليهم من الدنيا حتى إنهم يأكلون الفالوذج، فقال النبى ﷺ: وما الفالوذج؟ قال: يخلطون السمن والعسل جميعا، فشهق النبى ﷺ لذلك شهقة**.

٩- وأنهم الأمة التى يتم الله بها سبعين أمة، فيكون عند الله خير هذه الأمم وأكرمها على الله تعالى.

- روى الترمذى بسنده عن معاوية بن حيدة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنتم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»**.

- وروى أحمد بسنده عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ألا إنكم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل»**.

١٠- وأنهم الأمة التى لا يجوز لأحد أن يكفرها بذنب أذنبه بعضها، فمن كفرها بذلك فهو إلى الكفر أقرب.

- روى الطبرانى -فى الكبير- بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«كفوا عن أهل لا إله إلا الله، لا تكفروهم بذنب، فمن كفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب»**.

* إن وحدة الحب فى الله تعالى، وفى الحق الذى أنزله على خاتم رسله ﷺ، وفى الإنسانية التى كرمها الله تعالى فى كتابه الخاتم إذ كرّم بنى آدم جميعا. إن تلك الوحدة هى التى تغذى وحدة الأمة الإسلامية أو تمدها بأسباب قوتها واستمرارها.

* ومع وحدة الأمة الإسلامية تكون القوة والعزة والنصر، ويكون معها التقدم والرقى العلمى والفنى والإنسانى فى كل مجال من مجالات الحياة، وبهذا يكون الخير للمسلمين جميعًا فى دينهم ودنياهم.

ب- حب النبى وسائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام:

* حب أنبياء الله تعالى ورسله دون التفرقة بينهم فى الحب والاحترام شرط فى إيمان المؤمن وإسلام المسلم، ومدعاة رضا الله تعالى وتوفيقه فى كل الأمور.

* وحب خاتمهم محمد ﷺ يعنى فى الشريعة الخاتمة السمحة عددًا من الأمور، منها:

- طاعته فى كل ما جاء به طاعة التزام وتطبيق.

- واعتبار سنته ﷺ مفسرة للقرآن الكريم حينًا ومتممة ومفصلة لما أجمل فيه حينًا آخر.

- واتخاذه ﷺ قدوة وأسوة فى القول والعمل والخلق والسلوك.

- وأن يكون الرسول الخاتم ﷺ أحب إلى المسلم من والده وولده.

بكل ذلك وردت النصوص الإسلامية فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة.

- قال الله تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**﴾ [النساء: ٨٠]

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال ﷺ: **«ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا»**.

- وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**.

جـ- حب المؤمنين والناس جميعًا:

- أما حب المؤمن لأخيه المؤمن فمن مقتضيات الإيمان، وهذه الأخوة الموجبة للحب قد قررها الله تعالى فى كتابه الكريم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، قال الإمام القرطبى: «أى فى الدين والحرية لا فى النسب» وقال الإمام ابن كثير: «أى الجميع إخوة فى الدين» كما قال رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»**.

* والحب -كما أوضحنا آنفا- إنما يكون فى الله وبالله، أى حب من نجده حيث أمره الله، ولا نجده حيث نهاه الله.

* والحب والألفة للناس صفة من صفات المؤمن إن فقدها فلا خير فيه كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ.

روى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن مألف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»**.

وروى النسائى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**.

- وأما حب الناس جميعا فمطلب إسلامى رئيس دعا إليه الرسول ﷺ.

* وحب الناس يعنى الرفق بهم، ودعوتهم إلى الخير وحب الخير والهدى لهم وبرهم والكف عن إيذائهم بقول أوصمت أو عمل أو ترك، والإحسان إليهم على كل حال، حتى فى حالة الحرب والقتال، فإن الإسلام يأمر بالإحسان إلى قتلى الأعداء بالامتناع عن تشويه جثثهم، والإحسان إلى الأسرى من الأعداء، وتحين الفرص لفكهم من الأسر.

* وحب الناس الذى يقتضى حسن تعاملهم إطار وسَّعه الإسلام فاشتمل على غير المسلمين من أهل الكتاب، بل من المشركين، حيث أمر بإحسان معاملتهم والعدل معهم وإكرام الجار والضيف منهم، وإنقاذ المشفى على الهلاك من غرق أو خطر.

- قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

- وروى القضاعى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس»(١).

- وروى مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه».

* وحب الناس جميعًا فى الإسلام ينطلق من حب الخير لهم، وأحسن الخير نقلهم من الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحق، ولذلك أجمع علماء المسلمين على أن الناس جميعا أمة دعوة أى يجب أن توجه إليهم الدعوة إلى الدين الحق دون إكراه، لأنه لا إكراه فى الدين، ومن استجاب من الناس إلى الدين الحق فقد صار من أمة الإجابة وأصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وأصبح له حقوق الأخوة فى الإسلام وهى كثيرة.

د- حب سائر مخلوقات الله تعالى:

وأهم هذه المخلوقات بالنسبة للإنسان هى:

الحيوان، والنبات، ثم سائر مخلوقات الله تعالى.

* وحب الحيوان -فى الإسلام- يعنى رعايته والرفق به وتحريم ضربه أو تعذيبه، أو تحميله ما لا يطيق، والاستفادة به كما أحل الله تعالى.

والنصوص الإسلامية فى ذلك كثيرة، نذكر منها:

- روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «بينا رجل يمشى، فاشتد عليه العطش فنزل بئرًا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خُفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله: وإن لنا فى البهائم أجرًا؟ قال: «فى كل كبد رطبة أجر».

(١) ورواه: الطبرانى، والدارقطنى، والبيهقى، وابن عساكر بأسانيدهم يصلون بها إلى جابر رضى الله عنه.

- وروى أحمد بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع من الدواب، النملة، والنحلة، والهدهد، والصُّرَد[١].

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأُخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق فى النار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة»**.

- وروى البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **«دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»**.

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن قتل الصُّرد والضفدع والنملة والهدهد».

- وروى مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أن يُقتل شىء من الحيوانات صبرًا»[٢].

- وروى النسائى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يتخذ شىء فيه الروح غرضًا».

- وروى أحمد بسنده عن ابن عمر -رضى الله عنه- قال: «نهى رسول الله ﷺ عن خصاء الخيل والبهائم».

- وروى ابن ماجة بسنده عن على رضى الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن ذبح ذوات الدَّرّ».

هذا موجز من النصوص الإسلامية التى تشير إلى وجوب حسن معاملة الحيوان وحبه والشفقة عليه، وليس اتخاذ بعضه وسيلة للتلهى والتسلية كما يفعل من يدعون التحضر فيصارعون الثيران، أو يتسلون بصراع الديكة ونحو ذلك!! فضلا عن مختلين عقليًا وإنسانيًا يتلذذون بقتل الإنسان عن طريق الكلاب المدربة، وترويعهم بالأسود والنمور، وسائر أنواع التعذيب!!

(١) الصُّرد: طائر أكبر من العصفور ضخم الرأس والمنقار، يصيد صغار الحشرات، وربما صاد العصفور، وكانوا يتشاءمون منه.

(٢) وفى رواية البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن تُصبَّر البهائم» ومعنى ذلك أن تترك البهائم دون طعام أو شراب حتى تموت صبرا.

* وحب النبات والشجر فى الإسلام يعنى رعايته والإفادة منه، وإعطاء الحقوق لأصحابها منه، كما يعنى التدبر فى حكمة الله تعالى أن جعل فيما يأكل الناس والبهائم والطيور من أى زرع أو غرس صدقة وثوابًا لمن زرع أو غرس.

والنصوص الإسلامية فى هذا المجال عديدة نذكر منها:

- قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]

- وقال جل شانه: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

* وأما الأحاديث النبوية الشريفة فعديدة منها:

- ما رواه الطبرانى -فى الكبير- بسنده عن الحسين بن على رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «النخل والشجر بركة على أهله، وعلى عقبهم بعدهم إذا كانوا شاكرين».

- وما رواه مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعا، فيأكل منه إنسان، ولا دابة، ولا شيء إلا كانت له صدقة».

- وروى أحمد بسنده عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف شجرة بركتها كالرجل المسلم؛ النخلة».

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عُرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الريح».

* وحب الأماكن فى الإسلام يعبر عن الولاء لهذه الأماكن وحبها والحفاظ عليها، والتدبر فى نعمة الله تعالى بها علينا، وشكر هذه النعم بالمحافظة عليها نظيفة نافعة، والامتناع عن الإساءة إليها بقول أو عمل إذ هى مما سخر الله للإنسان من مخلوقاته ليسبغ عليه نعمه.

وفى ذلك عدد من النصوص الإسلامية نذكر منها:

من آيات القرآن الكريم:

- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

- وقال جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

- وقال عز وجل: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ١٧- ٢٦].

وأما الأحاديث النبوية الشريفة؛ فمنها:

- ما رواه الترمذى بسنده عن عبد الله بن عدى بن حمراء الزهرى قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفا على الحَزْوَرة[1] فقال: **«والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت»**.

- وما رواه الترمذى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لمكة: **«ما أطيبك من بلد، وأحبك إلىَّ ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك»**.

- وما رواه الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بحَرَّة السُّقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص -رضى الله عنه- فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليلك ودعا لأهل مكة بالبركة، وأنا عبدك ورسولك، أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مدهم وصاعهم، مِثْلَىْ ما باركت لأهل مكة، مع البركة بركتين»**.

- وما رواه أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: **«إنّ أُحدًا هذا جبل يحبنا ونحبه»**.

---

(١) الحزورة فى اللغة: الرابية الصغيرة، وفى هذا السياق من الكلام هى: سوق مكة.. وقد دخلت فى المسجد عندما زيد فيه.

– وما رواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوبًا، وأرق أفئدة، الإيمان يمانٍ والحكمة يمانية»**.

– وما رواه الترمذى بسنده عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن مِنَ الرِّقاع، فقال رسول الله ﷺ: **«طوبَى للشام»** فقلنا: لأى ذلك يا رسول الله؟ قال: **«لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها»**.

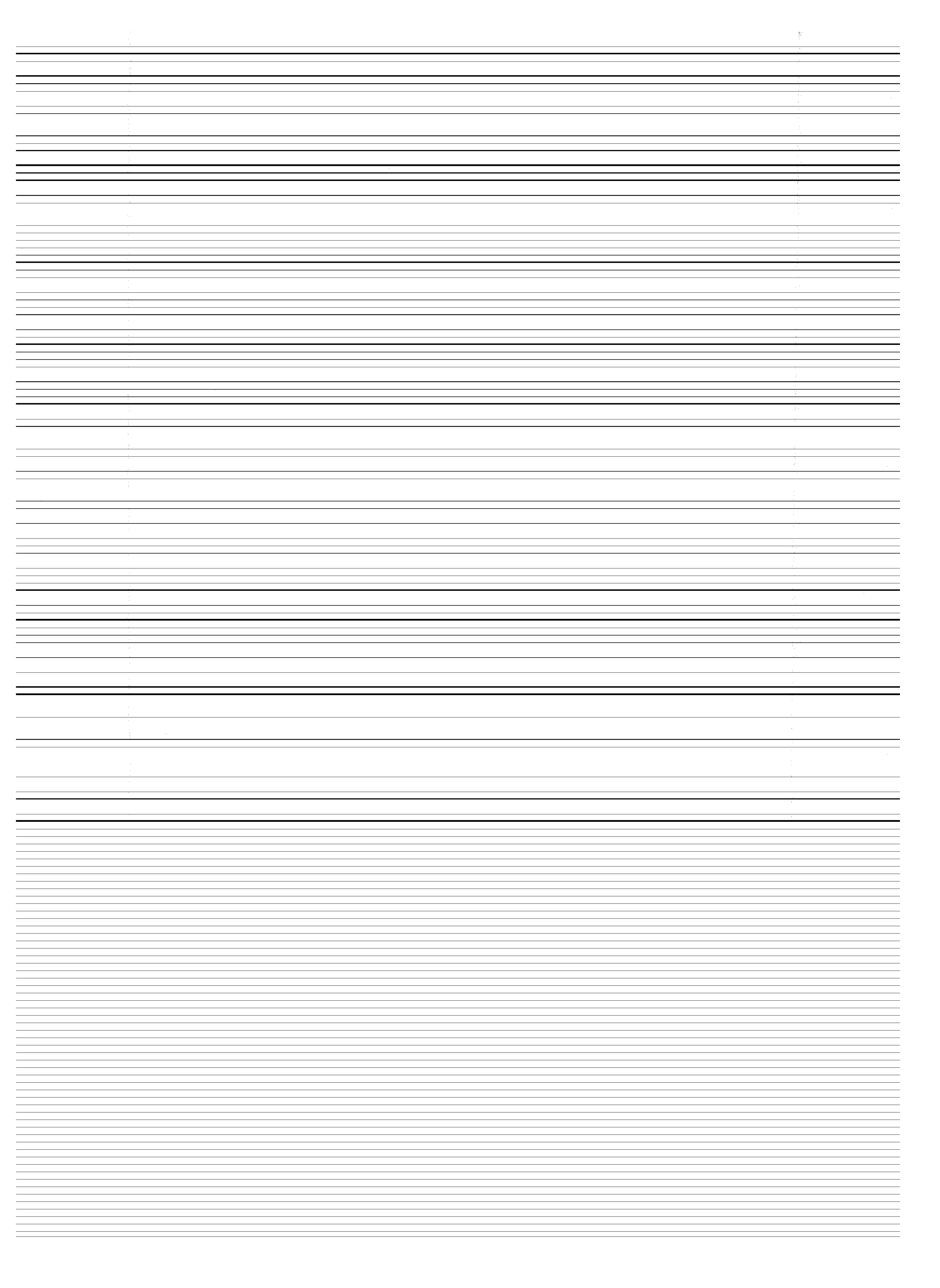
– وما رواه أحمد بسنده عن أبى ذرّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط؛ فإذا فتحتموها؛ فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم رحما وذمة»** أو **«ذمة وصهرًا»**.

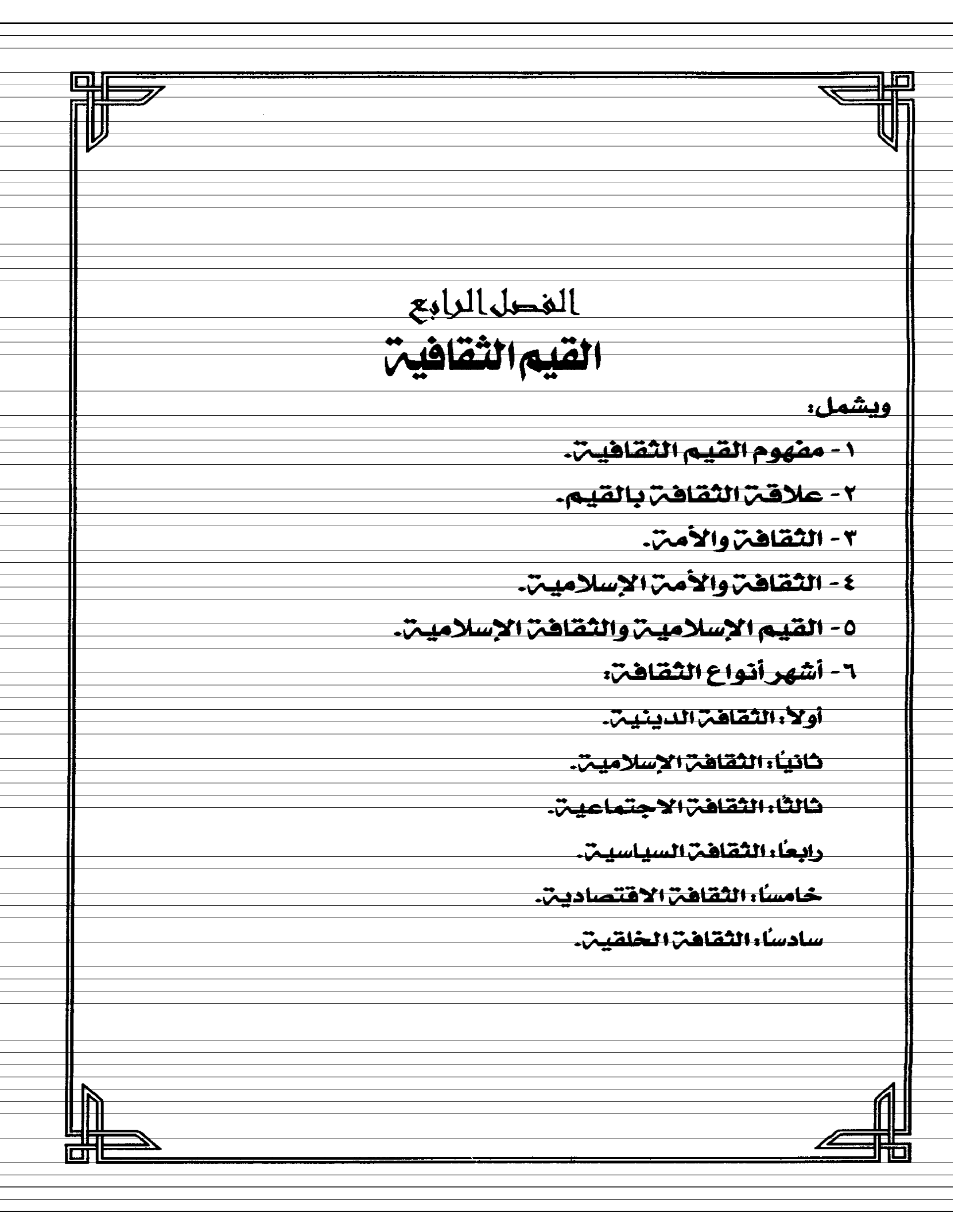
– وما رواه مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«اتقوا اللاعنَيْن»** قالوا: وما اللاعنان؟ قال: **«الذى يتخلَّى فى طريق الناس أو فى ظلهم»**.

– وما رواه مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ: **«نهى أن يبال فى الماء الراكد»**.

وبعد، فهذه نماذج من القيم الإسلامية التى لها علاقة وثيقة بالتعليم والتربية، ذكرنا ستة أهداف من أهدافها، وما ذكرنا إلا القليل، وأوجزنا الحديث فيها على قدر ما يتحمله كتاب يجمع بين دفتيه القيم الإسلامية كلها.

ولقد توسعنا توسعًا نسبيًا فى الحديث عن الهدف السادس للتعليم وللتربية وهو وحدة المسلمين، وما قلنا فيه كل ما نحب أن نقول أو كل ما يجب أن يقال حتى لا يطول بنا الحديث فندخل فى باب الإسهاب.





الفصل الرابع

القيم الثقافية

ويشمل:

١- مفهوم القيم الثقافية.

٢- علاقة الثقافة بالقيم.

٣- الثقافة والأمة.

٤- الثقافة والأمة الإسلامية.

٥- القيم الإسلامية والثقافة الإسلامية.

٦- أشهر أنواع الثقافة:

أولاً: الثقافة الدينية.

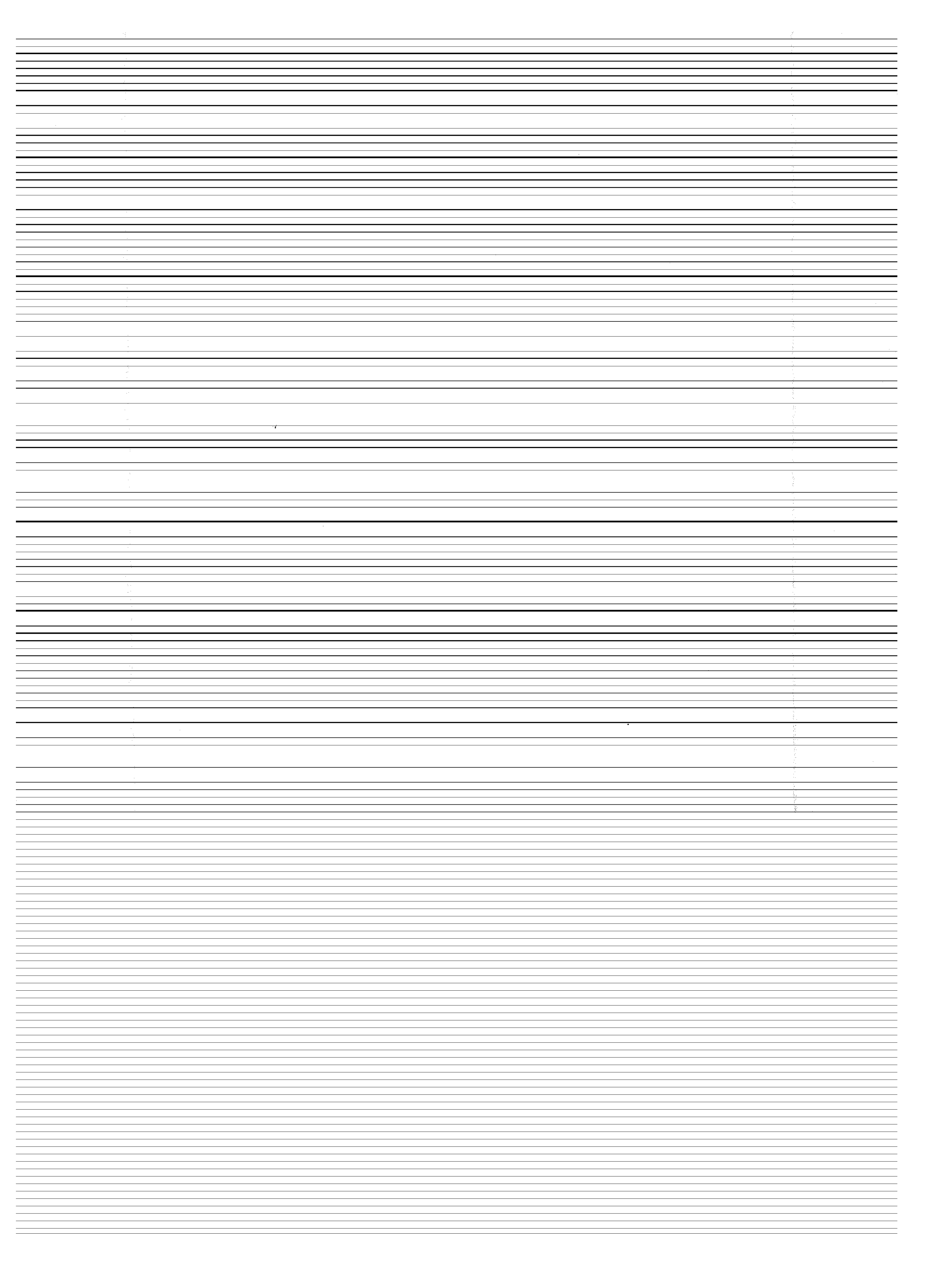
ثانياً: الثقافة الإسلامية.

ثالثاً: الثقافة الاجتماعية.

رابعاً: الثقافة السياسية.

خامساً: الثقافة الاقتصادية.

سادساً: الثقافة الخلقية.



١- مفهوم القيم الثقافية

تحدثنا فى بداية هذا الكتاب تحت عنوان: بين يدى الكتاب عن القيم عموما، ونحتاج هنا إلى إجمال ذلك فى كلمات وجيزة، فنقول:

- القيم مجموعة أحكام خلقية فى مجالات؛ القول أو الصمت، والعمل أو الترك، مما يوصف بالحُسْن أو القُبح، أو بالفضائل أو الرذائل.

- والقيم فى عمومها نوعان: فاضلة أو راذلة.

* فالقيم الفاضلة هى: ما اصطلح أصحاب العقول السليمة والفطر الصحيحة على أهميتها وفائدة التَّحلى بها، بل ضرورة التمسك بها لما فى ذلكَ من دعم لإنسانية الإنسان، وما فيه من تكريم له.

* والقيم الراذلة هى: ما اصطلح عليها أصحاب العقول السليمة والفطَر الصحيحة فأجمعوا على أنها من الرذائل، وأن الاتصاف بها يخرج الإنسان من حيز الفضلاء ويجرّ عليه من الشرور ما يلحق به أضرارا تُنَفِّر الناس منه، وتهبط بإنسانيته فتقرب به من عالم الحيوان الذى تغلبه شهواته وتأسره حاجاته فلا يجد عقلاً يرده عن الردى.

- وفرقنا هناك بين القيم الإسلامية وسائر القيم، بأن القيم الإسلامية هى النابعة من كتاب الله تعالى خاتم الكتب السماوية، ومن سنة رسوله الخاتم ﷺ.

وأفضنا فى الحديث عن هذه القيم الإسلامية، وقدرتها على تحقيق الأمن النفسى والعقلى والاجتماعى لكل مَنْ تمسك بها، ودعا إلى نشرها فى الناس.

- وأما التى نصف بها القيم فى قولنا: «القيم الثقافية»؛ فإنها تعنى مجموع ما يتلقاه الإنسان من أسرته أو جماعته أو المجتمع الذى يعيش فيه؛ من أفكار وعلوم ومعارف، وفنون وآداب وفلسفات وعقائد، وديانات ومذاهب.

* وعند النظر والتحليل لما تلقاه الفرد عن غيره، نستطيع أن نؤكد حقيقتين جوهريتين عن الثقافة هما:

أولا: الثقافة التى تتكون عند الفرد مما تلقَّاه عن سواه، تعنى أن يعبر الإنسان عن حاجاته الضرورية أو الكمالية أو التحسينية فى المجتمع الذى يعيش فيه، وأن هذه الثقافة والتعبير عنها تنظم العلاقة بين الفرد وأسرته أو جماعته أو مجتمعه.

ثانيا: الثقافة هى الزاد الذى استمده الفرد ممن يشكلون لديه أهمية تحمله على احترام تلك الثقافة والرغبـة فى التعبير عنها بما يلائمه من وسـائل التعبير، وأن هذه التعبيـرات الثقافية تتصل بما يقوِّم الفرد والمجتمع عقيدة وفكراً وسلوكًا وفنًا، وإبداعًا.

- وهناك تشابه فى التعريف بين الثقافة والحضارة، تشابه كبير يصل بى وبغيرى من الباحثين إلى أن لا نجد حَـرَجًا فى القول بـأنهما شىء واحـد مهمـا بدا بين الكلمتـين من إيحاء باختلاف كل منهما عن الأخرى.

* والذين فرَّقوا بين الثقافة والحضارة قالوا:

- إن الثقافة تعنى الحِذْق وتقويم المعوجّ.

- وإن الحـضارة تعنى سُكْنَى الحـضر أى المدن لا الريـف، وأنها تعنى النشـاط البشـرى المعنوى أو المادى.

* وعند النظر والتأمل نجد الثقافة نوعين:

مادية كالمنتجات والصناعات.

ومعنوية كالمعتقدات والقيم.

فالتشـابه بين الثقافـة والحضارة غير منكـور ولا مستغرب، والتـفرقة بينهمـا تقوم على التكلف بالتماس أى فروق حتى لو كانت غير حاسمة.

٢- علاقة الثقافة بالقيم

هى علاقة وثيقة، لا نبالغ إن قلنا: إنها علاقة اللازم بالملزوم، أو علاقة وجهى العملة أحدهما بالآخر.

وتلك العلاقة تخضع لعدد من الحقائق أهمها:

- أن القيم السائدة فى أى مجتمع لا تجد وسيلة للتعبير عن نفسها، وخروجها من النظرية إلى التطبيق إلا بالثقافة ومفرداتها المتنوعة التى أشرنا إليها سابقا.
- وأن القيم السائدة فى أى مجتمع هى البيئة الصالحة والجو الصحى الذى يمكن الثقافة من القدرة على تقويم الحلول لكثير من مشكلات الفرد أو الجماعة أو المجتمع.
- وأن هناك تبادلاً بين الثقافة والقيم فى المجتمع يشبه التلازم، أى أن القيم فى جوهرها ومكنوناتها، والثقافة ومفرداتها من فكر وعقيدة وأدب وفن وإبداع، تتبادلان التلازم، فالثقافة تعبر عن القيم، والقيم ترفد الثقافة وتمدها بزادها.
- وأن القيم السائدة فى أى مجتمع لا يذكيها ولا ينميها مثل أن يعتز الناس بهذه القيم ويتمسكوا بها، وهذا الاعتزاز وهذا التمسك بالقيم إنما يكون بما يملك الناس من ثقافة متنوعة المفردات -كما أشرنا آنفا لهذا التنوع.
- وأن عجز الثقافة فى أى مجتمع عن جعل الناس معتزين بقيمهم متمسكين بها، فإنها ثقافة سطحية يشوبها الخلل، ويطعن هذا الخلل فى صحة الأسس التى قامت عليها الثقافة وسلامتها.

٣- الثقافة والأمة

من المعروف أن الأمة تصنع ثقافتها وتكوِّنها وتثريها فى كل حين بالجديد النافع لها، كما أن الأمة تعتز بثقافتها وبمكونات هذه الثقافة، ثم تتعاظم هذه الثقافة بحيث تصبح سِمَةً للأمة، وتصبح الأمة مصدراً للثقافة.

- وقديما كانت الأمم المتجاورة فى المكان؛ يفيد بعضها من ثقافة بعض.

- والأمم غير المتجاورة فى المكان كانت ثقافة بعضها تفد إلى غيرها عن طريق الهجرة حينًا، وعن طريق التجارة حينًا آخر، وعن طريق الحروب أحيانا، كانت هذه الأمم تَفِدُ إليها ثقافة غيرها، فتفيد منها، أو تفيدها.

- وفى عصرنا هذا عصر سرعة الاتصالات والمواصلات، وطىّ المسافات، وانتشار شبكات المعلومات؛ أصبحت الأمم غير المتجاورة مكانيا كأنها متجاورة، فأخذت من ثقافة الأمم الأخرى وأعطتها.

* ومعنى ذلك أن معظم الأمم فى معظم الأقطار تتأثر بثقافة غيرها، وتؤثر فيها؛ لأن قدرها أن تأخذ وتعطى بحكم أنها أمم إنسانية، لأن ذلك ناموس بنى الإنسان.

* والأمة الإسلامية لابد أن تكون قد فعلت نفس الشىء؛ صنعت ثقافتها وكونتها، وأثرتها بكل جديد، مستهدية فى ذلك بكتاب الله تعالى وسنة النبى ﷺ وسيرته، ومضيفة إلى ثقافتها كل جديد اهتدت إليه عقول أبنائها، ليواكبوا ما يحيط بهم، أو يسابقوه، محافظين - بوصفهم مسلمين - على ثوابتهم، متقبلين أو مرحبين بثقافة الآخر، بل متأثرين بها ما لم تصطدم بثوابتهم أى الأسس التى جاءت فى القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية المطهرة.

- والثقافة الإسلامية بكل تأكيد أثرت فى ثقافة الآخر وأثرتها على نحو بارز حينًا، وعلى نحو خافت حينًا آخر.

- وكانت الثقافة الإسلامية على مَرِّ التاريخ أكثر تأثير فى ثقافة الأخر، كلما كان المسلمون أكثر تمسكًا بثقافتهم وأشد اعتزازاً بها، وكلما كان المسلمون أكثر قدرة على تحقيق نهضة علمية وتقدم فى مجال الحضارة.

- ولقد شهد التاريخ بهذا التبادل الثقافي المقصود حينًا وغير المقصود حينًا آخر، وسجل تلك الشهادة كبار الباحثين والعلماء وكثير من مؤرخي الفكر والثقافة والحضارة الإنسانية.

- وما من ثقافة في العالم كله استطاعت أن تعيش بمعزل عن الثقافات الأخرى تأثيراً وتأثراً، إلا إذا كانت ثقافة سطحية تافهة لا تؤثر في الآخر ولا تتأثر بثقافته، أو كانت ثقافة عنصرية اختلت فيها الموازين ورأت في الإنسانية كلها تفرقة بين أسود وأصفر وأبيض مع أنه لا فضل لأحد في أنْ وَجَد لونه من أحد هذه الألوان!! وما أروع ما حسمت الثقافة الإسلامية هذه القضية وأبطلت التفرقة بين الناس بألوانهم في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقول الرسول ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن أبي نضرة قال: حدثني مَنْ سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال: **«يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبَلَّغتُ؟»** قالوا: بلَّغ رسول الله ﷺ.

* هذه حقائق لا يجهلها إلا الغافلون، ولا يماري فيها إلا الحاقدون، وليس لهؤلاء ولا أولئك وزنٌ إنساني عند التحقيق والتدقيق في عناصر إنسانية الإنسان، وما يتهاتر بإنكار هذه الحقائق إلا من يرددون منكراً من القول وزوراً.

- ومن آفات عصرنا هذا: ازدواجية المعايير التي تقوم في الأصل على التمييز بين الناس بألوانهم وأعراقهم وأديانهم؛ كما يفعل كثير من الدول كإسرائيل وكثير من دول الغرب والولايات المتحدة الأمريكية!!

وإن هذه الإزدواجية في المعايير على النحو الذي ذكرنا لمن أخَسِّ صفات الإنسان وأحقرها مهما ادعى التحضر والتقدم في مجالات العلم والتقنية.

- وإقراراً بهذه الحقائق المؤكدة تصبح الثقافة قيمًا تعتز بها كل أمة، وتجعلها من بين القيم التي تتمسك بها، وتعمل على تنميتها وإذكائها، ونشرها في الناس والآفاق، والدعوة إليها والحركة بها في كل زمان ومكان.

- بل إن نلحظ أن كثيراً من الأمم -والأمة الإسلامية في مقدمتها- لتتشبَّث بقيمها إلى درجة التضحية في سبيل الاعتزاز بها ونشرها في الناس.

٤- الثقافة والأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية كغيرها من الأمم فى التمسك بقيمها والعمل على الاعتزاز بها وإذاعتها فى الناس، لأن ذلك كما أشرنا ضرورى فى تعبير الأمة عن قيمها، وشخصيتها التى تحمل هذه القيم، وتعيش بها فى الناس فاعلةً مؤثرة.

- والثقافة الإسلامية بمفرداتها -التى تحدثنا عنها- تعبير عن القيم الإسلامية فى المجتمع المسلم، وبين الثقافة والقيم تلازم -كما أوضحنا آنفا- وكل إنسان مسلم فى أى زمان أو مكان مطالب بأن تتمثل فيه القيم الإسلامية ثقافة إسلامية تشكل سلوكه، وتحكم تعامله مع المسلمين وغيرهم فى إطار من العدل والإحسان مع جميع الناس.

- والتمسك بالقيم الإسلامية والثقافة الإسلامية سِمَة فى المسلم ينبغى أن تلازمه فى كل أمره؛ وإلا فَقَد هُوُيتـه، وأساء إلى قيمه وثقافته، مع مخالفته لما أمره الله تعالى به وما طالبه به الرسول الخاتم ﷺ من اختيار الإيمان ونبذ الكفر والنفاق، وعلامة ذلك الاختيار الحر هو التمسك بهذه القيم وتلك الثقافة.

- والأمة الإسلامية قد جعلها الله تعالى الأمة الوَسَط، وأوضح لها أنها تكون خير أمة أخرجت للناس إن هى أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر مؤمنة بالله تعالى، وأخبر سبحانه عن هذه الأمة أنه أورثها الكتاب وطالبها بنشره فى الناس والدعوة إليه والحركة بمضمونه فى الناس والآفاق، وما تستطيع هذه الأمة أن تمارس هذا الواجب إلا إذا تمسكت بقيم الإسلام واتخذت الثقافة الإسلامية سمة تميزها عن غيرها من الناس.

- والثقافة الإسلامية بنوعيها مادية وغير مادية، وبكل مفردات النوعين هى عنوان الأمة الإسلامية دائمًا، كما أنها الباب الرئيس للتعرف إليها، ومعرفة مقوماتها، وسماتها.

- والأمة الإسلامية تركت بصماتها الثقافية أو الحضارية فى كل بلدة دخلها الإسلام من شرق العالم بل من أقصى شرقه إلى أقصى غربه - أى من الصين إلى الأندلس، ونقد تعددت وسائل دخول الإسلام إلى تلك البلدان مثل:

* الذهاب إلى تلك البلدان لنشر الدين ودعوة الناس إليه دون قسر أو إكراه أو إغراء بماديات أو نحوها.

* أو الذهاب إليهـا للتجارة، بحـمل البضائع إليـها، أو جلبها منـها -بما نسميـه اليوم استثماراً طال أجله أو قصر.

* أو دخلها المسلمـون محاربين لرد عـدوان أو تأمين حدود أو تخليص أسـرى أو نحو ذلك من أسباب التنقل والانتقال.

- كما أن الأمة الإسلامية تركت بصماتها الثقافية أو الحضارية من خلال انتقال الآخرين إلى البلدان الإسلامية لأسباب عديدة مثل:

* طلب العلم فى بلاد المسلمين -فى العلوم التى ترسخت فى بعض البلدان الإسلامية- فى عصور ازدهار الحضارة الإسـلامية- مثل دمشق وبغداد والقاهرة وقرطـبة وإشبيلية وغيرها من حواضر الأندلس أثناء سيطرة المسلمين عليها ما يقرب من ثمانية قرون.

* أو الحروب التى شنتـها أوربا على العـالم الإسلامى فى مصـر والشام -فـيما سـموه الحروب الصليـبيـة التى قادتها الكنيـسة، وجندت لهـا معظم حكام أوربا وأمـرائها، وظلت مستوطنة ما يقرب من قرنين من الزمان.

* أو طلب العلم فى بلاد الغرب بالنسـبة للمسلمين، وبخاصـة بعد أن تراجع المسلمون حضاريًا، بسبب تحالف قوى الغرب ضدهم، والعمل على إضعافهم سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، واحتلال بلادهم باسم الوصاية أو الحماية أو الانتداب، أو الاستعمار.

- فى كل هذه الأنواع من اتصال المسلمين بغـير المسلمين، ترك المسلمون بصماتهم الثـقافية أو الحضارية فى الآخرين، كما تأثروا بكثير من مفردات ثقافتهم أو حضارتهم.

* وثقافة الأمة الإسلامية واكبت ميلاد نزول الإسلام إليها بتبليغ محمد ﷺ، ومما تميزت به هذه الأمـة أو تميز بـه الإسلام أن كـانت أول كلمـة نزلت على الخـاتم ﷺ فى أشهـر الروايات هى كلمة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]

والقراءة مفتاح الثقافة والمعرفة.

٥- القيم الإسلامية والثقافة الإسلامية

القيم الإسلامية والثقافة فى إيجاز -أوضحنا تفصيله فيما سلف من فصول هذا الكتاب- هى: كل قيمة خلقية فاضلة أمر الله تعالى بهـا فى كتابه الخاتم، أودعا إليها الرسول الخاتم محمد ﷺ، أو تمثلت فى أخلاقه أو تعاملاته أو سيرته ﷺ.

- وهذه القيم الإسلامية بوصفها من عند الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ؛ لابد أن تكون قيما نبيلة إنسانية، تعزز قيمة الإنسان وتحترم إنسانيته أيًا كان لونه أو عرقه أو مكانه الذى يعيـش فيه أو الزمـان الذى يعيـشه؛ أو الثـروة التى يملكها، أو السلطـان أو الجاه الذى يمارسه؛ لأنها قيم من رب العالمين الذى خلق الناس جميعًا -أحمرهم وأسودهم- وأراد لهم الخير؛ إذ سخر لهم ما فى السمـوات والأرض، وما فى البحار والأنهار ليحفظ لهم كرامتـهم ويهيىء لهم أسباب رزقهم فى هذه الحـياة الدنيا،مما يعينهم -إن اتبـعوا صراطه المستقيم- على أن يكونوا من الفائزين فى الحياة الآخرة.
- والثقـافة الإسلامـية تمكّن الإنسـان من التعبـير عن هذه القيـم الإسلاميـة، ومعنى ذلك ومقـتضاه أن تكون كل مفـردة من مفردات هذه الثـقافة نابعة من الكتـاب الخاتم، وسنة النبى الخاتم ﷺ، وأن تكون غير مخالفة لأى أمر مما حرم الله ورسوله؛ لأن المعيار الذى تُعاير به الثـقافة الإسلامـية أن تدور مع القرآن الكريم حيث دار، وأن تلتـزم بما جاء فى السنة النبوية فى كل إطار، وأن تنـبذ ما يخالفـهما ولو كان ميـراث الآباء والأجداد، أو تراث الأوطان والأزمان.
- والثقافة الإسلامية بكل مفرداتها تقوم على عدة ركائز من أهمها:

* أن الإنسان أكرم مـخلوقات الله على الله سبحانه وتعـالى وأقربها إلى حبه ورحـمته، وإسداء الخير له، بأن هداه إلى الإيمان.
* وأن الله تعالى قد أنعم على الإنسان وكرمه بأن حـمله فى البر والبحر على مراكب ما كان له أن يسخرها لولا تسخير الله تعالى إياها من أجل الإنسان.
* وأنه تعـالى تكفل برزق الإنسان من طيـبات الحـياة الدنيـا بأن أتاح له أسبـاب كسب الرزق، وأسباب التنعم بهذا الرزق، واستعماله فى الخير له ولغيره من الناس.
* وأنه سبحـانه فضَّل هذا الإنسان على كثير من خلـقه لحكمة يعلمها سبـحانه وتعالى، ولوظيفة يؤديها الإنسان ولا يستطيع أداءها غيره من مخلوقات الله العديدة.

هذه الركائز كلها جمعتها آية كريمة هي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

– ولقد أمد الله الثقافة الإسلامية بروافد عديدة تغذيها، وتنميها، وتوجهها إلى الصراط المستقيم، هذه الروافد هي:

* السير في الأرض والنظر في أخبار الأولين، وأخذ العبرة من تاريخهم كما ورد في القرآن الكريم، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠]

* والتفكر والتدبر في مخلوقات الله تعالى في هذا الكون، مما تتسبب عنه حياة الإنسان من ماء جعل الله منه كل شيء حي، وكان هذا الماء سحابًا ساقه الله تعالى بالرياح وألَّف بينه وجعله ركامًا، وأخرج الودق -أي المطر- والبَرَد والبرق، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٣- ٤٥].

وفي هذه الآيات القرآنية من الثقافة العلمية ما نشير إلى بعضه مما ذكره العلماء المتخصصون فيما يلي:

* الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا..﴾ إلى قوله: ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ قالوا: تسبق هذه الآية الكريمة ركب العلم، فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها، وما عرف علميًا في العهد الأخير من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات يتألف عدد منها من مجموعات هي السحب الركامية أي السحب التي تنمو في الاتجاه الرأسي، وترتفع قمتها إلى علو خمسة عشر إلى عشرين كيلو مترًا فتبدو كالجبال الشامخة.

والمعروف علميًا أن السحابة الركامية الممطرة تمر بثلاث مراحل هي:

مرحلة الالتحام والنمو، ثم مرحلة الهطول، وأخيرا مرحلة الانتهاء.

كما أن هذه السحب هو حدها التى تجود بالبَرَد وتشحن بالكهرباء، وقد يتلاحق حدوث البرق فى سلسلة تكاد تكون متصلة، فيذهب ببصر الراصد من شدة الضياء.

فأى ثقافة علمية تلك التى يزوّد القرآن الكريم بهـا المؤمنين منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان؟

* والآية الثانية: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

وتلك ثقافة علمية تتصل بعلم الفلـك، والمعنى: أن الله تعالى يغير أحوال الليل والنهار بالطول والقـصر والبدء والانتـهاء بدوران الفلك، وفى ذلك عـبرة لذوى العـقول السليـمة المستبصرة التى يؤمن الإنسان عن طريقها بالله تعالى.

* والآية الثالثـة: مـن هـذه الآيات الكريمـة: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال المتخـصصون من العلماء فـيها: الماء فى الآية الكريمة هو: ماء التناسل أى المشتمل علـى الحيوانات المنوية، والآية الكريمة تسبق ركب العلم فى بيان نشوء الإنسان من النطفة، بل سبقته كذلك فى بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريق التناسل من الحيوانات المنوية.

والآية الكريمة تؤكـد أن الماء قوام تكوين كل كائن حى إذ يحـتوى جسـد الإنسان على سبـعيـن فى المائة من وزنه من الماء، ولم يكن تكوين الجـسم واحتـواؤه على هذه الكميـة الكبيرة من الماء مـعروفا قبل نزول القرآن الكريم.. وهكذا يكون الماء الجـزء الأكبر والأهم من تكوين الجسد، ولذلك يمكن القول بأن كل كائن حى مخلوق من الماء.

فأى ثقافة علمية تلك التى يزود بها القرآن الكريم المؤمنين؟

وبعد، فتلك نماذج قليلة من القيم الثـقافية فى القرآن الكريم وغيرها كـثير، وهى ثقافة عميـقة غزيرة صقلت عقول المسلمـين، ووجهت تعاملهم مع الآخر بالاحتـرام والتقدير مما ترك فيهم أحسن الأثر الذى تمثل فى أمور مهمة منها:

* الاعتراف بثقافة الآخر، دون إنكارها أو الزراية بها أو تجاهل أصحابها.

* والتعامل مع ثقافة الآخـر على مبدأ التبادل لمفرداتها ما لم تخـالف ثوابت الإسلام وقيمه ومبادئه، كمـا فعلوا مع ثقافة الفرس وثقافة الروم أكبـر دولتين فى زمن ظهور الإسلام، فنظروا إليهما بموضـوعية، دون استعلاء عليهم مع أنهم كانوا هم الغـالبين، والمنتصرين على دولتى الفرس والروم، ولكنهم سلكوا سلوك المثقفين المتحضرين.

* إن المسلمين عاملوا الفرس والروم بما يمليه عليهم دينهم وما تقتضيه ثقافتهم أو حضارتهم، ولم يمارسوا معهم ما تمارسه إسرائيل وأمريكا والغرب مع المسلمين اليوم من غرور بالقوة واستعلاء بآلة الحرب، وتنكر لكل قيمة ثقافية أو حضارية، ومن يسمع أو يرى ما يفعلونه بالمسلمين اليوم فى فلسطين ولبنان وأفغانستان والعراق يدرك عن أى ثقافة أو حضارة يصدرون؟

* إن إساءتهم إلى رسول الله ﷺ بتلك الصور التى بثوها وأذاعوها لدليل على خواء ثقافى وانتكاس حضارى!!

* وإن تعذيبهم للأسرى والمعتقلين وقتلهم للنساء والأطفال والشيوخ، وكشف مخازى ما يحدث فى سجونهم ومعتقلاتهم، لينم عن نوع الثقافة التى تسيطر عليهم!!!

* وإن عملهم الدائب على تمزيق بلدان العالم الإسلامى وشرذمة أبنائها وطردهم من أوطانهم، وضربهم بأسلحة الدمار الشامل دون ذنب أو جريرة ليدل على نوع الحضارة التى يصدرون عنها فى أعمالهم!!!

* وإن الفوضى التى يفرضونها على كثير من بلدان العالم الإسلامى ليتسنى لهم نهب ثروات تلك البلاد، ليؤكد أنهم قطاع طريق ويحبون الولوغ فى دماء ضحاياهم!!!

* وإن ازدواجية المعايير التى يتعاملون بها مع إسرائيل والعرب والفلسطينيين لدليل صارخ على نوع الثقافة التى تكون سلوكهم، وعلى نوع القيم التى تسودهم!!!

* والحديث فى ذلك ذو شجون قد لا ينتهى إلا بتسجيل مئات المخازى الإنسانية التى يرتكبونها دون رادع من ضمير أو عاصم من خلق، أو حافز من ثقافة أو حضارة.

- أين ذلك التدنى والانحدار مما صنع المسلمون فى تاريخهم القديم والوسيط والحديث، وهم يتعاملون مع أصحاب الثقافات الأخرى؟

* كيف تعاملوا مع اليهود على الرغم من أنهم أشد عداوة للذين آمنوا؟ كيف حموهم فى الأندلس؟

وكيف تعاملوا مع النصارى فى نجران؟

وكيف تعاملوا مع أصحاب الثقافات أو الحضارات المغايرة للإسلام ولثقافة الإسلام؟

وكيف تركوا أهل الأديان وما يدينون ماداموا غير محاربين للمسلمين؟

وكيف جنوا أطيب الثمار من هذه المعاملة الإسلامية لسائر الناس؟ إذ دخل الناس فى دين الله أفواجًا بعد أن أتم الله على أيديهم نصر الله والفتح.

٦- أشهر أنواع الثقافة

الثقافة -بمعناها الذى ذكرناه فى هذا الكتاب -لها أنواع عديدة من حيث موضوعاتها واهتماماتها، غير أننا نتحدث هنا عن أبرز هذا الأنواع- فى تصورنا -بالنسبة لهذا الكتاب ونحصرها فى خمسة أنواع هى:

- الثقافة الدينية.
- والثقافة الإسلامية.
- والثقافة الاجتماعية.
- والثقافة السياسية.
- والثقافة الاقتصادية.

مع يقيننا بأن أنواعها أكثر من ذلك بكثير، لكن هذه الأنواع الخمسة هى ما يعنينا الحديث عنه فى هذا الكتاب، ونسأل الله التوفيق والسداد.

أولاً: الثقافة الدينية

نعنى بالثقافة الدينية، الثقافة المنسوبة إلى الدين الذى جاء من عند الله تعالى على ألسنة رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

- وهى ثقافة تستهدف صياغة الإنسان وبناءه بناء سليمًا صحيحًا موائمًا للقيام بأعباء التكاليف الشرعية التى كلفه الله تعالى بها، متجاوبًا معها إيجابًا بالعمل، وسلبًا بالامتناع.
- وهى ثقافة تحترم الإنسان وتقدره على الالتزام بمنهج الله تعالى الذى تلقاه عن رسله عليهم السلام وبخاصة خاتم الرسل محمد ﷺ ليعرف الإنسان من خلال هذا المنهج مكانته ومكانه بين مخلوقات الله تعالى، وما له وما عليه دون غمة أو لبس، ودون تهويل أو تهوين، لكى يمارس حياته الشخصية والاجتماعية دون انحراف عن سبيل الله تعالى وصراطه المستقيم، ودون اتباع لسبل أخرى على رأس كل منها شيطان يجتال الناس عن الحق.

- والثقافة الدينية تتضمن محتوى الأديان السماوية جميعًا التى أرسل الله تعالى بها رسله وأنبياءه عليهم السلام، وكلها أديان تقوم على توحيد الله تعالى إلهًا وربًا وخالقًا، وعبادته وحده لا شريك له، وإقامة شريعته التى أنزلها الله على أولى العزم من الرسل، كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ [الشورى: ١٣].

- والثقافة الدينية تعنى أن يحب الإنسان الخير وأن يقدمه للناس، وأن يمارس العمل الصالح ابتداء من: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وانتهاء بإماطة القذى عن الطريق، والعمل الصالح متفرع عن أصول من الدين تضمنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ....﴾ [النحل: ٩٠].

- كما تعنى الثقافة الدينية أن يكره الإنسان الشر وأن يمتنع عن ممارسة أنواعه كلها، ومن الشر الإثم والفاحشة وكل قول أو عمل يغضب الله تعالى، ويخالف الدين الذى أرسل به رسوله.

والشر متفرع عن أصول نبه عليها الدين، وتضمنها قول الله تعالى: ﴿.... وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ .....﴾ [النحل: ٩٠].

هذه هى الثقافة الدينية فى إجمال، أما تفصيل الحديث منها فيتطلب كتابًا أو كتبًا[١].

ثانيًا: الثقافة الإسلامية وأسسها

هى ثقافة الدين الخاتم وهدى النبى الخاتم ﷺ، وهى الثقافة المفصلة التى تركز على أسس موجودة إجمالاً فى الأديان السماوية ولكنها مفصلة فى الدين الخاتم. هذه الأسس هى: الإيمان، والإسلام، والإحسان، والعدل، والنزعة الإنسانية فى النظر إلى الناس جميعًا، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا، والعمومية أو العالمية، والقدرة على حل مشكلات الحياة الإنسانية فى كل زمان ومكان.

الأساس الأول: الإيمان:

بمعنى أن الثقافة الإسلامية تتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وأنبيائه الذين وردت أسماؤهم فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والإيمان باليوم الآخر وما سيجرى فيه من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار.

(١) للتوسع فى مفهوم الدين والثقافة الدينية انظر لنا: التربية الدينية الغائبة -نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ومـا رواه البخـارى بسنده عن أبى هريرة رضـى الله عنه قال: كـان النبى ﷺ بارزاً يومًـا للناس وأتاه جـبريل فقـال: ما الإيمـان؟ قال: **«أن تؤمن بالله ومـلائكته وبلقـائه ورسله، وتؤمن بالبعث...»**.

ومـا رواه مسلم بسـنده عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه قـال: بينمـا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شـديد بياض الثياب شديد سـواد الشعر لا يُرى عليه أثر السـفر ولا يعرفه منا أحد، حـتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبـتيه إلى ركبتـيه ووضع كفيه على فخـذيه، وقال: يا محمد أخبـرنى عن الإسلام..... قال: وأخبرنى عـن الإيمان قال: **«أن تؤمن بالله ومـلائكته وكـتبـه ورسله واليوم الآخـر، وتؤمن بالقدر خير وشره..»**.

الأساس الثانى: الإسلام:

بمعنى أن الثقافة الإسـلامية تتضمن الإسلام بأركانه كلهـا، وتعنى اتباع الناس لما أمرهـم الله به، ولما جاء به محمد ﷺ.

والإسلام يعنى فى جميع أموره عبادة الله وحده لا شريك له، واتباع ما جاء فى الكتب السماوية من الهدى والنور.

- فقال الله تعالى عن التوراة التى أنزلها على رسوله موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

- وقال الله تعالى عن الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]

- وقال الله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ.... ﴾ [المائدة: ٤٨].

* والإسلام كما أخبر عنه الرسول ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا. . . . . وفيه: وقال: يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً..» .

الأساس الثالث: الإحسان:

الثقافة الإسلامية تعنى الإحسان بمعنى أن المؤمن يجب أن يتخذ الإحسان فى القول وفى العمل شعاراً ودثاراً، أى أن يحسن إلى نفسه وإلى غيره من الناس، وأن يحسن عبادة الله تعالى ويحسن إيمانه ويحسن إسلامه، ويحسن فى كل أمره.

* والإحسان مطلب شرعى طالبنا به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

- قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ... ﴾ [النحل: ٩٠]. وقال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يومًا بارزاً للناس، فأتاه رجل، فقال: يا رسول الله . . . . . ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إلا تراه فإنه يراك......» .

- روى مسلم بسنده عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» .

الأساس الرابع: العدل:

الثقافة الإسلامية تحمل صاحبها على أن يكون عادلا فى كل أمره، ومع كل أحد حتى مع أعدائه، ولأنه أساس فى الحياة الإنسانية كلها، قال الله تعالى لتأكيد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن العدل واجب على إطلاقه مع الولى والعدو على السواء، وترك العدل كبيرة من الكبائر لأنه معصية لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

* وقد أوجب القرآن الكريم العدل فى كثير من آيات القرآن الكريم لهذه الآية التى ذكرنا.

- وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

- وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

* كما أوجبت السنة النبوية العدل فى عدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة، نذكر منها:

- روى مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا».

- وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الإمام جُنة يقاتل من ورائه، ويُتقى به، فإن أمر بتقوى وعدل فإن له بذلك أجرًا، وإن أمر بغير ذلك فإن عليه وزرًا».

- وروى مسلم بسنده عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال: تصدق علىَّ أبى ببعض ماله، فقالت أمى عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ، فانطلق أبى إلى رسول الله ﷺ ليشهده على صدقتى، فقال له رسول الله ﷺ: «أفعلت بولدك كلهم»؟ قال: لا قال: «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم».

الأساس الخامس: النزعة الإنسانية فى النظر إلى الناس جميعًا:

الثقافة الإسلامية توجب على المسلم أن ينظر إلى الناس جميعًا نظرة ملؤها الرحمة، والرغبة فى إسداء الخير والهدى إليهم جميعًا.

وهذه النزعة الإنسانية فى الثقافة الإسلامية تعنى أمورًا على جانب كبير من الأهمية فى زرع السلام فى نفوس الناس وجعلهم يحيون حياة آمنة مطمئنة منها:

– المحافظة على حياة الناس أن تمس بأذى مادى أو معنوى.

– والاعتراف بكل حقوق الإنسان التى كفلها له الله تعالى فى جميع كتبه السماوية؛ لأنه سبحانه خلق الناس وكرمهم ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه.

– والالتزام بتطبيق حدود الله على كل مخالف لما أمره الله به، ابتداء من التعزير ووصولا إلى القصاص إلا إن كانت عقوبته القصاص.

* وما يُضيع قيمة الإنسان ومكانته مثل التمييز بينه وبين غيره من الناس لعرق أو لون أو دين أو وطن[1].

* وقد ورد النص على تلك النزعة الإنسانية فى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات فى كل الكتب السماوية وعلى سبيل الاستشهاد:

– فقد قال الله تعالى فى هذه المساواة الإنسانية فى التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]

– وقال تعالى فى هذا المجال عن الإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

– وقال الله تعالى فى هذه النزعة الإنسانية التى لا تميز إنسانًا عن آخر إلا بعمله الصالح، عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ....﴾ [الإسراء: ٩]. وقال عز وجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٨- ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

الأساس السادس: التمتع بطيبات الحياة الدنيا:

الثقافة الإسلامية تعنى أن يتعامل المسلم مع طيبات الحياة الدنيا وفق المنهج الذى شرعه الله، وهذا المنهج فى كلمات هو: التمتع بطيبات الحياة الدنيا دون سرف أو مخيلة.

---

(١) وهذا ما تمارسه إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب اليوم ضد المسلمين عمومًا، وضد العرب على وجه الخصوص فى فلسطين منذ أنشأوا إسرائيل فيها، وفى أفغانستان وفى العراق والسودان والجزائر، وغيرها.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن أحل لهم الطيبات فى جميع الأديان التى أرسل بها رسله عليهم السلام.

وهذه الطيبات من الرزق هى كل ما يحيط بالإنسان من نعم كنعمة العلم ونعمة المال والجاه، ونعم المسكن والمأكل والمشرب والملبس، والزواج والأبناء، بل نعمة الأخذ بأسباب الصحة والعافية، وأسباب السلام والوئام بين الناس.

دل على ذلك آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية المطهرة وسيرة الرسول ﷺ.

* فمن آيات القرآن الكريم الدالة على ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

- وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٢، ١٧٣].

- وقوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١- ٣٣].

* وفى السنة النبوية عدد من الأحاديث الشريفة، منها:

- روى البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: غزونا جيش الخَبَط، وأُمِّر أبو عبيدة -رضى الله عنه- فجعنا جوعًا شديدًا، فألقى البحر حوتًا ميتًا لم نر مثله يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه فمر الراكب تحته... قال أبو عبيدة: كلوا فلما قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبى ﷺ فقال: **«كلوا رزقًا أخرجه الله، أطعمونا إن كان معكم فأتاه بعضهم بعضو فأكله»**.

- وروى الترمذى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أكل طيبًا، وعمل فى سُنة، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة»** إن هذا اليوم فى الناس لكثير، وقال: **«وسيكون فى قرون بعدى»**.

- وروى البخارى بسنده قال: باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال النبى ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير إسراف ولا مخيلة».

الأساس السابع: العمومية أو العالمية:

الثقافة الإسلامية تزود المسلم بثقافة تمكنه من أن يعرف بل يوقن بأن دينه وثقافة الدين عامة بل عالمية، ومعنى ذلك أن ينظر المثقف المسلم إلى هذا الدين وتلك الثقافة على أنه الدين العالمى الذى ينبغى أن يوجه للعالم كله، وأن يتحرك به وبثقافته المسلمون فى جميع الناس، وفى جميع الآفاق التى يتمكنون من الوصول إليها.

* ومادام الدين الإسلامى الخاتم دينًا عالميًا، والثقافة الإسلامية عالمية تابعة للدين الذى نبعت منه، فإن نظرة المثقف المسلم يجب أن تكون عامة عالمية إلى كل ما فى هذا العالم من قضايا ومسائل، ومطالب ليسهم فى التفاعل معها تفاعلاً إيجابيًا.

وآيات القرآن الكريم الدالة على عموم دين الإسلام وعالميته عديدة وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة.

ونذكر من آيات القرآن الكريم.

- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ: ٢٨].

- وقوله جل وعلا: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١، ٥٢].

* والأحاديث النبوية فى الدلالة على عمومية الإسلام وعالميته عديدة نذكر منها:

- روى مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلى، كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى كل أحمر وأسود...».

- وروى الترمذى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضلتُ على الأنبياء بستّ؛ أعطيت جوامع الكلم، ونصرتُ بالرعب، وأحلتْ لى الغنائم، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة، وخُتم بى النبيون».

- وروى البخارى بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلى؛ نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلتْ لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأُحلتْ لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأُعطيتُ الشفاعة، وكان النبى يُبعثُ إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامة»[1].

الأساس الثامن: القدرة على حل مشكلات الحياة:

الدين الإسلامى الخاتم للأديان السماوية، هذا الدين بما تضمنه من مبادئ وقيم ومنهج، قادر على حل جميع المشكلات فى الحياة الإنسانية كلها.

والثقافة الإسلامية بوصفها نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تُعين كل مسلم مثقف بها على أن يسهم فى حل المشكلات التى تواجه الإنسان فى كل جانب من جوانب الحياة، حيث يواجهها المثقف المسلم من خلال تخصصه العلمى أو الفنى أو التقنى بما يمكنه من حلها.

ولنتساءل: ما هى المشكلة؟

ونقول بما قال به علماء الاجتماع من أن المشكلة تتكون من عدة أحداث أو وقائع متشابكة لفترة من الوقت، يكتنفها الغموض واللبس، وتواجه الفرد أو الجماعة، ويصعب حلها قبل معرفة أسبابها وتحليلها للوصول إلى اتخاذ قرار بشأنها.

وإذا وصفت المشكلة بأنها اجتماعية كانت تعنى: المقارنة بين ما هو مرغوب، وما هو واقع يعيشه الناس.

وتؤدى المشكلة إلى اضطراب وإلى تعطيل لسير الأمور بالنسبة للفرد والمجتمع، وقد تؤدى المشكلة إلى تعطيل بعض النظم الاجتماعية الأساسية، كما فى حالة البطالة والتشرد بالنسبة للصغار، وفقد المأوى بالنسبة للكبار.

* وكل مشكلة أيا كان حجمها أو مخاطرها فإن المنهج الإسلامى قادر على تصور حل لها، إذا فكر فيها المثقفون المسلمون وتَعرَّفوا أسبابها وعملوا على إزالة هذه الأسباب، ثم وضعوا لها العلاج الملائم القادر على حلها.

* وهناك عدد من الحقائق فى هذا المجال، نذكر منها:

- أن مشكلات الحياة الإنسانية قاسم مشترك لا يخلو منها مجتمع إنسانى نتيجة لتعارض مصالح الناس أحيانًا.

---

(١) للتوسع: انظر لنا: عالمية الدعوة الإسلامية- نشر دار الوفاء ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

- وأن هذه المشكلات الإنسانية توجد فى كل زمن يعيش فيه الإنسان، وفى الغالب تكون نتيجة للمتغيرات فى كل زمان، ونتيجة لعجز الإنسان عن التعامل مع ظروف الزمان.
- وأن هذه المشكلات الإنسانية قد تكون مرتبطة بالمكان وبطبيعته وظروفه، وعجز الإنسان عن التعامل مع المكان بما يحقق الصالح العام للناس.
- وأن الله تعالى قد هيَّأ الإنسان وأعطاه القدرة على التغلب على مشكلاته من خلال منهج ونظام أنزلهما على الناس بواسطة رسله وأنبيائه عليهم السلام.
- وأن هذه المشكلات الإنسانية إنما توجد حيث يوجد من الناس انحراف عن منهج الله تعالى ونظامه، لأن الالتزام بمنهج الله تعالى ونظامه لا يسمح بتولد مشكلة، لأن منهج الله تعالى ونظامه هو الأقوم وهو الذى يهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.
- وأن المنهج الربانى الخاتم الذى أرسل الله تعالى به نبيه الخاتم محمداً ﷺ هو أكمل المناهج وأعمها، لأنه لن يأتى من بعده منهج يكمل أو يتمم؛ فقد أعلن الله تعالى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].
- وأن خاتم مناهج الله تعالى وهو الدين الإسلامى الخاتم قد ميَّزه الله تعالى بأنه لا حرج فى الأخذ به على أى أحد من الناس، فى قوله تعالى: ﴿ **... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...** ﴾ [الحج: ٧٨].

فمن أخذ بهذا المنهج فلن يقع فى حرج من أمره، فضلا عن أن يعانى من مشكلة فى حياته.

- وأن الانحراف عن منهج الله تعالى أو تعطيله إنما يتسبب فيه الشيطان الذى يزين للإنسان مخالفة الله تعالى ومعصيته، لأنه العدو المبين للإنسان، وقد نهى الله تعالى الإنسان عن اتباع خطوات الشيطان، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [يوسف: ٥]. وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ..** ﴾ [النور: ٢١].

وروى أحد بسنده عن عياض بن حمار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ -فى حديث مطول قال الله تعالى: « **.... وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم..** ».

وفى رواية لمسلم: «.. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[1] عن دينهم..».

- وأن الشيطان بوصفه عدواً للإنسان وعدواً لمنهج الله ونظامه هو الذى يسهم فى إنشاء هذه المشكلات بإضلال الناس عن الحق، ثم بإيعازه لبعض الناس أن المنهج الإسلامى أو الإسلام غير قادر على حل هذه المشكلات!!

* وإذا كان حل المشكلة يخضع لمنهج علمى تعارف عليه الناس، بل تعارفوا على خطواته المعروفة من:

- التعرف على المشكلة من كل أبعادها.
- والبحث والتحرى عن أسبابها.
- والعمل على إزالة هذه الأسباب.
- واقتراح الحل لهذه المشكلة.
- وتقويم هذا الحل.
- وفحص نتائج الأخذ بهذا الحل؛ للتأكد من القدرة على حل المشكلة.

إذا كان حل المشكلة يحتاج إلى هذا المنهج العلمى فإن الإسلام يعتمد المنهج العلمى ويأخذ به فى التعامل مع أى مشكلة، وبالتالى فإن القول بأن الإسلام هو الحل لكل مشكلة إنسانية قول صحيح، وممارسة المنهج العلمى فى حل المشكلة عمل صحيح لا غبار عليه.

وفى قصة سلمان الفارسى رضى الله عنه، عندما كاتب مالكه، ثم توجيه الرسول ﷺ لأصحابه فى عون أخيهم على جمع مال المكاتبة -كما روينا ذلك آنفا- دليل على الأخذ بالمنهج العلمى فى حل المشكلات، وكذلك كان شأن الرسول ﷺ فى مواجهة أعدائه، بالإعداد لحروبهم، أو الإعداد لعقد التصالح معهم، أو معاهدتهم.

وكذلك فعل الصحابة رضى الله عنهم من بعد رسول الله ﷺ.

وكذلك فعل قادة المسلمين فى عصورهم المتعددة، فحلوا ما أحاط بهم من مشكلات، واستطاعوا بناء حضارة شامخة قامت على العلم المسلح بالإيمان والإسلام والإحسان، والعدل والشورى، مستهدفين دفع المفاسد وجلب المصالح، منتصرين بذلك على أقوى دول العالم عدداً من القرون.

(١) اجتال الشيطان الإنسان: استخفه فجال معه فى الضلالة فخرج به عن طريق الحق.

- ومع ذلك كله، ومع شهادة الأعداء قبل الأولياء بقدرة المسلمين على حل أعتى المشكلات وتشييد أعظم الحضارات؛ نجد من يقول: لا يستطيع الإسلام ولا المسلمون أن يجدوا حلاً لمشكلاتهم، فيرفضون شعار: الإسلام هوالحل!!

* ومشكلات الحياة الإنسانية عند رصدها وتنويعها لا تخلو من أن تكون مشكلة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، أو أخلاقية؛ لأنها بوصفها مشكلة لابد أن تترك خلفها ظالماً ومظلوماً، وحقًا مهدراً، وباطلاً مستعليًا وتفريطًا وإفراطًا، وإهمالاً للمنهج الإسلامى وتعطيلا لأحكامه وتجاهلاً لقيمه الخلقية.

والإسلام بمنهجه ونظامه وأخذه بالمنهج العلمى كفيل بحل أى مشكلة على أيدى علمائه فى تخصصاتهم العلمية الدقيقة، ومعنى ذلك أن الإسلام بكل هذا العطاء هو الحل، وليتدبَّر هذا الشعار من كان سليم القلب صحيح العقل.

ثالثًا: الثقافة الاجتماعية[1]

الذى يعنينا فى هذا المجال من الثقافة الاجتماعية هو الحديث عن المشكلات الاجتماعية، ذات الصلة بالقضايا الخاصة بالفقر والبطالة، والجهل وفقد التضامن والتكافل فى المجتمع، أو كانت نتيجة لفقد التعارف والتراحم بين الناس.

أو كانت مشكلة اجتماعية ناجمة عن تَفَشِّى الأمراض فى المجتمع بسبب سوء الوقاية منها أو سوء علاج الناس عندما يصابون بها.

والمشكلات الاجتماعية أيًا كانت أسبابها، إنما تقع فى المجتمع نتيجة لانحراف الناس عن منهج الإسلام فى الحياة الاجتماعية، بكل ما فيها من فروع، وعن النظام الاجتماعى الذى وضعه الإسلام لتقوم عليه حياة الناس.

* وحلول هذه المشكلات جميعًا مرهون بتطبيق النظام الاجتماعى الإسلامى على أيدى علماء الاجتماع المسلمين، ولا يشك فى صحة ذلك وقدرة النظام الإسلامى على حل أعتى المشكلات إلا غافل عن منهج الإسلام ونظامه الاجتماعى أو متحامل على الإسلام ومنهجه ونظامه، وكلاهما مطالب بأن يعلم وأن يطهر قلبه من التحامل، والذى يطالبه بذلك هو العقل أولا، والشرع إن كان هذا المتحامل من المسلمين المخدوعين بما يردده أعداء الإسلام.

(١) سوف نوجز القول فى الثقافة الاجتماعية، والثقافة السياسية، والثقافة الاقتصادية، لأننا سنتحدث عن هذه الأنواع من الثقافة فى الباب الثالث: فى القيم التى تتصل بالحياة الاجتماعية وفيه ثلاثة فصول أحدها عن القيم الاجتماعية والثانى عن القيم السياسية والثالث عن القيم الاقتصادية.

رابعًا: الثقافة السياسية:

الذى يعنينا هنا من الثقافة السياسية، هو الحديث عن المشكلات السياسية.

والمشكلة تعتبر سياسية إن كان الدخول فيها بسبب النظام السياسى الذى يسود المجتمع.

والنظام السياسى فى كلمات هو: ما تواضع عليه الحكماء من الناس، ورأوا فيه أسلوبًا ناجحًا فى إدارة شئون الناس وسياستهم وحكمهم وتنظيم أمورهم على النحو الذى يصلح العلاقات بينهم فى الدنيا، لما يلتزمون به من ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم.

* وهذا النظام السياسى الذى يقترحه الحكماء ويرتضيه العقلاء ويرون فى اتباعه بُعْدًا عن المشكلات السياسية ويرى فيه علماء المسلمين توافقًا وتجاوبًا مع القيم الإسلامية.

* ولهذا النظام السياسى أنماط عديدة تحظى بالقبول عند الناس عمومًا وعند المسلمين خصوصًا، إذا توافر فيه -فى أى زمان أو مكان تعارف الناس فيه على صلاحه- عدة أسس أهمها:

- وحدة المبادئ ومصداقيتها الإنسانية.
- ووحدة الأهداف وصلاحية كل منها لحياة الناس الآمنة المطمئنة.
- ووحدة المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات.
- ودفع المفاسد وجلب المصالح.
- واحترام الحريات الإنسانية ما لم تضر بأحد.
- واحترام حقوق الإنسان كلها.
- وتكوين قوة عسكرية ترد عدوان المعتدى وتحمى البلاد والعباد.

* وأسوأ الأنظمة السياسية هو النظام الذى يستهدف الاستيلاء على السلطة لصالح فئة من الناس دون فئة أخرى، أو دون سائر الناس.

* وليس كالإسلام -الدين الخاتم- منهج ينظم سياسة الناس وتدبير شئونهم، حيث يجعل من كل فرد حاكم أو محكوم فى المجتمع راعيًا ومسئولاً عن رعيته بين يدى الله تعالى. ويضع له نظام محاسبة فى الدنيا والآخرة.

وعندما يتحمل الراعى مسئوليته يسهم بمن حوله من علماء وخبراء فى حل كل مشكلة سياسية، مهما تنوعت هذه المشكلات، ومهما كابَر من صنعوا هذه المشكلات أو تسببوا فيها لأن النظام والقانون فوق كل مخالف أو كل مكابر.

خامسًا: الثقافة الاقتصادية

والذى يعنينا من هذه الثقافة الاقتصادية -هنا- هو الحديث عن المشكلات الاقتصادية، التى تكون بتنمية الاقتصادية بمعناه العام وهو: حسن إنتاج السلع والخدمات، وحسن توزيعها بين الناس، وحسن استهلاكها، بهدف تحقيق الرفاهية لكل الناس.

والنشاط الاقتصادى بطبيعته اجتماعى الهدف والوسيلة؛ لأن الناس لا يستطيعون العيش فى عزلة عن الآخرين؛ لافتقار كل منهم إلى غيره فى جميع أنشطته الاقتصادية. والنشاط الاقتصادى يتأثر دائما بالعلاقات التى تسود فئات المجتمع مثل: العلاقة بين صاحب العمل والعامل، وبين البائع والمشترى، وبين منتجى السلع والخدمات بعضهم مع بعض.

وكل مشكلة اقتصادية تكون فى معظم الأحيان متولِدة عن تجاوز لما يجب أن تكون عليه هذه العلاقات فى الرغبة فى أخذ ما هو أكثر من الحق، أو الرغبة فى أداء ما هو أقل من الواجب.

وكل هذه التجاوزات قد حَرَّمها الدين الخاتم، وترفضها الثقافة الإسلامية فى جميع صور هذه التجاوزات.

وحَلّ أى مشكلة اقتصادية يكمن فى التزام الإنسان بما أوجب الله تعالى عليه فى أداء عمله -أيًا كان نوع هذا العمل- من إخلاصٍ وإتقانٍ وإحسانٍ وتحرٍ للعدل باستمرار.

ولو أن الناس جميعًا حرصوا ألا يقع منهم ظلم لأحد من الناس لما أطلت مشكلة اقتصادية برأسها من أى منفذ من منافذ الأخذ والعطاء.

ولو أن المجتمع وظَّف ما يملك من آليات لرفع الظلم عن المظلومين وإيصال حقوقهم إليهم؛ ما نبتت مشكلة اقتصادية قط بين الناس.

ولو أن الحاكم أو الحكومة طبقت شريعة الله فى إلزام الناس بأداء واجباتهم، ولم تهضم شيئًا من حقوقهم لما وجدت مشكلة اقتصادية طريقها فى المجتمع كله.

* ومن هنا ندرك بل نتأكد أن التمسك بالدين الإسلامى الخاتم هو الحل لكل مشكلة اقتصادية.

ومع ذلك يردد الجاهلون والمكابرون والحاقدون على الإسلام والمسلمين اعتراضهم ورفضهم لشعار: الإسلام هو الحل!!!

سادسًا: الثقافة الخلقية

الذى يعنينا هنا هو ما يتصل بالمشكلات الخلقية -لأنا تحدثنا آنفا عن القيم الخلقية بتوسع[(١)]- التى تنتمى إلى القيم الخلقية التى توصف بها أعمال الإنسان وسلوكه من جانب أنها خير أو شرّ.

ومن المعروف أن خلق الإنسان وسلوكه يتكون ويتأثر بمجموعة القواعد الخلقية التى توضح للناس كيف يسلكون فى المواقف العديدة دون أن يخالفوا القيم الخلقية السائدة فى المجتمع.

ويعتبر سلوك الإنسان غير أخلاقى إذا خالف قاعدة أخلاقية مقررة فى المجتمع.

* والأخلاق الإسلامية بكل مفرداتها هى أكمل الأخلاق وأحسنها وأنفعها للناس، هى جميعًا مبثوثة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ويمكن تلخيص الأخلاق الإسلامية فى كلمتين هما:

- امتثال ما أمر الله تعالى به وما أمر به رسوله الخاتم ﷺ.
- واجتناب ما نهى الله تعالى عنه وما نهى عنه رسوله الخاتم ﷺ.

* وكان من رحمة الله تعالى بالناس أن جعل خاتم رسله ﷺ أنموذجا حيًا لأخلاق الإسلام المبثوثة فى القرآن الكريم، كما أخبرت بذلك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن.

- ومن الناس من يقولون: إن الأخلاق وقيمها يجب أن تكون بمعزل عن السياسة!!! وأولئك على خطأ عظيم فى فهمهم للسياسة وفى فهمهم للقيم الخلقية فى حياة الإنسان.
- وإن الذين يقولون: إن السياسة يجب أن تكون بمعزل عن الأخلاق، إنما يشبهون عصابة سطو وعدوان على الأفراد والجماعات والمجتمع، حينما يسوسونهم بغير أخلاق!!
- وإن الذين يجهلون ما للقيم الخلقية من تأثير إيجابى فى حياة الناس أفرادًا وجماعات ومجتمعًا، إنما يجهلون ما هو معلوم من الحياة الإنسانية بالضرورة، ويتحدون أمر الله تعالى ونهيه.

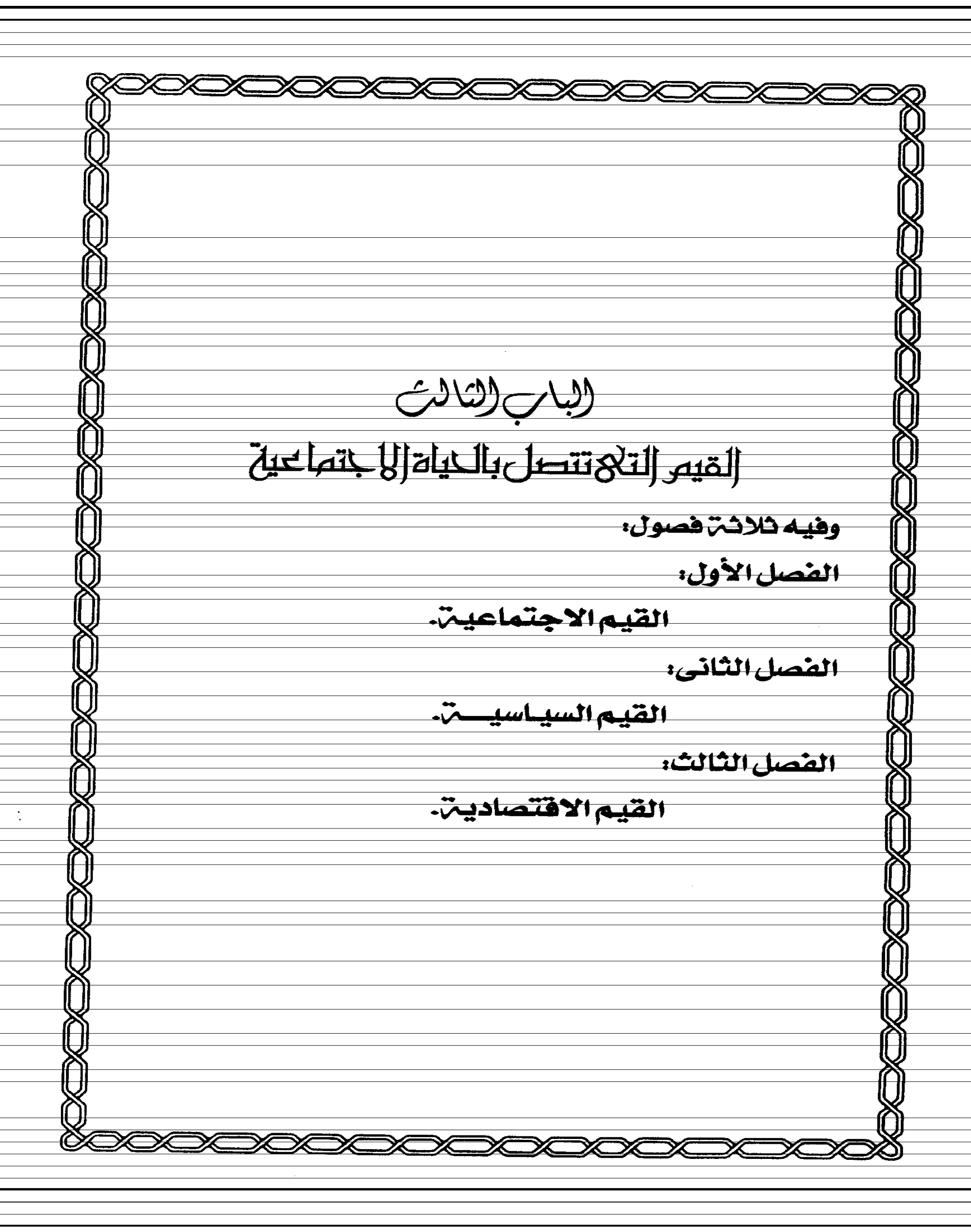
* إن الحياة الإنسانية الاجتماعية بكل شُعَبها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، بحاجة ملحّة إلى القيم الخلقية توجهها إلى الخير، وتحول بينها وبين الشر.

* وإن الذين يتصورون أن الإسلام لا يستطيع أن يحل مشكلات الناس الأخلاقية يجهلون الإسلام جهلاً مطبقًا ويسلبون من علماء المسلمين قدرتهم على حل مشكلات الناس ويهرفون بما لا يعرفون.

إن الإسلام هو الحل لكل مشكلة إنسانية.

---

(١) كان ذلك فى الفصل الثالث من الباب الأول من هذا الكتاب.



الباب الثالث

القيم التي تتصل بالحياة الاجتماعية

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

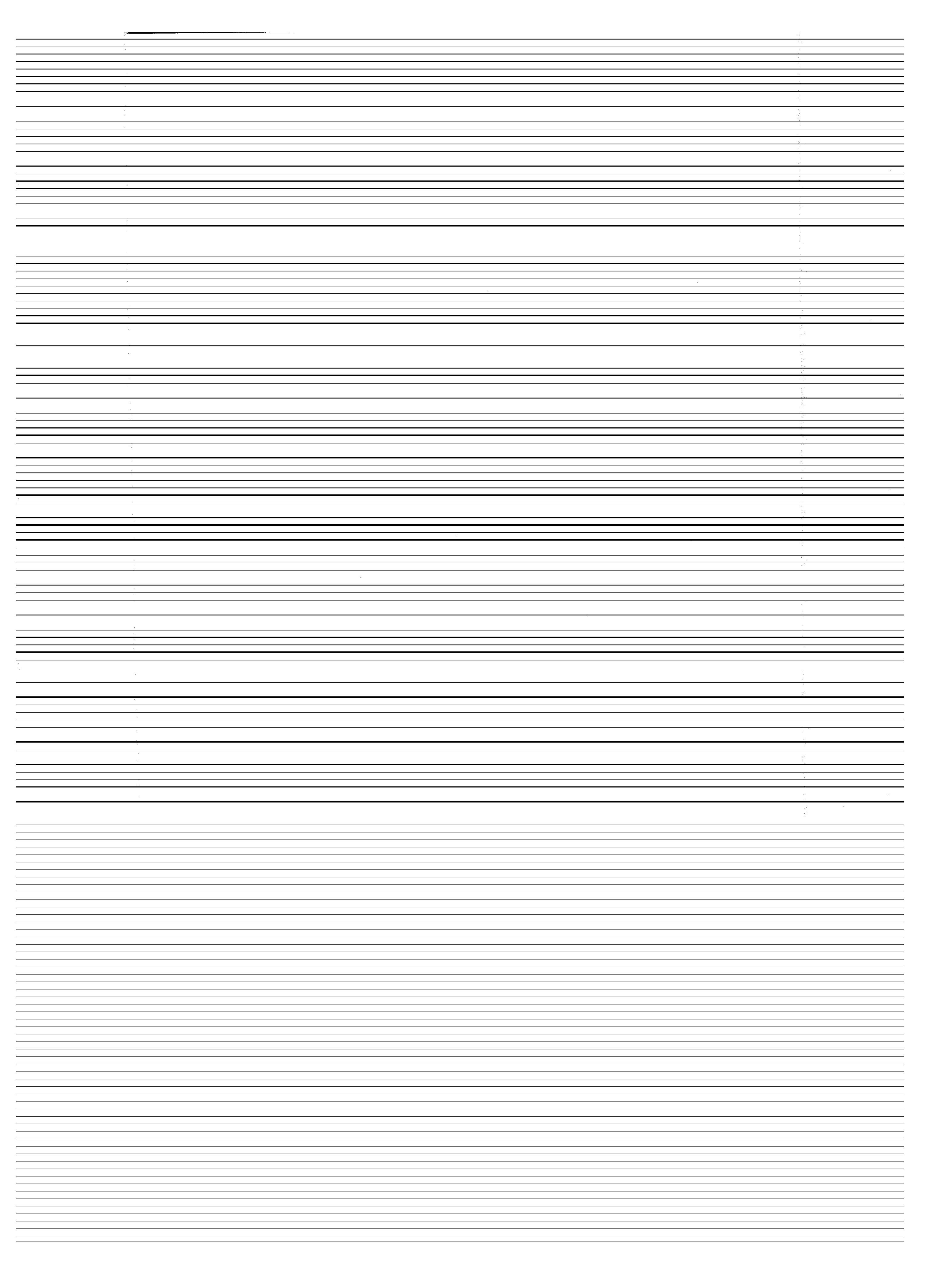
القيم الاجتماعية.

الفصل الثاني:

القيم السياسية.

الفصل الثالث:

القيم الاقتصادية.



القيم التى تتصل بالحياة الاجتماعية

القيم التى تتصل بالعلاقات الاجتماعية وتحكمها، ترسم لها أبعادها، وتوجه مسارها، وتضمن للإنسان ما يحقق مصالحه فى دينه ودنياه بشرط ألا يضر غيره، كما تضمن له أن تدفع عنه الضرر والشر والفساد؛ هذه القيم بتلك الصفات هى القيم الإسلامية الاجتماعية.

والحياة الاجتماعية للإنسان لها مفهوم مترامى الأبعاد، يدخل فيه كل قول أو صمت أو عمل أو ترك يؤثر فى الحياة الاجتماعية للإنسان فردًا أو جماعة أو المجتمع كله.

كما تشمتل الحياة الاجتماعية على جميع الأقوال والأعمال التى تستهدف التقدم والترقى للحياة الاجتماعية الإنسانية؛ بحيث تصبح هذه الحياة أكثر نظامًا وانضباطًا، وأكثر رعاية لحقوق الإنسان وحرياته، وأكثر احتفالاً بالحب والخير والجمال.

كما تشتمل الحياة الاجتماعية الإنسانية على كل المحاولات الرامية لحل أى مشكلة من مشكلات الإنسان النفسية والجسدية والعقلية والعاطفية والعائلية والاقتصادية والسياسية.

* والقيم التى تحكم تلك العلاقات تتغلغل فى كل شعبة من شعب الحياة الاجتماعية للإنسان وهى قيم فاضلة جاء بها الإسلام ليصلح بها حياة الإنسانية كلها؛ لذلك قرَّر الله تعالى أن يثيب المتمسك بهذه القيم فى الدنيا والآخرة، كما قرَّر سبحانه وتعالى أن يعاقب كل من يتخلى عن هذه القيم، لأنه بهذا التَّخلِّى يضر بنفسه وبالمجتمع الذى يعيش فيه، والإسلام قد حرَّم الضرر والضرار.

* وعند التدبر فى هذه القيم الإسلامية الحاكمة -وهى كل حق وكل خير وكل جمال لا تستقيم الحياة الإنسانية إلا بها- عند التدبر فى هذه القيم نجد أن عقلاء الناس وحكماءهم فى كل عصر من عصور الإنسانية، قد اتفقوا على أن التمسك بهذه القيم التى جاء بها الإسلام هو الخلاص للإنسانية من متاعها ومضارها، وهو الجالب لمصالحها على الدوام.

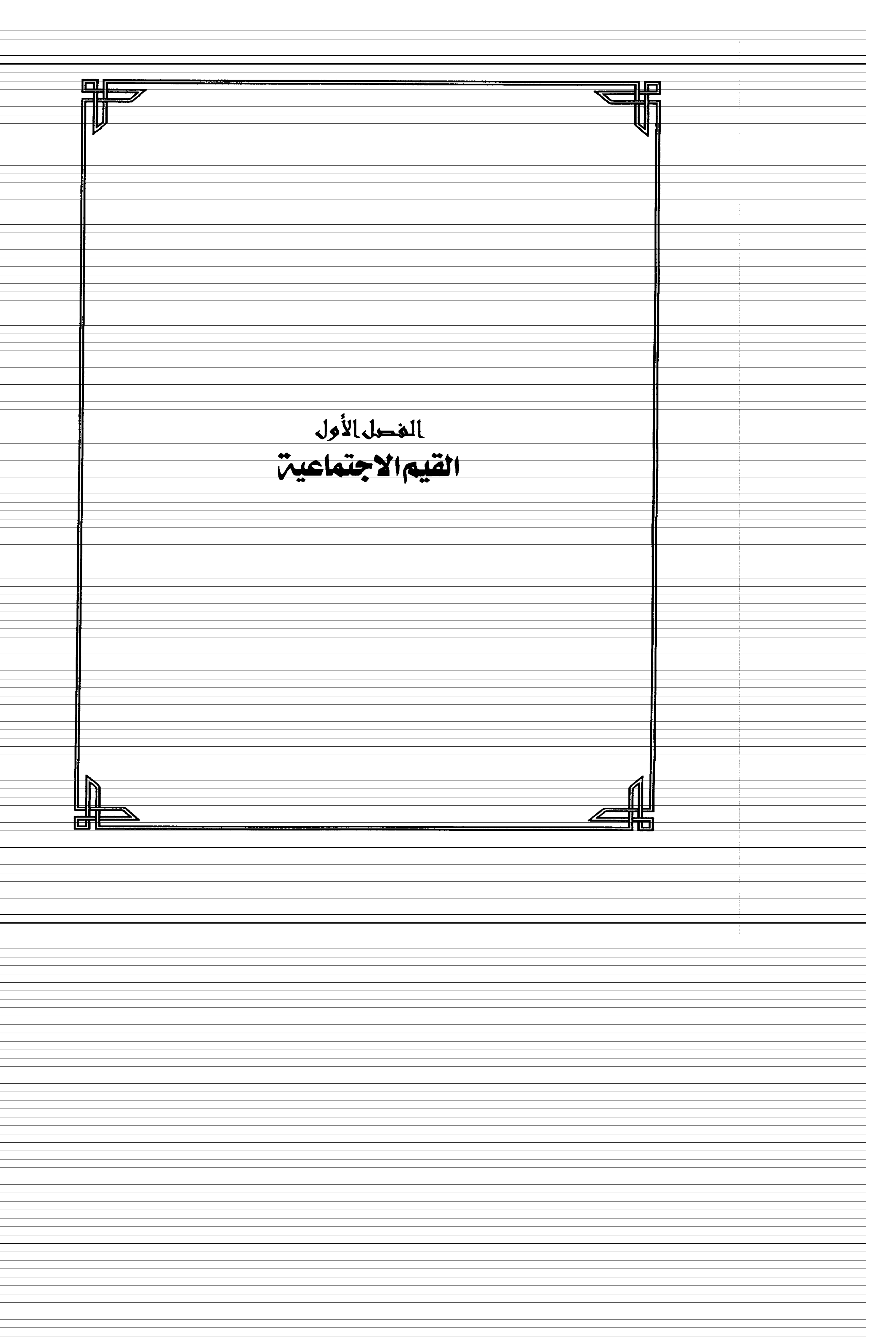
وفى هذا الباب الثـالث من هذا الكتاب، سوف نتحـدث إذا أذن الله وأعان عن أهم ما يتصل بحياة الإنسانية الاجتماعية، وعن القيم التى تسودها وتحكمها، وسيكون حديثنا عنها فى فصول ثلاثة:

الفصل الأول: القيم الاجتماعية،

والثانى: القيم السياسية،

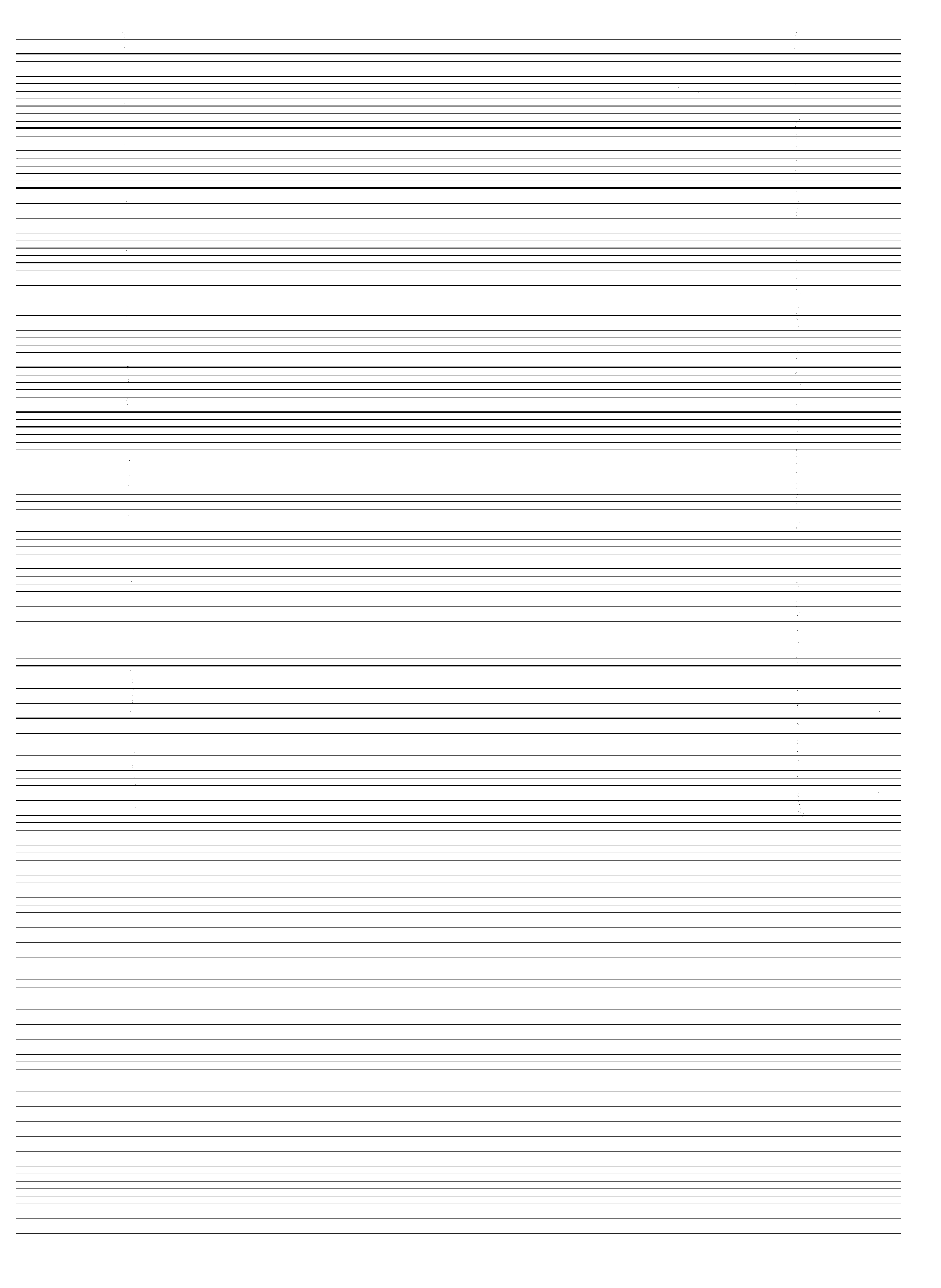
والثالث: القيم الاقتصادية.

ونسأل الله التوفيق.



الفصل الأول

القيم الاجتماعية



وهى القيم الحاكمة للنظم الاجتماعية فى المجتمع كله، والموجهة لكل مفردة من مفردات الحياة الإنسانية لتحقق صلاح المعاش والمعاد لكل إنسان.

وأهم النظم الاجتماعية الإسلامية التى يعنينا الحديث عنها هنا نظامان:

- نظام الأسرة،
- ونظام المجتمع.

وتحت كل منهما فروع، وفى كل منهما تشريعات إسلامية، على نحو ما سنبين بإذن الله تعالى.

أ- القيم الاجتماعية الإسلامية الحاكمة فى نظام الأسرة

نظام الأسرة جاء به الإسلام أحكم نظام وأعدله، وأقدره على رعاية الأسرة وحفزها على النمو والارتقاء بأداء وظائفها على أحسن وجه.

وهذه الأسرة مهما صغر حجمها فلم تشتمل على غير الرجل وامرأته، أو كبر حجمها فضمت الفروع والأصول والأقارب والأرحام، فإن الإسلام قد شرع لها من التشريعات ما أمّن به حاضرها ومستقبلها على نحو ما سنبيّن بعد قليل.

* والقيم الإسلامية التى تحكم نظام الأسرة عديدة وكثيرة ولكنها فى معظمها تعود إلى أصول القيم الإسلامية وهى: الإيمان والإسلام والعدل والإحسان، والحب والخير والجمال، والرعاية وأداء واجب المسئولية، والعدل بين أفراد الأسرة جميعًا صغاراً وكباراً حتى فى البسمة والقبلة.

* وهذه القيم الإسلامية يجب أن تسود الأسرة وتحكم علاقات بعضها ببعض، وهذه القيم كلها دل عليها القرآن الكريم والسنة والنبوية المطهرة، وهى التى تعين الأسرة على أن تحقق أهدافها وتؤدى وظائفها على الوجه الأمثل.

* وللتذكير بأهداف الأسرة المسلمة ووظائفها نذكر منها سبعة أهداف فى هذا المجال مذكِّرين بأن تحت كل هدف منها فروعًا وتفصيلات، وهذه السبعة هى:

- تربية الجيل المسلم الملتزم بخُلُق القرآن الكريم، المقتدى بأخلاق النبى الخاتم ﷺ.
- والحرص على أن يسود أدب الإسلام وخُلُقياته جَوّ الأسرة فى أقوالها وأعمالها وعلاقاتها بالناس.

- والعمل الدائب على ربط أفراد الأسرة جميعًا بالمسجد ثم ربط الصغار بالمسجد والمدرسة.
- وحفز أفراد الأسرة على التفوق فى طلب العلم وعلى أن يجيدوا أى عمل يقومون به.
- ومدّ المجتمع بالأعضاء الصالحين القادرين على أداء العمل الجيد المتقن، الذى يخلص فيه صاحبه وفق القيم الخليقة التى جاء بها الإسلام.
- وتوجيه أبناء الأسرة وسائر أفرادها إلى أن يمارسوا الدعوة إلى الله ودينه الخاتم وفق أدبيات الدعوة إلى الله وشروطها.
- وعمل الأسرة وبخاصة الأب على تكوين روابط بين أسرٍ أخرى مجاورة.

* تحقيق هذه الأهداف والوظائف بالنسبة للأسرة المسلمة أعطاهُ الإسلام عناية ورعاية بتشريعات ونظم تعين الأسرة المُسلمة على تحقيق هذه الأهداف، وتؤمنها فى حاضرها ومستقبلها.

- وفى سبيل تأمين حاضر الأسرة المسلمة وعونها على تحقيق أهدافها، شَرَّعَ لها الإسلام ثلاثة تشريعات هى:

* تشريع القوامة على الأسرة، وجعل هذه القوامة فى يد الرجل إلا إذا حال بينه وبين ذلك حائل.
* وتشريع الولاية على النفس وعلى المال.
* وتشريع النفقات وعلى من تجب.

- وفى سبيل تأمين مستقبل الأسرة المسلمة وعونها على أداء وظائفها؛ سَنَّ لها تشريعين هامَّين هى:

* تشريع الميراث وتنظيمه، مع البيان الوافى لمستحقيه ونصيب كل منهم من مورثه.
* وتشريع الوصية أى التبرع لغير الورثة بما لا يزيد عن الثلث، مساهمة فى دفع الحاجة عنهم.

أولاً: تشريعات حماية الأسرة فى حاضرها:

وهذه التشريعات من: «قوامة وولاية ونفقات» لو أخذ بها المسلمون لأمّنوا حاضر أسرهم، وتمكنوا من خلال الالتزام بها من تحقيق أهداف أُسَرهم.

* وسوف نشير إشارات دالة إلى كل تشريع بما يسمح به موضوع الكتاب، وكتب الفقه الإسلامى تشبع من أراد أن يتوسع فى العلم والمعرفة:

١- تشريع قوامة الرجل على أسرته:

جعل الله تعالى للرجل القوامة على أسرته؛ زوجته وأبنائه؛ لأنه سبحانه خلق الرجل أقدر على العمل والسعى على الرزق ومغالبة الظروف والعوائق، من المرأة، بل أعطاه قدرة على سياسة الأسرة وتأمينها من المرأة، إلا فى حالات نادرة لها أحكامها.

* وعند التحقيق والتدقيق نجد حكمة الله تعالى قد اقتضت أن يكون للرجل وظيفة فى الأسرة تلائم قدراته وأن تكون للمرأة فى الأسرة وظيفة تناسب قدراتها وما خُلقتْ له، وليس ذلك يمثل نقصًا فى تكوينها بحال.

* وعلى سبيل المثال فيما فطر الله تعالى عليه المرأة: فإن أيام الحيض الشهرية عندها تصيبها بضعف عام -تحدث عنه علماء الأحياء- يحول بينها وبين القوامة على الأسرة؛ فقد أكد هؤلاء العلماء أن أيام الحيض تضعف جسد المرأة عمومًا، وتقلل من حيويتها ونشاطها فتصيبها بالكسل والخمول، وتضعف قوة تركيزها الذهنى، وتضعف قدرتها على التنفس، وتبطئ نبضها، وتصيبها بالصداع، وتقلل شهيتها للطعام، وغير ذلك من أعراض ضعف عَدُّوا منها ما يقرب من ثلاثين عرضًا مرضيًا، ومعنى ذلك أن قدرتها على قوامة الأسرة لابد أن تتأثر بهذا كله.

* وقد سجل القرآن الكريم قوامة الرجل فى قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ...﴾ [النساء: ٣٤].

٢- تشريع الولاية على النفس والمال:

هذا التشريع يصون الأسرة ويرعاها أنْفُسًا وأموالاً؛ والولاية على النفس مثل ولاية الأب على صغار أبنائه، والولاية على المال مثل ولاية الأب أو نحوه على السفهاء أو ناقصى التمييز ممن يلى أمورهم، وفى هاتين الولايتين صيانة للصغير أن يضيع أو يتعرض لخطر أو ضرر بسبب صغره، وصيانة لمال السفيه أن ينفقه فى غير وجهه.

* وقد تكون الولاية على النفس للأم إذا كان الصغير فى سنّ الرضاعة أو الحضانة عند افتراق الأبوين؛ لأن الرسول ﷺ قال فيما رواه أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما لامرأة سألته عن ذلك: «أنتِ أحق به ما لم تنكحى».

* ولحضانة الأم لطفلها شروط أخرى غير شرط عدم زواجها، مبسوطة فى كتب الفقه الإسلامى، مثل: العقل، والأمانة، والقدرة على القيام بكل ما تتطلبه ولايتها على الصغير.

* وأما الولاية على المال: فإنما تكون على السفيه والمجنون وفاقد التمييز، حتى يبرأ من ذلك فيسلم له ماله مع شهادة الشهود.

* وهذا التشريع يستهدف حفظ مال الصغير حتى يكبر، وحفظ السفيه حتى يزول عنه السفه، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

* والولاية على المال تثبت للأب وللجد ونحوهما على غرار ما هو مقرر فى كتب الفقه الإسلامى، ولهذه الولاية شروط فى الولى كالعقل والأمانة والقدرة على المحافظة على المال وتنميته.

٣- تشريع النفقات:

وهو تشريع يؤمن حاضر الأسرة ويؤمن أفرادها من ضرر الحاجة والعوز، وما يترتب على ذلك من ضياع.

* وقد حددت الشريعة من تجب لهم النفقات، ومن تجب عليهم، وألزمت من تجب عليهم النفقات بالإنفاق.

* والنفقات فى معظمها وفى أغلب أحوالها تجب على الذكور من: زوج، وأب، وجد، وابن وحفيد لابن، وعلى ذوى الأرحام ماداموا من الورثة.

* وللإنفاق والنفقات شروط مبسوطة فى كتب الفقه الإسلامى مثل: أن يكون من تجب عليه النفقة قادراً على الإنفاق، وأن يكون له فضل مال ينفق منه، وأن يكون المنفَق عليه فقيراً، وأن يكون على دِين المنفق، لأن اختلاف الدين لا يوجب النفقة.

وقد دلتْ على وجوب النفقات آيات من القرآن الكريم وكلمات من سنة النبى ﷺ، ومن ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا...﴾ [الطلاق: ٧].

وهذه الآية الكريمة فى وجوب إنفاق الزوج على زوجته.

- وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وهذه الآية الكريمة فى وجوب إنفاق الوالد على ولده.

* وأما السنة النبوية فمنها:

- ما رواه مسلم بسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى**».

- وما رواه مسلم بسنده عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أعطى أحدكم خيراً فليبدأ بنفسه وآل بيته**».

ثانيًا: تشريعات حماية الأسرة فى مستقبلها:

وأهم هذه التشريعات تشريعان؛ تشريع الميراث وتشريع الوصية.

١- تشريع الميراث أو التوارث:

وهو نقل تركة المتوفَّى إلى ورثته وفق النظام الذى حددته الشريعة لأصحاب الفروض وغيرهم من الورثة، بعد استبعاد الديون والوصية من التركة.

* وهذا التشريع يؤمن مستقبل الأسرة ويقيها شر الحاجة وسؤال الناس، ويؤدى خدمات اجتماعية واقتصادية عديدة، نذكر منها:

- أنه يوزع الثروة ويعدد الأفراد الذين يتداولونها.

- وأنه ينمى عند الوارث فكرة اعتماده على نفسه ويحفزه على التفكير فى استثمار أمواله.

- وأنه مدعاة للإنتاج والإتقان والربح.

- وأنه مدعاة للإحساس بالمسئولية والاقتصاد فى المعيشة.

* ونظام الميراث فى الإسلام أدق وأعدل نظام لأنه راعى مصالح الورثة جميعًا ذكورًا وإناثًا بالقسطاس دون تحيز لذكر ضد أنثى، ودون حرمان لأحد.

بل إنه حارب فكرة الميراث للبكر أو لأكبر الأبناء.

ومنع حرمان الأنثى لأنها أنثى.

وعالج جميع العيوب فى أنظمة الميراث التى سبقت ظهور الإسلام.

وتمتد آثار نظام الميراث من تأمين مستقبل الأسرة إلى تأمين المجتمع كله.

* وقد وردت فى الميراث آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة، ونذكر من ذلك:

- قول الله تبارك وتعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ⑦ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ⑧ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⑨ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ⑩ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ⑪ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ⑫ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ⑬ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

[النساء: ٧- ١٤]

- وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا

إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
[النساء: ١٧٦]

* وأما الأحاديث النبوية فى الميراث فقد جمعها علماء السنة، وبخاصة الكتب الثمانية(١).

* وعلى سبيل المثال فقد ذكر البخارى ثمانية وأربعين حديثًا، وأورد مسلم ثلاثة وعشرين حديثًا، والترمذى تسعة وثلاثين حديثًا و...

٢- تشريع الوصية:

الوصية تؤمن مستقبل الأسرة الكبيرة، والمجتمع نفسه، لأن الوصية شرعت لغير الورثة.

والوصية دعم لأواصر المودة والرحمة بين الأقارب والأرحام وسائر أفراد المجتمع؛ لأنها تسد حاجة عدد أكبر من أفراد الأسرة.

* وللوصية فى الشريعة شروط عديدة، منها:

شروط فى قدر المال الذى يوصى به الموصى، حيث لا يجوز له أن يتجاوز ثلث ثروته،

وشروط فى الوصى كالعقل،

وشروط فى الموصَى له كاتفاق دينه مع دين الموصى،

وشروط فى وقت الوصية، وأن لا تكون عند الغرغرة بالنسبة للموصى.

وقد سمح الإسلام أن يوصى الرجل لوالديه وإن اختلفا معه فى الدين براً بهما.

* وقد وردت فى الوصية آيات من القرآن، وعديد من الأحاديث النبوية.

---

(١) الكتب الثمانية فى السنة هى:
- صحيح البخارى.
- صحيح مسلم.
- وسنن الترمذى وتسمى صحيحه.
- وسنن أبى داود.
- وسنن النسائى.
- وسنن ابن ماجة.
- وموطأ الإمام مالك.
- ومسند الإمام أحمد.

وكلها -ما عدا سنن النسائى بَوَّبت المواريث وما جاء فيها من أحاديث أوضحت كل ما يتصل بها من أحكام.

فمن آيات القرآن الكريم:

- قول الله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٨٠- ١٨٢].

* والخير فى هذه الآية هو: المال.

* والوالدان قصد بهما اللذان لا يرثان كأن يكونا عبدَين أو كافرين، وعندئذ يوصى لهما استثناء.

* والأقربون فى الآية هم: غير الوارثين.

* ومن آداب الوصية:

* أن يراعى فى وصيته الفقراء وذوى الحاجات.

* وأن يسوى بينهم إذا استوت حاجتهم وفاقتهم.

* وأن لا تتضمن الوصية جوراً أو ظلماً.

* وأما الوصية فى السنة النبوية، فقد وردت فيها أحاديث وبوب لها علماء السنة أبوابًا فى كتبهم جمعوا فيها عشرات الأحاديث الشريفة، ومن ذلك:

- ما رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«ما حَقّ امرئٍ مسلم له شيء يوصى به يبيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده»**.

- وما رواه مسلم بسنده عن عامر بن سعد عن أبيه قال: عادنى رسول الله ﷺ فى حجة الوداع مِنْ وَجَع أشفيت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغنى ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة لى واحدة، أفأتصدق بثلثى مالى؟ قال: **«لا»** قال قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: **«لا، الثلث والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، ولستَ تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلاّ أُجِرْتَ بها؛ حتى اللقمة تجعلها فى فِى امرأتك»** قال: قلت يا رسول الله: أُخَلَّف بعد أصحابى؟ قال: **«إنك لن تُخلَّف فتعمل عملاً تبتغى به وجه الله إلا ازددتَ به درجة ورفعة، ولعلك تُخَلَّف حتى ينفع بك أقوام ويُضَرّ بك آخرون...»**.

ب- القيم الإسلامية الحاكمة فى نظام المجتمع

المجتمع الإنسانى الراشد لابد له من قيم تحكم نـظمه وتهديها الطريق الصحيح، وترسم لها معالم هذا الطريق.

* وهذا المجتمع الإنسـانى فى أى عصر من عصور الإنسـان فى هذه الأرض لا يستطيع أن يؤدى وظائفه فى الحياة إلا إذا كانت له دعائم يقوم عليها وينهض بسببها.

* ووظائف المجتمع الإنسانى وأهدافه لو تُرك اختيارها لرغبات الإنسان لتنافر الناس فيما بينهم لتـضارب مصـالحهم واخـتلاف أهوائهم، وما تحـسِّنه لهم أنانيتـهم التى فطروا عليها؛ لذلك كرَّم الله تعالى الإنسانية بأن بعث فـيها أنبياء ورسلاً، يهدون الناس إلى التوافق والتعاون على تحقيق مصالحهم دون الإضرار بمصالح غيرهم.

* ولما كان الإسلام خاتم الأديـان السماوية، وكان محمد ﷺ خـاتم الأنبياء والرسل، كان حق الإنسانية أن تحـظى بأكمل نظام اجتماعى وأقربه إلى تحـقيق صالح الإنسان فى دنياه وآخـرته، وإلى تعليم الإنسان كـيف يتعامل مـع ربـه سبحـانه وتعالى ومع خـاتم رسله ﷺ، وكيف يتـعامل مـع نفـسـه وشيطانه، وكـيف يتعـامل مع أخيـه الإنسان.

* من أجل ذلك جاءت النظـم الاجتماعـية الإسلامـية محكـومة بقيم الإسـلام النابعة من الكتاب الخاتم والسنة الخاتمة، وهى قيم تهدى للتى هو أقوم وتبشر المؤمنين، وتنادى على الناس بأن الله تعالى بهذه النظم التى تحكمها هذه القيم، قد هداهم إلى الصراط المستقيم الآمن فى الدنيا والآخرة.

* والذى نتـصوره -ونـسأل الله تعـالى أن نكون فى تصـوره على صـواب- هو أن النظم الاجتماعية الإسلامية تتولد عن ثلاثة نظم هى:

- نظام الإصلاح الاجتماعى،
- ونظام التضامن والتماسك الاجتماعيين،
- ونظام الأمن الاجتماعى.

ونرجو أن نوضح هذه النظم بإيجاز فيما يلى:

أولاً: نظام الإصلاح الاجتماعى الإسلامى

نظام الإصلاح الاجتماعى الإسلامى -كما سنوضح- نظام عند التدبر فيه نجده مما تقبله العقول السليمة والفطر الصحيحة، لأن الله تعالى قضى ألا يأتى على لسان رسله إلا نظام يقبله العقل مادام قد جاء به الشرع.

وعلامة قبول العقل السليم له، أنه نظام إصلاح اجتماعى لا يضيع فيه حق ضعيف أو فقير، ولا يستأسد فى ظله باغ أو ظالم مغتر بقوته وغناه.

كما أنه نظام يقوم على المساواة بين الناس أمام هذا النظام، فلكل منهم من الحقوق وعليه من الواجبات مثل الآخر.

نظام لا يتطاول فيه حاكم على محكوم، وإنما يعامله بالعدل والإحسان، ولا يعصى فيه محكوم حاكمه إلا أن يأمره بمعصية لله تعالى.

* نظام مَنْ أخطأ فيه حوسب وعوقب، ولا يشفع له فى الإعفاء من الحساب والعقاب قربه من السلطان، كما لا تتشدَّد عليه العقوبة لمجافاته السلطان.

* نظام اجتماعى إصلاحى يقوم على احترام حقوق الإنسان وحرياته، وإدانة من ينتهك من هذه الحقوق والحريات شيئًا فيحاسب ويعاقب، ولا تسقط عقوبة هذا الانتهاك مهما تطاول الزمان وتغير السلطان؛ لأن المنتهك لحقوق الإنسان إنسان له إرادته واختياره وقدرته على رفض ما أمر به مادام فيه معصية لله تعالى؛ لأنه سبحانه هو الذى كرَّم الإنسان وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضَّله على كثير من خلقه، بل إنه سبحانه خلق السموات والأرض من أجله، فكيف تكون جريمة من انتهك حرمة إنسان كرّمه الله تعالى؟

* نظام إصلاحى اجتماعى لا مجال فيه لظلم الإنسان بسَنّ قوانين استثنائية، أو قوانين طوارئ أو قوانين عرفية، ولا مجال فيه لمنافقى السلطان الخائفين من بطشه وقهره؛ أن يبرروا له ظلمه وظغيانه؛ لأنه يحكم بلا رقابة، ويملك البلاد والعباد، ولا يُساءل، ولا ينافَس فى الحكم، ولا ينزل عنه حتى يموت!!!

نظام الإصلاح الاجتماعى الذى جاء به خاتم الأديان، يؤكد حقيقتين ناصعتين:

- إحداهما: أنه يُنقّى المجتمع من عيوبه ومفاسده، ومحارب أهل الذنوب والفاسدين.

وهذه العيوب والذنوب والمفاسد الاجتماعية، إنما تنشأ عن خلل فى أداء وظيفة اجتماعية مّا فى أى وحدة من وحـدات المجتمع، أو تنشأ من الاستجـابة لشياطين الجن والأنس، أو الجرى وراء ما حرّم الله من ملذات وشهوات.

والإصلاح الاجتمـاعى يقوم على اجتناب هذه العيوب والذنوب والمفاسـد، بإقامة شرع الله الذى لا يُظلم فيه أحد، ولا تزر فيه وازرة وزر أخرى.

- والحقيقـة الأخرى: أن هذا الإصلاح الاجتماعى الإسلامى؛ يستـهدف العمل على إنشاء وحدات أو جماعات أو منظمات تحفظ على الناس حقوقهم ومصالحهم، وتصون حياتهم وتحافظ على ذويهم وأموالهم وما يملكون، فى ظل نظم إسلامية شرعها الله لتنقذهم من الضلال أو تهـديهم إلى الصراط المستقـيم صراط الله، وتحول بينهم وبين أن تـفرق بهم السبل عن سبيله وتعلن لهم أن على رأس كل طريق غـير طريق الله شيطانًا يزين الباطل ويصرف عن الحق والهدى.

وهذا الإصلاح الاجتماعى الإسلامى هو جلب لمصالح الإنسان فى الدنيا والآخرة.

* والإصلاح الاجـتمـاعى الإسلامى، فى الحقـيقـتين اللتين أكدهمـا هو ما نعبـر عنه فى مفاهيمنا الإسلامية بقولنا:

درء المفاسد.

وجلب المصالح.

* ومن أمثلة درء المفاسد أو رفعهـا عن الناس - وهو فى الوقت نفسه من صميم الإصلاح الاجتماعى-:

- كل عمل أو حركة تؤدى إلى رفع الظلم عن المظلومين،

- ووكل عمل أو حركة تؤدى إلى مقاومة الجهل أو الفقر، أو المرض،

- وكل عمل أو حركة تؤدى إلى إيجاد فرص للعمل والخروج من أزمة البطالة،

- وكل عمل أو حركة فيه رعاية للعاجزين عن العمل، وتأمينهم ليعيشوا فى أمان،

- وكل عمل أو حركة يؤدى إلى رعـاية الأيتام والأرامل والطاعنين فى السن، والأطفال الضائعين.

* ومن أمثلة جلب المصالح والمنافع للناس - وهو فى الوقت نفسه من صحيح الإصلاح الاجتماعى-:

- كل عمل أو حركة يحقق العدل بين الناس، ويكفل لكل ذى حق حقه.

- وكل عمل أو حركة يؤدى إلى المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ويجعلهم أمام القانون سواء.

- وكل عمل أو حركة يؤدى إلى تكافؤ الفرص بين الناس؛ فى مختلف مجالات الحياة كالعمل والكسب والامتلاك والتعليم والصحة والإسكان، ويُسْر المواصلات والاتصالات، ونحو ذلك من المصالح الحيوية فى حياة الإنسان.

- وكل عمل أو حركة من شأنه أن يمكّن الإنسان والمجتمع من ممارسة حقوقه، وأداء واجباته.

- وكل عمل أو حركة من شأنه أن يصون حريات الإنسان ويدعمها، أو يزيل العوائق من طريقه ليمارس حرياته الشخصية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغيرها.

* والإصلاح الاجتماعى الإسلامى فى جوهره تطبيق عملى للقيم الإسلامية، ودعم لهذه القيم وإحياء لها وتجديد، وتمكين لهذه القيم أن تسود المجتمع، وتحكم سلوك الأفراد والأسر والجماعات.

* وكل القيم الإسلامية -هى عديدة وذات فروع كثيرة تفرعت عن كبريات الفضائل- كل هذه القيم تستهدف درء المفاسد والمضار، جلب المصالح والمنافع فى الدنيا والآخرة، ما يمارس فى ذلك عاقل حيادى النظر.

- ومن أمثلة هذه القيم وأصولها:

الصدق، والإخلاص، والإحسان، والإتقان، والصبر، والثبات على الحق، والعدل، والعفة عن الزلات، والشجاعة، والنجدة، والأمانة، والوفاء، وحب الناس، وحب إسداء الخير إليهم.

- وجامع هذه القيم ومصدرها شيئان:

* القرآن الكريم وما اشتمل عليه من قيم فاضلة،

* وسنة الرسول ﷺ وأخلاقه.

ثانيًا: نظام التضامن والتماسك الاجتماعيين

التضامن الاجتماعى فى معناه المتبادر إلى الذهن هو: التزام القوى أو الغنى معاونة الضعيف أو الفقير.

وهو بهذا المعنى خلق إسلامى أصيل، دلَّتْ عليه آيات قرآنية عديدة، وأحاديث نبوية جاءت فى مناسبات متعددة -ذكرنا كثيرًا منها فيما سبق من هذا الكتاب-.

* وهذا التضامن الإسلامى يجب أن يقوم كل قادر عليه من فرد أو أسرة أو جماعة، أو مجتمع، أو حكومة، لكن عندما تقوم به الحكومة يسمى ضمانًا اجتماعيًا، لأن الحكومة عندئذ تضمن للمواطن حقوقه فى العيش الآمن، وتدفع عنه غوائل الحاجات الأخرى كالفقر وفقد المأوى وفقد العمل، والعجز عنه، والمرض، والجهل؛ لأن حقوق المواطنين على الحكومة من أوائلها وأهمها التعليم.

* وهذا التضامن قسَّمه علماء الاجتماع إلى قسمين:

* تضامن عضوىّ،

* وتضامن آلىّ.

- فالتضامن العضوى: يطلق على الظاهرة التعاونية التى تسود مجتمعًا يقوم العمل فيه على حسن تقسيمه بين الناس بحيث لا يُعْفَى منه قادر عليه، ولا يكلف فيه بما فوق طاقته، وهذا العمل يتطلب تعاونًا وتساندًا بين أفراده.

- وكلما كان المجتمع أقدر على تقسيم العمل بعدالة بين أفراده كان تعاون أفراده وأسره وجماعاته أحسن وتساندهم أعمق وأنفع، وعمله وإنجازهم أدق وأنجح.

- والتضامن الآلىّ: يطلق على الظاهرة التى تسود مجتمعًا تقليديًا؛ تتجانس فيه القيم التى تسود أفراده وأسره وجماعاته، فهو عندئذ آلىّ لا يحتاج إلى حسن تقسيم العمل، كما احتاج إليه التضامن العضوى؛ لأن الأفراد يقومون بالتعاون عفويًا لتجانس القيم عندهم.

- وكل من التضامن العضوى والتضامن الآلىّ يدعمان تحقيق أهداف المجتمع، ويعاونان على أن يؤدى المجتمع كلّ وظائفه.

* والإسلام الخاتم يعلى من شأن كل نوع من نوعى التضامن بل يأتى بما هو أعلى من التعاون والتساند؛ إذ يصل إلى درجة التكافل، بمعنى أن يكفل الغنى الفقير، وأن يكفل القادرُ العاجزَ والضعيف.

* وقد دلت آيات القرآن الكريم وكلمات السنة النبوية على إعلاء شأن التضامن بنوعيه، وما يترتب عليه من تعاون وتساند، من ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ [المائدة: ٢]

- وروى أحمد بسنده عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ أقبل إلى الناس بوجهه فقال: **«أيها الناس اسمعوا واعقلوا، واعلموا أن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله»** فقال رجل أعرابى: انعتهم لنا، فَسُرَّ وجه رسول الله ﷺ، وقال: **«هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نوراً، وثيابهم نوراً، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»**.

* أما التماسك الاجتماعى: فإنه يستهدف استقرار النظام الاجتماعى على مستوى الأُسَر والجماعات والمجتمع كله.

- ويقوم التماسك الاجتماعى على دعائم من التعاون والتناصر والتآزر بين أفراد المجتمع، ثم بين المجتمع والحكومة التى تقوده وتسوسه؛ لأن التماسك الاجتماعى يعنى زيادة العلاقات الموجبة التى تكون فى المحيط الداخلى للجماعة والمجتمع.

- وكلما زادت هذه العلاقات بين الناس وثاقة، كلما دل ذلك على زيادة التماسك بين أفراد المجتمع، وسائر مكوناته من أُسر وجماعات، وكلما نجح فى تحقيق أهدافه وأداء وظائفه على وجهها الصحيح.

* والمجتمع الإسلامى بمبادئه وقيمه ونظمه ومؤسساته يعمل ما وسعه وما سمحت له قيمه ومبادئه على تقوية هذه العلاقات وتعميقها فى داخل المجتمع الإقليمى، ثم يمتد إلى خارج هذا المجتمع الإقليمى ليضم إليه المجتمع الإسلامى البعيد عن هذا الإقليم مهما كان بعده المكانى فى أى بقعة من مشارق الأرض ومغاربها.

* وللتماسك الاجتماعى فى الإسلام دلالات ومعانٍ عديدة أبرزها -فى تصورى- ثلاث، هى:

- تحديد مركز كل فرد أو جماعة فى المجتمع، وتحديد عمله وتوضيح مدى ارتباط عمله بغيره من الناس.

- وحسن التنسيق بين الوحدات العاملة فى المجتمع، بحيث تعرف كل وحدة عملها، فتؤديه على وجهه الصحيح، على النحو الذى يحقق أهداف المجتمع.

- وتوحيد صفوف المسلمين فى أمرين هامين فى الحياة الاجتماعية، وهما:

* توحيد جهودهم فى مقاومة الشر والفساد والعدوان ليكون تأثيرهم فى دفعه أشد وأقوى.

* وتوحيد جهودهم فى فعل الخير والبر والعون والنجدة، لكى يكون تأثيرهم أقوى وأفعل.

وإنما كان هذا التوحد فى مقاومة الشر وفى فعل الخير واجبًا على المسلمين لأنهم يد واحدة على مَنْ سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، كما وصفهم رسول الله ﷺ.

* وفى هذه المعانى للتماسك الاجتماعى جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، ومنها:

- قول الله تعالى: ﴿...وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ [المائدة: ٢]

- وقوله جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا...﴾ [آل عمران: ١٠٣].

- وروى مسلم بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنه خُلِق كل إنسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل؛ فمَن كبَّر الله، وحَمِد الله، وهَلَّل الله، وسبَّح الله، واستغفر الله، وعزل حجرًا عن طريق الناس، أو شوكة أو عظمًا من طريق الناس، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، عدد الستين والثلاثمائة؛ فإنه يمشى يومئذ وقد زَحْزَح نفسه عن النار».

– روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، يرد مُشِدّهم على مضعفهم، ومسرعهم على قاعدهم».

* وإنما يقوى التماسك الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى إذا طبق الناس منهج الله ونظامه تطبيقًا عمليًا، ولهذا المنهج عناصر أساسية معروفة هى:

– الإيمان بمفرداته الست،

– والإسلام بأركانه الخمس،

– والإحسان بمعانيه كلها،

– والعدل بجميع أنواعه وأقسامه،

– والشورى فى كل موقف من شأنه أن تؤخذ فيه الشورى،

– والدعوة إلى الله إلى الدين الحق على بصيرة،

– والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

– والجهاد فى سبيل الله بكل أنواعه، حتى تكون كلمة الله هى العليا.

– والاعتزاز بالانتماء للإسلام والولاء له ولمنهجه والبراء من كل ما يخالفه،

– والالتزام بقيم الإسلام كلها فى كل شعب الحياة الإنسانية.

* وما ابتلى المسلمون بالتفكك الذى أعقبه الضعف والتخاذل إلا بعد أن تخلوا عن عناصر المنهج الإسلامى فى الحياة كلها أو بعضها، ولا علاج لتراجعهم الحضارى الراهن إلا بالتمسك بعناصر هذا المنهج، والالتزام بقيم الإسلام فى كل شعبة من شعب الحياة الإنسانية كلها.

* تلك حقيقة لا ينكرها إلا جاهل بالإسلام وقيمه ومدى فعالية هذه القيم فى صناعة الإنسان الراشد، والمجتمع الراشد، والنهضة الراشدة.

وقد ينكر هذه الحقيقة حاقد على الإسلام، أو مضلَّل عبث بعقله همزات الشياطين من جن وإنس، أو إغراءات أعداء الإسلام المسيطرين على أفكاره، وأفكار الناس فيه!!

ثالثًا: نظام الأمن الاجتماعى الذى تحرسه القيم الإسلامية

* الأمْن الاجتماعى له مفهوم عام يدخل فيه كل أمْن تقتضيه حياة الإنسان مع غيره من الناس فيدخل فيه:

- الأمن الفكرى والثقافى والإعلامى،
- والأمن العلمى والتقنى والإبداعى.
- والأمن السياسى بجميع أبعاده، سواء منها ما كان متصلاً بكل حريات الإنسان -ما لم تصطدم مع حريات الآخرين- أو كان متصلاً بجميع حقوق الإنسان ما لم تصادم حقوق الآخر.
- والأمن الاقتصادى، ابتداء من توفير فرصة العمل، وتوفير العمل نفسه، واحترام حرية الكسب والتملك والإنفاق، وتوفير السكن والتعليم ونوعى الطب الوقائى والعلاجى، وكل ما يؤمن قوت الإنسان وملبسه ومسكنه وأسرته والمجتمع كله.
- والأمن الداخلى للوطن باحترام هذه الحريات والحقوق وصيانتها وعدم المساس بها فضلاً عن انتقاصها أو انتهاكها.
- والأمن الخارجى بحماية الوطن الإقليمى والوطن العربى، والوطن الإسلامى من أى عدوان مادى أو معنوى يقع عليه.
- والأمن النفسى لكل مواطن، بحيث يمارس حياته آمنًا على نفسه وأسرته وعمله وماله من بطش الحاكم الظالم، وعدوان القوانين الاستثنائية، كقانون الطوارئ، وقانون محاكمة المدنيين أمام محاكم عسكرية أو محاكم خاصة.

* والإسلام خاتم الأديان السماوية، فلا أديان بعده، والرسول الخاتم محمد ﷺ، فلا أنبياء ولا رسل بعده إلى يوم الدين.

- هذا الدين وهذا الرسول قد كرَّم الله بهما البشرية كلها، فأنزل هذا الدين وجعله متممًا ومكملاً للأديان السماوية السابقة، وقد اقتضت حكمة الله تعالى ذلك؛ لأن البشرية -عندما جاء خاتم الأديان وخاتم المرسلين- كانت قد بلغت رشدها، ووَسِعَتْ الديانات السابقة على الإسلام، وما أكثرها، بل ما أكثر الأنبياء والرسل الذين جاءوا بمناهج من عند الله تعالى تعالج ما يعانى الناس منه. فى أزمانهم المتطاولة، وأماكنهم العديدة - من مشكلات تفرزها طبيعة الزمان أو خصوصية المكان.

- فلما جاء هذا الدين الخاتم على لسان الرسول الخاتم ﷺ؛ أراد الله تعالى أن يجعله الدين المكمل لكل دين سبقه، المتمم لكل منهج جاء قبله، فكان ما أراد الله تعالى.

وقد أعلن الله تعالى ذلك الإكمال وذلك التتميم فى قرآن كريم يتلى إلى يوم الدين محفوظًا من كل تغيير أو تبديل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

* من أجل هذا جاء الإسلام دين أمنٍ واستقرار وطمأنينة، وتلك إرادته سبحانه وتعالى، وحكمته البالغة أقصى مداها وأبعد أهدافها لتحقيق مصالح الإنسان فى دنياه وآخرته.

- وهذا الأمن الذى جاء به الدين الخاتم والرسول الخاتم يكفل للمجتمع الإنسانى -عند الأخذ بمنهج الإسلام- أن يخلو وأن يُنَقَّى من أى قلق اجتماعى، أو أى تفكك اجتماعى، أو أى شذوذ اجتماعى، أو أى صراع اجتماعى، أو أى عزلة اجتماعية، فضلاً عن ظلم أو اضطهاد اجتماعى.

- والأمن الاجتماعى الذى جاء به خاتم الأديان وخاتم الرسل ﷺ؛ يتناول ثلاثة أنواع من الأمن هى:

* الأمن النفسى،

* الأمن المكانى،

* والأمن الزمانى.

وإذا توافرتْ للإنسان هذه الأنواع من الأمن، فقد توافر له الأمن كله والاستقرار جميعه، والطمأنينة بكل أبعادها.

١ - الأمن النفسى:

الأمنُ النفسى للإنسان فى المجتمع المسلم يعنى أن يكون من حق الإنسان على المجتمع أن يوفر له الأمن النفسى فى ذاته، وفى المجتمع الذى يعيش فيه.

- أما الأمنُ الذاتى فيشمل:

* أمنُ قَلْبه: أى يحب أو يكره من يراه جديراً بالحب أو الكراهية، كما يحب من المبادئ والقيم ما يشاء دون قسر أو إكراه، وكذلك الشأن في الحاكم والمسئول، وكل إكراه على الحب أو الكره لمسئول أو مبدأ أو نظام، فإنه تبديد لأمن النفس، وترويع للإنسان وليس ذلك من حق أحد.

* وأمن عَقْله وفكره: أى أن يكون له رأى فى أى قضية، يعبر عنه دون خوف أو تهديد أو وعيد. ودون تدخل من أحد فى تحييد رأى بعينه، أو التنفير منه؛ لأن ذلك عدوان على الأمن النفسى للإنسان فى ذاته وكيانه وعقله وفكره، فضلاً عن الرشوة من أجل اعتناق رأى أو فكر يراه الحاكم أو صاحب السلطان!!!

* وأمْنه على علمه، وما توصل إليه من حقائق تتصل بمجال تخصصه، فلا يجوز أن توضع أمامه العراقيل، فيضطر إلى الهجرة إلى بلاد توفر الأمن العلمى للباحثين، فتحظى تلك البلاد بما وصل إليه هؤلاء العلماء، وتحرم منه أوطان العلماء الذين لم يحظوا فى بلادهم بهذا الأمن على ما وصلوا إليه من علم.

* وأمْنه على عمله وكسبه وممتلكاته ومقتنياته حتى لو كانت أوراقًا ومذكرات وليست تحفًا ثمينة من معادن نفيسة، وعندما يحال بين مواطن وبين مقتنياته -إذ يستبيحها رجال الأمن وزوار ما قبل الفجر فى الأوطان البائسة التعيسة- فإن ذلك عدوان بل زلزلة للأمْن النفسى للإنسان.

* وأمْن الإنسان على جسده أن يمرض أو يهان أو يعذب أو يعتقل أو يحاكم أمام غير قاضيه الطبيعى، إذ مِنْ أمْن الجسد أن يعيش الإنسان سليمًا معافى من كل أذى، ولا يُنتهك هذا الأمن الجسدى للإنسان إلا فى ظل حكم ظالم، ونظام فاسد، وغيبة لحقوق الإنسان وحرياته، وعالمنا العربى معظمه يفقد فيه الإنسان حقه فى أمنه الجسدى!!!

* وأمْنه على أسرته وأولاده ومن فى ولايته؛ وهذا الأمْن مِن أهم أنواع الأمن الاجتماعى وأكثرها تَشَعُّبًا إذ يشمل:

- أمنه على أُسْرته أن يُسَاء إليها أو تروّع، أو لا تتاح لها فرصُ التعليم، وفرص العلاج، وفرص العمل المناسب لها، وفرص تأمينها من الفقر والعجز.

- وأمنه على أسرته من وسائل الإعلام المشجعة على الفسق والفجور، والاستهتار بالقيم الإسلامية، مهما كانت حجج الضالين والمنحرفين، ومهما ساندتهم الحكومات التى لا تعيش آمنة إلا فى غيبة القيم الإسلامية، أو عزل الدين وقيمه عن الحياة!!!

- وأمنه على دينه ومعتقده، ليعبد الله كما شرع الله، وليحتكم إلى قيم الدين الخاتم فى كل صغير وكبير من أمره كله، وألا تخدعه وسائل الإعلام فتصرفه عن دينه وقيمه بحجة الحداثة أو العلمانية، أو الحرية الشخصية، أو مساواة المرأة بالرجل فى كل شىء؛ لأن هذه جميعًا شعارات ضالة مضللة يقف على طريق كل منها شيطان يجتال الناس عن دينهم إذ يغريهم باتباع هذه السبل فيتفرقون عن سبيل الله وعن الصراط المستقيم. فليست كل حداثة مقبولة وليس فصل الدين عن الحياة بجائز، والمرأة والرجل سَوَّى الله تعالى بينهما فى الحقوق والواجبات على نحو ما هيأ كلا منهما لحياته الإنسانية الفاعلة التى تمكنه من أداء وظائفه على نحو يحقق له مصالح دنياه وأخراه.

إلى غير ذلك من أنواع الأمن النفسى الكثيرة التى لم نذكرها خشية الإطالة.

٢- الأمن المكانى:

اقتضت حكمة الله البالغة أن يحيط الإنسان بنعمة الأمن فى أماكن بعينها، ليفىء الإنسان إلى هذه الأماكن يتفيأ فيها ظلال الراحة والطمأنينة ويأمن الطلب والملاحقة عندما يلوذ بهذه الأماكن الآمنة بنظام الله تعالى، ومنهجه، وهذه الأماكن الآمنة هى:

- بيوت الله تعالى التى تُشدُّ إليها الرّحال؛ المسجد الحرام بمكة المكرمة، ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، والمسجد الأقصى ببيت المقدس بفلسطين.

فكل هذه البيوت لها حرمتها فى الإسلام بل لها قدسيتها ومن دخلها كان آمنًا، إذ هى أهم بيوت الله تعالى.

ففى تحريم مكة المكرمة عدد من الأحاديث النبوية، ومنها: ما رواه مسلم بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح»**. وقد ورد فى تحريم المدينة ما رواه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: **«المدينة حَرَمٌ من كذا إلى كذا لا يقطع شجرها، ولا يُحْدَثُ فيها حدث، من أحدث حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»**.

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُرِّم ما بين لابَتَىّ[1] المدينة على لسانى»**.

(١) اللابة: الأرض ذات الحجارة السوداء

- وسائر بيوت الله تعالى وهى كل المساجد، لا يروّع فيها أحد، ولا ترفع فيها الأصوات، ولا تنشَد فيها ضالة ولا تحمل فيها السيوف والرماح إلا لضرورة، ولا يمنع عنها أحد من المسلمين، ولا تغلق أبوابها فى وجوه المصلين، والمعتكفين[١].

- وبيوت الناس ودورهم ومنازلهم - والبيت: المسكن، والمرأة والعيال، والدار: المنزل المسكون - وكل ذلك له حرمة فى الإسلام لا يجوز دخوله إلا بإذن صاحبه، ولا يجوز تسلق أسواره فضلاً عن انتهاكه.

وتلك الحرمة لبيوت الناس منصوص عليها فى كل دساتير الأرض وقوانينها قديمًا وحديثًا، ولما جاء الإسلام أكد هذه الحرمة وعزّز تلك المكانة.

روى النسائى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ اطَّلع فى بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دية ولا قصاص»** ترى كم عدد المئات التى انتهكوا حرمات بيوت الناس وهددوهم بالأسلحة وضربوهم وروّعوهم فى بيوتهم، وكم عدد هؤلاء الذين يستحقون فقء عيونهم فى الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة؟

وكم عدد الحكام المستبدين الذين أمروا بانتهاك بيوت الناس، وترويع نسائهم وصغارهم، وقطع عون الجيران لهم، وينتظرون عقاب الله تعالى؟

٣- الأمن الزمانى:

جعل الله الأمْن الإنسانى فى الزمان نظامًا، فاقتضت حكمته أن يأمن الناس بعضهم بعضًا أربعة أشهر فى كل عام ليستريحوا من عناء الحرب والقتال ويأمنوا على أنفسهم وديارهم وأموالهم وذويهم، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ**...﴾ [التوبة: ٣٦].

ولو عقلت البشرية كلها لأراحت نفسها من عناء الحرب أربعة أشهر من كل عام، ولكن الشياطين يغرون قادتهم بالحرب والشر.

وهذه الشهور الأربعة هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، فهى كلها زمان للسلام حرَّم الله تعالى فيها القتال، ومنع أن ينتهك فيها الأمن.

---

(١) مما دأب عليه بعض الحكام المستبدين انتهاك حرمة المساجد بمنع الاعتكاف فيها، بل اعتقال المصلين من المساجد، ومنع الناس من التوجه إلى خطب الجمعة فى مساجد بعينها، وربما أغلق بعضهم بعض المساجد إغلاقًا، فكانوا ممن ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا**...﴾ [البقرة: ١١٤].

- ويدخل فى أمن الزمان -فى تصورى- أن يكون الإنسان بين يدى الله فى صلاة أو فى منسك من مناسك الحج، أو معتكف. . . وفى هذه الأحوال وأشباهها يكون الإنسان فى زمان آمن. . . فلا يجوز صرفه عما هو فيه، أو ترويعه.

* هذه الأنواع الثلاثة من الأمن: أمن النفس وأمن المكان وأمن الزمان هى الحوافظ التى حفظ الله تعالى بها للإنسان أمنه، وحرم انتهاك هذا الأمن أو انتقاصه، وتوعد من ينتهك هذا الأمن بالعقاب.

* والمحافظة على هذا الأمن بكل أنواعه واجب كل فرد أو جماعة فى المجتمع المسلم، كما هو واجب الراعى وكل مسئول فى المجتمع، وفى مقدمة هؤلاء الحكام والقادة.

* ومما يؤكد حرمة المسلم وأمنه ما رواه أبو داود وأحمد بسنديهما عن رجال من الصحابة رضى الله عنهم أن النبى ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يروّع مسلمًا**».

- وما رواه ابن ماجه بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: «**ألا إن أحرم الأيام يومكم هذا، ألا وإن أحرم الشهور شهركم هذا، ألا وإن أحرم البلاد بلدكم هذا، ألا وإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغتُ**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد**».

- وما رواه ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «**ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك؛ ماله ودمه وأن نظن به إلا خيرًا**».



الفصل الثانى

القيم السياسية

يتناول هذا الفصل موضوعين:

أ- النظام السياسى عند الناس عموماً والقيم التى تحكمه.

وفيه:

أولاً: مفهوم السياسة وأهميتها.

ثانياً: الانحراف عن السياسة والمنحرفون عنها.

ثالثاً: المنحرفون بالسياسة:

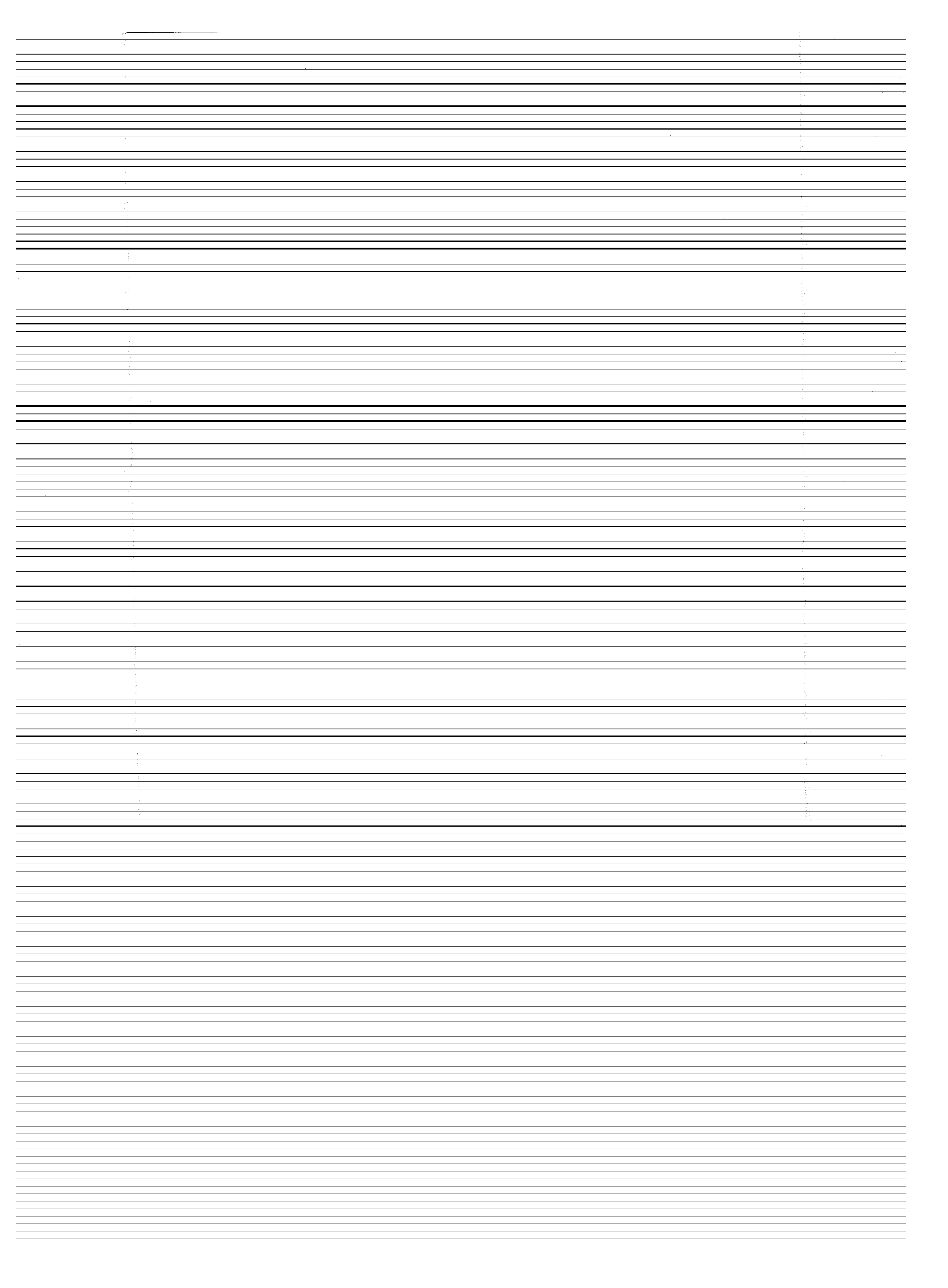
١- الحكام المستبدون من أهل البلاد.

٢- الحكام الأجانب عن البلاد المستعمرون.

٣- المستعمرون الجدد المحتلون المستوطنون.

٤- إسرائيل.

ب- النظام السياسى الإسلامى.



القيم السياسية

ونعنى بها تلك القيم التى تحكم السياسة وتتحكم فى خطواتها، وترسم لها مسارها ومعالم هذا المسار، وتمدها بكل ما يعينها على المضى فى مسارها دون انحراف عن جادّته.

* هذه القيم -في تصورنا- قيم خلقية فاضلة يجب أن يلتزم الناس بها فى السياسة وفى كل عمل يقومون به فى حياتهم؛ لأن هذه القيم إنما كانت فاضلة نافعة للإنسان فى دنياه وآخرته لأنها تقوم على مبادئ رفيعة فاضلة مثل:

- العدل بين الناس فى صغير أمرهم وكبيره،
- والمساواة بينهم أمام القانون والنظام،
- واحترام حرياتهم وحقوقهم بحيث لا ينتهك شيء منها أو ينتقص،
- والشورى فى كل أمر ذى أهمية فى حياة الناس،
- واحترام الرأى الآخر،
- وتداول السلطة عن طريق إجراء انتخابات حرة نزيهة تؤدى إلى اختيار رأس للأمة ونواب عنها فى المجالس النيابية،
- ووضع قانون عام أو دستور للبلاد يتضمن مصالح الناس فى دنياهم وأخراهم.
- والفصل بين السلطات الثلاث المعروفة؛ النيابية، والقضائية، والتنفيذية.
- وتقدير العلم وتيسيره، وتعميم التعليم والتربية وجعلهما حقًا لكل مواطن.
- والدفاع عن الوطن ضد أى عدوان، واتخاذ الوسائل الملائمة لذلك،
- وتقدير العمل بوصفه من أهم القيم الخلقية، وتيسير فرصه أمام كل الناس،
- والتطوير المستمر، والتحسين الدائم للزراعة والصناعة والتجارة بالأخذ بأحدث الآليات والتقنيات.

وغير ذلك من القيم الخلقية الحاكمة التى يجب أن تحكم السياسة والاقتصاد، وكل الأنظمة الاجتماعية.

* وهذه القيم الخلقية الحاكمة لا يجوز لأحد أن يخرج عليها، فإن فعل استحق العقاب بعد المحاكمة العادلة، لأن فى المحافظة على هذه القيم محافظة على المجتمع كله؛ حاضر الناس فيه، ومستقبلهم.

* والتحاكم إلى هذه القيم الخلقية الفاضلة هو الذى لا يسمح بظهور حاكم مستبد أو حكومة فاسدة، كما لا يسمح بظهور طبقة مستغلة فاسدة فى المجتمع، أو طبقة طفيلية تدعى ما ليس لها أو تحتكر -بحكم دعاواها- أقوات الناس والخدمات التى تقدم إليهم، كما لا تسمح هذه القيم بظهور من ينافقون الحكام، فيبررون أقوالهم وأعمالهم ومظالمهم.

* هذه القيم السياسية الحاكمة هى التى توصد باب الفساد وتسُدّ طرقه، فتحافظ بذلك على ثروات الأوطان وتحميها من المستغلين الذين يتقربون إلى السلطان ليعطيهم ما ليس لهم.

* هذه القيم هى التى تصنع السياسة صنعًا، وتلزمها بالحق والعدل والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، وتوجب عقوبة على كل مخالف لها، وتسوى بين المخالفين فى العقوبات كما سوت بينهم فى الحقوق والواجبات.

* وما يَفْسُدُ النظامُ السياسى فى مجتمع إلا بتعطيل الأخذ بهذه القيم أو الخروج عليها، أو الانحراف عن المسار الذى حددته للنظام السياسى.

* وهذا الفصل يتناول موضوعين:

- النظام السياسى عند الناس عمومًا، والقيم التى تحكمه.

- والنظام السياسى الإسلامى.

وتحت كل منهما نقاط وفروع، على نحو ما سنوضح إذا أذن الله تعالى وأعان.

أ- النظام السياسى عند الناس عمومًا والقيم التى تحكمه

النظام مصطلح يطلق على الظواهر والعلاقات الاجتماعية فى مجال تبلورها وانتظامها فى قواعد ومصالح وقيم، واتجاهات متمايزة.

والنظام السياسى يتضمن مبادئ وإجراءات ومؤسسات وأجهزة تنظيمية توظف لتحقيق هدف أو مصلحة مًا.

ويستخدم النظام السياسى -غالبًا- ليدل على قيادة الحكام وعقليتهم، وتركيبهم النفسى والاجتماعى فى بلد مًا.

* وقد دأب الناس فى عمومهم على اعتبار النظام السياسى فى الدولة ذا دلالة على أنواع من النظام السياسى، مثل:

- النظام السياسى الرئاسى،
- والنظام السياسى الملكى أو الأميرى،
- والنظام السياسى النيابى،
- والنظام السياسى العائلى،
- والنظام السياسى القَبَلى.

وكل نظام من هذه الأنظمة السياسية له أسلوب وآلية يسوس بها البلاد ويدبر أمرها.

* وكثير من الناس والحكام يعتبرون القيم الخلقية ذات تأثير، بل تحكم فى النظام السياسى أيًا كان نوعه، غير أنهم يختلفون حول أهمية القيم الخلقية ووجوبها أن تحكم النظام السياسى وترسم له الحدود والأبعاد.

فمنهم من يرى وجوب تحكم القيم الخلقية فى النظام السياسى، ويمضون فى طريق السياسة والتدبير لشئون الناس على هذا الأساس.

ومنهم من يستبعد القيم الخلقية تمامًا من التحكم فى قرار سياسى يتخذه الحاكم أو تقرره أجهزة الدولة ومؤسساتها.

* ولانتشــار فكرة: أن النظام السياسى بعـيد عن القيـم الخلقية الفـاضلة، ولمشاهدة الناس لعديد من الأنظمة السياسية التى تستبعد القيم الخلقية؛ فإن بعض الناس قد يستغربون أن يقال: إن القيم الخلقية الفاضلة يجب أن تحكم الأنظمة السياسية.

والناس فى استغرابهم هذا مأخوذون بما شاهدوا وعـاينوا بل أيقنوا بأن الأنظمة السياسية بعيدة تمامًا عن القيم الخلقية الفاضلة حـتى فى أكبر الدول وأكثرها ادعاءً لديموقراطية الحكم فيها ومحافظته على حقوق الإنسان[1].

* إن الأنظمة السياسية فى هذا العصر قد اكتسـبت مفهومًا جديدًا بعيدًا كل البعد عن القيم الخلقية الفاضلة وغارقًا حتى أُذُنيه فى قيم التخابر والمخابرات عسكرية ومدنية، وتلك قيم تنظر إلى الأخلاق الفـاضلة بمزيد من الازدراء والاستبعـاد فى سبيل تحقيق أهـدافها التى تكون فى معظمها غير أخلاقية.

* وأسلوب التخـابر والتجـسس والتنصت وانتهـاك حرمات الأنفس والـزمان والمكان؛ هو الأسلوب السائد فى العـالم اليوم، تستوى فى ذلك أكـبر دولة ودول العالم الأول ودول العالم الثانى ودول العـالم الثالث، أى يستوى فى هذا الانتهاك أغنيـاء الدول وفقراؤها، والمعدمون فيها!!!

- وهذا الأسلوب التخابرى المنتهك لحقوق الإنسان وحرياته يجد من المؤيدين له الآخذين به كثيرًا من الحكام، منهم:

* أصـحاب الأهواء والأمـراض النفـسيـة الذين يتلذذون بإهدار كـرامة الإنسـان وإنكار حقوقه.

* والراغبون فى أن تكثر أموالهم ومقتنياتهم الذين يؤثرون الاحتفاظ بها خارج بلادهم.

* والمصرّون على أن يـظلوا فى الحكم حتى يموتوا أو يقـضى عليهم فى انقـلاب لبعض الطامحين الذين يحبون تداول هذه المواقع ذات السلطات غير المحدودة.

* والذين يحبون أن يورثوا سلطاتهم لأبنائهم أو ذويهم ، كأنما قد ورثوا البلاد والعباد.

* وهؤلاء وغيرهم من المنحـرفين بالنظم السياسية عمـا وُضعت له، والذين يجدون فى السياسة ونظمها ما يبرر لهم الظلم والجريمة، وانتـهاك حقوق الإنسان، هؤلاء جميعًا،

---

(١) من أمثلة هذه الدول:
- الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.
- ودول الاتحاد الأوربى، وروسيا.

قد شوهوا السياسة والنظم السياسية؛ حتى ضاق بها بعض أعلام الفكر والإصلاح، فأعلنوا سخطهم على السياسة، ولم يعلنوا هذا السخط على السياسيين لظروف وملابسات يطول شرحها هنا.

- ومن هؤلاء الساخطين على السياسة ونظمها -فى مصر- الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م).

حيث قال عن هذه السياسة المنحرفة عما وُضعتْ له: «ما دخلت السياسة فى شىء إلا أفسدته» وقال: «فإن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين، أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة ومن معنى السياسة، ومن كل حرف يُلْفَظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببال عن السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم، أو يَجِنّ أو يعقل فى السياسة، ومن: سَاسَ، ويسوس، وسائس، ومسوس»[1].

* وقد كانت السياسة على عهد الإمام محمد عبده رحمه الله، فى معظم بلدان العالم الإسلامى سياسة استبدادية جائرة يمارسها فى الناس حكام مستبدون -فى أغلب الأحيان- أو يمارسها أجانب يتغلبون بقوة السلاح أو بقوة الاقتصاد أو بقوة العلم، أو بقوة السياسة.

* وكان رأى الأستاذ الإمام فى السياسة على نحو ما ذكرنا فى كلمته عن السياسة إذ لم يكن مؤمنًا بجدواها وسيلة للإصلاح، وإنما كان يرى إصلاح المجتمع عن طريق العلم والتربية، بل كان يؤمن بأن الاستبداد السياسى لا يعالج إلا بوحدة الأمة، وأن الطريق إلى وحدة الأمة هو التربية والتعليم.

* هذه السياسة التى كرهها الأستاذ الإمام واستعاذ بالله من شرها وضررها؛ هى السياسة التى لا تحكمها القيم الخلقية الفاضلة والتى يمارسها حكام قد تجردوا من الفضائل سواء كانوا أجانب يحكمون بلاد المسلمين، أو حكامًا مسلمين لا يقلون فى البعد عن الفضائل عن الحكام الأجانب.

وتحت موضوع: النظام السياسى عند الناس عمومًا، والقيم التى تحكمه، ثلاث نقاط هى:

- الأسس التى يقوم عليها النظام السياسى،

(١) السيد محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، ط دار المنار.. مصر: ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م.

- والانحراف عن السياسة والمنحرفون عنها،
- وأمثلة ونماذج من المنحرفين بالسياسة.

أولاً: الأسس التى يقوم عليها النظام السياسى عمومًا

النظام السياسى الراشد يقوم على أسس ودعائم تكسبه صفات الصلاح، وتمكنه من تحقيق هدفه الرئيس وهو: حسن التدبير وحكمته وقيادة الناس نحو ما يصلحهم فى دينهم ودنياهم.

ومن هذه الأسس:

١ - القيم الخلقية الفاضلة:

من المسلَّم به بين الناس أن النظام السياسى بحاجة دائمًا إلى قيم خلقية تحكمه وتُسدد خطواته على طريق الإصلاح، وتعينه على تحقيق أهدافه، وتحدد له أسلوب العمل ووسائله، بل أنواع النشاط التى يمارسها.

وكل هذه المفردات لا تتحقق ولا تستقر ولا تنمو إلا فى ظل هذه القيم الخلقية الفاضلة.

يعرف ذلك كل الناس حتى الأشرار والأراذل منهم الذين ينكرون مكانة القيم الخلقية بألسنتهم، لأنها مستقرة فى قلوبهم وعقولهم؛ لأن الارتباط وثيق بين السياسة والقيم الخلقية الفاضلة.

٢ - والحرية:

حرية المواطن الذى يطبق فيه النظام السياسى، حريته بكل أنواعها وجميع أشكالها، لأن الحرية من النعم التى أنعم الله بها على الإنسان، وحرَّم سلبها منه، أو انتقاصها.

* وكل ما يشترط فى ممارسة الإنسان لحريته ألا يضر بحريات الآخرين.

* والنظام السياسى الذى يكفل للناس حرياتهم يكفل لهم كثيرًا من حقوقهم مثل:

- المشاركة فى الإصلاح، وفى الخدمات التى يؤديها النظام السياسى للناس كالتعليم والصحة وفرص العمل، ومقاومة الفساد.
- وتفعيل مؤسسات الدولة وأجهزتها وتجمعات الناس فى جماعات ونقابات ومؤسسات وأحزاب، ومدها بكل نافع من الفكر والجهد والوقت، إذ لا يستخرج من الناس عطاءهم هذا إلا النظام السياسى الراشد الصالح.

- وممارسة كل حقوق الإنسان، لأنه لا يحول بين الإنسان وحقوقه مثل نظام سياسى فاسد منحرف عن الأهداف الإنسانية، التى لا يحيا الإنسان آمِنًا إلا بها.

٣- والارتباط الوثيق بالعلم والمعرفة:

العلم فى مجالاته العديدة، وفى تطبيقاته العملية، العلم يمكنه من الاستفادة مما أودع الله تعالى للإنسان مِنْ مذخورات فى الأرض والسماء، والبحار والأجواء. والمعرفة التى تعمق صلة الإنسان بكل العلوم الاجتماعية التى تحيط بحياة الإنسان، وتكسبه القدرة على الاستفادة منها، وعلى حسن توظيفها لصالحه فى كل مجالات حياته.

- ولا يستطيع نظام سياسى أن ينجح فى تحقيق أهدافه دون أن يجعل للناس صلة وثقى بتاريخهم وتاريخ سواهم من الناس، ودون أن يوثق الصلة بينهم وبين الأخلاق من جانب، وبين الفلسفة والمنطق والجدل من جانب آخر.

- والنظام السياسى الراشد يجعل الناس يقبلون على الاقتصاد بعد فهمه وفهم أهدافه وأنشطته، وموقفه من كبريات المسائل الاقتصادية وأمهاتها، كالملكية والعمل والأجور، وإنتاج السلع والخدمات وحسن توزيعها بين الناس بعدالة.

- والنظام السياسى الراشد لا يستطيع أن يتجاهل أسلوب رعاية عقل الإنسان ونفسه واتجاهاته وميوله، والنظرة الموضوعية إلى سلوكه النفسى والاجتماعى فى مجالى الصحة النفسية أو المرض النفسى.

٤- والتجاوب مع حاجات المجتمع:

واجب النظام السياسى الراشد أن يعمل على تحقيق مطالب المجتمع الإنسانى وحاجاته من طعام وشراب وملبس ومسكن، وتكوين أسرة، وأمن واطمئنان على كل ما يملك ويقتنى.

وإنما يتجاوب النظام السياسى مع حاجات المجتمع إذا يسَّر للناس أموراً أساسية مثل:

- تعاون الناس فيما بينهم على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، تعاونًا يجلب لهم المصالح ويدفع عنهم الأضرار والمفاسد.

- وتعاونهم فى إنتاج السلع والخدمات، وتعاونهم فى تسويقها وفى الحصول عليها بثمن معقول.

- وتعاونهم على إنتاج الأسلحة والآليات التى تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم وأوطانهم عندما تتعرض لأى عدوان، وذلك من صميم حاجة المجتمع إلى الأمن بكل معنى من معانيه.

٥- والعمل في مجال الممكن المستطاع:

فإذا كانت السياسة في أحد تعريفاتها هي: «فَنّ الممكن» فإن النظام السياسي الذي لا يتبنى العمل في مجال الممكن نظام فاشل غاشم أعمى البصر والبصيرة.

ومن علامات نجاح النظام السياسي في بلد مّا أن يحقق للناس قدراً جيداً من الإحساس بإمكان تحقيق الأهداف مثل:

- أن تكون مطالب الناس وحاجاتهم قريبة منهم بل في متناول أيديهم دون مشقة أو تكليف لهم بما لا يقدرون عليه من جهد أو وقت أو مال.

- وأن يستطيع الناس من خلال نظامهم السياسي أن يتكيفوا مع ما يرغبون فيه، ومع ما يستطيعونه، في سلاسة ويسر.

- وأن تكون هذه السياسة حافلة بالتنوع والتعدد في أهدافها ووسائلها، بأن تبتعد ما استطاعت عن القوالب السياسية الجامدة المعادية للتطور والتجديد، القابعة في ظلمات الحزب الواحد أو الأوحد، ومياهه الآسنة وأجوائه الفاسدة المسممة.

٦- والاعتراف بالواقع والتعامل معه بمرونة:

من علامات الصحة السياسية في أي عصر وأي مصر أن يعترف النظام السياسي فيها بالواقع الذي يعيشه الناس، وأن يقدر أسباب نشأته وتكوينه، وأن يعمل على تحسينه وتطويره ما استطاع، وإنما يكون ذلك من خلال اتباع خطوات أساسية لا يتخلى عنها النظام السياسي بحال، وهي:

- المرونة في تقبل الواقع، والتأني في الحكم عليه أو له، والتدبر في أسبابه ونتائجه، والتخلي عن فكرة قبول الواقع كله أو رفضه كله، لأن تلك نظرة غير سياسية لتناقضها مع مفهوم السياسة.

- والتأهب للفعل والتفكر والتدبر في نتائجه قبل أن يُفْعَل لتلافي أي عيوب أو أخطاء؛ لأن السياسة كما هو معروف فن حسن التدبير وحسن الإدارة.

- والابتعاد عن الحدَّة والغضب، وما يؤدي إليه من إدانة الواقع واستبعاده والزراية به؛ لأن السياسة يجب ألا تعرف الغضب أو العقاب أو القمع؛ لأن كل هذه المفردات دليل على انتكاس سياسي، يبدد مصالح المجتمع في حاضره وربما في مستقبله.

٧- والنظرة الموضوعية للتراث:

النظام السياسى الراشد الحصيف ينظر لتراث الأمة التى يدبر أمورها ويسوسها؛ لأن هذا التراث خبرات متراكمة عانتها الأمة وأفادت منها وسجلتها فكان تراثها.

والنظرة الموضوعية للتراث تعنى أمورًا على جانب كبير من الأهمية فى مجال النظام السياسى، وهى:

- المحافظة على هذا التراث بوصفه جزءًا من تاريخ الأمة، وسجلاً لما مرّ بها من أحداث، وأى نظام سياسى صحيح لابد أن يستفيد من النظر فى هذا التراث بحسن قراءته، وحسن التدبر فيه، وحسن المحافظة عليه والبناء على المفيد منه فى الزمن المعاصر.
- واستلهام هذا التراث فى وضع خطة لمستقبل الأمة؛ إذ لا يمكن لأمة ولا لنظام سياسى أن يغفل الاستفادة من الماضى فى تصور المستقبل.

والتعساء الأشقياء المغرورون هم وحدهم الذين يحلو لهم أن يقللوا من شأن التراث والماضى كله؛ لإيهام الناس بأنهم صنعوا للحاضر ما لم يستطعه الأوائل، وسريعًا ما يكتشف الناس زيفهم وتضليلهم.

- وليس هناك نظام سياسى صحيح، يدعى أنه يصنع الحاضر دون الحاجة إلى النظر فى الماضى، اللهم إلا فى بعض الأنظمة العسكرية الطارئة على العمل السياسى -فى انقلاب عسكرى- إذ تتجاهل أهمية أن يكون للأمة جذور فى العمل الإصلاحى، لأن معظم هؤلاء العسكريين ولدوا زعماء وقادة، وكل منهم يدعى أنه أوحد زمانه وصانع الأمجاد ويفرض أن تتصدر صوره وتماثيله الوزارات والميادين والشوارع والحوانيت، والويل كل الويل -من رجال أمن الدولة أو أمن الرئيس- لكل من لم يعلق صور الزعيم وتماثيله!!! يفعلون ذلك ثم يزعمون أنهم يقودون أنظمة سياسية!!!

ثانيًا: الانحراف عن السياسة والمنحرفون عنها:

السياسة أو النظام السياسى -كما أسلفنا- هو حسن التدبير لشئون الأمة، وحسن قيادتها، وحسن توجيهها إلى ما يصلحها، ويحافظ للناس على حقوقهم، ويسوى بين قويهم وضعيفهم، وغنيهم وفقيرهم أمام القانون فى الحقوق والواجبات.

* ويقاس نجاح النظام السياسى بمقدار ما يحقق للأمة من حسن هذا التدبير وحسن تلك القيادة وحسن توجيههم، واحترام حقوقهم وحرياتهم، وهو مقياس عملى دقيق يصلح للقياس به فى كل زمان ومكان.

* وكل فشل أو عجز عن الوصول إلى ذلك هو انحراف عن السياسة الصحيحة الراشدة، وتنكر لمبادئها وقيمها وخروج عن خطتها فى قيادة الناس.

* وعند تفصيلنا لأسباب هذا العجز أو الفشل نذكر بعض هذه الأسباب التى تؤدى إلى ظواهر بعينها مثل:

- سوء تدبير شئون الناس أو قصور هذا التدبير عمداً أو خطأ عن الوصول إلى تحقيق أهداف السياسة، هو انحراف عن السياسة وخروج عن طريقها المرسوم لها، كما وضعه العلماء والحكماء لها.

- وسوء قيادة الناس، أو الغلظة فى التعامل معهم أو التسبب فى تلك المعاملة، كل ذلك انحراف عن السياسة وما استهدفته السياسة من تحقيق مصالح الإنسان والمحافظة على حقوقه وكرامته الإنسانية التى كرمه الله تعالى بها.

- وشيوع الفقر والمرض فى الأمة، وانتشار الجهل والأُمية فيها، وكثرة الجرائم وتفشى عبث المجرمين، وندرة فرص العمل، وترك العاجزين عن العمل بغير تأمين أو ضمان، وقصور دخل الفرد عن الوفاء بمطالب حياته الإنسانية الكريمة، كل ذلك انحراف عن السياسة وأهدافها.

- وأخذ الناس بالظنة، وتقييد حريتهم بالشبهة، والتجسس عليهم، وانتهاك حقوقهم، وترويعهم فى أنفسهم وفى بيوتهم وذويهم وأعمالهم، كل ذلك انحراف بالسياسة؛ إذ الأصل فى السياسة ونظامها أن تجنب الناس كل محظور من هذه المحظورات.

- وحكم الناس بقوانين استثنائية، وإحالة المدنيين إلى محاكم عسكرية لا استئناف لأحكامها ولا نقض، كل ذلك قهر للإنسان وإهدار لحقوقه، وكفر صُراح بالسياسة وأنظمتها وعودة بالأمة إلى قانون الغابة التى يأكل القوى فيها الضعيف، وذلك أكبر وأضخم من الانحراف عن السياسة، إنه إلغاء وانتهاك لكل سياسة وكل نظام سياسى.

- والتنكر لتعدُّد الرُّؤَى السياسية، وتعدد الأحزاب السياسية الحقة وجعلها أحزابًا هشة ورقية يضطهد من ينتسب إليها، ولابد أن يصدر بها تصريح من الحزب الحاكم

الأوحد الذى ورث الوطن والأمة دون أن يكون وريثًا شرعيًا، وإنما آل إليه الميراث بقوة السلاح؛ ذلك أو بعضه كفر بالسياسة وهدم للنظام السياسى، وليس مجرد انحراف بالسياسة عن أهدافها.

- وإصرار كثير من الرؤساء والحكام على أن يظلوا مسيطرين على الحكم حتى يموتوا مهما طالت مدة بقائهم فى الحكم، بإصرار بعضهم على توريث الحكم لبنيهم أو ذويهم، إهدار للسياسة ولكل نظام سياسى، واستهانة بعقول الناس، وكفر بالسياسة ونظامها وأهدافها.

- وترحيب كثير من الرؤساء والحكام بالمتملقين والمنافقين والمتنفعين بسطوة الحاكم، وأموال الحكومة، والتغاضى عن أخطائهم، وجعلهم فوق المساءلة وفوق القانون، قضاء على السياسة والنظام السياسى، وعلى كل قيمة دينية أو اجتماعية أو سياسية، وليس وراء ذلك من امتهان للسياسة وللأنظمة السياسية أسوأ من هذا.

وبعد: فتلك صورة مجملة لمعنى الانحراف عن السياسة نجدها بارزة فى العالم كله، وفى العالم الثالث على وجه الخصوص، والذين يمارسون هذا الانحراف السياسى هم - بكل تأكيد- المنحرفون السياسيون، فمن هم؟

ذلك ما نجيب عنه فى الصفحات التالية، والله تعالى ولي التوفيق.

ثالثًا: أمثلة ونماذج من المنحرفين عن السياسة

لا نبالغ إن قلنا: إن المنحرفين عن السياسة ونظامها كثيرون فى العالم معظمه، لأن معظم العالم لا تحكمه القيم الخلقية الفاضلة.

وربما كان السبب فى ذلك هو أن الالتزام بالنظام عمومًا وبالنظام السياسى على وجه الخصوص، يكلف الإنسان ويُحمّله ما لا يحب أن يحتمله من الصبر على مكاسب قريبة المنال ومنافع فى متناول اليد، يبعده عنها الالتزام بالنظام، وذلك أن معظم الناس يحبون الاستكثار من الخير، حتى إذا لم يكن لهم الحق فى هذا الخير.

وغالبًا ما يكون العابث بالنظام السياسى راغبًا فى إشباع رغبته فى التسلط على الناس والتسيد عليهم بعدم انصياعه للنظام.

وفى كثير من الأحيـان تختلط الأمور على غير الملتزمين بالنظام السيـاسى فيتوهمون أن الالتـزام بالنظام السيـاسى يحد من حـريتـهم الشخـصيـة، ويرون فيـه قيـدًا على إرادتهم واختيارهم، وخاصة إذا كانوا من كبار المسئولين عن النظام السياسى!!!

* وفى مجـال الكثرة والغـالبية التى أشـرنا إليها، نـستطيع القول بأن العـابثين بالنظام السيـاسى أصبـحوا ظاهرة فى معظـم الأمم وفى أغلب المجتمـعات، كـبار الأمم فى ذلك كصغارها، وكبار رؤساء الدول كصغارهم.

* غير أن الذى يعنينا الحديث عنه، هم المنحرفون عن النظام السياسى فى العالم الثالث أو الفقير أو الضعيف أو العاجز أو النامى أو الرجعى أو المتخلف صناعيًا، كما يحلو للغرب أن يسميه، وكما يُصر الغرب وأمريكا وإسرائيل على أن يظل هذا العالم كما هو، لا يتقدم بحـال؛ لأنهم يضعـون فى طريق تقدمـه كل أنواع العوائق والموانع عـن قصد، لاحـتكاره واحتقاره، وممارسة التمييز العنصرى ضده.

- هذا العـالم الثالث تقع فـيه معظم بـلدان العالم الإسلامـى الذى أبعده الغرب وأمـريكا وإسرائيل عن قيـمه الإسلامية وعن منهج الإسلام ونظامـه، وعن النظام السياسى الذى جاء به الإسلام.

- وإنما فعل الغـرب ذلك بالعالم الإسـلامى منذ ما يقـرب من قرنين من الزمـان، إذ مزّق وحدته وفرق صـفه، فأضعفه واحـتل أرضه وسماءه وبحاره وأجواءه، واسـتوطن أرضه بالاستعمـار أو الوصاية أو الحماية أو الانتداب، أو تحقـيق الديمقراطية المزعومة فـيه كما فعلت أمـريكا وحلفاؤها فى العـراق وفى أفغانسـتان وفى السـودان، ومن قبل ذلك فى الصومال، كما تحاول أن تفعل فى إيران!!!

- وفى هذا العالم الإسلامى كان المنحرفون عن النظام السياسى نوعين:

* أجانب عن العالم الإسلامى،

* وأبناء هذا العالم الإسلامى.

- أما الأجانب؛ فقد حكموا بلاده وتحكموا فيها سياسـيًا واقتصاديًا وثقافيًا وخلقيًا، فأقصوا عنها منهج الإسلام ونظامه، واستوطنوا بلاده كما يستوطن الوباء والمرض، وأشاعوا فيها ما يشيعه الوباء والمرض.

وهؤلاء الأجانب عن العالم الإسلامى كانوا من الغرب ثم من الشرق -عندما اتسع نفوذ ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي- ثم من اليهود عندما أعانهم الغرب والشرق على إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م فى فلسطين.

وقد تقاسم هؤلاء الأجانب العالم الإسلامى تقاسم مصالح ومناطق نفوذ، وقواعد عسكرية واقتصادية، ولا يزال العالم الإسلامى يرزح تحت نير هؤلاء الأجانب حتى يومنا هذا مع تغيير فى الشكل وثبات فى الهدف والموضوع؛ فهم منحرفون عن النظام السياسى بغير شك.

- وأما المنحرفون عن النظام السياسى فى العالم الإسلامى من أبنائه فهم كثيرون أيضًا، إذ كلما رأينا بلدًا إسلاميًا تنتقص فيه حريات المواطنين أو حقوقهم أو تنتهك فإن هناك انحرافًا ومنحرفًا عن النظام السياسى، وكلما رأيت انتخابات مزورة، أو رأيت مرشحين يحال بينهم وبين حقهم فى الترشح، أو رأيت ناخبين يحال بينهم وبين الإدلاء بأصواتهم، فهناك انحراف ومنحرفون عن النظام السياسى.

ولنمثل لهؤلاء وأولئك ببعض الأمثلة والنماذج لتوضيح أبعاد هذه الظاهرة:

١- المنحرفون الأجانب:

وأبرزهم -فى تصورى- ثلاثة، جمعت بينهم فى قَرَن وهم:

الاستعمار القديم[1]،

وإسرائيل،

والاستعمار الجديد.

- الاستعمار القديم:

وهو القوى العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية التى احتلت كثيرًا من بلدان العالم الإسلامى واستوطنته، منذ ما يقرب من قرنين من الزمان ولا تزال صاحبة نفوذ فيه حتى يومنا هذا.

* وقد عمدت هذه القوى الاستيطانية للعالم الإسلامى إلى أن تمهد لنفسها طول البقاء فى بلادنا، فحالت بين العالم الإسلامى وبين أسباب الوحدة والقوة، وأضعفت فيه التعليم

(١) مصطلح الاستعمار مصطلح غربى لا نوافق عليه، لأنه فى الحقيقة تخريب ونهب للبلاد التى يستولى عليها، ولكنه يزعم أنه يعمرها ويصلحها، وإنما تعاملنا به لشهرته وجريانه على ألسنة الناس وثقافتهم.

وجعلته فى مجموعه محواً للأمية، فلا علم ولا اختراع، ولا بحوث علمية جادة، ولا مدارس صالحة ولا مدرسين قد أحسن إعدادهم، ولا معامل ولا مكتبات.

* ولم تكتف هذه القوى الاستعمارية بهذا، بل أذكت فى العالم نيران الطائفية والعرقية والمذهبية، وغيرها، مما لا تزال آثاره باقية حتى الآن ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

* وقد تحولت هذه القوى الاستعمارية من الجيوش المسيطرة على البلاد، إلى السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية، والإعلامية، وستظل هذه التأثيرات باقية حتى يفيق حكام العالم الإسلامى من أبنائه ليعملوا على التحرر الحقيقى من نفوذ هذه القوى الاستيطانية.

* وحسب هذه القوى الاستيطانية شراً بالعالم الإسلامى أنها تبذل قصارى جهدها وتستغل أقصى درجات نفوذها فى المحافل الدولية، وفى المنتديات السياسية والاقتصادية والثقافية لتحول بين دول العالم الإسلامى وأى توحد أو وحدة!!؟ أليس هؤلاء منحرفين عن النظم السياسية؟

- وإسرائيل:

وهى سرطان سياسى فى العالمين العربى الإسلامى، يبث سمومه فيهما مستعينًا بأمريكا والغرب وما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى، زرعها هؤلاء جميعًا فى قلب العالم العربى وتعهد بأن يمدها على الدوام بما يجعلها أقوى من العالم العربى مجتمعًا.

* وأغرب ما فعله العالم الذى يدعى التحضر وحماية الحريات، والديموقراطية، أن أجمع على طرد أبناء فلسطين من بيوتهم وبلادهم ومزارعهم ليسلم هذا كله لليهود وليقيم لهم دولة دينية -مع إدانتهم لنظام أى دولة دينية-!!!

* وما فعلته إسرائيل فى الفلسطينيين فاق كثيراً ما تردده بغير ملل من أعمال النازيين فيهم، منذ عام ١٩٤٨م حتى يومنا هذا ٢٠٠٦م، ودعم الغرب والشرق لهم فى ممارسة هذه الجرائم لا ينى ولا يتوقف، وهيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها الموقر يحسنان الاستماع إلى ما تفعله إسرائيل فى فلسطين وفى العرب، ولا يتخذان قرار إدانة فضلاً عن عقاب!!!

* وبسبب هذا التأييد الأعمى الأصم لإسرائيل ضد الفلسطينيين والعرب أصبح لإسرائيل برنامج سياسى معروف يقوم على الأسس التالية:

- طرد الفلسطينيين المقيمين فى فلسطين وتشريدهم وتمزيق أسرهم، والاستيلاء على بيوتهم وأملاكهم.
- ومنع عودة من طردوا فلجأوا إلى بلاد أخرى ثم رغبوا فى العودة إلى بيوتهم وبلادهم.
- ورفض أى قرار يطالبها بتمكين اللاجئين من العودة إلى ديارهم وأموالهم وذويهم.
- والثقة المطلقة فى عجز الأمم المتحدة ومجلس الأمن عن إدانة إسرائيل فى أى جرائم ترتكبها، اعتماداً على «الفيتو» الأمريكى الذى استعمل أكثر من سبعين مرة إزاء كل قرار إدانة لها.
- والتنكر لأى اتفاق يؤدى إلى إنشاء دولة فلسطينية حتى ولو كانت ترعاه أوروبا وأمريكا وروسيا وهيئة الأمم المتحدة، لأن إسرائيل «بالفيتو» الأمريكى أقوى من كل هذه الدول!!! والعالم يسمع ويرى!!!
- وتجويع الشعب الفلسطينى وحصاره بحراً وجواً، وأرضًا بالجدار العازل، واقتصاديًا بالاستيلاء على أمواله، وسياسيًا بمنع دول أوروبا من التعامل معه، وكل جريمته أنه أجرى انتخابات حرة شفافة -بشهادتهم- فجاءت بحركة حماس ذات الجذور الإسلامية.
- ومنع المصارف كلها حتى العربية منها من تلقى أموال التبرعات العربية والإسلامية لتحويلها للفلسطينيين الذين يعيشون مجاعة وحصاراً لم نسمع بمثلهما فى آبائنا الأولين.

أليست إسرائيل منحرفة عن النظام السياسى، بل عن النظام الإنسانى؟

- **والاستعمار الجديد:**

وهو القوى الاستعمارية الاستيطانية الحديثة، التى تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية وأتباعها بل أذنابها من الدول الواغلة فى الاستعمار فى ماضيها القريب والبعيد.

* إن الولايات المتحدة الأمريكية وأذنابها، تبنت شَنّ الحروب على كل بلد ترغب فى أن يكون لها به نفوذ أو فائدة اقتصادية أو سياسية أو عسكرية، وكان مبرر عملها العدوانى هذا هو منافسة ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى، وبعد أن انهار أصبحت مبرراتها هى التوسع وبسط النفوذ.

* أما اليوم فإن الولايات المتحدة وأذنابها يشنون حروبًا لا أخلاقية على بلاد العرب والمسلمين، من أجل هدفين هما:

– حماية إسرائيل من العرب!!

– والسيطرة على النفط والمواقع ذات الأهمية فى تحقيق النصر فى الحروب الدفاعية أو الهجومية، بأن تكون مواقع تصلح للقيادة وإدارة المعارك.

* وقد مارس هذا الاستعمار الاستيطانى الجديد بقيادة أمريكا حروبًا توسعية جائرة فى كثير من بلدان إفريقية وآسيا، وبعض بلدان أمريكا الجنوبية.

* ثم أخذت أمريكا وأذنابها فى شن الحروب على بلدان العالم الإسلامى لنفس الأهداف، فكان لها معركة ضارية فى حرب غير متكافئة وغير أخلاقية فى أفغانستان للقضاء على نظام حكم طالبان بحجة أنه يهدد أمن الولايات المتحدة الأمريكية ويؤوى تنظيم القاعدة، فشنت عليها أبشع حرب بأفتك أسلحة، منذ عام ٢٠٠١م وحتى الآن لم تعثر على القاعدة ولا على تنظيمها ولا قيادتها، ثم شنت حربًا على العراق سنة ٢٠٠٣م بحجة أنها تملك أسلحة دمار شامل، فدمرتها معنويًا وسياسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا، ولم تعثر على سلاح دمار شامل على الإطلاق وكذبت نفسها بنفسها، ولكن احتلالها للعراق وممارسة جرائم الحرب فيه، وتعذيب المعتقلين بأساليب غير إنسانية مستمر حتى يومنا هذا دون حياء، ودون اعتبار لمظاهرات مليونية اعترضت على حربها للعراق.

* واتخذت أمريكا من ثلاثة سجون نماذج لإرهاب الناس هى: سجن باجرام بأفغانستان، وسجن أبى غريب بالعراق، وسجن جوانتناموا فى كوبًا، وأشاعت بنفسها فظائع ما يفعله جنودها المتحضرون فى هذه السجون ليضع أشجع الناس يده على صدره خوفًا مما ينتظره إذا لم تعجبه أمريكا، ولم يبارك حروبها!؟!

٢– المنحرفون عن النظام السياسى من أبناء العالم الإسلامى:

– بعض الحكام:

ليس غريبًا أن ينحرف عن النظام السياسى فى العالم الإسلامى بعض أبنائه؛ لأن هذا الانحراف ينجذب إليه العدو والولى، والحبيب والقريب، ولعل السر فى ذلك أن التزام النظام السياسى بمبادئه السلمية، وقيمه القويمة، يعتبر قيدًا على الحكام، وتحديدًا لسلطاتهم، وتحجيمًا لأطماعهم. وهؤلاء الحكام بشر لهم أطماعهم المادية والمعنوية فى المال والسلطة والجاه.

- وغالبًا ما يكون مع هؤلاء دستور يعظم من سلطانهم ويطامن من رقابتهم ويهوّن من تجاوزاتهم، كما هو الشأن مع معظم حكام العالم الثالث، لأن الدساتير إنما توضع بتوجيهاتهم أو تهديداتهم أو أوامرهم، فتجئ على نحو ما يشتهون، وعندئذ يصبح الانحراف عن النظام السياسى ميسوراً ومبّرراً، ويتغول هؤلاء الذين يساندهم الدستور أو القانون العام، فما هى إلا فترات وجيزة، حتى يصبح انتهاك حقوق الإنسان وحرمانه من حرياته أمراً يبرره دستور مصنوع على عين الحاكم، وتظل هذه الوحشية الدستورية لا تجرؤ سلطة نيابية أو سلطة قضائية أن تحد من هذا الانحراف، لأن الدستور المصطنع جعل السلطات فى يد الحاكم. أما السلطة التنفيذية فى العالم الثالث فهى سلطة حماية الحاكم، وتنفيذ ما يريد!!

- والحكام المنحرفون عن النظام السياسى فى العالم الثالث، تعرفهم بسيماهم، وبعباراتهم وكلماتهم الطنانة الرنانة الفارغة فى الغالب من المصداقية، وتعرفهم من نظام حكمهم الذى يمارسون، إذ هو حكم شمولى يجمع فيه الحاكم كل السلطات بين يديه، فهو رئيس كل شىء وكل إدارة وكل وزارة، والمديرون والوزراء يتصرفون بتوجيهه وإشاراته، ورضاه هو أقصى آمال الوزير أو المدير أو رئيس مجلس الإدارة حتى يؤكد ولاءه له فيبقى فى وزارته أو إدارته إلى أن يشاء الحاكم.

- والحكام المنحرفون عن النظام السياسى يمارسون حكمهم عن طريق قمع المعارض واعتقاله وتعذيبه، وتقديمه لمحاكمة عسكرية وهو مدنى،وتزوير الانتخابات على كل مستوى من مستوياتها -المجالس النيابية والمجالس المحلية ومجالس النقابات- حتى يثبت الحاكم نفسه فى الحكم بأن يحيط به من جاء بهم، ليجيئوا به من جديد، وهكذا.

- والحكام المنحرفون يظلون قابعين فى كرسى الحكم حتى يتوفاهم الله تعالى، فلا تعرف فى ظل حكمهم معنى للعبارات التالية:

* تداول السلطة،

* التعددية،

* المعارضة السياسية،

* الأحزاب السياسية المستقلة،

* النقابات المهنية التى انتخب أعضاؤها بنزاهة،

* السيادة الحقيقية للقانون،

* المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات،

* العدالة،

* تكافؤ الفرص،

* الانتخابات النزيهة الشفافة.

- أذناب السلطة والمنتفعون بها:

أذناب السلطان أو ذيوله هم أولئك الأتباع الذين يرون فى الحاكم ملهما عبقريًا ما جاء الزمان بمثله، وقد يعرف بعض الأذناب أنهم على خطأ فى تقدير مواهب الحاكم وأسباب عظمته ولكن ذَنَبيتهم له أو ذيليتهم تجعلهم يمارسون هذا الخطأ فى الحسبان وهم سعداء؛ لأنهم ينتفعون من الحاكم ماديًا أو معنويًا أو سلطويًا بحيث يطلق أيديهم فى بعض المرافق، فيحصلون على ما ليس من حقهم من مال أو جاه، لأنهم ذيوله وأذنابه.

* وهؤلاء الأذناب أو الذيول يمارسون الانحراف عن النظام السياسى، ويغرون الحاكم بالإغراق فى هذا الانحراف، فيشيع الفساد، وتضيع الحقوق ولا تؤدى الواجبات، ويوسد الأمر لغير أهله فى كل مجال عمل فى المجتمع، ويتقلد أهل الثقة لدى الحاكم المناصب ويحرم من توليها أهل الكفاءة والخبرة!!

* وهؤلاء الأذناب المنتفعون بذنبيتهم للحاكم هم الذين يعوقون العدالة والإنصاف، ويساعدون الحاكم على انتهاك حقوق المواطنين؛ لأن كل حق يضيع على صاحبه يستولى عليه ذنب أو ذيل من المنتفعين أو المقربين من الحكام، وهذا هو عين الانحراف عن النظم الاجتماعية الإنسانية عمومًا، وعن النظم السياسية خصوصًا.

* والأذناب والذيول هم البيئة الوخيمة التى ينمو فيها الفساد؛ لخراب الذمم وغيبة القانون، وتراخى قبضة الحاكم عن أذنابه وذيوله، وكلما شاع هذا الفساد كثر عدد الأذناب والذيول، ورأى الناس ما جناه الأذناب والذيول من مال وجاه، فأحبوا بل هاموا بأن يكونوا أذنابًا وذيولاً، وأتباعًا وحاملى مباخر للحاكم ومن معه.

* والأذناب والذيول هم الباحثون الأفذاذ عن تبرير كل عمل يقوم به الحاكم أو أنصاره، فما يراه الحاكم اليوم فى أى شأن هو عين الصواب وغاية الحكمة، فإذا عدل عنه الحاكم

إلى نقيضه فإن ما ذهب إليه هو عين الصواب وقمة الحكمة وبُعد النظر، والتلاؤم مع العبقرية والإلهام!!!

* وكثيراً ما يكون الأذناب والذيول أضَرَّ على الأمة وأنظمتها من الحاكم المنحرف نفسه؛ لأن أيديهم عديدة وطويلة ولا يستعصى عليها أن تذهب إلى آخر المدى فى الضرر والشر، وفى هذا ما يهدد الحياة الإنسانية كلها، ولا يقتصر على إفساد الأنظمة السياسية وحدها أو الانحراف عن مبادئها وقيمها.

- آلاتُ الحاكم المنحرف وحماتُه:

لأن الحاكم منحرف -عن النظام السياسى الرشيد الذى يحكم الناس لصالح الناس- فلابد أن يتخذ لنفسه دعاةً وحماةً لهذا الانحراف، تلك حقيقة تُعد من المسلمات فى عصور الانحراف عن القيم والمبادئ فى السياسة وفى الاجتماع وفى الثقافة.

- وقد جرت عادة الحكام المنحرفين أن يتخذوا من الأسباب ما يحميهم من غضب الناس الذين يخسف بهم ويحقوقهم هذا الانحراف، وتلك الأسباب من أبرزها دائمًا رجال غلاظ شداد يفعلون ما يؤمرون، ويعطيهم الحاكم من السلطات ما يجعلهم فوق القانون، ويوهمهم بربط مصالحهم بمصالحه، بل ربط أمنهم بأمنه.
- وهؤلاء الحماة للحاكم المنحرف، يختارون وفق صفات وظروف معينة تهيئهم لهذا العمل، ويخضعون لتدريبات عقلية وثقافية وسياسية وبدنية، تُفرِّغهم من كل قيمة إلا قيمة حماية سيدهم الذى اختارهم وأغدق عليهم، ودرَّبهم ورعاهم.
- وفى سبيل تأمين الحاكم المنحرف عن النظام السياسى؛ لابد أن يمارس هؤلاء الغلاظ الشداد والمدججون بكل آليات القمع والتعذيب، أحط الأعمال وأقذرها وأبعدها عن الإنسانية ضد من يتوهمون أنه معترض على انحراف الحكام وانحراف آلاتهم الوحشية فى التعامل مع الناس، حتى لو كانوا قد أُخذوا بالظِّنة، واعتقلوا بالشبهة.
- وقصص انتهاك آدمية الإنسان والعدوان على عرضه وماله، وتخريب ممتلكاته، واضطهاد أقربائه أصبحت من معالم أجهزة أمن الحاكم المنحرف، ليس فى العالم الثالث وحده، وإنما انتقلت إلى العالمين الثانى والأول، وما تستطيع هيئة محلية كمنظمات حقوق الإنسان أو هيئة عالمية كمنظمة الأمم المتحدة أن ترد أجهزة الاستخبارات عما تريد، ولا تستطيع أن تدينها، بل لابد أن تسلم بصحة دعاواها، حتى لو أدى ذلك إلى شن حرب على بلد من بلدان العالم حتى لو كان عضواً فى هيئة الأمم المتحدة!!!

- واعتقال من حامت حوله شبهة الامتعاض من انحراف الحاكم وأجهزته عمل وطنى بلغة هذه الأجهزة، وقتله أثناء التحقيق معه أو تعذيبه عمل عادى له مستنداته الجاهزة مُسَبَّقًا ومبرراته فى النظام السياسى المنحرف، وتحفظ -بقوة الانحراف عن النظام السياسى- كل القضايا المرفوعة ضد من يعذبون الناس حتى الموت، لأنهم كما أسلفنا فوق القانون.

- ومن معجم الانحراف عن النظام السياسى قفزت إلينا أسماء سجون مورست فيها جرائم ضد الإنسانية فى هذا العصر الذى يدعى الحرية والمحافظة على حقوق الإنسان، العصر الذى تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية وتنفرد فيه باتخاذ قرار الحرب ضد دول صغيرة وضعيفة، على الرغم من أن هيئة الأمم المتحدة ومجلس أمنها الموقر، تعترف بكذب المعلومات الاستخبارية التى بررت لها العدوان على العراق.

- إننا نعيش عصر سطوة الاستخبارات وانتهاكها لحقوق الدول والأفراد، والقضاء على كرامة الإنسان فى هذه السجون التى سمعنا عنها فى: باجرام، وأبى غريب، وجوانتينامو، وعشرات السجون السرية التى لم يسمح بمعرفة أسمائها أو أماكنها، هذه السطوة الاستخبارية هى أكبر عون للحاكم المنحرف عن النظام السياسى وقيمه الإنسانية، ليزداد انحرافًا، ولتزداد هذه الأجهزة استخفافًا بحياة الناس وأمنهم وإنسانيتهم.

- ومما لا ينقضى منه التعجب أن هؤلاء الحكام المنحرفين وأجهزتهم هم أكثر الناس حديثًا عن رعايتهم للحرية والحقوق الإنسانية، وبأن الناس يعيشون فى ظل قهرهم وعدوانهم أزهى عصور «الديموقراطية» وأنهم يكافئون الحكومات «الديموقراطية» حتى لقد وقع فى روع الناس أن «الديموقراطية» من أسماء الأضداد لكثرة ما يقع من جرائم فى حق الإنسانية باسم هذه «الديموقراطية».

- وفى عالمنا العربى أو الإسلامى الواسع المدى والبالغ عدد سكانه ما يقرب من ألف وخمسمائة مليون إنسان يعيش -عند التأمل والتدبر- معادلة سياسية تقوم على مسلَّمات ثلاث هى:

* إذا كان للمواطن رأى فى أى قضية سياسية؛ يخالف رأى الحكومة وأجهزتها، فهو من المجرمين الذين يدبرون بهذا الرأى وحده لانقلاب يعطل دستور البلاد، ويمنع الحكومة من أداء عملها، ويزرى بالحكم ويشيع كراهيته بين الناس، ويستحق على ذلك كل عقاب يصدره ضده غير قاضيه الطبيعى!!!

* وإذا لم يكن للمواطن رأى إطلاقًا فى أى قضية سياسية فهو مواطن مستأنس لدى الحكومة، ومرشح لأن يكون من أتباع الحكومة فى حزبها أو جهاز من أجهزتها، فيحظى بالقبول ماديًا ومعنويًا، وتظل الحكومة تصعدّه حتى يتبوأ من المناصب ما يليق بقدراته على أن يظل بلا رأى، ولا موقف.

* وإذا كان المواطن مع رأى الحكومة دائمًا، وذا قدرة على تبرير إهدارها لحقوق الإنسان، فذاك هو المواطن الحق، الجدير بأن يرشح بل يتولى منصبًا كبيرًا، ويظل فيه ربع قرن من الزمان أو يزيد، المهم ألا تأتى عليه ساعة من ليل أو نهار، يحس فيها بأن رأى الحكومة تشوبه ذرة من خطأ.

- إن الحكومة المنحرفة عن النظام السياسى العادل، وعشاق السلطة فيها، الراغبين فى أن يظلوا على كراسى السلطة إلى أن يموتوا أو يوكلوا بها أحدًا من ذويهم الذين يحذون حذوهم فى قهر الناس وغمط حقوقهم وحرياتهم، واعتقالهم والتحقيق معهم بالتعذيب حتى الموت؛ إن هذه الحكومة وأجهزتها يقعدون بكل مرصد لكل حركة إصلاح أو تجديد أو تعديل للمسار الضال الخاطئ، بحجة أن هذه الحكومة وأجهزتها هم وحدهم المصلحون المجددون الذين جعلوا الناس يعيشون الأمن والرخاء بالتعليم الجيد والحصول على فرصة عمل جديدة ووفرة المساكن، وحرية التنقل، وحرية التعبير عن الرأى، وحرية التظاهر وحرية الإضراب عن العمل، وحرية نقد الحكومة، وشفافية الانتخابات ونزاهتها، وتكافؤ الفرص بين المواطنين فى توزيع السلع والخدمات.

تزعم الحكومة ذلك وأكثر منه، مع أن الواقع يكذبها ويدمغها، وهوان المواطن فى وطنه يقف ضد دعاواها، وتنكرها للنظم السياسية والقيم التى تحكمها يشهد ضدها، والتاريخ نفسه سوف يسخر منها ومن دعاواها الكاذبة الزائفة، بل سيلعنها إن لم يكن غدًا، فبعد غدٍ بكل تأكيد، وإن غدًا لناظره قريب.

ب- النظام السياسى الإسلامى والقيم التى تحكمه

تحدثنا فى النقطة الأولى من هذا الفصل عن: النظام السياسى عند عموم الناس، والقيم التى تحكمه.

وكان علينا أن نتحدث فى النقطة الثانية من هذا الفصل عن: النظام السياسى عند المسلمين والقيم التى تحكمه.

* غير أننا آثرنا أن يكون عنوان هذه النقطة الثانية من هذا الفصل هو: «النظام السياسى الإسلامى، والقيم التى تحكمه»؛ والسبب فى ذلك أن قراءاتنا عن مختلف العصور التى حكم فيها المسلمون وساسوا الناس؛ تؤكد أن المسلمين فى بعض الأحيان لا يلتزمون بالنظام السياسى الإسلامى كله ولا يخضعون للقيم الإسلامية التى تحكمه.

- وهذا الانفصال بين بعض الحكام المسلمين والنظام السياسى الإسلامى هو الذى جعلنا نؤثر الحديث عن النظام السياسى الإسلامى دون ربطه بسيرة هؤلاء الحكام الذين لم يلتزموا به، ولا خضعوا لقيم الإسلام فى التعامل مع الناس ومع النظام.

- والذين خرجوا عن بعض النظام السياسى الإسلامى وقيمه إنما خضعوا لأهواء ومطامع أرادوها وهم يعلمون أن النظام السياسى الإسلامى لا يقرها ولا يرضاها، فكان منهم هذا الانحراف عن بعض النظام السياسى الإسلامى وعن قيمه، وهم بذلك مخطئون؛ إذ أشبهوا مَنْ يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه.

- ومن المعروف والمقرَّر بالمتابعة التاريخية أن النظام السياسى الإسلامى ليس فيه صعوبة ولا مشقة عند الأخذ به والالتزام بقيمه؛ لأن الدين الإسلامى كله - وليس النظام السياسى وحده- لم يجعل الله فيه من حرج على الناس فى ماضيهم ولا فى حاضرهم، ولا فى مستقبلهم.

- ومن المؤكد بالمشاهدة والمعاينة أن القيم الإسلامية التى تحكم كل الشُّعب فى حياة الناس -وليس شعبة النظام وحدها- تخلو تمامًا من أى تضييق على الناس، لأنها القيم التى تتجاوب مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها والتى سوف يستمر الناس على التميز بها عن سائر خلق الله تعالى.

- والنظام السياسى الإسلامى له خصوصيات لا توجد فى سواه من الأنظمة، ومن تلك الخصوصيات:

* أنه المختص بتوضيح العلاقة بين الحاكم والمحكوم بعدالة وشفافية وإقرار لحقوق كل منهما نحو الآخر وواجباته دون أى مبالغة أو أى محاباة.

* وأنه ألزم الطرفين الحاكم والمحكوم بالتناصح، وجعل هذا التناصح جزءاً من الدين، من يُخل بها يخل بدينه ويكون أهلا لعقاب الله تعالى.

* وأنه فَصَّل واجبات الحاكم فى السلم، وعند الحرب، وأعطاه من الحقوق ما يمكنه من القيام بواجباته.

* وأنه النظام المختص بتوضيح علاقات الأمة المسلمة بغيرها من الأمم سلمًا وحربًا.

* وأنه فصّل حقوق المحكوم وأعطاه منها ما يهيئ له الحياة الإنسانية الكريمة، كما أتم العدالة بتوضيح واجبات المحكوم نحو حاكمه ووطنه وأمته.

* ومن المقرر فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ؛ وجوب اتباع كل نظام جاء به الإسلام كما جاء ذلك فى الكتاب والسنة.

* فمن آيات القرآن الكريم الدالة على ذلك:

- قول الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ففى الآية الكريمة أمر باتباع ما أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ، وفيها نهى عن اتباع أولياء من دون الله يستجيبون لهم ويستعينون بهم.

- وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ [الأنفال: ٢٤].

ومعنى الآية الكريمة أمرٌ من الله تعالى للمؤمنين أن يستجيبوا لمنهج الله الذى يدعوهم إليه عن طريق رسوله ﷺ لأنه المنهج الذى فيه حياة أرواحهم وعقولهم وأجسادهم والمجتمع الذى يعيشون فيه.

* ومن الأحاديث النبوية الشريفة:

- ما رواه ابن ماجه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا.....».

- وقال الإمام مالك -فى الموطأ- :وحدثنى عن مالك أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال:
«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما؛ كتاب الله وسنة نبيه».

* والقيم الإسلامية التى تحكم النظام السياسى الإسلامى هى: كل القيم التى أمر الإسلام بالالتزام بها،وهى كل قيمة تأمر بالخير والبر والمعروف وما ينفع الناس من قيم كالعدل والإحسان وحب الناس وحب تقديم الخير لهم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ودعوة الناس إلى دين الحق، والجهاد فى سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هى العليا.

ومعظم القيم الإسلامية قد ذكرناها فى هذا الكتاب، هى قيم: دينية، وإيمانية، وخلقية، وعقلية، وعلمية، وتعليمية، وثقافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية.

* من رحمة الله بالناس:

- أن أعطاهم حرية الاختيار، وفطنهم إلى نتائج هذا الاختيار،
- وحبَّب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان.
- وأقدرهم على محاربة الشيطان وهمزه ولمزه،
- وأخبرهم بأن الشيطان للإنسان عدو مضل مبين،
- وجعل الجنة مثابة لمن أطاعه وأطاع رسوله ﷺ،
- وجعل النار مثوًى لمن عصاه وتنكب هدى خاتم رسله محمد ﷺ.

* ومن المعروف المقرر من خلال النصوص الإسلامية أن العمل فى طاعة الله تعالى للحصول على ثوابه وجنته، عمل لا يقدر عليه إلا المؤمنون الأقوياء الصابرون على فعل الطاعات وعن فعل المعاصى.

ودليل ذلك من هذه النصوص الإسلامية:

- ما رواه مسلم بسنده عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُفَّتْ الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»**.
- وما رواه أحمد بسنده عن مالك الأشعرى عن النبى ﷺ قال: **«حُلْوَةُ الدنيا مُرَّةُ الآخرة، ومرَّةُ الدنيا حلوةُ الآخرة»**.

* وحديثنا عن النظام السياسى الإسلامى والقيم التى تحكمه، يتناول نقطتين:

الأولى: الدعائم التى يقووم عليها النظام السياسى الإسلامى،

والأخرى: أهداف النظام السياسى الإسلامى.

النقطة الأولى:

الدعائم التى يقوم عليـها النظام السياسى الإسلامى هى دعـائم كثيرة كثـرة تعجزنا عن رصدها فى هذه النقطة من هذا الفصل، فنكتفى هنا بما لابُدّ منه، فنقول:

إذا كانت السياسة -كما أسلفنا- هى حسن التـدبير لسياسة الناس وقيادتهم، فإن النظام السياسى الإسلامى هو كل عمل يؤدى إلى التدبير الحـسن لقيادة الناس وسياستهم، والأخذ بيدهم نحو ما يصلح دينهم ودنياهم.

هذا العمل الذى يدعم النظام السياسى الإسلامى متنوع ما بين عمل يصدر عن الحكومة والحاكم، وآخر يصدر عن جمهور الناس المحكومين بهذا النظام السياسى الإسلامى.

وكل عمل من هذين العـملين يضم مفردات عـديدة، ولكنها جميـعًا تعبـر عن الالتزام بالنظام السياسـى الإسلامى، وبالتالى تدعمه وتعين على إبراز مـزاياه بأدائه وقدرته على أن يصل لكل ذى حق سياسى حقه كاملاً غير منقوص.

وفى النظام السيـاسى الإسلامى لا لبس ولا غموض فى عـمل الحاكم وحكومته مـهما تعددت مفردات هذا العمل، وكذلك الشأن فى عمل الناس الذين يلتزمون بالنظام السياسى الإسلامى.

* من خلال مـا سنذكره الآن من شروط وصـفات فى الحاكم والحـكومة، وفى المحكومين تتضح هيكليـة النظام السياسى الإسلامـى، وخصائصه، حـيث يبدو لنا أن هيكل النظام السياسى الإسلامى يعتمد على ثلاث ركائز أو دعائم هى:

- الحاكم وحكومته عند الالتزام بالنظام وتطبيقه عمليًا،
- والناس الذين يساسون بهذا النظام،
- والنظام نفسه أو القانون الملزم للحاكم أو المحكوم داخل الدولة وخارجها.

الدعامة الأولى: الحاكم والحكومة

الحاكم رأس النظام السياسى وعـقله، تُعينه فى تطبيق النظام حكومة مسئولـة أمامه كما هو مسئول أمام الناس وخصوصًا أهل الحل والعـقد، وكل مستشار فى مجال من المجالات التى يجيد المشورة فيها.

هذا الحـاكم رأس الدولة لابد أن يكون مـؤهلاً لـتولى هـذا المنصب الرئاسى الكبـيـر، وكذلك حكومته.

وقد أفاض علماء الإسلام من الفقهاء والحكماء والمصلحين فى كل عصر فيما يجب أن يتوافر فى الحاكم من شروط تؤهله للقيام بأداء وظيفته[١].

* ومجمل هذه الشروط:

١- أن يكون من أهل العلم بالإسلام، والقـدرة على قيادة الناس وحـسن تدبيرهم، مع ورع وخوف من الله تعالى،

٢- أن يكون من أهل العقل والذكاء والحكمة،

٣- وأن يكون سليم البدن والحواس، قويًا شجاعًا مهيبًا،

٤- وأن يختار وفق انتخاب حر نزيه شفاف،

٥- وأن يرشحه لهذا الانتخاب أهل الحل والعقد فى الأمة.

* وأهل الحل والعـقد -فى تراثنـا الفقـهى- هم أهل الشوكـة والقـوة من العلماء ووجـوه الناس، والمصلحون المجددون فى كل عصر.

وقد يُسَمَّون أهل الاختيار أى الذين يوكل إليهم اختيار القائد أو الإمام، ويجب أن تتوافر فيـهم شروط كـالعدالة الجـامعة لصـفاتهم من عـقل وعلم واكتـمال مـروءة وحكمة وإخلاص وقدرة على النصيحة، وقبول لَدَى الناس.

---

(١) تلتمس هذه الشروط فى مؤلفات عديدة مثل:
- كتب الحديث النبوى تحت عنوان «باب الإمارة».
- وكتب الفقه الإسلامى كلها.
- وكتابى الأحكام السلطانية للماوردى وأبى يعلى الحنبلى.

٦- وأن يكون مسئولاً أمام نفسه وأمام الله تعالى وأمام من اختاروه وأمام الناس، مسئولاً عن كل مواطن، بحيث يؤمن له التعليم والظروف الصحية والعمل، ويكفل له كل حقوقه التى أقرها الإسلام، ويلزمه بأداء واجباته دون إعنات أو إجحاف، وأن يتحاكم إليه بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لأن فى ذلك ضمانًا للعدل والإحسان.

٧- وأن يحسن الحاكم اختيار أعضاء حكومته ومستشاريه ومعاونيه وفق المعايير الإسلامية النابعة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ والكفيلة بتنظيم حياة الناس فى كل مرفق من مرافقها.

٨- وأن يلتزم بدستور الإسلام أو قانونه العام الذى يكون مصدره القرآن الكريم والسنة النبوية التى فسرت القرآن الكريم وفصلت مجمله، والذى يمكن أن يضاف إلى موارده فى كل عصر ما يحقق مصالح الناس وما يدرأ عنهم المفاسد؛ من خلال القياس والإجماع والاجتهاد والاستحسان، وسدّ الذرائع، وإنما يضيف إليه ذلك العلماء المختصون.

٩- وأن يكون مسئولاً عن تأمين الدولة من داخلها ضد الفتن والاضطرابات، والفرقة والعصيان، ويؤمن الدولة من خارجها ضد كل عدو يتربص بها، أو يعتدى عليها، أو يهين معتقداتها ومقدساتها، منطلقًا فى كل ذلك الردّ من قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾ [الأنفال: ٦٠].

١٠- وأن يعمل ما وسعه العمل على الإسهام فى توحيد الأمة العربية والأمة الإسلامية، وأن يجعل تلك الوحدة من أهداف الدولة وحكومتها، ومن أهداف الناس وطموحاتهم؛ إيمانًا منه ومن حكومته بأن وحدة الأمتين العربية والإسلامية هى التى تحول بين الأوطان العربية والإسلامية ومخططات الأعداء وأعمالهم.

* أما الحكومة فهى كالحاكم، لها شروط، ولها حقوق على الناس، وعليها واجبات نحوهم:

- فمن الشروط التى يجب أن تتوافر فى الحكومة:

١- أن تكون مختارة وفق أدق المعايير الإسلامية فى الصلاح والعلم والخبرة والكفاءة فى المجالات كلها؛ الفنية، والإدارية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها من الخبرات والكفاءات اللازمة فى حسن تدبير أمور الناس وحسن سياستهم.

٢- وأن تكون مدة حكمها محددة بزمن معين يقترحه أهل الحل والعقد الذين اختاروا القائد أو الرئيس أو الإمام واختاروا له مدة حكم يتمها ثم يتنحى عن المسئولية، والحكومة كذلك، فلا رئيس لزمن متطاول ولا وزير ولا مدير، وإنما يتولى كل منهم عمله فى وقت وزمن محددين ثم يتنحى بقوة القانون، وبذلك يقضى على فكرة الرئيس أو الوزير أو المدير حتى يتوفاه الله تعالى أو يطيح به وبحكومته انقلاب عسكرى أو عدوان من بلد أجنبى.

٣- وأن يكون كل عضو فى الحكومة ذا كفاءة وخبرة فى مجال العمل الذى يكلف به، وأن يجدد علمه ويتزود بكل جديد نافع فى مجال تخصصه، وأن يستعين بالخبراء والمستشارين وأهل العلم فى وزارته أو إدارته، وأن يبتعد ما أمكنه عن الغرور والرأى الأخير والتحليل الأخير والقرار المقدس.

- ومن حقوق الحكومة:

١- أن يكون لها السمع والطاعة على المواطنين فى كل ما تصدره من نظم وقوانين وقرارات ما لم تكن فى معصية الله تعالى، وأن تتجنب إصدار القوانين التى تحابى فريقًا من الناس دون فريق، أو تنتقص به حق طائفة من الناس لأنها دأبت على معارضة الحكومة؛ لأن الأصل فى القوانين والنظم أن تستهدف الصالح العام لجميع المواطنين.

٢- ولها أن تسُن القوانين والنظم التى تيسِّر لها المضى فى عملها، وتقديم الخدمات للمواطنين، وتيسير التعامل معهم بإنجاز مصالحهم فى وقت وجيز، ودفع الضرر عنهم، تقوم بذلك بهمة ونشاط وإخلاص وإتقان، مادام الناس يسمعون لها ويطيعون.

٣- ولها على العلماء والخبراء أن يقدموا لها النصح والمشورة فى كل ما تقدم عليه من عمل، يقدمون ذلك حسبة لوجه الله تعالى ولصالح المجتمع الذى يعيشون فيه، فإن استأجرتهم الحكومة للقيام بهذا العمل، فليس لهم أن يرفضوا، لما للحكومة المسلمة عليهم من حق الطاعة.

- ومن واجبات الحكومة:

١- أن تكون مسئولة عن تأمين كل مرافق الوطن، وإعداد هذه المرافق على نحو يحقق مصالح الناس ويدفع عنهم الأضرار، ويسهم فى تحقيق الأمن لهم فى المجالات الحيوية التى لا أمْن للناس إلا بها مثل:

* مياه الشرب،
* والصرف الصحى،
* والأرض المزروعة، وآليات الزراعة،
* والصناعات الصغيرة والكبيرة،
* والخدمات الأخرى.
* والكهرباء والغاز، والوقود،
* والمدارس والمستشفيات، وغير ذلك مما لا تستقيم حياة الناس إلا بها.

٢- وألا تكلف الناس بما لا يستطيعون أو يشق عليهم القيام به، لأن من واجبها التيسير على الناس فى كل ما يلزمها من سلع وخدمات، فما بالنا بما يشق عليهم؟ أو يكلفهم فوق ما يطيقونه؟

٣- وأن تلزم سلطتها التنفيذية - قوات الشرطة والأمن الداخلى ومؤسسات الشرطة كلها - تلزمهم باحترام حقوق المواطنين وحرياتهم، وألا تتجاوز الشرطة واجباتها فتتعالى على الناس أو يتصور رجالها أنهم فوق الناس، أو فى خدمة الحاكم والحكومة، فضلاً عن أن تستغل الحكومة رجال الشرطة والأمن الداخلى فى إسكات معارضى الحكومة باعتقالهم والتنكيل بهم، لما فى ذلك من مصادرة حرياتهم وهضم حقوقهم - كما هى الحال فى معظم بلدان العالم الثالث!!!

الدعامة الثانية: الناس الذين يسوسهم الحاكم والحكومة

هؤلاء الناس هم الميدان الصحيح الذى يتحرك فيه العمل للحاكم والحكومة، وبتحقيق مصالحهم يوصف عمل الحاكم والحكومة بأنه صالح أو غير صالح.

ورضا الناس هو هدف الحاكم الصالح والحكومة الصالحة، وغضبهم دليل على تخبط الحاكم والحكومة وبعدهما عن الحق والصواب.

- وكلمة «الناس» أحب إلينا فى التعبير عن المحكومين من كلمات أصبحت مرادفة لها عند كثير ممن لا يدققون فيما يكتبون، من هذه الكلمات:

الشعب، والجمهور، والجماهير، والمجتمع؛ لسببين:

أحدهما: أنها كلمة قرآنية وردت فى القرآن أكثر من مائتى مرة للتعبير عن الإنسان فى حالاته العديدة. كما أن الخطاب القرآنى ﴿يأيها الناس﴾ تكرر فى تسع وعشرين مرة؛ يأمرهم وينهاهم. وورد فى اثنين وعشر ومائتى موضع يخبر عنهم.

والسبب الآخر: أن تلك الكلمات: الشعب والجمهور... إلخ كلمات استحدثها المنافقون للثورات أو الانقلابات العسكرية للإيهام بأن انقلاباتهم قام بها الشعب أو الجمهور - والحقيقة أنها قد قام بها مغامرون يملكون تحريك بعض قوى الجيش.

- والناس كلمة تطلق على أى جمع من بنى آدم، واحدها: إنسان على غير لفظه.

وقد يراد بالناس: الفضلاء مراعاة لمعنى الإنسانية.

* والنظام السياسى الإسلامى يجعل رعاية الناس وحسن تدبير شئونهم، وسياستهم إلى ما يصلحهم فى دينهم ودنياهم هدف كل حاكم وكل حكومة مسلمة، بحيث لا تحيد عن هذا الهدف إلا حكومة فاسدة وظالمة وبعيدة عن النظام السياسى الإسلامى.

وحديثنا عن هذه الدعامة يتناول موضوعين هما:

حقوق الناس على الحاكم والحكومة.

وواجبات الناس نحو الحاكم والحكومة.

أولاً: حقوق الناس على الحاكم والحكومة:

للناس حقوق عديدة على حاكمهم وحكومتهم كفلها الإسلام فى شريعته عمومًا وفى نظامه السياسى على وجه الخصوص، ومن هذه الحقوق:

١- تحقيق أمنهم النفسى والاجتماعى والاقتصادى بمعنى أن تكون كل أعمال الحكومة وأعمال سلطتها التنفيذية غير مخلة بأمن الناس النفسى والاجتماعى والاقتصادى، هذا حق أساسى للناس نحو حكامهم وحكوماتهم.

٢- ومن حقهم أن تكون التشريعات والأنظمة وسائر القوانين فى صالح الناس عمومًا فى أمور معاشهم كلها، بحيث لا يعانون فى التعامل مع أى مرفق من مرافق معاشهم.

٣- ومن حقهم على الحكومة أن تكفل لهم حرياتهم العامة وفى مقدمتها: حرية الرأى والتعبير، وحرية التملك والاقتناء، وحرية العمل والكسب، وحرية التنقل والسفر،

وحرية الاعتراض والنقد، وحرية التظاهر السلمى، وحرية الإضراب عن العمل لفترات لا تضر بصالح الدولة، والحريات السياسية كلها.

٤- ومن حقوقهم: تأمين فرصة عمل، وتأمين سكن، وتأمين تعليم، وتأمين طب وقائى وعلاجى، وتأمين للعجز عن العمل لأى سبب من أسباب العجز عن العمل.

٥- ومن حقوقهم أن تؤمن الحكومة لهم الزراعة والصناعة والتجارة، وكل ما من شأنه أن يوفر لهم السلع والخدمات فى حياتهم الاجتماعية والاقتصادية.

٦- ومن حقوقهم على الحكومة أن تهيئ لهم المؤسسات التعليمية والعلمية والفنية والثقافية والتدريبية ،وأن تؤدى هذه المؤسسات وظائفها بدقة وأمانة، وأن تستهدف صالح الناس.

٧- ومن حقوقهم على الحاكم والحكومة أن ترعى الحكومة الآداب والفنون بكل فروعهما وكل مؤسساتهما وكل المنتسبين إليهما، وأن تحيط ذلك كله بالحرية التى يجب أن يحظى بها الناس فى ممارستهم للآداب والفنون دون تلك القيود السياسية التى تحفل بها دول العالم الثالث،وأنظمة الحكم الاستبدادية.

إن التمتع بهذه الحقوق هو الكفيل بأن يَنْفِىَ عن ساحة الآداب والفنون أدب النفاق وفنون النفاق والملق والتزلق إلى أصحاب السلطان الذين يملكون منح المال والجاه والمكانة المادية والأدبية ورياسة تحرير الصحف والمجلات ووسائل الإعلام، ليتحول كلّ أولئك -كما هو مشاهد- إلى مبررين لأعمال الحكام حتى لو كانت ظالمة آثمة، وإلى حاملين للمباخر أمام مواكب الحكام!!!

ثانيًا: واجبات الناس نحو الحاكم والحكومة

١- السمع والطاعة والامتثال لكل ما يؤمرون به ما لم يكن فيه معصية لله ورسوله، فقد روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: **«السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**.

٢- والنصيحة للحاكم والحكومة:

من بلاغة رسول الله ﷺ أنه لخَّص الدين كله فى كلمة شديدة الإيجاز حين قال فيما رواه البخارى بسنده عن ثوبان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدين النصيحة»**.

كما روى البخارى بسنده عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلتُ للنبى ﷺ: أبايعك على الإسلام، فشرط عَلَىَّ: **«والنصح لكل مسلم»**.

فبايعته على هذا ورب هذا المسجد.

٣- وتقديم المشورة للحاكم والحكومة إذا طلبت، وأن يقدمها بإخلاص كما لو كان يشير على نفسه، لأن الشورى من صفات المؤمنين، كما يفهم ذلك من آيات سورة الشورى التى جاء فيها من صفات المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

فإن امتنع عن تقديم المشورة وقد طلبت منه وهو قادر عليها، فقد أثم.

٤- والالتزام بقول الحق وشهادة الحق على كل حال:

فقد روى النسائى بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر، والمنشط والمكره، وألا ننازع الأمرَ أهلَه، وأن نقول -أو نقوم- بالحق حيثما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم.

٥- ومن واجبات الناس ألا يعينوا ظالمًا حاكمًا أو حكومة أو واحدا من الناس مهما تكن صلتهم أو قرابتهم بهذا الظالم.

فقد روى الحاكم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أعان ظالمًا ليدحض بباطله حقًا، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله».

٦- ومن واجبات الناس تأييد الحاكم والحكومة ومناصرتهما فى الحق والعدل، لما جاء فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه آنفًا، ولما رواه مسلم بسنده عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه، فكان مما أخذ علينا؛ أن بايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم من الله فيه برهان».

٧- واحترام الحاكم والحكومة، والامتناع عن الإساءة إليهما بقول أو عمل، أو تصريح أو تلويح، ما دام الحاكم والحكومة يؤديان ما أوجب الله عليهما من واجبات.

فقد روى الترمذى بسنده عن أبى بكرة نفيع بن الحارث رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أهان السلطان أهانه الله».

تلك صورة مجملة لحقوق الناس نحو الحاكم والحكومة وواجباتهم نحوهما، فما القانون الذى ينظم هذه الحقوق وتلك الواجبات؟

الدعامة الثالثة: القانون الإسلامى الذى ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم

العلاقة بين الناس ومن يحكمهم يقيمها الإسلام من الناحية السياسية على قواعد قانونية محكمة تحقق العدل والمساواة بين الناس أمام القانون، وتحقق الإنصاف والعدالة بين الحاكم ومن يحكمهم من الناس.

وهذا القانون العادل المحكم قسمان كبيران هما:

١- قانون دستورى:

يشتمل هذا القانون فى الإسلام وشريعته -الكتاب والسنة- على القواعد العامة التى توضح بدقة عدداً من المفاهيم الأساسية التى تتصل بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم مثل:

* مفهوم الدولة وفكرتها الأساسية،
* غاية الدولة وأهدافها العامة،
* وسائل الدولة لتحقيق أهدافها،
* مصادر قانون الدولة، ومبادئه وقواعده العامة،
* سلطات الحاكم والحكومة،
* السلطات التقليدية الثلاث: التشريعية، والقضائية، والتنفيذية؛ ووجوب الفصل بينها،
* مواطنو هذه الدولة وحقوقهم وواجباتهم.

٢- وقانون إدارى:

وهذا القانون فى الإسلام وشريعته يشتمل على القواعد الأساسية التى تنظمه وتكفل له إدارة الدولة وتشغيل مرافقها وتفعيلها وفق مفاهيم أساسية مثل:

* واجبات هذه الإدارة وحقوقها عمومًا.
* وواجباتها فى مجال مؤسسات التربية والتعليم وكيفية إدارتها.
* وواجبات الدولة فى تأمين المرافق العامة وإدارتها.
* وإدارة الدخل العام للدولة وتحديد مصادره، وكيفية إنفاقه.

* وكيفية تنظيم الجيش والإنفاق عليه وتسليحه بأحدث الأسلحة الملائمة للعصر.

* تنظيم السلطة التنفيذية وما يتبعها من رجال وأجهزة ومؤسسات عقابية ونحوها.

* وتأكيد أن السلطة التنفيذية لخدمة المواطن لا لإرهابه، وتبديد إحساسه بالأمن.

٣- هناك قوانين أخرى تعتبر مكملة ومساندة لهذين القانونين، مثل:

- قانون الأحوال الشخصية،

- والقانون التجارى،

- والقانون البحرى،

- وقانون الحرب،

- وقانون السلم والصلح والمعاهدات،

- وقانون العلاقات الدولية.

وغير ذلك من القوانين التى تحتاج إليها حياة الناس المليئة بالمستحدثات، وذلك ما فتحت له الشريعة أبوابًا تتيح لها سَنَّ القوانين فيها، مثل:

* باب التفسير والتأويل للنصوص الإسلامية،

* وباب الاجتهاد،

* وباب القياس،

* وباب الاستحسان،

* وباب المصالح المرسلة،

* وباب سَدّ الذرائع.

ولهذا القانون الإسلامى خصائص وسمات تميزه عن غيره، نذكرها بإيجاز فيما يلى:

سمات القانون الإسلامى ومميزاته

- أنه قانون يتميز بالإحاطة والشمول والقدرة على تنظيم كل مرافق الحياة الإنسانية وشعبها العديدة.

- وأنه قانون ملائم للفطرة الإنسانية ينظم كل احتياجات الإنسان دون مبالغة فى إحداها ولا تهوين لإحداها.
- وأنه قانون يتساوى الناس أمامه دون تمييز لذى جاه أو مال أو قوة ودون تهوين من شأن مَنْ حرم من الجاه والغنى القوة.
- وأنه قانون لديه قدرة فائقة على حل مشكلات الناس مهما كانت حادة ومعقدة لأنه ينظر إلى المشكلات كلها نظرة موضوعية لا تمييز فيها لأحد أطرافها على طرف آخر، ولأن حلوله نابعة مما أوحاه الله تعالى إلى خاتم رسله فى الكتاب والسنة وما تضمناه من قواعد عامة عادلة شاء الله لها أن تتغلب على سائر المشكلات.
- وأنه قانون فيه مرونة وقدرة على مواكبة كل المتغيرات، بما اشتمل عليه من أحكام قطعية ثابتة وأخرى غير قطعية متغيرة.

* فمن أمثلة الأحكام القطعية الثابتة:

- النصوص الواردة فى الكتاب والسنة، التى حَرّمت الزنا، والسرقة، والخمر، والميسر والربا.. إلخ
- والقواعد العامة التى حرمت بعض الأمور، مثل: حرمة كل مسكر، وحرمة كل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة.
- والحدود المقررة فى الكتاب والسنة، مثل:

إباحة الوصية فى ثلث المال فقط،

وجعل الحد الأقصى لعدد الزوجات أربعًا،

* ومن أمثلة الأحكام غير القطعية القابلة للتغيير:

- الأحكام التى يتوصل إليها العلماء من خلال تفسيرهم وتأويلهم للنصوص الإسلامية من خلال حسن معرفتهم للغة العربية، وتبصيرهم بأهداف الشريعة ومقاصدها.
- والقياس، وهو تطبيق حكم ثبت من الشارع فى قضية مّا، على قضية أخرى تشبهها، فتقاس الثانية على الأولى، ولا يمارس هذا القياس إلا من كان من أهل العلم بالفقه وبالقوانين وله ثقافة واسعة، وفهم دقيق وقدرة على معرفة التماثل بين المقيس والمقيس عليه.

- والاجتهاد، وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة، وأحكامها، والقدرة على تطبيق هذه الأحكام فى القضايا الجديدة التى لا يوجد لها أشباه أو نظائر فى أحكام الشريعة، ويحتاج هذا إلى بصر بالشريعة؛ أهدافها وأهداف أحكامها فى حياة الإنسان.

- والاستحسان، وهو القدرة على وضع ضوابط وقوانين جديدة من أجل الاستجابة للحاجات المستجدة، بشرط أن تكون الاستجابة لهذه الحاجات متفقة مع أهداف القوانين الإسلامية ونظامها العام، وأن يكون لهذا المستحسن بصر بالحسن والقبيح فى الإسلام.

* وبهذه المرونة فى القانون الإسلامى، نستطيع تأكيد عدد من الحقائق نشير إلى بعضها فيما يلى:

- التشريع الإسلامى بمجموع ثوابته ومتغيراته يستطيع أن يستجيب لحاجات الناس فى كل زمان ومكان مهما تنوعت الحاجات، ومهما تعدد زمانها أو مكانها.

- وأن علامة قوة إيمان المؤمنين هو تشبثهم بما هو ثابت من تشريعاته، وعدم تجمدهم فيما هو مرن من أبواب تشريعاته.

- وأن تحقيق مصالح الناس فى دنياهم وأخراهم مرتبط تمامًا بالأخذ بقوانين شريعة الإسلام والالتزام بكل ما جاء فيها.

وأن هذا القانون الإسلامى على مدى تاريخ المسلمين ما توقف عن الاستجابة لحاجات الناس المشروعة ولا عجز عن التغلب على أى مشكلة أحاطت بحياة الناس فى أى شعبة من شعبها.

- وأن القانون الإسلامى من يوم أنعم الله به على الناس بأن أوحى إليهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وإلى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى؛ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى؛ كان علاجًا لكل مشكلات الحياة الإنسانية، ودليل ذلك يشهد به التاريخ العلمى والثقافى والاجتماعى والسياسى لهذه الاثنى عشر قرنًا من الزمان.

* وفى عرض وجيز لهذه الفترة نقول:

- كانت القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسلمين هى خير القرون، لم يختلف على هذه الخيرية أحد من المسلمين، وربما من غيرهم من منصفى المؤرخين.

– وكان القرنان الرابع والخامس الهجريان قرنى الحضارة والازدهار، سجل هذا المنصفون من الكتاب الأجانب مثل: «آدم متّلز» وغيره.

– وفى آخريات القرن الخامس الهجرى ٤٩٠هـ – ١٠٩٧م شَنّ الغرب بقيادة الكنيسة الحروب الصليبية على مصر والشام للاستيلاء على الشرق وبيت المقدس، وصادف ذلك ضعف الحكومات المسلمة وتمزق صفوفها، فاجتاحت الجيوش الصليبية البلاد واستولوا على بيت المقدس وأقاموا باسمهم ممالك أربعة:

بيت المقدس،

وطرابلس لبنان،

وأنطاكية،

والرها.

* وقد بقى الصليبيون فى بيت المقدس تسعين عامًا حتى طردهم منها السلطان الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ – ١١٨٧م، ثم توالى طرد الصليبيين، فطردوا من طرابلس ٦٨٦هـ – ١٢٨٠م ثم من أنطاكية سنة ٦٩٨هـ – ١٢٩١م، ثم طردوا من آخر معاقلهم عكا سنة ٦٩٨هـ – ١٢٩١م.

* وفى هذه الأثناء ابتلى المسلمون – فى منتصف القرن السادس الهجرى – بهجمة التتار على العراق فاستولوا على بغداد عاصمة الخلافة، وفعلوا بها من البشائع ما يقارب ما تفعله أمريكا وقوات التحالف بها وبأهلها منذ مارس ٢٠٠٣م وإلى الآن.

* وعلى الرغم من هاتين الكارثتين –الهجوم المغولى والهجوم الصليبى– اللتين استمرتا قرنين من الزمان؛ فإن الحضارة الإسلامية وقيمها وقانونها العام؛ تركت أعمق الأثر فى أصحاب الهجومَيْن:

– أما التتار أو المغول فقد استوعبتهم الحضارة الإسلامية وما فيها من قيم ومبادئ، فدخلوا فى الإسلام وهم الأقوياء المنتصرون، مما يؤكد أن الإغراء بالدخول فى الإسلام يرجع إلى الإسلام أكثر مما يرجع إلى المسلمين أنفسهم.

– وأما الصليبيون فقد كان مجيئهم إلى مصر والشام فرصة لينهلوا من الحضارة الإسلامية وعلوم المسلمين وتفوقهم فى شتى مجالاته، مما مكنهم أن يجعلوا تلك العلوم قواعد أقاموا عليها نهضتهم العلمية بعد أقل من قرنين من الزمان.

* أما القرون الهجرية من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر فإن رقعة العالم الإسلامى فى هذه القرون اتسعت وامتدت أبعادها فى زمن الخلافة العثمانية، وما عاصرها من أنظمة حكم تابعة لها، أو خاضعة لنفوذها؛ حيث كان القانون الإسلامى أو النظام الإسلامى يبنى كل تطور علمى أو تقنى، بل يجيب عن كل سؤال، ويستجيب لكل متغير ومستحدث مادام هذا المتغير لم يصطدم بقواعد الإسلام وثوابته.

- وقد ظل هذا القانون الإسلامى يحكم بلاد المسلمين والبلاد التابعة لهذه الدولة العثمانية، حيث امتد نفوذ هذه الدولة ليشمل كثيرًا من بلدان أوروبا الشرقية متوغلاً فى غرب أوروبا حتى حدود فرنسا «بلاد الغال» ظل هذا القانون مصدر الكثير من المبادئ فى أوروبا، حتى تحالفت دول الغرب على الإجهاز على دولة الخلافة العثمانية متعاونين فيما بينهم متناسين تنافسهم وعداواتهم التقليدية فبدأوا بإضعاف دولة الخلافة وملء ساحتها بالعملاء وبالفساد والمفسدين من الكارهين للإسلام وحضارته.

- وفى بداية القرن التاسع عشر الميلادى ١٢١٥ هجرية عمل هؤلاء الأعداء على أن ينحسر القانون الإسلامى عن الحكم وعن حياة الناس، على نحو مدروس ومحسوب.

* فكان أول انحسار للقانون الإسلامى فى الهند.

* ثم كانت موجة الانحسار عاتية بحيث شملت معظم البلدان التى كانت تحت ظل الخلافة العثمانية، بلدًا وراء بلد.

* وقد حَلَّ محل القانون الإسلامى قوانين غربية جلبها المستعمرون من بلادهم كفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وبلجيكا وسويسرا، فى قصة يطول شرحها، وليس هنا مجال الحديث فيها.

* والنتيجة أن القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين الموافقين للقرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، كانا قرنى الإضعاف للمسلمين والتحدى لقانونهم ونظامهم، وعلى وجه الحقيقة كان تحديًا لدينهم، كما صرح بذلك بعض مسئوليهم وبعض كتابهم.

- والقوى المتحالفة ضد المسلمين والنظام الإسلامى كثيرة، كان من أبرزها:

* الدول الأوروبية الاستعمارية مثل: بريطانيا، فرنسا، وإيطاليا، وهولندا، وبلجيكا، وإسبانيا، والبرتغال، وألمانيا.

* ثم دولة ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى، التى اضطهدت المسلمين فيها أسوأ اضطهاد، حتى حرمت على الناس الصلاة فى بيوتهم بعد أن عطلت المساجد، وهدمت بعضها، وحرمت الحج، وقطعت كل صلة بين المسلمين فى جمهورياتها: أذربيجان، وأوزبكستان، وطاجيكستان، وتركستان، وقازاخستان، وقرغيزيا، وبين سائر بلدان العالم الإسلامى.

* ثم إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

- تحالفت كل هذه القوى على إضعاف البلدان الإسلامية بالسيطرة عليها باسم الانتداب أو الحماية، أو الاستعمار، أو الوصاية أو غير ذلك من الأسماء، وهذه السيطرة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية.

* وقد لجأت إسرائيل إلى طرد الفلسطينيين من أرضهم وديارهم، وبطشت بمن بقى منهم وحولتهم إلى إسرائيليين عرب، والعالم يسمع ويرى!!! بل إن العالم الغربى وأمريكا يقدمون الدعم والمال والسلاح لإسرائيل من أجل الفتك بالفلسطينيين والعرب.

* ثم لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى احتلال بعض بلدان العالم الإسلامى احتلالاً عسكريًا تساندها فيه أوروبا كلها بادعاء أنها تحقق لها الديمقراطية!!! وكما يحدث فى أفغانستان والعراق ولبنان بشكل واضح للعيان، وكما يحدث فى كثير من بلدان العالم الإسلامى بشكل لا تصاحبه القوات العسكرية اكتفاء بالسيطرة الاقتصادية والسياسية.

- وهذه القوى المتحالفة ضد المسلمين فى القرنين التاسع عشر والعشرين هى التى قسمت العالم العربى إلى اثنين وعشرين دولة بينها من أسباب التعادى الذى صنعه الأعداء ما تعجز الجامعة العربية عن تلافى شىء منه.

- كما عملت هذه القوى على تفتيت العالم الإسلامى إلى سبع وخمسين دولة، وحظرت عليها جميعًا الاتحاد أو الوحدة حتى لو كانت وحدة أسواق مشتركة، أما الوحدة الاقتصادية أو السياسية فجريمة يعاقبون عليها بجيش احتلال من أجل الديمقراطية.

- وأبرز أعمال هذه القوى المتحالفة ضد الإسلام والمسلمين هى -فى تصورى- إقصاء القانون الإسلامى عن دائرة التطبيق أى إقصاء الإسلام عن حياة الناس، وفى سبيل تشويه الإسلام وقانونه ونظامه يقدمون بعض المزاعم التى يحركها الحقد على الإسلام من جانب والجهل به من جانب آخر، من ذلك:

* ادعاؤهم أن القانون الإسلامى والنظام الإسلامى قديم كان مناسبًا للناس الذين أنزل فيهم، وأنه لا قدرة له على مواكبة المستجدات ولا الاستجابة للمتغيرات وهى دعوى باطلة كذبها تاريخ الحضارة الإسلامية حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى.

* وادعاؤهم أن القانون الإسلامى فى مجال القصاص والحدود فيه قسوة ووحشية، مع أن قوانينهم تطبق القصاص فى بعض الأحيان وتحكم بالسجن مئات السنين على المذنب ولا ترى فى ذلك وحشية وقساوة!!!

* ووصفهم الإسلام كله بأنه دين محلى إقليمى موجه إلى أقوام بعينهم تغلب عليهم البداوة والجهل، حقدًا منهم على عالمية الإسلام وعموميته، وعلى أن رسوله الخاتم ﷺ أرسل للناس كافة إلى يوم الدين مع أنهم يعرفون هذا كما يعرفون أبناءهم!!!

- وزعمهم وحشية القانون الإسلامى فى رجم الزانى المحصن وجلد غير المحصن، بل يدينون تحريم الإسلام للزنا وللواط -العلاقات المثلية التى أباحوها بقانون -كما يدينون القانون الإسلامى بتحريم شرب الخمر ولعب الميسر، وتحريمه للربا والغش والتدليس.!!!

- ويزعمون أن تطبيق القانون الإسلامى فيه هضم لحقوق المرأة، وهى دعوى باطلة، لأن الإسلام يعتبر المرأة كالرجل فى الحقوق والواجبات وفى العمل والثواب، فإن وجد ظلم للمرأة أو هضم لحقوقها فالخطأ ممن فعل ذلك وليس من الإسلام، لأن الإسلام نهى عن ذلك وحرمه، وآيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ فى دحض هذه الفرية عديدة نذكر منها آية واحدة وحديثًا نبويًا واحدًا.

* فالآية : وهى قول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فتسوية المرأة بالرجل حقيقة إسلامية لا تقبل جدلاً.

* والحديث النبوى الشريف هو ما رواه أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «.... إنما النساء شقائق الرجال». ورواه أبو داود والترمذى والدارمى وغيرهم.

* وبعد، فهذه هى الدعائم الثلاث التى يقوم عليها النظام السياسى فى الإسلام وهى:

- الحاكم والحكومة،

- والناس الذين تسوسهم الحكومة،

- والقانون الذى ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

نرجو أن نكون قد ألقينا عليها من الضوء ما يكشف عنها، وعن كل ما تضمنته من نزعة إنسانية، ومن عدالة وشفافية أوجبتها القيم الإسلامية السياسية.

وتلك هى القيم التى تحكم الدعائم الثلاث، القيم التى يجب أن تسود الحاكم والمحكوم والقانون الذى يقضى بينهم، بل تسود الناس حتى وهم يتعاملون مع غيرهم، بل تسودهم وهم يتعاملون مع الحيوان والنبات والجماد والأشياء.

إنها قيم الرحمة والحب والعدل والإحسان وحسن التعامل أولاً، ثم سائر القيم الإسلامية بعد ذلك.

وبقى علينا أن نتحدث عن أهداف النظام الإسلامى وهى النقطة الأخرى من الحديث، ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

النقطة الأخرى وهى:

أهداف النظام السياسى الإسلامى:

يستهدف النظام السياسى الإسلامى أهدافًا عديدة تتضامن وتتكاتف وتتساند لكى تحقق للمجتمع استقرارًا وأمنًا واطمئنانًا، وقدرة على ممارسة الحياة الإنسانية الكريمة التى تليق بالإنسان الذى كرمه ربه ورزقه من الطيبات وفضله على كثير من خلقه.

* وهذه الأهداف التى يتغياها النظام السياسى الإسلامى تصب جميعها فى صالح الناس فى حاضرهم ومستقبلهم ودنياهم وآخرتهم، لا يخرج عن هذه الأهداف شىء منها بحال من الأحوال، بل إن علامة إسلامية أى هدف من أهداف النظام الإسلامى أن يحقق صالح الإنسان فى حاضره ومستقبله، فى دنياه وآخرته.

* ولقد حاولت أن أحصى هذه الأهداف وأستوعبها جميعًا فهالنى العمل واستعصى علىّ، فأوجزت الحديث فيه ليتناول سبعة أهداف فقط، يتفرع بعضها إلى فروع كثيرة، وهذه الأهداف السبعة فى صورة سردية هى:

١- تحقيق الأمن للناس، الأمن بكل أنواعه، والناس كلهم مسلمين وغير مسلمين.

وهذا الأمن أنواع من أهمها:

أ- الأمن النفسى، بحيث لا يُرَوَّع أحد، ولا يهدَّد، ولا يتهم إلا ببرهان، ولا تصادر حريته باعتقال أو توقيف أو تحديد إقامة، ومن بديهيات النظام السياسى الإسلامى ألا

يُسَاء إلى الإنسان بلفظ جارح أو ضرب أو تعذيب، أو سخرية أو مهانة، وأن يقدم - عند تجاوز النظام- إلى محاكمة أمام قاضيه الطبيعى، ليحاكم بالقانون العادى، لا قانون الطوارئ ولا قانون عرفى أو عسكرى أو نحوه.

ب- والأمن الزمانى؛ بأن يكون آمنًا فى كل أوقاته وفى كل مراحل حياته، طفلاً ومراهقًا وشابًا ورجلاً، وكهلاً وطاعنًا فى السن، وعاملاً أو عاجزًا عن العمل.

جـ- والأمن المكانى؛ بأن يكون آمنًا فى بيته وفى مسجده ومدرسته، ومكان عمله، ومكان ذهابه وإيابه، ومكان ترويحه عن نفسه -بما أحلّ الله ورسوله- وفى أى مكان يحل به أو يرتحل إليه.

د- والأمن الفكرى والثقافى والمعرفى، فلا يحظر عليه فكر ولا يحال بينه وبين ثقافة، ولا تحرم عليه معرفة وإنما يكون آمنًا مطمئنًا وهو يمارس ما شاء من فكر وما رغب فيه من ثقافة، وما أحبه من معرفة، فلا قوالب فكرية يفرضها عليه الحاكم، ولا حصر لثقافة بعينها يمليها عليه الظالم، ولا سياج حول معرفة يفرضها المستبد.

هذا هو لب النظام الإسلامى وجوهره، لا يخرج عليه إلا خارج على النظام السياسى الإسلامى أو على النظام الإسلامى كله.

٢- وتحقيق العدالة بين الناس بكل أنواعها، أى كفالة حقوق الإنسان وضمانها، وهى حقوق كثيرة نذكر منها:

أ- الحقوق السياسية:

وهى كثيرة نذكر منها:

- حق الإنسان فى التصويت، وحقه فى الترشح فى العمل النيابى والعمل المحلى، والعمل النقابى، والعمل الاجتماعى والرياضى والفنى، وحقه فى الترشح لرياسة البلاد،

- وحقه فى انتخابات حرة نزيهة،

- وحقه فى التفكير عمومًا والتفكير السياسى خصوصًا،

- وحقه فى ممارسة حرياته،

- وحقه فى التعبير عن هذا الفكر دون إيذاء لأحد،

- وحقه فى التظاهر السلمى، وحقه فى الإضراب عن العمل لأسباب جوهرية لمقاومة أى ظلم يقع عليه من صاحب العمل أو من الحكومة أو من نظام العمل،

- وحقه فى الامتناع عن التصويت،
- وحقه فى إنشاء حزب سياسى،
- وحقه فى إصدار صحيفة أو مجلة، أو نشرة، أو كتاب، ولكل حق من هذه الحقوق حوافظ لا يجوز المساس بها، أو حرمانه من شىء من هذه الحقوق مثل:
- منعه من الإدلاء بصوته أو منعه من الترشح،
- ومنعه من التظاهر السلمى أو الإضراب عن العمل،
- وتزوير الانتخابات وإجراؤها بوساطة الحكومة، إذ لابد من جهة مستقلة تمامًا كالقضاء.

ب- والحقوق الاجتماعية:

وهى كثيرة جدًا، نذكر منها:

- حق الإنسان فى التعلم،
- وحقه فى العمل والكسب والادخار،
- وحقه فى التملك والاقتناء،
- وحقه فى سكن مناسب،
- وحقه فى التزوج وتكوين أسرة،
- وحقه فى مرافق صالحة تؤمن حياته كمياه الشرب، والكهرباء والصرف الصحى، والمواصلات والاتصالات،

* وهذه الحقوق كلها من واجب الحكومة أن تؤمنها وتيسرها من خلال النظام السياسى الإسلامى.

- وحقه فى تكوين الجماعات المدنية، كالجمعيات الخيرية وجمعيات توفير الخدمات والسلع، وجمعيات دعم اليتامى والأرامل والعاجزين عن العمل أو عن الحصول عليه.
- وحقه فى أن يعين جاره أو صديقه، أو يعان منه دون أن تجرمه حكومات الظلم والطغيان وتسجنه[1] مدة تتراوح ما بين خمس سنوات وخمس وعشرين سنة بجريمة

(١) كما فعلت حكومة جمال عبد الناصر فى كل مرة اعتقلت فيها بعض المواطنين بتهم سياسية، فقدم بعض الناس عونًا لأسرة المعتقل!!! هكذا كان الحكم الناصرى!!!

أنه ساعد أسرة معتقل!!! وكان قضاة هذه المحاكم من أعضاء مجلس قيادة الثورة الذين يملأون صحفهم بشعارات الحرية والعدالة وارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستبداد، ثم شعار الحرية للشعب!!!

جـ- والحقوق الاقتصادية:

وهى كثيرة أيضًا، نذكر منها:

- حق المواطن فى أن يجد عملاً مناسبًا لقدراته وخبراته وأجرًا عادلاً مناسبًا لعمله؛ يحقق له احتياجاته واحتياجات من يعول،
- وحقه فى أن يملك ملك حيازة وتصرف لكل ما كسبه أو ورثه أو آل إليه بطريقة مشروعة،
- وحقه في الادخار بغير كنز، والاتجار بغير غش،
- وحقه فى استثمار أمواله وعلمه وخبرته بطريقة مشروعة ليس فيها مما حرّم الله تعالى شيئًا،
- وحقه فى تكوين الشركات وإقامة المشروعات بكل أنواعها وفى الأماكن التى يختارها فى ظل النظام الإسلامى العام، والنظام الاقتصادى الإسلامى الخاص.
- وحقه فى استيراد السلع والخدمات، وحقه فى تصديرها إلى حيث يريد فى ظل النظام الإسلامى العادل.
- وحقه فى أن ينشئ مصرفًا أو يشارك فيه مادام ملتزمًا بما يفرضه النظام الإسلامى.
- وحقه فى أن يحوز ماله وكسبه كاملاً، فلا تفرض عليه ضريبة إلا بقانون.
- وحقه فى أن يقترح أو يوصى برأى فى أى قضية اقتصادية فى وطنه المحلى أو العربى أو الإسلامى وأن يحظى اقتراحه أو توصيته بالاهتمام المناسب لها.

* وهذه الحقوق كثيرة منها ما هو من واجب الدولة أو الحكومة نحو مواطنيها، وبعضها واجب المواطن نفسه، لا يجوز له أن يفرط فيها لأنه يعيش فى ظل نظام سياسى واقتصادى واجتماعى إسلامى.

٣- والهدف الثالث للنظام السياسى الإسلامى هو: تحقيق الكرامة الإنسانية للإنسان أى تكريمه واحترامه وتقديره؛ وإنما يكون ذلك بتأمين حقوقه كلها -وهى عديدة- تلك

الحقوق التى جاء بها الإسلام قبل أن تسمع بها الدنيا بستمائة عام فى بداية القرن السابع الميلادى، بينما كان أول عهد الغرب بها سنة ١٢١٥م فيما عرف «بالماجنا كرمتا» فى إنجلترا، ثم فى عام ١٧٨٩م فى فرنسا، ثم فى عام ١٩٤٨م فى هيئة الأمم المتحدة.

وقد جاءت وثيقة حقوق الإنسان -التى أصدرتها هيئة الأمم المتحدة -فى ثلاثين مبدأ، وعدت فتحًا مبينًا فى مجال المحافظة على حقوق الإنسان.

* أما النظام الإسلامى فقد توسع فى حقوق الإنسان فأقر له من الحقوق ما لم تسم إليه أى وثيقة دولية فى العالم، ومن هذه الحقوق التى تفرد بها النظام الإسلامى:

- حق الإنسان فى أن يختار من ستكون أمًا لأبنائه، زوجة صالحة تحسن أمومتهم وحضانتهم ورعايتهم، ومن لم يفعل ذلك فقد ضيع ما أوجبه الإسلام عليه،
- وحق الإنسان مولودًا أن يسمى تسمية حسنة،
- وحقه فى الرعاية والتربية، ولا يكون ذلك إلا بالإنفاق عليه وتأمين احتياجاته المادية والمعنوية،كأن يكون قوى البدن يُعلمه السباحة وركوب الخيل، والرماية، وأن لا يُشتم ولا يقبح ولا يضرب،
- وحقه فى أن يتعلم التعليم الذى يقدره على العمل والكسب،
- وحقه فى أن يزوجه أبوه مبكرًا حتى يعفه ويصونه عن الشر والفاحشة، إذا كان أبوه من أهل اليسار.

* وتلك الحقوق التى ذكرتها لم أجد لها نظيرًا فى وثيقة حقوق الإنسان، ومن رأى لها نظيرًا فى تلك الوثيقة فليدلنى عليه وهو مشكور مأجور.

* ومن حقوق الإنسان فى الإسلام:

- حقه فى أن يتركه والده أو مورثه فى يسار؛ إذا كان المورث قادرًا على ذلك، فقد نهى الإسلام المسلم عن أن يوصى الإنسان لغير ورثته بأكثر من الثلث محذرًا من ترك الورثة عالة يتكففون الناس.
- وحقه بعد موته فى تسبيل عينيه وتغسيله وتكفينه، والإسراع بدفنه، وتقبل العزاء فيه، والدعاء له بالرحمة والمغفرة، والتصدق على روحه، وتسديد ديونه، وإنفاذ وصيته، وبر أصدقائه بعد موته، وذلك واجب الابن البارّ الصالح.

- وحقه فى أن تؤدى عنه فريضة الحج إن كان قد مات ولم يؤد فريضة الحج، وكان من أهل الاستطاعة، كما تؤدى عنه زكاة المال إن كان لم يؤدها مع وجوبها عليه، إن ذلك كله من البر بالأب بعد موته، وقد جعله الإسلام من حقوق الإنسان.

* كل هذه الحقوق التى كفلها الإسلام للإنسان، قد ثبتت بالكتاب والسنة فوردت فيها آيات كريمة وأحاديث نبوية شريفة.

وكم كان بودى أن أذكر كل حقوق الإنسان فى الإسلام ثم أقارنها بهذه الحقوق الثلاثين التى تضمنتها وثيقة حقوق الإنسان، لكن خشية الإطالة هى التى صرفتنى عن ذلك.

٤- والهدف الرابع من أهداف النظام السياسى الإسلامى هو: توضيح صلة الحاكم بالمحكوم وتحديد أبعادها فى ظل مبادىء وقيم رفيعة، أوضحناها آنفًا ونحن نتكلم عن حقوق المحكوم على الحاكم، وحقوق الحاكم على المحكوم، وإنما كانت هذه المبادىء والقيم عالية ورفيعة القدر لأنها استهدفت العدل بين الحاكم والمحكوم - أى المواطن والحكومة التى تسوسه- فلم تدع واجبًا على الحاكم نحو المحكوم إلا نَصَّت عليه وحدَّدت أبعاده، ولم تدع واجبًا على المحكوم نحو حاكمه وحكومته إلا نصّت عليه كذلك وحددت أبعاده.

وعلى سبيل المثال لا الحصر:

- ففى أهلية الحاكم لتولى الحكم:

شرط النظام الإسلامى عددًا من الشروط، بعضها فى علمه وفقهه، وبعضها فى سياسته وعمق نظرته للأمور، وبعضها فى دينه وخلقه، وبعضها فى بدنه وسلامة حواسه.

- وفى طريقة اختياره:

اشترط الإسلام أن يختاره لتولى هذا المنصب أهل العلم والرأى والخبرة والبصر بالسياسة، وهم الذين سُمُّوا فى تاريخنا: «أهل الحل والعقد».

وترك أسلوب الاختيار ووسيلته حرة مفتوحة لما يراه أهل الرأى والخبرة والتقوى والصلاح.

- وفى سياسته وتعامله مع الناس:

شرط فيه العدل والإنصاف، والشفقة بالناس ورحمتهم، وإثابة المحسن وعقاب المسىء، كل ذلك وفق ما جاء فى النظام الإسلامى العام، وفى النظام السياسى الإسلامى على وجه الخصوص.

- وفى تنظيمه للدولة أو الحكومة:

شرط عليه ألا يولى أحدًا عملاً إلا كان أهلاً له وقادرًا على أدائه، وألا يَحابى أحدًا، ولا يستبعد أحدًا إلا لسبب مقبول فى هذا الإدناء أو الاقصاء، وأن يكون مسئولاً وحكومته عن حقوق المواطنين فيكفلها لهم، وعن المرافق العامة، يوفرها صالحة ويصونها ويحميها، وكلمة المرافق تشمل كل ما يحتاج إليه المواطن فى حياته الإنسانية الكريمة مما تحدثنا عنه آنفًا - ونحن نتكلم عن واجبات الحاكم والحكومة..

- وفى علاقة المحكوم بالحاكم والحكومة:

* شرط الإسلام على المحكوم بل أمره باحترام الحاكم والحكومة وتوعده إن أهان الحاكم أو سخر منه.

* وأوجب على المحكوم السمع والطاعة فيما أحب أو كره، وفى منشطه ومكرهه، مادام الحاكم لم يأمره بما فيه معصية لله تعالى.

* وأعطى المحكوم حق الاعتراض على أعمال الحاكم والحكومة إذا كانت غير صالحة أو غير متفقة مع مبادئ الإسلام وقيمه، وأخلاقه وآدابه.

* وأوجب الإسلام على المحكوم أن يسدى النصح للحاكم إن طلبه، وأن يتقدم به إذا لم يطلب مادام فى هذا النصح فائدة للمسلمين.

* وأوجب على المحكوم ألا يسعى فى فتنة ولا يتسبب فيها، ولو أدى ذلك إلى أن يلزم داره، بل لعن الإسلام من يثير الفتنة عن عمد ومن يؤرث نارها.

٥- والهدف الخامس من أهداف النظام السياسى الإسلامى، هو: المحافظة على الوطن وحماية تراثه الذى بقى من الماضى البعيد أو القريب؛ لأن التدبر فى الماضى وما فيه من أعمال ومفردات للعمران يساعد على تحسين الحاضر والتصور الصحيح للمستقبل.

ولابد أن يَلْقى الفكر والثقافة والفنون من الحاكم والحكومة من العناية والرعاية والاهتمام ما هى جديرة به.

إن الآثار والمعالم التاريخية والجغرافية والحضارية عمومًا هى روح الأمة وجوهرها، وإن التعامل مع هذا كله دليل على تحضر الأمة واهتمامها بمبدعيها وفنانيها الذين صنعوا هذا التراث.

* ولقد أصبح العالم كله -بعد ثورة المواصلات والاتصالات- قرية كبيرة أو مدينة صغيرة يمكن رؤية ما فى بلدانه بأسرع وقت وبأيسر التكاليف، وذلك ما يسمى الآن بالسياحة. وإذا كانت السياحة مفهومها حديثًا يعنى التنقل من بلد إلى بلد طلبًا للتنزه أو الاستطلاع والكشف، فإن القرآن الكريم أطلق على مثل هذه السياحة سيرًا فى الأرض لأخذ العبرة والعظة، ففى القرآن الأمر بالسير فى الأرض، مثل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا...﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وفى القرآن حض وتحريض على السير فى الأرض للبحث والكشف والتدبر والتأمل مثل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ [يوسف: ١٠٩]. و﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا...﴾ [الحج: ٤٦] و﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ...﴾ [الروم: ٩][1].

فالنظام الإسلامى عمومًا يستهدف المحافظة على هذا التراث والسياحة، والسير فى الأرض للتعلم وأخذ العبرة.

* والطريق إلى ذلك بعد السير فى الأرض هى: حرية الفكر والإبداع، وحرية التعبير بكل وسائله بشرط واحد هو أن يبتعد التعبير عن كل ما حرم الله من وسائل هذا التعبير، مع احترام المقدسات، والالتزام بالثوابت الأخلاقية، وثوابت العقائد والعبادات لكل الناس.

٦- والهدف السادس من أهداف النظام السياسى الإسلامى، هو: حمايةالوطن من الداخل ومن الخارج، وهذا الهدف لا يخلو منه نظام صحيح إسلامى أو غير إسلامى، لأنه هدف تستوجبه فطرة الإنسان.

---

(١) كما وردت فى هذا الحض على السير فى الأرض للاستفادة أربع آيات هى:
- الآية: ٤٤ من سورة فاطر- والآية: ٢١ من سورة غافر.
- والآية: ٨٢ من سورة غافر،- والآية: ١٠ من سورة محمد.

* والنظام السياسى الإسلامى يعتبر هذا الهدف واجبًا على الأمة كلها أفرادًا وجماعات ومؤسسات وحاكمًا وحكومة بالإضافة إلى أنه جعل أداء هذا الواجب موضع ثناء ورضا من الله تعالى، وتركه موضع ذم وسخط من الله تعالى.

- وواجب الحكومة فى حماية الوطن من الداخل عدة أمور:

* إعداد قوائم بهذه الأخطار الداخلية ليكون الناس منها على حذر.

* وإعداد العدد من الناس والعُدد لمواجهة هذه الأخطار وفق نظام دقيق وضبط شديد لأعمال المواجهة حتى لا تقع الفوضى، ولا يستبد مواجه فيسرف فى عمله ويتجاوز حدوده.

* وأعدى أعداء الأمة من الداخل الجهل والغفلة والتخلى عن المبادى والقيم الإسلامية، وضعف الانتماء إلى الإسلام، وزعزعة الالتزام به خُلُقًا وسلوكًا.

* وانحراف البيت والمسجد والمدرسة والجامعة عن القيم الإسلامية خطر داخلى يهدد وجود الأمة، ويعوق تقدمها ويحول بينها وبين أداء وظيفتها فى المجتمع.

* وقصور الأندية والنقابات والجمعيات المدنية وعجزها عن أداء وظائفها خطر داخلى تجب مقاومته والتصدى له على الدوام.

* وانحراف أجهزة الإعلام عن القيم الإسلامية خطر يبلغ حد الكارثة، لأن أجهزة الإعلام ووسائله تقتحم على الناس بيوتهم ومهاجعهم وتفعل فيهم ما يفعله السحر بالمسحور.

* واستبداد الحاكم والحكومة، وقهر المحكوم بحرمانه من حقوقه وحرياته جريمة يزيد خطرها يومًا بعد يوم حتى يفقد الناس الانتماء للوطن ويمرضون بالسلبية والخنوع والمذلة، لذا كان واجب التصدى لهذا الاستبداد واجبًا سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا وإبداعيًا لا ينبغى أن يتخلى عنه أحد، لكنه تصدٍ لا يجوز أن يؤدى إلى إحداث فتنة فى البلاد.

* وانتشار الغش والكذب والخداع وأكل أموال الناس بالباطل، والرشاوى والمخدرات والخمور والمفترات خطر داخلى فى الأمة تجب مقاومته دائمًا، وهو واجب الحاكم والحكومة والناس جميعًا، وكل تلك منكرات يجب النهى عنها فى كل حين.

* وأما حماية الوطن من الخارج، فيتطلب من الحاكم والحكومة تعريفا بأعداء الوطن، وتصنيفا لهم وبخطورتهم وخطورة عداوتهم، وذلك يقتضى أمورا هامة أبرزها:

- التعريف والتوضيح للأعداء؛ دولهم ومفكريهم وقادتهم ورجال الإعلام عندهم، وذلك يقتضى:

* التوعية بخططهم العدائية، وتحديد مكانها وزمانها ووسائلها وآلياتها.

* والتبصير بمن يتعاونون معهم من خارج الوطن ومن داخله ليكون الناس على حذر من هؤلاء وأولئك.

* ووضع خطة أو خطط مضادة، أو معوقة لخططهم، ومخذلة لهم، ومشتتة لجموعهم.

- والإعداد لمواجهة العدو، وذلك يقتضى:

* إعداد الجيش القوى، قادة ورجالا، وعدة وعتادا، وقدرة على الحركة السريعة والتوقيت الدقيق.

* وإعداد الآلة العسكرية الحديثة التى تواكب متطلبات الحرب الحديثة، وتقاوم الأسلحة الفتاكة.

* وإعداد المساندين والمعاونين للمقاتلين بأموالهم وعلمهم ومكانتهم قبل المعركة وأثناءها.

* وإعداد قوى استطلاعية تتعرف أخبار العدو وإمكاناته لتضع ذلك أمام المسئولين.

* وإعداد الصف الثانى، والصف الثالث من المقاتلين المدنيين بتدريبهم وتزويدهم بأساليب القتال واحتياجات المعركة.

وكل ما يتصل بالجيش وأسلحته وخططه فإنه من واجب قادة الجيش أهل الخبرة والسابقة.

- وتأمين احتياجات الجيش كلها قبل بداية المعركة.

- وتأمين احتياجات الوطن كله من طعام وشراب ومئونة بحيث تكفى أثناء الحرب وبعدها.

- وإعداد إعلام قوى صادق يواجه إعلام العدو ويكشف أبعاد خططه ويعرى تضليله ومغالطاته.

- وربط الحرب والقتال بأنها جهاد فى سبيل الله، ينال المجاهد فيه إحدى الحسنيين النصر على العدو أو الشهادة فى سبيل الله، وهذا فرق كبير بين جهاد المسلمين فى سبيل الله وقتال غير المسلمين الذين يقاتلون بغير هذه النية.

٧- والهدف السابع من أهداف النظام السياسى الإسلامى، هو: تحديد علاقة الدولة المسلمة بغيرها من الدول إسلامية كانت أو غير إسلامية.

- علاقة الدولة المسلمة بالدول الإسلامية:

تقوم هذه العلاقة على المبادئ والقيم التى يجب أن تسود المسلمين فى جميع الأحوال مهما اختلفت الأوضاع ومهما تناءى الزمان أو تعدد المكان قربًا أو بعدًا، ومهما اختلفت الألوان والأجناس والأقاليم، ومهما تعددت اللغات.

* وسر ذلك أن المسلمين جميعا أمة واحدة تجمع بينها عقيدة التوحيد للإله الخالق سبحانه، وعبادة التلقى عن الرسول الخاتم ﷺ، والقيم الخلقية الثابتة على مر الزمان ومتنوع المكان.

* كما تجمع بينها الثقافة والمعارف الإسلامية النابعة من الكتاب والسنة وسيرة النبى ﷺ، فهذه الثقافة توحد بين المسلمين، ولا تحول بينهم وبين أن تكون لهم ثقافة ومعرفة محلية تخص أقطارهم وأوطانهم.

* والأمة الإسلامية يوحد بين أقطارها جميعا أنها التى ختم الله بها أمم الرسالات، وجعل كتابها خاتم الكتب ودينها خاتم الأديان، حيث لا دين بعد دينها ولا رسول بعد رسولها ولا كتاب بعد كتابها.

* وهى الأمة التى تأمر بكل معروف كل أحد، وتنهى عن كل منكر كل أحد انطلاقا من إيمانها بالله تعالى.

* وعلاقة دول هذه الأمة -وقد بلغت فى زماننا هذا سبعًا وخمسين دولة، كان الأصل فيها أن تكون دولة واحدة- هى علاقة المسلم بأخيه المسلم يحبه فى الله ويعينه ويتعاون معه على البر والتقوى ولا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله، بل ينصره ظالما بكفه عن الظلم، وينصره مظلوما برفع الظلم عنه.

* وفى هذه العلاقة وما يجب أن تكون عليه من حب فى الله، وردت عشرات الآيات القرآنية الكريمة بل مئاتها، ومئات الأحاديث النبوية الشريفة[١].

(١) لكى تجمع هذه الآيات الكريمة وتلك الأحاديث النبوية الشريفة، انظر لنا كتاب فقه الأخوة فى الإسلام، نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

- أما علاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم، فنقول فيها بعون من الله تعالى:

* يغالط الحاقدون على الإسلام والمسلمين فيزعمون أن المسلمين لا يقيمون وزنا لعلاقاتهم بغير المسلمين، بل يتهمونهم بتجاهل الآخر ورميه بالإلحاد والكفر!!!

* ويغالى بعض الحاقدين على الإسلام فيقولون: إن المسلمين يقاتلون غير المسلمين لغير سبب إلا إكراههم على الدخول فى الإسلام!!!

وفى هذه المغالطة وتلك المغالاة جحد للحق، وتشويه للمسلمين، وإلقاء تهم جزافية على أبرياء منها؛ لأن هذه العلاقة بين المسلمين وغيرهم يحكمها كتاب الله الخاتم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن خالفه، من المسلمين فهو الآثم المخطئ، ولا يمكن أن يؤخذ خطؤه حجة على الإسلام.

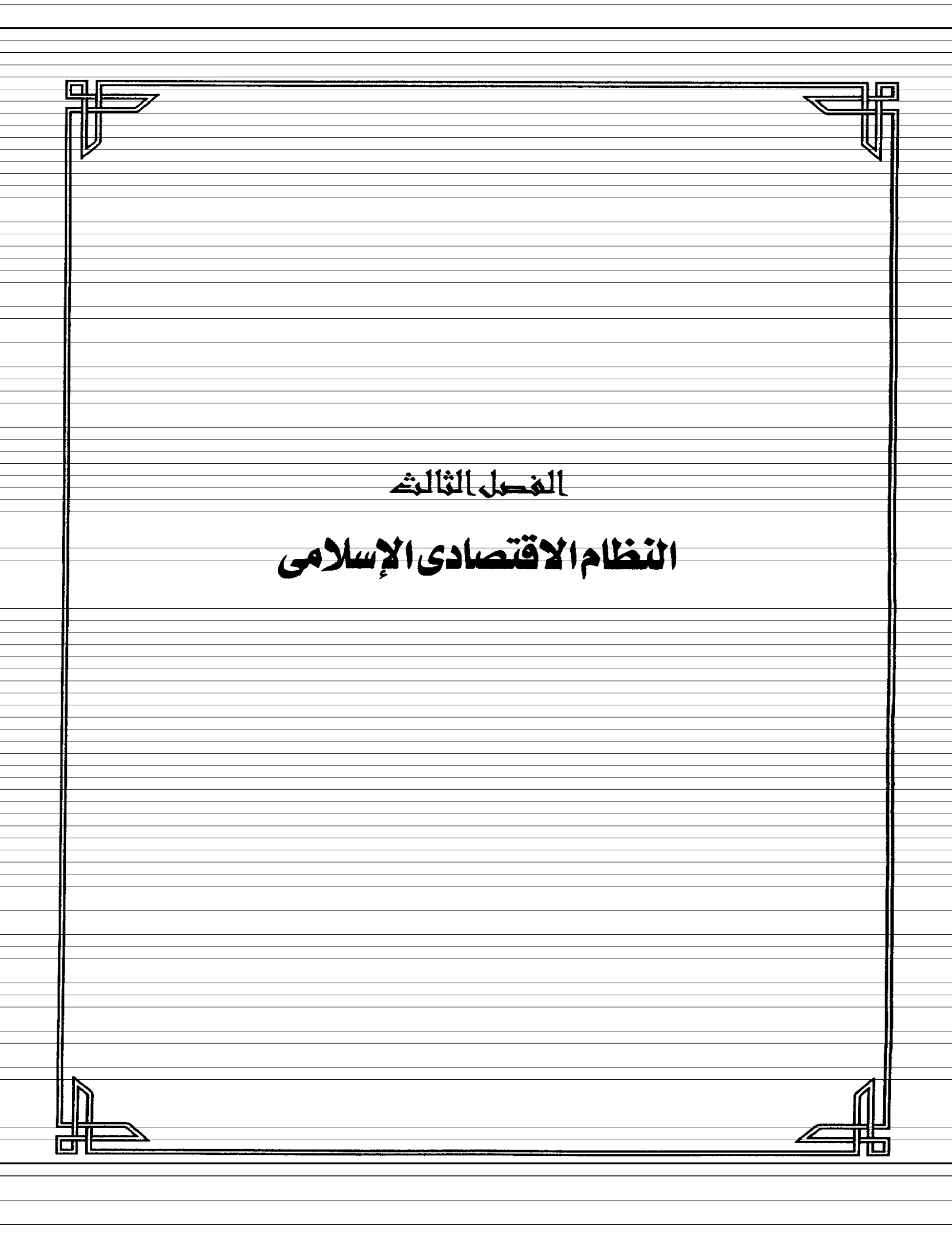
* هذه العلاقة بين المسلمين وغيرهم من غير المسلمين، وردت فيها آيتان كريمتان هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

* ويفهم من الآية الأولى أن الذين لا يقاتلون المسلمين فى الدين لا ينهى الله تعالى المسلمين من أن يبروهم -والبر حسن المعاملة والإكرام-، ويقسطون إليهم أى يعدلون معهم ويعاملونهم بمثل ما يعاملونهم من التقرب، لأن معاملة أحدٍ بمثل ما عامل به من العدل والإقساط.

وقال الطبرى رحمه الله تعالى: بر المؤمن بمن بينه وبينه قرابة من أهل الحرب، أو بمن لا قرابة بينه وبينه غير محرَّم إذا لم يكن فى ذلك دلالة على عورة لأهل الإسلام. والآية الثانية تنهى المؤمنين من موالاة الذين قاتلوهم فى الدين وأخرجوا المسلمين من ديارهم أو عاونوا على ذلك، ومن تولاهم فقد ظلم نفسه وظلم المسلمين واعتدى على حق من حقوق الله إذ نهى الله تعالى عن ذلك.

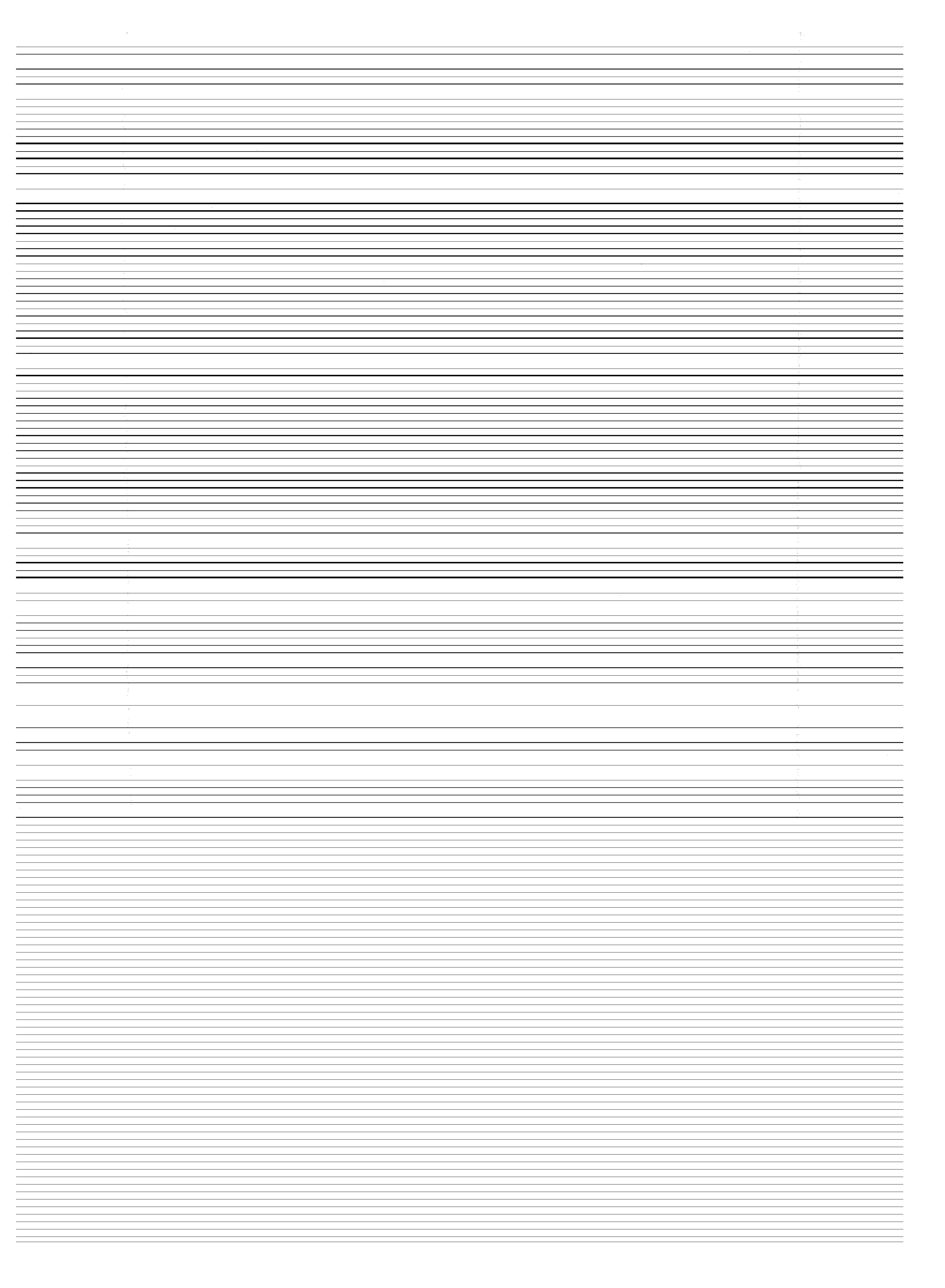
ومع قول الله تعالى الواضح الصريح فى بر من لم يقاتلوا المسلمين فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم وفى الإقساط إليهم مالا يقبل كلام المغالطين ولا المغالين.

وبهذا الكلام القرآنى تعرف معاملة المسلمين لغير المسلمين وتبطل دعاوى الحاقدين المضللين.



الفصل الثالث

النظام الاقتصادى الإسلامى



النظام الاقتصادى الإسلامى

هو نظام يقوم على القيم الإسلامية لُبّاً وجوهراً، وعملا وتطبيقا فى حياة الناس من بدايتها إلى نهايتها.

وكما يقوم النظام الاقتصادى الإسلامى على القيم الإسلامية؛ فإنه يتخذ أسسه ومبادئه وتعاملاته وتطبيقاته من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وسيرته، وما يجرى فى المجتمع الإسلامى من إجماع لعلماء المسلمين على فعل شيء أو تركه، وما يلجأ إليه أهل العلم والفقه من قياس، أو ما يرون فيه مصلحة مرسلة تجلب للناس نفعًا أو ترد ضررا عاما يُدْفَع عن الناس.

والاقتصاد الإسلامى بهذه المرونة قادر على مواكبة المتغيرات فى حياة الناس الاقتصادية، وعلاج مشكلاتها مهما كانت مزمنة أو شائعة كالربا والغش والاحتكار للسلع أو الخدمات، فهو بنظامه يحارب ذلك كله ويمنعه من الظهور، ويأخذ على أيدى من يمارسونه.

وهذه الأسس المستمدة من تلك المصادر قادرة على تحقيق الأهداف النبيلة للاقتصاد الإسلامى.

وفى مقدمة هذه الأهداف النبيلة الإنسانية، تحقيق العدالة بكل معنى من معانيها، وبكل نوع من أنواعها؛ لكى يعيش الناس فى أمن اجتماعى وسياسى واقتصادى ونفسى وعقلى وعلمى وفنى، مما يمكنهم من التعبير عن أفكارهم وعواطفهم بحرية لا يخشون فيها لومة لائم، ولا يخافون بطش جبار متكبر؛ لأن الإسلام يتيح حرية التعبير عن ذلك كله، ما دام هذا التعبير لا يغضب الله تعالى أى لا يخالف القيم الإسلامية، وما دام لا يحمل ضررا بأحد. وليس فى النظام الإسلامى الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى قبول بحاكم باطش يكمم الأفواه، ويحمل الناس على أن يفكر لهم ويعبر عنهم.

وليس فى المجتمع المسلم مواطنون يصفقون لكل ما يفعله الحاكم، وينافقونه حين يفدونه بالروح أو الدم، أو يرون فيه الزعيم الأوحد أو الخالد أو الذى لا يسأل أمام أهل الحل والعقد، بل أمام الناس جميعا.

وبعون من الله تعالى سوف نتحدث فى هذا الفصل فى ثلاث نقاط:

- الاقتصاد والقيم الاقتصادية.
- والأسس التى يقوم عليها الاقتصاد الإسلامى.
- وأهداف النظام الاقتصادى الإسلامى.

سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

أولاً: الاقتصاد والقيم الاقتصادية.

الاقتصاد هو: التوسط في السلوك عمومًا، وفي الإنفاق خصوصاً أي البعد عن الغُلو والتفريط، والبعد عن الإسراف والتقتير.

والاقتصاد في عمومه نوعان: أحدهما: محمود مطلقا، وهو ما كان وسطا بين الإفراط والتفريط، كالجود الذي هو بين الإسراف والبخل، والشجاعة التي هي بين التهور والجُبْن.

والآخر: يُكْنَى به عما يتردد بين المحمود والمذموم، كالذي يقع بين العدل والجور، وفي الحديث الشريف **«لا عال من اقتصد»**

* وأشد ما يرتبط الاقتصاد -في زمننا هذا- بالتجارة وما يتفرع عنها من معاملات.

فقد روي أحمد بسنده عن قيس بن أبي غرزة -رضي الله عنه- قال: كنا نسمى السماسرة على عهد رسول الله ﷺ، فأتانا بالبقيع فقال: **«يا معشر التجار»؛** -فسمانا باسم أحب من اسمنا- **«إن البيع يحضره الحلف والكذب؛ فشوبوه**[1] **بالصدقة»**.

وروى أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: ذُكر لرسول الله ﷺ رجال يجتهدون في العبادة اجتهاداً شديداً فقال: **«تلك ضراوة الإسلام وشرّته، ولكل ضراوة شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى اقتصاد وسنة فَلَأُم**[2] **مّا هو، ومن كانت فترته إلى المعاصي فذلك الهالك»**.

وروى أحمد بسنده عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ الهدْيَ الصالح والسَّمْت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»**.

* والاقتصاد بمعناه الذي ذكرنا أي السلوك الوسطي في القول والفعل، وفي الإنفاق، والدخول في ذلك برفق، الاقتصاد بهذا المعنى المحكوم بالقيم الإسلامية، يعالج كل قضايا الاقتصاد بمعناه المعاصر لنا، ويقضي في كل قضية منها بالعدل والصدق والشفافية، ويمهد للإنسان أن يعيش في مجتمع ينعم فيه بالحياة الإنسانية الكريمة التي تليق بتكريم الله تعالى للإنسان.

-أما القيم الاقتصادية فهي: القيم الإسلامية العامة، التي تحكم النظام الاقتصادي بكل مستوى من مستوياته، وبكل توجه من توجهاته الاجتماعية والسياسية وغيرهما.

(١) أي اخلطوه واجمعوا الصدقة.

(٢) أي من كان كذلك فهو قد رجع إلى أصل.

وهذه القيم الاقتصادية فى مجموعها هى:

١- التوسط والاعتدال عموما، لأن ذلك من صميم ديننا ومن خصائصه.

٢- وتطبيق العدالة بين الناس فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، وبخاصة فيما يتصل بالمال والتجارة والربح غير الفاحش أو المغالى فيه.

٣- وتأمين العمل لكل قادر عليه، بحيث يتلاءم الجهد فيه مع الأجر، ، ومع عدد الساعات اليومية للعمل، ومع مدة الراحة الأسبوعية من العمل.

٤- والحث على الإنتاج مع تطوير آلياته ووسائله، وتنوعه ما بين السلع والخدمات، مع أخذ عنصر التنافس فى الاعتبار.

٥- وأن يكون الإنتاج فى أى مجال من مجالاته صناعة أو زراعة أو تعدينا أو صيدا، أو تجارة، أو تربية للطيور والدواجن والحيوانات والأسماك، أن يكون جيدا، وعلامة جودة الإنتاج أن يكون محققًا للربح بالنسبة للمنتج، وللإشباع بالنسبة للمستهلك.

٦- وأن يتناول الإنتاج كل ما فى الوطن من مصادر للثروة أو الطاقة، ومن مقدرات اقتصادية عديدة بحيث لا يترك من المصادر شىء أو يهمل أو يساء استغلاله، أو تحتكره فئة من المجتمع عن طريق المجاملة.

٧- وأن تترك الملكية للمصانع والمزارع حرة يملكها من يقدر على ملكها وعلى استثمارها، وأن يحظر الاستيلاء على أملاك الناس لأهداف سياسية أو فئوية أو عرقية أو دينية، لأن الإسلام يحظر ذلك، ولأن تجارب الشيوعية والاشتراكية وما صاحبهما من عدوان على ملكيات الناس أثبتت فشلها الذريع وانهارت مبادئها ودعاياتها وتساقطت فى عُقر دارها كأوراق الشجر فى الخريف والشتاء.

* وهذه الأهداف كل منها تحميه مجموعة من القيم الإسلامية وتدعمه، وتكتب له شهادات الصلاحية وتضمن له الاستمرار فى تحقيق العدالة بمعناها العام.

وتلك القيم الحاكمة الحامية لهذه الأهداف لا تخفى على كل من ينظر فى دين الإسلام نظرة موضوعية محايدة، فسوف يجد هذه القيم الحاكمة الحامية هى:

- الصدق،

-والأمانة، والوفاء،

- والعدل، والإنصاف،

-والإحسان بمعانيه كلها،

- والشفافية،

-والاستقامة على الحق والالتزام به،

- والمبادرة إلى فعل الخير فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد وسائر المخلوقات.

* ومجموع هذه القيم والتمسك بهـا ينفى عن المجتمع قيمًا رذلة هابطة نهى الله تعالى عن التمسك بها أو الاقتراب منها، وهى:

- الكذب، بكل أنواعه ما عدا ما استثنى منه وهو ثلاثة مواقف معروفة هى: الصلح بين متخاصمين، وخديعة حرب، وكلام أحد الزوجين للآخر من أجل ترضيته.

- والخيانة بكل أنواعها، والغدر ونقض العهد والميثاق.

- والظلم بكل أنواعه وفى جميع أحواله، وانتهاك الحقوق أو انتقاصها.

- والإهمال وترك الإجادة، وتجاهل المحاويج، والتراخى فى عبادة الله تعالى.

- والغش والخداع والخلابة والتدليس والتزوير.

- واضطراب السلوك وضعف الأخلاق، والالتجاء إلى الباطل، وإهمال التمسك بالحق.

- والتوانى أو الأمتناع عن فعل الخير أو المبادرة إلية فى سلوك الإنسان نحو غيره.

* وهذه القيم المحمودة لكى تُلتزم أو المذمومة لكى تُجتنب قيم ثابتة في مجالات الاقتصاد، وتحكمها فى الاقتصاد أن تنميه وتثريه وتروجه وتعود دائمًا بالنفع والفائدة على الناس فى دنياهم وأخـراهم؛ لأنها قـيم نابعة أصـلا من الكتاب والسنة وهمـا مصـدرا الأمر بكل معروف والنهى عن كل منكر فى كل زمان ومكان.

ثانيا: الأسس التى يقوم عليها الاقتصاد الإسلامى

هذه الأسس عديدة وكل منها هام وفاعل فى بابه، ولا أدعى أنى سأذكرها كلها فى هذا المجال مـن الكتاب، ولكننى سـأذكر منهـا ما فـيه غناء ودلالة تاركـا الإستـيعـاب للكتب المتخصصة وهى كثيرة فى هذا المجال.

* والذى أحب أن أؤكده هنا، أن هذه الأسس التى سأذكرها، وتلك الأسس التى سأمسك عن ذكرها؛ تجمع بينها جميعا صفتان رئيستان هما:

- إسلامية هذه الأسس.

- وإنسانيتها.

* أما إسلاميتها فلأن هذه الأسس نابعة من مصدَرَى الإسلام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

* وأما إنسانية هذه الأسس، فلأن كل ما فى الإسلام من نظم -ومنها النظام الاقتصادى الإسلامى- يقوم على احترام إنسانية الإنسان؛ مع غض النظر عن لونه أو عرقه أو لغته أو ثقافته أو دينه، ما يختلف على ذلك أحد ممن يعرفون الإسلام ويدركون أهدافه.

* فما هذه الأسس الإسلامية الإنسانية التى يقوم عليها الاقتصاد الإسلامى؟

سوف أذكر منها سبعة من الأسس أرى فى ذكرها الوفاء بما أريد بإذن الله تعالى، وهى:

الأساس الأول:

تحريم الربا بكل صوره؛ لأنه عمل غير إنسانى بكل تأكيد: الربا يقوم على سوء استغلال حاجة الإنسان؛ بالعمل على زيادة حاجته بإلزامه بدفع أكثر مما أخذ أو اقترض، وذلك عمل غير إنسانى ولا يجيزه الإسلام وإنما يحرمه ويجرمه ويعاقب عليه.

- والربا أنواع ثلاثة، كل منها محرم إسلاميا وإنسانيا وهى:

*** ربا الجاهلية:**

وكانوا يتعاملون به فى الجاهلية التى سبقت ظهور الإسلام وهو أن يأخذ المقرض من المقترض زيادة على القرض الذى أداه له، من أجل أن يؤخر له أداء ما عليه.

*** وربا الفضل:**

وهو زيادة فى أحد العوَضَيْن فى بيع الصّنف بصنفه! كالذهب بالذهب والفضة بالفضة، والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر والملح مُدّاً بمُد، فمن زاد أو استزاد فقد أربَى.

ولا بأس ببيع الذهب بالفضة يَداً بِيَد، وأما النسيئة فلا.

*** وربا النسيئة:**

وهو بيع شىء من تلك الأصناف التى ذكرنا بمثله مؤخراً، مع مقابل للتأخير.

- وإنما كان الربا بكل أنواعه محرَّمًا فى الإسلام، وكان تحريمه أساسا من أسس النظام الاقتصادى الإسلامى، لما فى التعامل بالربا من أضرار عامة وأضرار اقتصادية نذكر منها:

١- أن الربا يحرم الناس من فضيلة مواساة الغنى للفقير، وتعاونهم وسعى بعضهم فى حاجة بعض، وتفريج بعضهم لكرب غيرهم، وكل تلك فضائل دعا الإسلام للتحلى

بها، والربا يقضى على هذه الفضائل ويجعل الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان يأكل ماله وجهده بغير وجه حق، بل يحرم الإنسان المسلم من لذة الشعور بأنه دفع الحاجة عن أخيه، وهى لذة تسهم فى بناء الشخصية المسلمة السوية الإيجابية الفاعلة.

٢- وأن الربا بالنسبة للمقرض يباعد بينه وبين العمل والاستثمار، إذ يكتفى بالإقراض وجنى فوائد الربا، وفى هذا تعويق بل تعطيل للاقتصاد فى المجتمع لأنه يقوم على العمل والحركة من أجل الاستثمار.

وبالنسبة للمقترض يحمله الربا عبئا إضافيا فوق أعبائه التى جعلته يقترض، وفى هذا ظلم له وتجاهل لظروفه، مما يسرع بتحوله إلى كاره للمقرض وللمجتمع الذى سمح بذلك.

فقد خسر الاقتصاد والعمل فى مجالاته المقرض والمقترض معًا!!

٣- وإذا كان الاقتصاد يقوم على حركة رأس المال وتداوله فإن الربا يجمد مال المقرض ويعوق حركته، ويمنعه من الإسهام فى البيع والتجارة والإسهام فى المشروعات الصناعية والزراعية وغيرهما.

والمجتمع الذى يحرم فيه عدد من المقرضين من الإسهام فى تنمية مشروعاته وترويج أمواله واقتصاده، مجتمع يسىء إلى بعض أبنائه بسبب هذا الربا، ومن أجل هذا حرم الإسلام الربا، واعتبره من معوقات الحياة الاقتصادية الصحيحة.

٤- والتعامل بالربا، يحقق فى المجتمع ضررين بالغين:

أحدهما: أن المقرض يأخذ من المقترض مالاً أزيد مما أعطاه، يأخذه بغير عوض من عمل أو جهد، وهذا مما حرم الإسلام من أجله الربا.

والآخر: أن المقترض -وهو فقير- يضاف إلى فقره عبءُ فائدة ظالمة يضطر إلى أدائها، وفى غالب الأحيان لا يستطيع المقترضُ أداء تلك الفائدة فتتفاقم عليه المتاعب والمشكلات.

٥- وأن الربا بكل أنواعه خارج عن وسائل الكسب المشروعة التى يقرها الإسلام، وهى:

* العمل وما يترتب عليه من أجر، وما يفضى إليه من تحريك القوى العاملة فى المجتمع فى اتجاه الإنتاج للسلع أو الخدمات.

* والتجارة.

* والزراعة.

* والصناعة.

* وتقديم الخدمات، وغير ذلك من وسائل الكسب المشروعة فى الإسلام.

والأساس الثانى:

تحريم الغِشّ بكل أنواعه، سواء أكان غشا بالكلام أم بالصمت أم بالعمل والسلوك، أم بالنصيحة غير المخلصة.

– والغش – كما هو معروف– هو تزيين غير المصلحة أو تقبيح المصلحة والتنفير منها، إذ هو إظهار خلاف ما فى الباطن، أو إضمار ما حقه أن يظهر..

– ويدخل فى الغِش أعمال كثيرة مثل:

* التدليس وهو فى مجال الاقتصاد: إخفاء عيب فى السلعة، أو تحسينها وهى ليست بحسنة.

* والخداع أو الخديعة أو الخلابة، وكل ذلك يعنى أن يُظهر فى السلعة خلافَ ما يخفيه.

* وترويج السلعة بالحَلِف.

* وترك المناصحة.

* والنجش أى إظهار رغبته فى شراء السلعة وهو لا يريدها وإنما لكى يزيد سعرها، وذلك غش محرَّم.

* وبيع العينة، وهو أن يبيع شيئًا بثمن مؤجل ويسلم هذا الشىء لمن اشتراه، ثم يشتريه منه بثمن عاجل أقل مما باع به، وهو غش وفيه ربا.

وتحريم الغش بكل أنواعه إنما هو دعم للاقتصاد وترويج لمجالاته العديدة، وزرع للأمان فى نفوس المتعاملين.

والأساس الثالث:

تحريم الحُكْرة أو الاحتكار:

والاحتكار هو جمع السِّلَع لينفرد بالتصرف فيها، وجمهور العلماء يرون حرمته فى

الطعام لأنه من أقوات الناس. والإمام مالك والثورى يقولان: الاحتكار فى الطعام وفى غيره من السلع، وينفرد مالك برأى يعمم فيه الاحتكار فيمنع احتكار الكتان والصوف والزيت وكل شيء يُضر بالسوق.

وفى الحديث: **«لا يحتكر إلا خاطىء»** رواه أبو داود بسنده عن معمر بن أبى معمر - رضى الله عنه.

وروى أحمد بسنده عن عمر -رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من احتكر عن المسلمين طعامهم؛ ضربه الله بالإفلاس أو بجذام»**.

وروى ابن ماجة بسنده عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الجالب مرزوق والمحتكر ملعون»**.

والأساس الرابع:

تحريم بيع الغَرَر:

وبيع الغَرَر هو: بيع ما يجهله المتبايعان، أو بيع ما لا يُوثَق بتسلمه لأنه غير موجود أثناء البيع، أوغير معروف للمشترى.

ويدخل فى هذا البيع عدد من البيوع المنهى عنها مثل:

- بيع المنابذة: بأن يقول البائع للمشترى: إذا نبذت إليك هذا الثوب -مثلا- فقد وجب البيع.
- وبيع الملامسة: كأن يشرط البائع على المشترى أنه إذا مس السلعة فقد وجب البيع.
- وبيع الحصاة: بأن يقذف حصاة ويقول للمشترى: بعتك ما تصل إليه الحصاة.
- وبيع السنين: أى بيع ما تثمره النخلة أو النخلات المعينة فى سنين عديدة، وكذلك بيع المعاومة أى ما تنتجه الشجرة فى عام.
- وبيع الثمار قبل أن يبدو صلاحها.

وغير ذلك من البيوع -وهى كثيرة- ما دام فيها جهل بالمبيع أو عجز عن تسليمه للمشترى.

وكل هذه البيوع تلحق ضرراً بالغًا بأموال الناس فتؤثر فى الاقتصاد تأثيراً سلبيًا، وكل ذلك حرّمه الإسلام، ووردت فى تحريمه أحاديث نبوية شريفة(١).

والأساس الخامس:

أمْر المسلمين بالتسامح فى البيع والشراء:

نظام الإسلام عموما ونظامه الاقتصادى على وجه الخصوص، يدعو المسلمين إلى التسامح فى التعامل عموما وفى المعاملات التجارية خصوصا، فالاقتصاد ومجالاته كلها فى الإسلام مبنية على السماحة فى البيع والشراء وسائر المعاملات الاقتصادية.

روى ابن ماجة بسنده عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أدخل الله رجلاً الجنة؛ كان سهلاً بائعًا ومشتريًا»**.

وروى ابن ماجة بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رحم الله عبداً سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى»**.

وروي أبو داود بسنده عن أبى رافع رضى الله عنه، قال: استَسْلف رسول الله ﷺ بكراً(٢)، فجاءته إبل من الصدقة فأمرنى أن أقضى الرجل بكرة، فقلت: لم أجد فى الإبل إلا جملا خيارا رَبَاعيا، فقال النبى ﷺ: **«أعطه إياه فإن خيار الناس أحسنهم قضاءً»**.

وروى أبو داود بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الحَلِفُ منفقة للسلعة، ممحقة للبركة»**.

والأساس السادس:

حسن التعامل مع الناس فى كل المعاملات:

وتلك قيمة إسلامية تجعل حياة الناس سهلة ميسورة خالية من الصراع والخلاف والتعادى، وأوضح ما يكون حسن التعامل الذى أمر به الإسلام عندما يلتزم الناس بقيم الإسلام من مودة ورحمة وتعاون وتناصر، مما ينتج عن التمسك بهذه القيم من عون الغنى للفقير، والقوى للضعيف، وصاحب الجاه والسلطان لمن ليس له جاه ولا سلطان.

والحياة الاقتصادية التى تُعبر فى مجالاتها العديدة اختبارا حقيقيا لتأمين حاجة المحتاج ودفع الضرر عمن يتعرض لوقوع الضرر به، وهى التى تسهم فى ترسيخ قيمة العمل فى

(١) انظر: كتاب البيوع فى الكتب الستة للسنة النبوية، ففيها عشرات الأحاديث النبوية الشريفة.

(٢) البكر: الصغير عن الإبل، والرباعى الذى أتت عليه ست سنين ودخل فى السابعة.

المجتمع، وتدعم التعاون بين الناس، وتنمى خلق التراحم والتكافل بين الناس، ومن خلال هذه الحياة الاقتصادية يعمر الإنسان -بعمله وعمله وماله- الأرض من حوله زراعة وصناعة وتجارة وإنتاجا.

والأساس السابع:

الأمر بالصدقات والإنفاق فى سبيل الله تعالى:

المعروف عن العاملين بالاقتصاد والتجارة وسائر المعاملات الاستثمارية أنهم يقيمون وزنا كبيرا للمال، ولا يسرفون فى إنفاقه بل يوظفونه ليجلب لهم أرباحا.. غير أن المسلمين من هؤلاء المتعاملين مطالبون بأن ينضبطوا فى جمعهم للأموال وألا ينسوا الفضل بينهم، لذلك طالبهم الإسلام بعملين هامين فى الحد من غلواء جمع المال هما:

أولا: أداء الصدقات بكافة أنواعها.

والثانى: والإنفاق فى سبيل الله تعالى- الجهاد فى سبيل الله-.

والذى يجود بماله فى هذين المجالين يسهم فى بناء المجتمع المسلم وتأمينه من داخله بمقاومة الفقر والحاجة، وتأمينه من خارجه بالإعداد والاستعداد لرد عدوان الذين يريدون بالمجتمع شراً من الأعداء.

الأول:

* أما الصدقات التى فرضها الإسلام أو ندب إليها، وحبب فيها، فنحن نعرف أن كل نفس من المسلمين كُتب عليها الصدقة[1]. فما بالنا بمن عمله فى المال والتجارة والاستثمار؟

* وانتشار خلق الصدقات تطهير وتزكية للمتصدق، وإذهابٌ لروح الكراهية والحقد من المتصدَّق عليه، ومعنى ذلك انحسار الجريمة بكل أنواعها، وذلك من أسباب استقرار المجتمع وزرع الأمن فى كل أفراده.

* ومن أنواع الإنفاق عموما:

١- إنفاق المال فى وجوهه المشروعة وعدم كنزه:

وفى ذلك آيات كريمة وأحاديث شريفة منها:

- قال الله تعالى: ﴿... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ

(١) رواه أحمد بسنده مطولا عن أبى هريرة رضى الله عنه.

الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

- وقال جل شأنه: ﴿ ... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]

- وروى البخارى بسنده عن أنس -رضى الله عنه- قال: كان أبو طلحة من أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبُّ أمواله إليه -بير حاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب- قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن الله تعالى أنزل عليك: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلىّ «بير حاء» وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى؛ فضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى. فقال رسول الله ﷺ: «بخ ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قُلتَ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه.

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى، ومَن يستعفف يعفه الله، ومَن يستغن يغنه الله»

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «ما منْ يوم يصبح العباد فيه، إلا ملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفًا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفًا»

٢- وإنفاق المال فى الصدقات خصوصا:

وفى ذلك نصوص إسلامية عديدة نذكر منها:

- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

- قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

- وروى الترمذى بسنده عن سلمان بن عامر -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان؛ صدقة وصلة».

- وروى أحمد بسنده عن المنذر بن جرير عن أبيه -رضى الله عنه- قال: كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار فجاءه قوم حفاة عراة مجتابى النمّار -أو العباء- متقلدى السيوف، عامتهم من مضر بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ، لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذّن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقرأ الآية التى فى الحشر: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة»، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفّه تعجز عنها بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فى الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينتقص من أجورهم شىء، ومَنْ سَنَّ فى الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده، من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء».

- وروى أحمد بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا تصدَّق من طيب، تقبلها الله منه وأخذها بيمينه وربّاها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو فى يد الله -أو قال: فى كف الله- حتى تكون مثل الجبل، فتصدّقوا».

والثانى: إنفاق المال فى سبيل الله تعالى.

وسبيل الله تعالى يشمل الجهاد فى سبيله، ويشمل القتال فى الجهاد، ويشمل الإنفاق فى إعداد العدة والسلاح، ويشمل تخذيل العدو وإرهابه ليكف عن قتال المسلمين.

* وكل تلك الأعمال تدعم أمن المجتمع وترد عن الناس أعداءهم فيطمئنوا على حاضرهم ومستقبلهم، وهى أعمال ترضى الله تعالى ويثيب عليها أجزل الثواب.

* وهذا الإنفاق فى سبيل الله بمعناه الواسع الذى سنوضحه بعد قليل، من شأنه أن يحدث حركة ورواجا فى التعامل أى فى الحياة الاقتصادية كلها.

- السبيل نوعان:

* سبيل الحق والعمل على إحقاقه، ونشر الخير فى الناس وهو سبيل المؤمنين.

* وسبيل الباطل والشر، ونشرهما والرضا بهما، وهو سبيل الشيطان، وسبيل غير المؤمنين.

* فكل عمل صالح ينشر الخير ويحسم الشر فهو عمل فى سبيل الله، فهو أعم من الجهاد. وقد غَلَبَ تعبير: «فى سبيل الله» فى اصطلاح الشرع على الجهاد بالنفس والمال والجهد وكل أنواع الحرب لأعداء الله تعالى.

وأنواع الجهاد فى سبيل الله يدخل فيها:

- الإعداء والاستعداد، إعداد النفس والبدن، والآلة العسكرية، وسائر أنواع العدة والعتاد.

- وإعداد العقول والتعمق فى العلوم التى لها صلة بأعمال الحرب والقتال.

- وتدريب المحاربين على ما يتطلبه منهم القتال من خطط ومهارات وعلوم وفنون قتالية عديدة.

- وإحباط العدو وإرهابه، وحصاره والهجوم عليه ومفاجأته، وما لا حصر له من وسائل الحرب والقتال التى يعرفها ويشير بها القادة العسكريون.

* وكل أعمال الحرب والقتال فى الإسلام محكومة بالقيم الإسلامية الإنسانية النبيلة، فلا يجوز فيها تعذيب الأسرى وإذلالهم وإهانتهم. كما تفعل قوات الغرب المتحالفة ضد المسلمين فى أفغانستان والعراق وغيرهما.

* ولا يجيز الإسلام -فى الحرب- اعتقال بعض الناس وزجهم فى السجون والمعتقلات، وعقابهم على نواياهم، وتركهم سنوات دون محاكمة.. كما تفعل القوات المتحالفة فى هذا العصر التعيس الذى نعيشه فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين، والتى جعلته أمريكا وحلفاؤها أحط العصور وأدناها فى انتهاك حقوق الإنسان، وحَدِّث فى ذلك عن سجن باجرام وأبى غريب وجوانتنامو ولا حرج، فقد مارست

فيه قوات التحالف أقذر أنواع التعامل مع البشر بإهانة أديانهم وإنسانيتهم وبلدانهم وحكومات هذه البلدان فى صور فاقت بشاعة الأعمال النازية والشيوعية والبلشفية ومحاكم التفتيش!!![1].

* والإنفاق فى سبيل الله تعالى معنى عام يدخل فيه كل ما ذكرنا من أنواع الحرب وفنونها، كما تدخل فيه مقاومة هذه الحروب الظالمة، ويدخل كل عمل خير أو بر يرفع عن الناس ماهم فيه من بلاء وعناء.

وفى هذا الإنفاق والأعمال المتفرعة عنه عديد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، نذكر منها:

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

- وقوله جل شأنه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ -٢٢]

-وروى البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- قال: قيل يا رسول الله: أى الجهاد أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن مجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله..»

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «مَنْ أنفق زوجين فى سبيل الله؛ دعاه خزنة الجنة، كل خزنة باب: أى فُل»[2]. قال أبو بكر: يا رسول الله، ذلك الذى لا تَوَى عليه[3]. فقال النبى ﷺ: «إنى لأرجو أن تكون منهم».

- وروى البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «..إن هذا المال خضرة حلوة، ونعم صاحب المسلم؛ لمن أخذه بحقه، فجعله فى سبيل الله واليتامى والمساكين..»

---

(١) الحديث فى تفصيل ذلك مؤلم لكل إنسان، ما عدا الذين شرطوا لجنودهم أو وحوشهم الضارية حصانة تمنع محاكمتهم فى خارج بلادهم بوصفهم مجرمى حرب بما قاموا به من أعمال وحشية ضد النساء والأطفال والمدنيين، ونحن نكتب هذا الآن فى منتصف عام ٢٠٠٦م والمجازر ماثلة أمام عيوننا فى كثير من وسائل الإعلام!!!

(٢) ترخيم لفلان. (٣) التَّوَى: الهلاك.

وبعد:

فإن إنفاق المال فى وجوهه، وعدم كنزه، وإنفاقه فى الصدقات وأعمال البر والخير، وإنفاقه فى سبيل الله تعالى؛ حركة للمال راشدة، تُحدث رواجا اقتصاديا بما تتيحه من قدرات على المعاملات من بيع وشراء وتجارة وإجارة، وإنتاج لمزيد من السلع والخدمات وترويج لها، كما تُحدث أمنا للمجتمع من أعدائه المتربصين به، وفى كل ذلك أمن للناس جميعا يمكنهم من العمل والإنتاج ويحقق لهم الأرباح ويباعد بينهم وبين الفقر والحاجة وهذا هو لب الاقتصاد الإسلامى وجوهره.

وهذا هو الأساس السابع -فى تصورى- من الأسس التى يقوم عليها الاقتصاد الإسلامى الذى تحكمه دائمًا القيم الإسلامية النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ثالثًا: القيم الإسلامية التى يدعمها الاقتصاد الإسلامى:

لا يسمى الاقتصاد إسلاميا إلا إذا دعم عدداً من القيم الإسلامية وحافظ عليها، وتلك القيم هى:

١- دعم الحقوق والمحافظة عليها:

كل عمل اقتصادى إسلامى يقوم على احترام حقوق الإنسان؛ دمه، وعرضه، وماله، وما يملك من أشياء، ونصره ظالما بكفّه عن الظلم، ونصره مظلوما بالدفاع عنه، بهذا وردت النصوص الإسلامية فى الكتاب والسنة، ونذكر منها:

-قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ**﴾ [الحج: ٣٠].

وحرمات الله تعالى هى كل ما أمر به فأطيع فيه، وكل ما نهى عنه فاجتنب.

- وروى البخارى بسنده عن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال: «**..ألا إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا. ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد**»

- وروى البخارى ومسلم بسنديهما عن عائشة -رضى الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**من ظلَم قِيدَ شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**»

- وروى مسلم بسنده عن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى - رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرّم عليه الجنة**» وقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله، فقال: «**وإن كان قضيبا من أراك**».

* ولا يكون للظلم وهضم الحقوق وانتقاصها طريق أوسع من طريق التجارات والبيع والشراء، أى التعاملات الاقتصادية، ولذلك حرص النظام الإسلامى على أن يقوم الاقتصاد الإسلامى على القيم الإسلامية.

٢- والمبادرة إلى رفع الحاجة والضرر عن الناس:

وقد سمى الإسلام ذلك مبادرة إلى فعل الخيرات بجلب المنفعة للناس ودفع المضرة عنهم، وأوسع مجال لذلك هو التعامل مع الناس بالدينار والدرهم فيما تتطلبه حياتهم اليومية، والأعمال الاقتصادية كلها تتيح للمتعاملين فيها أن يجلبوا للناس المنافع وأن يدرأوا عنهم المضار والشرور.

وفي هذا الخلق والقيم التى تحكمه آيات من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نذكر منها:

- قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]

- وقال جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١].

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فِتَن كقطَع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنا، ويمسى كافرا، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**

- وروى مسلم بسنده عن جابر -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **« ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرق منه له صدقة، ولا يرزأوه أحد إلا كان له صدقة»**

وفى رواية أخرى لمسلم عن جابر أيضا -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«.. فلا يغرس المسلم غرسا، فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة»**.

- وروى ابن ماجة بسنده عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا ضرر ولا ضرار»**.

- وروى ابن ماجة بسنده عن أبى صِرمة -رضى الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: **« مَنْ ضارّ أضرَّ الله به، ومَنْ شاقّ شق الله عليه»**.

٣- والعفة فى التعامل:

وعفة اليد عن الحرام وعما فيه شبهة من أهم القواعد التى تقوم عليها المعاملات بين الناس فى البيع والشراء وكل ما يتعلق بالتجارة.

وعفة اليد عن الحرام والغش والتدليس والضرر بكل أنواعه، إنما تتبع عفة القلب والنفس، وتؤدى إلى عفة الجوارح كلها كالعين والأذن واللسان.

والمجتمع الذى تسوده قيمة العفة فى اقتصادياته هو المجتمع الآمن المطمئن، العامل المنتج، المحافظ على حقوق غيره، مجتمع التاجر الصدوق الأمين.

* والاقتصاد الإسلامى لا ينتعش ولا يروج إلا إذا أحيطت كل أعماله بالعفة والورع، وبذلك وردت كلمات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ونذكر من ذلك:

- قال الله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ [آل عمران: ١٤]

- وقال جل وعلا: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [الحديد: ٢٠].

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطى رضى وإن لم يُعط لم يرض**».

- وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا منْ لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيَتْ حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار**».

٤- وغرس التعاطف والتراحم بين الناس:

الاقتصاد الصحيح المنضبط مع القيم الإسلامية يغرس بين الناس الحب والتواد والتراحم والتعاطف، ويرفض تماما كل عمل من شأنه أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان فيأخذ منه

جهدا أو مالا بغير رضاه، أو يحرمه من مال كان هو أولى به لأنه أدى فى مقابله عوضًا من مالٍ آخر أو جهد أو عمل.

وأبرز ما يكون الالتزام بذلك فى التعاملات الاقتصادية التى يحرّفها بعض الناس لصالحهم، وإن هزّتْ روح التعاطف والتراحم بين الناس.

* والنظام الإسلامى كله والنظام الاقتصادى بوجه خاص يقوم على غرس التعاطف والتراحم بين الناس، وقد دلّتْ على ذلك آيات القرآن الكريم وأحاديث النبى ﷺ، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]

- وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:

«كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس:

تعدل بين الاثنين صدقة،

وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة،

والكلمة الطيبة صدقة،

وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة،

وتُميط الأذى عن الطريق صدقة».

-وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذى نفسى بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».**

- وروى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا حَسَدَ إلا فى اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكَته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».**

رابعا: أهداف النظام الاقتصادى الإسلامى:

النظام الاقتصادى الإسلامى كغيره من النظم الإسلامية العديدة لابد أن تكون أهدافه إنسانية نبيلة ترفع من شأن الإنسان، وتؤمّن له سعادة الدنيا والآخرة.

- أما أهداف النظام الاقتصادى الإسلامى، فلابُدّ أن تكون أدخل فى حياة الناس اليومية، وأقدر على حل جميع مشكلاتها، والتعامل مع هذه المشكلات تعاملاً لا يضاهيه تعامل، بل لا يقاربه تعامل، لسبب واضح هو أن القيم التى تحكم الاقتصاد الإسلامى - كما أشرنا آنفًا- قيم نابعة من القرآن الكريم الذى يهدى الإنسانية كلها للطريق وللطريقة التى هى أقوم، ومن السنة النبوية المطهرة التى تدور مع القرآن حيث دار، وتفسر وتفصل وتضيف.

- ولأن الله تعالى ينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. ولأنه سبحانه صرف فى هذا القرآن للناس من كل مثل، وعلم القرآن، ويسّره للذكر، وفصّل آياته تفصيلا، ولم يجعل لكتابه عوجا، بل جعله قيّما لينذر ويبشر، وضرب فيه من كل مثل، وبيَّن فيه وفصَّل، وجعله نورا وهدى للناس..

لكل ذلك ولغيره مما لم نذكر كان القرآن الكريم وسنة النبى الخاتم ﷺ -ومازالا، وسيظلان- قادرين على حل مشكلات الإنسانية كلها فى كل زمان ومكان لا يضاهيهما فى ذلك نظام كائنا ما يكون.

* ولهذا النظام الاقتصادى الإسلامى أهداف كبيرة نبيلة إنسانية، نذكر منها:

الأول: تحقيق العدالة بين الناس فى كل ما يتصل بالمعاملات بين الناس، بحيث لا يجور أحد على أحد، ولا يحابىَ أحد على حساب أحد، وإنما هو العدل الذي أمر الله تعالى به وقرنه بالإحسان.

والعدالة الاقتصادية تسهم فى بناء العدالة الاجتماعية لأن معظم الخلل فى تطبيق العدالة يكون بسبب الخلل فى تطبيق النظام الاقتصادى الإسلامى.

الثانى: وتنظيم كل ما يتصل بالاقتصاد تنظيمًا دقيقًا شاملاً فى كل مفردات الاقتصاد ومتطلباته وآلياته، من إنتاج السلع والخدمات إلى عدالة توزيعها إلى العدل والإحسان فى التعاملات كلها، بحيث يعود الاقتصاد الإسلامى كله على الناس

جميعا بما يجلب لهم الخير فى الدنيا والآخرة، وبما يدفع عنهم الشر فى الدنيا والآخرة.

الثالث: تنظيم كل مجالات الحياة الاقتصادية فى المجتمع بحيث لا تُترك فى هذا التنظيم ثغرة ينفذ الخلل منها إلى حياة الناس وحاجاتهم.

ومن أجل الوصول إلى هذا التنظيم، اعتمد النظام الاقتصادى الإسلامى أُسُسا قوية فاعلة أقام عليها هذا النظام، فمن أين تنبع هذه الأسس؟

أسس هذا التنظيم نابعة من الكتاب والسنة، وهى:

١- رعاية العمل وتنظيمه، بحيث يستجيب فى نَوْعه وكَمِّه لمطالب الحياة اليومية للناس، والإشراف على أماكن ممارسة العمل كالمصانع ونحوها بحيث تفى بمتطلبات الجودة والأمْن، والقدرة على المنافسة.

٢- وتوفير فرص العمل لكل قادر عليه وباحث عنه، فى ظل احتياجات المجتمع، والوفاء بحاجات العاملين بحيث لا تهدد البطالة أحدا فى رزقه، أو تضطره إلى الانحراف أو ارتكاب الجرائم من أجل أن يعيش حياته الإنسانية الكريمة.

٣- وتوفير معاش للعاجزين عن القيام بعمل، إذ هم فى كفالة المجتمع -أى الدولة- وهو مسئول عنهم وعن أسرهم، من منطلق مقولة النبى ﷺ الخالدة التى جاءت وحيا من الله تعالى وهى: **«وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»** (١).

٤- وتنظيم ساعات العمل وأيام الراحة منه، وعدالة أجر العامل، والإشراف الفنى والإدارى على علاقة العامل بصاحب العمل، لرفع أى ظلم يقع على العامل، ولتلافى أى إهمال أو تقصير يقع من العامل، وكل ذلك من صميم قيم الإسلام كالعدل والإحسان والتجويد والإتقان.

٥- وتنظيم دقيق وشامل لكل ما له صلة بالحياة الاقتصادية بحيث يحقق العدل لكل الناس، وأبرز ما له علاقة بالحياة الاقتصادية هو:

- الملكية الخاصة للأفراد،
- والملكية العامة للدولة،

(١) رواه البخارى فى أبواب الجمعة والجنائز والاستقراض والوصايا والعتق والنكاح والأحكام، ورواه مسلم فى بابى الإمارة، وأبو داود فى الجهاد والإمارة، ورواه أحمد وغيره من أئمة الحديث النبوى الشريف.

- وسائر الممتلكات العقارية،
- والمقتنيات،
- والأموال السائلة،
- والأموال المستثمرة،
- والعمل والكسب،
- والادخار،
- والتنقل بالأموال والمقتنيات،
- والتأمين ونحوه.

تنظيم ذلك وسن قوانين تحكمه وتحقق به العدل وترفع الظلم، وتقاوم الفساد والانحراف، والرشاوى، وغير ذلك، مما يحقق أمرين جليلين هما:

- جلب المصالح للناس فى دينهم ودنياهم،
- ودرء المفاسد عنهم، ودفع كل ما يضرهم فى دنياهم وأخراهم؛ لأن قيم الإسلام كلها تقوم على جلب المصلحة ودفع المفسدة.

٦- وتنظيم الموارد الاقتصادية تنظيما يحقق فاعليتها والمحافظة عليها، وتنظيم ملكيتها والانتفاع بها وتطويرها وتحسينها.

وأهم هذه الموارد:

- الموارد الأولية الخام، كالتعدين وما يذخر به باطن الأرض من معادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها.
- والنفط والغاز بوصفهما مصدرين للطاقة.
- والثروة المائية كالبحار والبحيرات والأنهار والينابيع ومخزون المياه الجوفية.

٧- وتنظيم الثروة الزراعية، والصناعية، والتعدينية، والمائية، والسمكية، والأصداف واللآلئ ونحوها؛ تنظيما يحسّن من الطرق العلمية للتعامل معها، واستنباطها ووفرتها وكفاءتها، وجودة نوعها، وملاءمة كَمها.

٨- وتنظيم مصادر الثروة كلها واعتبار مرافقها العامة ملكًا للدولة لا يجوز بيعها لأحد الناس ولا لدولة من الدول وسَنّ القوانين المنظمة لذلك، مع حسن استثمارها لصالح الناس جميعا.

٩- وتنظيم دقيق عادل للخدمات التى تؤديها الدولة أو الشركات أو الأفراد، كالمواصلات برية وبحرية وجوية، والاتصالات بكل أنواعها، بحيث تضمن الدولة جودة الخدمة وملاءمة سعرها للراغب فيها، مع تيسير الحصول عليها.

١٠- وتنظيم التعليم بكل مراحله بحيث يتاح لأبناء الوطن جميعًا، مع الاهتمام الشديد بالمناهج والمعلمين وأبنية المدارس، وملاءمتها لأبناء المرحلة الذين يتعلمون فيها.

* مع مزيد من العناية بالتعليم الجامعى، بحيث يستهدف التعليم فى الجامعات النهضة العلمية ومواكبة احتياجات العصر الذى يعيشه الناس، وتكوين عدد من العلماء فى تخصصات عديدة تستجيب لجميع المتغيرات فى أى مجال من مجالات العلم.

* ومعاهد الأزهر الشريف وكلياته أو الجامعات التى تعنى بعلوم الشريعة الإسلامية وعلوم لغة القرآن الكريم -العربية- يجب أن تلقى من المجتمع؛ الحكام والعلماء والمفكرين أعلى درجات الاهتمام والرعاية وتأمين الاحتياجات العلمية والمادية، وهكذا كل بلد مسلم تقوم فيه جامعات أو معاهد علمية تضطلع بعلوم الشريعة وعلوم لغة القرآن الكريم.

* فالتعليم كله استثمار على أعلى الدرجات وأرفعها قدرا، وأجداها للأمة فى حاضرها ومستقبلها.

١١- وتنظيم الرعاية الصحية فى المجتمع بالاهتمام الملائم بالطب الوقائى وما يحتاج إليه من أطباء وأموال وآليات وأدوية وعقاقير ومشاف ودور رعاية لأصحاب الأمراض المستعصية، ونحوها.

* مع الاهتمام بالطب العلاجى وتأمين متطلباته من أطباء وأموال ومشاف وآليات..

* والاقتصاد يؤكد أن المواطن الصحيح الجسد والعقل أقدر على العمل والإنتاج، والإسهام فى تأمين احتياجاته الشخصية والأسرية، واحتياجات المجتمع كله، فرعاية الصحة استثمار جيد على كل حال.

* والوقاية من الأمراض وعلاج الأمراض والمرضى مسئولية الحكومة فى المجتمع المسلم، ويشاركها فى ذلك القادرون من الناس على الإسهام فى ترقية المجتمع المسلم وتأمينه بدفع الأضرار عنه.

* ومما يدخل فى الرعاية الصحية وقاية وعلاجا، توفير المسكن الصحى للمواطن، وتأمين المياه الصالحة للشرب، والمياه التى تروى بها المزارع؛ بشق الترع وإقامة الحدائق والمتنزهات وشق الطرق ورصفها، ومقاومة التصحر والجفاف، وتنقية البيئة من أسباب انتشار الأمراض والأوبئة وغير ذلك مما لم أذكره وهو كثير.

وبذلك يتأكد لدى العقلاء والعلماء والمفكرين والسياسيين والاقتصاديين أهمية الرعاية الصحية وأنها من أفضل أنواع الاستثمار.

١٢- وتنظيم عمل المصارف والمؤسسات المالية الحكومية والخاصة تنظيما يحقق الأهداف المشروعة التى تنشأ من أجلها المصارف، وهى فى جملتها أهداف اجتماعية واقتصادية يحتاج إليها المجتمع، ويؤمن من خلالها احتياجاته فى مجالات التجارة والصناعة والزراعة، وكل عمل يحتاج إلى تمويل.

* ومن أهم الإصلاحات التى يجب أن توجه إلى المصارف والمؤسسات المالية، تجنب الربا؛ لما فى نظامه من استغلال حاجة المقترض، والضغط عليه وتناسى أنه إنسان محتاج له حقوق على المجتمع فى مقابل ما يقوم به من واجبات نحوه.

وبعد:

تلك هى بعض القيم الاقتصادية، التى تفهم من حديثنا عن النظام الاقتصادى الإسلامى وأسسه التى يقوم عليها، وأهدافه التى يعمل على تحقيقها، وهذه القيم التى ذكرنا نابعة كلها من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهى وغيرها من القيم التى ذكرنا فى الكتاب -وهى مئات- قادرة بكل تأكيد على التغلب على جميع المشكلات، وحلها حلاً عادلاً يحقق صالح الفرد والمجتمع فى الدنيا والآخرة، وهذا من فضل الله تعالى على الإنسانية أن أنزل خاتم كتبه على خاتم رسله وأنبيائه ﷺ، ليهدى بهما الإنسانية كلها إلى الطريق الأقوم، وقد قدمنا على ذلك من الأدلة فى هذا الكتاب، ما يجعلنا نؤكد أن الإسلام هو الحل، وأن التمسك بقيم الإسلام هى خطوات على الطريق.

خاتمة الكتاب

بعون من الله تعالى وتوفيق نختم هذا الكتاب - الذى خصصته للقيم الإسلامية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة- بحمد الله تعالى وشكره والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله وعلى آله وصحبه والعاملين بهديه .

وأسأل الله تعالى أن ينفع من يقرأ ويتدبر، فما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى معرفة هذه القيم الإسلامية، لتتمسك بها، فتنطلق فى هديها إلى الإصلاح والتجديد فى إطار الكتاب والسنة .

إنه سبحانه على ما يشاء قدير، ولله الحمد فى الأولى والآخرة .

على عبد الحليم محمود

القاهرة: فى السادس من شهر رجب الفرد ١٤٢٧هـ.

الموافق: ٣١ من شهر يوليو ٢٠٠٦م.

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولاً: فى الفكر الإسلامى وقضاياه:

١- الغزو الصليبى والعالم الإسلامى - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢- مع العقيدة والحركة والمنهج - دار الوفاء بمصر.

٣- المسجد وأثره فى المجتمع الإسلامى - دار المنار بالقاهرة.

٤- الغزو الفكرى وأثره فى المجتمع الإسلامى - دار المنار بالقاهرة.

٥- التراجع الحضارى فى العالم الإسلامى اليوم وطرق التغلب عليه - دار الوفاء بمصر.

٦- التعريف بسنة الرسول ﷺ أو علم الحديث دراية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٧- نحو منهج بحوث إسلامى - دار الوفاء بمصر.

٨- السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - دار عكاظ بالسعودية.

ثانيًا: فى التربية الإسلامية:

أ- سلسلة التربية فى القرآن الكريم:

٩- التربية الإسلامية فى سورة المائدة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٠- التربية الإسلامية فى سورة النور - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١١-التربية الإسلامية فى سورة آل عمران - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٢- التربية الإسلامية فى سورة الأنفال - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٣- التربية الإسلامية فى سورة الأحزاب - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٤- التربية الإسلامية فى سورة النساء - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٥- التربية الإسلامية فى سورة التوبة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

ب- سلسلة مفردات التربية الإسلامية:

١٦- التربية الروحية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٧- التربية الخلقية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٨- التربية العقلية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

١٩- التربية الدينية «الغائبة» - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٠- التربية السياسية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢١- التربية الاجتماعية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٢- التربية الاقتصادية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٣- التربية الجهادية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٤- التربية الجمالية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٥- التربية الجسدية الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

جـ- فى التربية الإسلامية المعاصرة:

٢٦- التربية الإسلامية فى البيت - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٧- التربية الإسلامية فى المدرسة -دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٨- التربية الإسلامية فى المجتمع - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٢٩- النفس فى الإسلام - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٠- وسائل التربية عند الإخوان المسلمين - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣١- منهج التربية عند الإخوان المسلمين - دار الوفاء بمصر.

ثالثًا: فى فقه الدعوة الإسلامية:

٣٢- فقه الدعوة إلى الله - دار الوفاء بمصر.

٣٣- فقه الدعوة الفردية - دار الوفاء بمصر.

٣٤- فقه الأخوة فى الإسلام - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٥- المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله - دار الوفاء بمصر.

٣٦- فقه المسئولية - دار الوفاء بمصر.

٣٧- عالمية الدعوة الإسلامية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٨- التوثيق والتضعيف عند المحدثين والدعاة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٣٩- القيم الإسلامية فى الكتاب والسنة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

رابعًا: سلسلة فى فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا:

٤٠- ركن الفهم - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤١- ركن الإخلاص - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٢- ركن العمل أو منهج الإسلام الإصلاحى - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٣- ركن الجهاد الذى لا تحيا الدعوة إلا به - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٤- ركن التضحية - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٥- ركن الطاعة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٦- ركن الثبات - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٧- ركن التجرد - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٨- ركن الأخوة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

٤٩- ركن الثقة - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

خامسًا: فى الأدب الإسلامى المعاصر:

٥٠- مصطفى صادق الرافعى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه - دار عكاظ بالسعودية.

٥١- جمال الدين الأفغانى والاتجاهات الإسلامية فى أدبه - دار عكاظ بالسعودية.

سادسًا: فى الدراسات الأدبية:

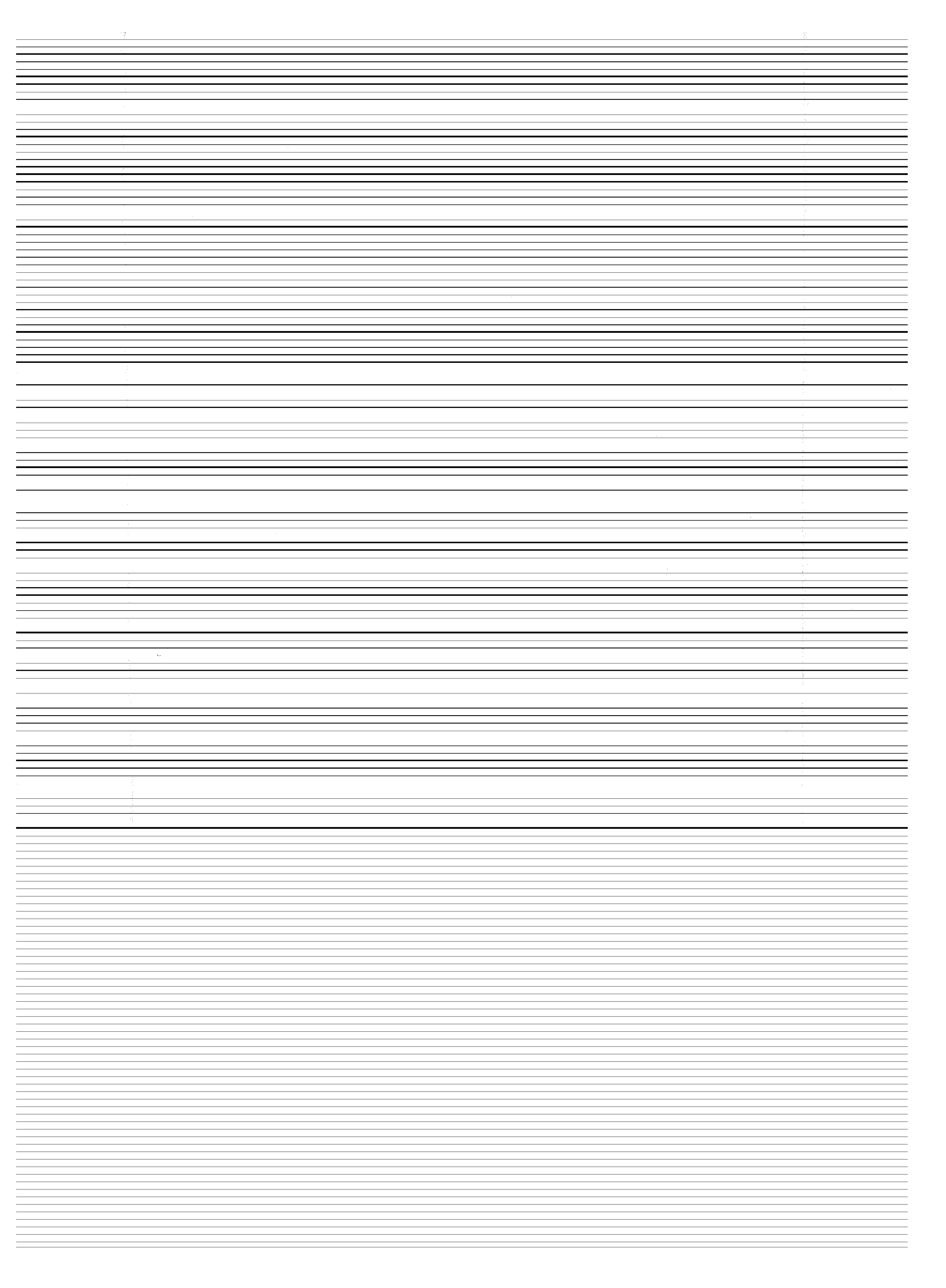
٥٢- القصة العربية فى العصر الجاهلى - دار المعارف بمصر.

٥٣- النصوص الأدبية، تحليلها ونقدها - دار عكاظ بالسعودية.

سابعًا: كتب معدة للنشر

١- تبويب موضوعى للسنة النبوية المطهرة.

٢- القصص فى السنة النبوية المطهرة.



الفهرس

الباب الثالث: القيم التى تتصل بالحياة الاجتماعية

